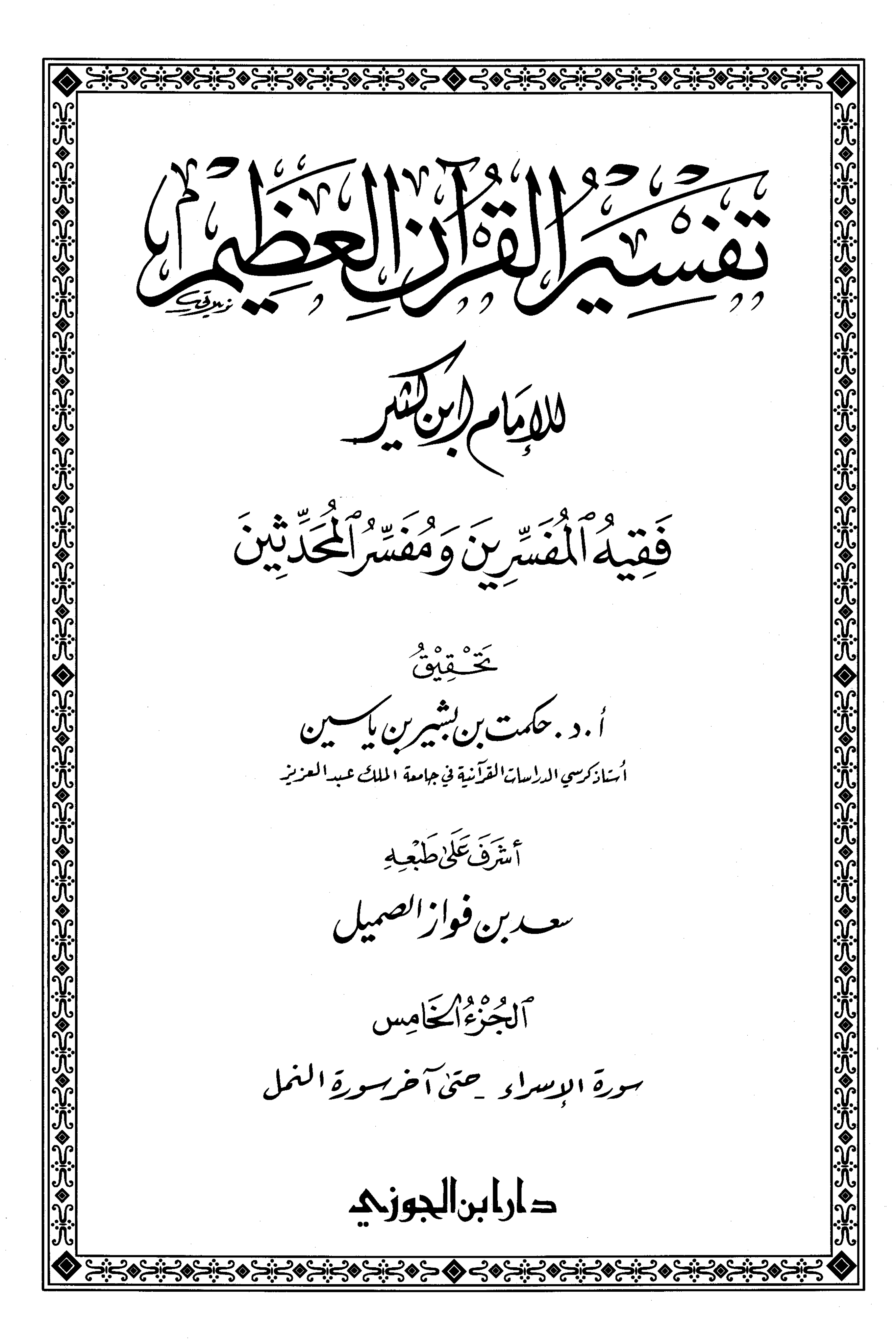


تفسير القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

فقيه المفسرين ومفسر المحدثين

تحقيق

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي الدراسات القرآنية في جامعة الملك عبد العزيز

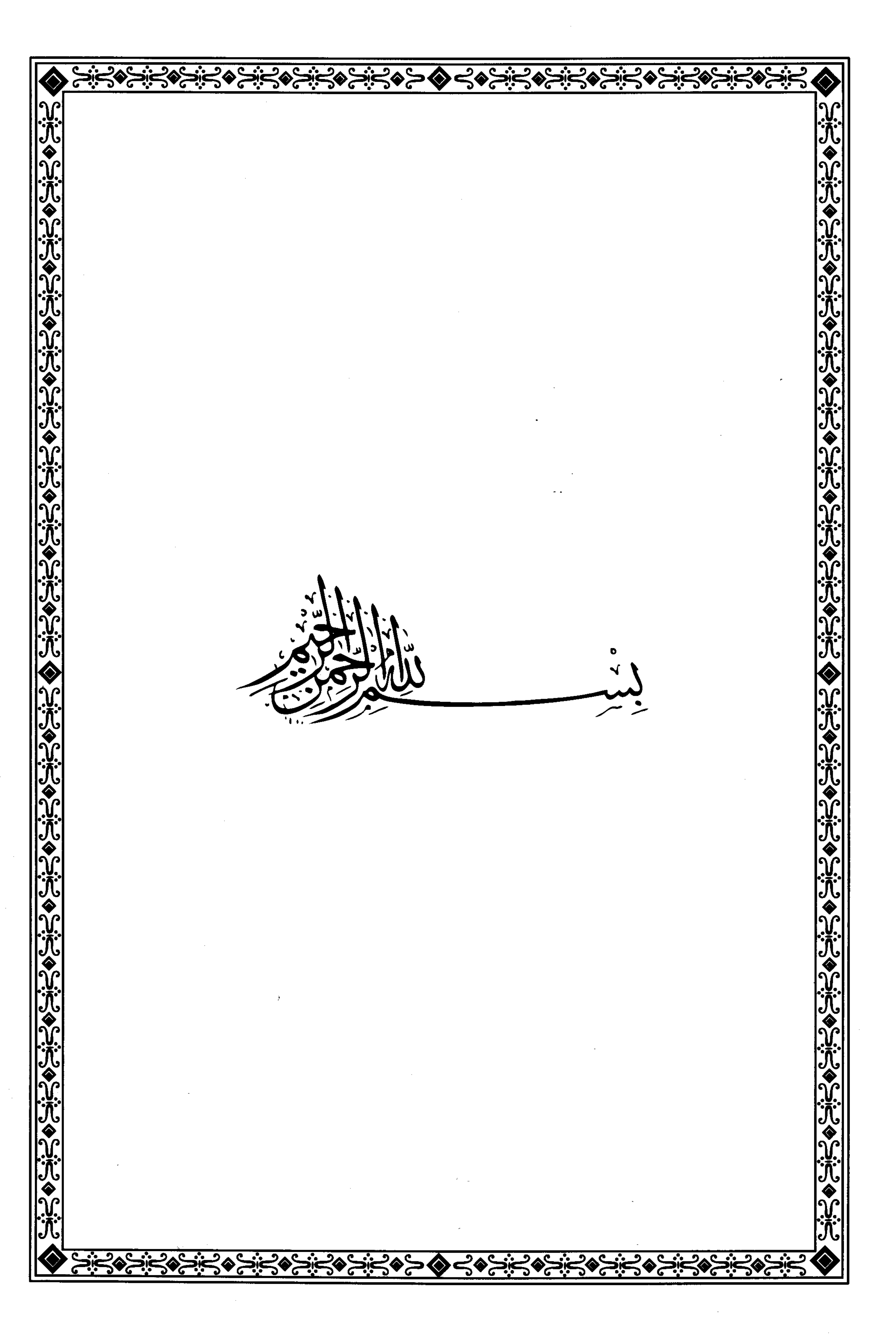
أشرف على طبعه

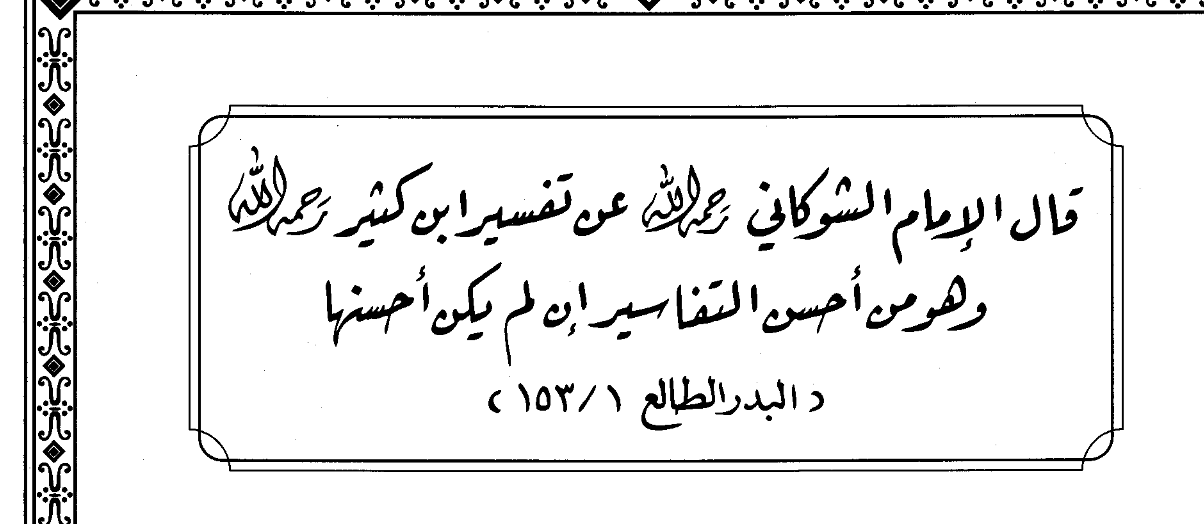
سعد بن فواز الصميل

الجزء الخامس

سورة الإسراء - حتى آخر سورة النمل

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

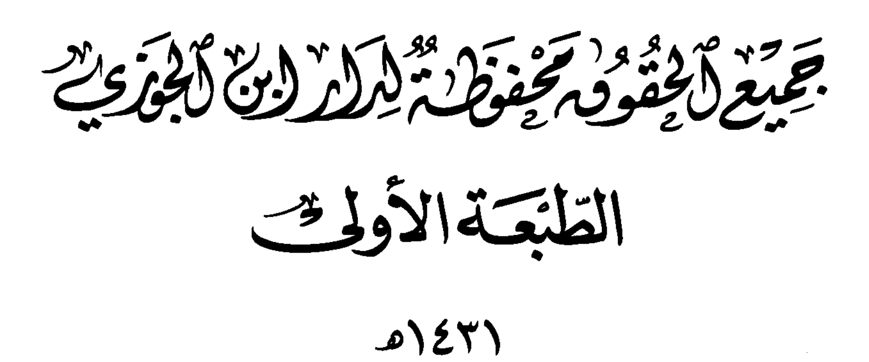


تفسير القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

فقيه المفسّرين ومفسّر المحدّثين

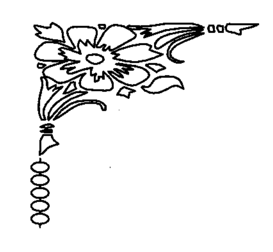
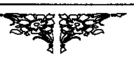
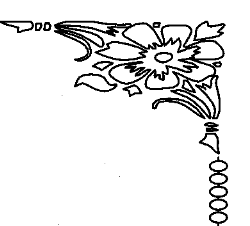
٥





دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - **الرياض** - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - **جدة** - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

تفسير سورة سبحان

وهي مكية

قال الإمام [الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل][(١)] البخاري: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمٰن بن يزيد، سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال - في «بني إسرائيل» و«الكهف» و«مريم» -: إنهن من العتاق[(٢)] الأُوَل، وهن من تلادي[(٣)(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان أبي لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني «إسرائيل» و«الزمر»[(٥)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أي: في جنح الليل ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء[(٦)] معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جُمعوا له هناك كلُّهم فأمَّهم في محلتهم ودارهم[(٧)]، فدلَّ على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمداً ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾

---

(١) زيادة من (حم) و(ح).

(٢) العتاق جمع عتيق وهو القديم، أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة.

(٣) أي مما حفظ قديماً، والتلاد قديم المِلْك، ومراد ابن مسعود رضي الله عنه: أنهن من أوائل ما تعلم من القرآن.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومتنه، (الصحيح، التفسير، سورة بني إسرائيل ح٤٧٠٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وصحح سنده محققوه دون قوله: وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر (المسند ٤٢/ ٣٥٩ ح٢٥٥٥٦)، وأخرجه الترمذي وقال: حسن غريب (السنن، فضائل القرآن، باب فضل سورة الإسراء والزمر ح٢٩٢٠)، وأخرجه الحاكم من طريق حماد بن زيد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٣٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٣٣٢)، وأخرجه النسائي في الكبرى من طريق حماد به وحسنه محققه د. فاروق حمادة (عمل اليوم والليلة ح٧١٢).

(٦) إيلياء أي: القدس وهي المدينة التي بها المسجد الأقصىٰ.

(٧) ستأتي الرواية مخرجة في تفسير هذه الآية.

أي: العظام. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم] وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلّاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء:

رواية أنس بن مالك رضي الله عنه:

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان ـ هو ابن بلال ـ عن شريك بن عبد الله قال[(١)]: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أُسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال: أوسطهم، هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم.

فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه ـ وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ـ فلم يكلموه حتى احتفلوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل فشقَّ جبريل ما بين نحره إلى لَبَّته[(٢)] حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور[(٣)] من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده ـ يعني عروق حلقه ـ ثم أطبقه[(٤)] ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، ووجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّم عليه وردَّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني نِعَم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات؛ عنصرهما.

ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك، ثم عَرَجَ إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، ثم عَرَجَ به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: وقد خالف فيه شريك أصحاب أنس في إسناده ومتنه، أما الإسناد فإن قتادة يجعله عن أنس عن مالك بن صعصعة، والزهري يجعله عن أنس عن أبي ذرٍّ، وثابت يجعله عن أنس من غير واسطة، لكن سياق ثابت لا مخالفة بينه وبين سياق قتادة والزهري. وسياق شريك يخالفهم في التقديم والتأخير والزيادة المنكرة (هدي الساري ص٣٨٣).

(٢) اللَّبة: موضع النحر.

(٣) أي: إناء.

(٤) فيه اختصار ذكر ركوب البُراق.

مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية[(١)]، وهارون في الرابعة[(٢)] وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة[(٣)] وموسى في السابعة[(٤)] بتفضيل كلام الله تعالى، فقال موسى: ربِّ لم أظن أن ترفع علي أحدٌ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ﷻ حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار ربُّ العزة فتدلى[(٥)]، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحي خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى، فقال وهو في مكانه: «يا ربِّ خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب إني أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد. قال: «لبيك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أُم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلت؟ فقال: «خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً. قال رسول الله ﷺ: «يا موسى قد والله استحييت من ربي ﷻ مما أختلف إليه» قال: فاهبط باسم الله.

قال: واستيقظ وهو في المسجد الحرام. هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد[(٦)]، ورواه في صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد عن سليمان بن بلال[(٧)]. ورواه مسلم عن هارون بن سعيد بن عن ابن وهب عن سليمان قال: فزاد ونقص وقدم وأخر[(٨)(٩)]، وهو كما قال مسلم فإن شريك بن عبد الله بن أبي

---

(١) الصحيح أنه رأى في السماء الثانية: عيسىٰ ويحيىٰ بن زكريا.

(٢) الصحيح أنه رأى في السماء الرابعة: إدريس. (٣) الصحيح أنه رأى في السماء السادسة: موسىٰ.

(٤) الصحيح أنه رأى في السماء السابعة: إبراهيم.

(٥) هذه الزيادة تفرد بها شريك وهي منكرة مخالفة لجميع روايات الصحيحين.

(٦) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التوحيد، باب ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] ح٧٥١٧).

(٧) الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب صفة النبي ﷺ (ح٣٥٧٠).

(٨) الصحيح، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (ح١٦٢).

(٩) قال الحافظ أبو الفضل بن طاهر في كتابه «الانتصار لأيامي الأمصار» عن ابن حزم قال: لم نجد للبخاري =

نمر اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه كما سيأتي بيانه إن شاء الله في الأحاديث الأخر[١]، ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي في حديث شريك زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله ﷻ يعني قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ الجبار رب العزة ﴿فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم]. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل عليه السلام أصح[٢].

وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذرٍّ قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه» وفي رواية: «رأيت نوراً» أخرجه مسلم رحمه الله[٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم] إنما هو جبريل عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه[٤]، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبت فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن قال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحَّب ودعا لي بالخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد ﷺ. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحَّب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه ففتح الباب فإذا أنا

= ومسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا حديثين، ثم غلبه في تخريجه الوهم مع اتقانهما وصحة معرفتهما، فذكر هذا الحديث.. ثم بين العذر في ذلك فقال: فوهم الثقة في موضع من الحديث لا يسقط جميع الحديث، لا سيما إذا كان الوهم لا يستلزم ارتكاب محذور. (فتح الباري ١٣/ ٤٨٥).

(١) تتبع الحافظ ابن حجر أوهام شريك في هذا الحديث (ينظر: فتح الباري ١٣/ ٤٨٤ - ٤٨٦).

(٢) دلائل النبوة ٢/ ٣٨٥.

(٣) صحيح مسلم، الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «نور أنىٰ أراه...» (ح١٧٨).

(٤) حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري (الصحيح، بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم «آمين»... ح٣٢٣٥)، ومسلم (الصحيح، الإيمان، باب معنىٰ قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم] ح١٧٧) وحديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه البخاري (الصحيح، التفسير، باب ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] ح٥٨٥٦)، ومسلم (الصحيح، الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهىٰ ح١٧٤).

بإدريس فرحَّب ودعا لي بخير، ثم قال: يقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم]، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيَّرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها.

قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليَّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، فإن أُمتك لا تطيق ذلك وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: أي ربِّ خفِّف عن أمتي فحطَّ عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حطَّ عني خمساً. فقال: إن أُمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحطّ عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت»[(١)]. ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق[(٢)]، وهو أصح من سياق شريك.

قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسري به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أُتي بالبراق ليلة أسري به مسرَّجاً ملجَّماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه؟ قال: فارفضَّ[(٤)] عرقاً[(٥)]، ورواه الترمذي عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣/١٤٨، ١٤٩) وسنده صحيح. قال القاضي عياض: وحديث اتفق وأجود (الشفا ١/ ١٨٠).

(٢) صحيح مسلم، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (ح١٦٢).

(٣) دلائل النبوة ٢/ ٣٨٥.

(٤) أي: سال عرقاً.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٠/ ١٠٧ ح١٢٦٧٢) وصحح سنده محققوه. وأخرجه عبد الرزاق به.

إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه[(١)].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعيد وعبد الرحمٰن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلى ربي ﷻ مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[(٢)]. وأخرجه أبو داود من حديث صفوان بن عمرو به، ومن وجه آخر ليس فيه أنس[(٣)]، فالله أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التيمي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره»[(٤)].

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني، كلاهما عن أنس[(٥)]. قال النسائي: هذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا وهب بن بقيَّة، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ليلة أسري به، مرَّ على موسى وهو يصلي في قبره[(٦)].

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر بموسى وهو يصلي في قبره، قال أنس ذكر أنه حمل على البراق فأوثق الدابة أو قال الفرس. قال أبو بكر: صفها لي، فقال رسول الله ﷺ: «هي كذه وذه» فقال: أشهد أنك رسول الله. وكان أبو بكر رضي الله عنه قد رآها[(٧)].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار في مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفيّ فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَيِ الطير، فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر، فَسَمَتْ وارتفعت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمسَّ السماء لمسست، فالتفتُّ إلى جبريل كأنه حلس لاط[(٨)] فعرفت فضل علمه بالله عليَّ، وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف

---

(١) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل (ح٣١٣٠)، وصححه سنده الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٥٠٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢١/ ٥٣ ح١٣٣٤٠) وصحح سنده محققوه.

(٣) سنن أبي داود ـ الأدب ـ باب الغيبة (ح٤٨٧٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٠٨٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٢٤) وسنده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، الفضائل، باب فضائل موسى عليه السلام (ح٢٣٧٥).

(٦) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه، وصحح سنده محققه (المسند ٧/ ١١٧ ح٤٠٦٧).

(٧) أخرجه أبو يعلى بسنده بنحوه وصحح سنده محققه (المسند ٧/ ١٢٦ ح٤٠٨٤) وبهذا السند أخرجه ابن حبان (الإحسان ح٥٠).

(٨) أي: كساء لاصق على الجسم.

الدر والياقوت، وأوحي إلي ما شاء الله أن يوحى». ثم قال: ولا نعلم روى هذا الحديث إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة[١].

ورواه الحافظ البيهقي في الدلائل عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دحيم، عن محمد بن الحسين بن أبي الحسين، عن سعيد بن منصور؛ فذكره بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره في هذا الحديث في آخره: ولط دوني، أو قال: دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، ثم قال: هكذا رواه الحارث بن عبيد[٢]، ورواه حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطارد، أن النبي ﷺ كان في ملأٍ من أصحابه، فجاءه جبريل فنكت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكري الطير، فقعد في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لنلتها، فدُلِّي بسبب، وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حلس، فعرفت فضل خشيته على خشيتي، فأوحي إلي: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجنة ما أنت؟ فأومأ إليّ جبريل وهو مضطجع أن تواضع. قال: قلت: لا بل نبياً عبداً[٣].

قلت: وهذا إن صح يقتضي أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس ولا الصعود إلى السماء فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم.

وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس أن محمداً ﷺ رأى ربه ﷻ[٤]، وهذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمٰن الزهري، عن أبيه، عن عبد الرحمٰن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله إن ركبك مثله[٥]، وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد، قال: فسار ما شاء الله أن يسير؛ فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق فقال: هلمَّ يا محمد، فقال له جبريل: سر يا محمد فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقيه خلق من خلق الله فقالوا: السلام عليك (يا أول)، السلام عليك (يا آخر)، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد فردَّ السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٥٨) وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١/ ٨٠) ولكن الحارث بن عبيد له مناكير، وهذا الحديث منها؛ هكذا قرر الحافظ ابن حجر (مختصر زوائد البزار ١/ ٩٥).

(٢) دلائل النبوة ٢/ ٣٦٩، وفي سنده أيضاً الحارث بن عبيد.

(٣) دلائل النبوة ٢/ ٣٦٩ وقد جزم البخاري وابن أبي حاتم وابن حبان والعسكري بأنه مرسل (ينظر لسان الميزان ٥/ ٣٣٠).

(٤) سنده ضعيف ومتنه غريب مخالف لما في الصحيحين كما تقدم، وفيه أبو بحر وهو عبد الرحمن بن عثمان بن أمية البكراوي ضعيف (التقريب ص٣٤٦).

(٥) إن هنا نافية فيكون المعنىٰ: ما ركبك مثله.

الأولى ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبقَ من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلَّموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام[(١)]. وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن وهب[(٢)]. وفي بعض ألفاظه نكارة وغرابة.

(طريق أخرى): عن أنس بن مالك، وفيها غرابة ونكارة جداً وفي سنن النسائي والمجتبى ولم أرها في الكبير قال: حدثنا عمرو بن هشام، حدثنا مخلد هو: ابن الحسين، عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعي جبريل عليه السلام فسرت فقال: انزل فصلِّ، فصليت. فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصلِّ، فصليت. فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطور سيناء حيث كلَّم الله موسى، ثم قال: انزل فصلِّ، فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام، فقدمني جبريل عليه السلام حتى أممتهم ثم صعد بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام[(٣)]، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام[(٤)].

ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام، ثم صعد بي فوق سبع سمٰوات وأتيت سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً فقيل لي: إني يوم خلقت السمٰوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأُمتك فرجعت إلا إبراهيم فلم يسألني عن شيء ثم أتيت موسى عليه السلام، فقال: كم فرض ربك على أُمتك قلت: خمسين صلاة، قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها لا أنت ولا أُمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فرجعت إلى ربي فخفف عني عشراً، ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع فرجعت فخفف عني عشراً، ثم رُدّت إلى خمس صلوات، قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما، فرجعت إلى ربي عز وجل فسألته التخفيف، فقال: إني يوم خلقت السمٰوات والأرض فرضت عليك وعلى أُمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين فقم بها أنت وأُمتك، قال: فعرفت أنها من الله عز وجل صرّي[(٥)] فرجعت

---

(١) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وأخرجه الضياء المقدسي من طريق يونس به (المختارة ٦/٢٥٨) وفيه غرابة كما قال الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه البيهقي من طريق ابن وهب به (دلائل النبوة ٢/٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٣) الصحيح فيها إدريس.

(٤) الصحيح فيها هارون.

(٥) أي: عزيمة باقية لا تقبل النسخ.

إلى موسى عليه السلام فقال: ارجع، فعرفت أنها من الله عز وجل صرّى - يقول أي حتم - فلم أرجع»[١].

(طريق أخرى): وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها ينتهي خفها حيث ينتهي طرفها، فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد ﷺ أتى إلى الحجر الذي ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها ثم صعد فلما استويا في صرحة المسجد[٢] قال جبريل: يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ فقال: «نعم، فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهنَّ وهن جلوس عن يسار الصخرة، قال: «فأتيتهن فسلمت عليهنَّ فرددن علي السلام فقلت: من أنتنَّ؟ فقلن: نحن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا. وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا. قال: ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذَّن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال: فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد أتدري من صلى خلفك؟ قال: قلت: لا. قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل.

قال: ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال نعم، قال: ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، قال: فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لي جبريل: يا محمد ألا تسلم على أبيك آدم؟ قال: قلت: بلى، فأتيته فسلمت عليه فردَّ عليَّ وقال: مرحباً بابني الصالح والنبي الصالح، قال: ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فاستفتح فقالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام، قال: ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح قالوا: من أنت؟ قال: جبريل، فقالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: ففتحوا له، وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إدريس عليه السلام، قال: فعرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقالوا: من أنت؟ قال: جبريل؟ قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، وإذا فيها هارون عليه السلام.

ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقالوا: من أنت؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: ففتحوا، وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، وإذا فيها موسى عليه السلام، ثم عرج بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقالوا: من أنت؟

---

(١) أخرجه النسائي بسنده ومتنه (السنن، الصلاة، باب فرض الصلاة ١/ ٢٢١) وفي سنده يزيد بن أبي مالك وهو الدمشقي القاضي صدوق ربما وهم (التقريب ص٦٠٣). ولعل الغرابة والنكارة بسببه.

(٢) أي: ساحة المسجد.

قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، ففتحوا له، وقالوا: مرحباً بك وبمن معك وإذا فيها إبراهيم ﷺ فقال جبريل: يا محمد ألا تسلم على أبيك إبراهيم؟ قلت: بلى، فأتيته فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام وقال: مرحباً بابني الصالح والنبي الصالح، ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طير أخضر أنعم طير رأيت، فقلت: يا جبريل إن هذا الطير لناعم. قال: يا محمد آكله أنعم منه، ثم قال: يا محمد أتدري أي نهر هذا؟ قال: قلت: لا، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله إياه، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض[١] من الياقوت والزمرد ماؤه أشد بياضاً من اللبن ـ قال ـ: فأخذت من آنيته آنية من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك.

ثم انطلق بي حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتني سحابة فيها من كل لون فرفضني[٢] جبريل وخررت ساجداً لله ﷻ فقال الله لي: يا محمد إني يوم خلقت السمٰوات والأرض افترضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأُمتك، قال: ثم انجلت عني السحابة فأخذ بيدي جبريل فانصرفت سريعاً، فأتيت على إبراهيم فلم يقل شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: فرض ربي عليَّ وعلى أُمتي خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أُمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك، فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتني السحابة ورفضني جبريل وخررت ساجداً وقلت: ربي إنك فرضت عليَّ وعلى أُمتي خمسين صلاة ولن أستطيعها أنا ولا أُمتي فخفِّف عنا، قال: وضعت عنكم عشراً، قال: ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل، قال: فانصرفت سريعاً حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال لي: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: وضع عني ربي عشراً. قال: فأربعون صلاة لن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم. فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات وخمس بخمسين، ثم أمره موسى أن يرجع فيسأله التخفيف فقال: «إني استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما لي لم آت أهل سماء إلا رحبوا بي وضحكوا لي غير رجل واحد فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام ورحَّب بي ولم يضحك لي» قال: يا محمد ذاك مالك، خازن جهنم، لم يضحك منذ خلق ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك، قال: ثم ركب منصرفاً فبينا هو في بعض الطريق مرَّ بعير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ورجع في ليلته، فقال أبو بكر ؓ: إن كان قاله فقد صدق وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا لنصدقه على خبر السماء. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: مررت بعير لقريش هي في مكان كذا وكذا فنفرت

---

(١) أي: الحصىٰ الصغار.

(٢) أي: تركني.

الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر، فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق وسألوه وقالوا: هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى؟ قال: نعم، قالوا: فصفهم لنا قال: «أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزد عمان، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان[١]»[٢] هذا سياق فيه غرائب عجيبة.

رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال قتادة في الحجر ـ مضطجعاً إذ أتاني آتٍ، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فقدّ ـ سمعت قتادة يقول: فشق ـ ما بين هذه إلى هذه» وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وقد سمعته يقول: من قصته إلى شعرته قال: «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشي ثم أُعيد ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» ـ قال: فقال الجارود[٣]: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه ـ قال: «فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم فقيل: مرحباً به ولنعم المجيء عليه ـ قال ـ: فتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهما ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلِّم عليهما، قال: فسلمت عليهما فردَّا السلام ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء ـ قال ـ: قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا يوسف عليه السلام قال: هذا يوسف، قال: فسلمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس، فسلم عليه قال فسلمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي

---

(١) أي: اللؤلؤ.

(٢) في سنده يزيد بن أبي مالك تقدم ذكره في الرواية السابقة، وكذلك فيه هشام بن عمار: صدوق كبر فصار يتلقن (التقريب ص٥٧٣)، ولعل هذه الغرائب من يزيد وهشام.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: لم أر من نسبه من الرواه، ولعلهُ: ابن أبي سبرة صاحب أنس فقد أخرج له أبو داود من رواية أنس حديثاً غيره (فتح الباري ٧/ ٢٠٤).

الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصت فإذا هارون ﷺ قال: هذا هارون فسلِّم عليه فسلمت عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصت فإذا بموسى ﷺ قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلما تجاوزته بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصت فإذا إبراهيم ﷺ فقال: هذا إبراهيم فسلِّم عليه فسلمت عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى، قال: وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، قال: ثم رفع إلى البيت المعمور».

قال قتادة: وحدثني الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، قال: فأخذت اللبن قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك، قال: ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، قال: فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال: فقلت خمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً، قال: فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك ـ قال ـ: فرجعت فوضع عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أُمرت؟ فقلت: أُمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أُمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، قال: فرجعت فوضع عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أُمرت؟ فقلت: أُمرتُ بعشرين صلاة كل يوم، قال: إن أُمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، قال: فرجعت فوضع عشراً عني أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أُمرت؟ فقلت: أُمرت بعشر صلوات كل يوم، قال: إن أُمتك لا تستطيع عشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما

أُمرت قال: أمرتُ بخمس صلوات كل يوم قال: إن أُمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، قال: قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، فنفذت فنادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»[١] وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه[٢].

رواية أنس عن أبي ذرٍّ:

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذرٍّ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أُرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قاله الأول، ففتح» قال أنس: فذكر أنه وجد في السمٰوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السادسة، قال أنس: فلما مرَّ جبريل والنبي ﷺ بإدريس، قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس، ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم.

قال الزهري: فأخبرني ابن حزم[٣] أنّ ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أُمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أُمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده وطوله وصحح سنده محققوه (المسند ٢٩/ ٣٧٤، ٣٧٩ ح١٧٨٣٥).

(٢) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (ح٣٢٠٧)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (ح١٦٤).

(٣) قال الحافظ ابن حجر: هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وروايته عن أبي حبة منقطعة (فتح الباري ١/ ٤٦٢) ولا يضر ذلك لأنه رواه أيضاً عن ابن عباس مقروناً بأبي حبة.

فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أُمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أُمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها من المسك» . وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة[١]، ورواه في ذكر بني إسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان منه عن حرملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه[٢] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذرٍّ: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته، فقال: «قد رأيته نوراً أنّى أراه» هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد[٣]، وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذرٍّ قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[٤] . وعن محمد بن بشار، عن معاذ بن هشام: حدثنا أبي عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذرٍّ: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذرٍّ: قد سألت فقال: «رأيت نوراً»[٥] .

رواية أنس عن أُبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه:

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد المُسيّبي، حدثنا أنس بن عياض، حدثنا يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أُبيّ بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جاء السماء الدنيا، فافتتح فقال: من هذا؟ قال: جبريل قال: هل معك أحد قال: نعم، معي محمد قال أرسل إليه؟ قال: نعم فافتتح. فلما علونا السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل يمينه هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى - قال -: ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا، ففتح له» قال أنس: فذكر أنه وجد في السمٰوات آدم وإدريس وموسى

---

(١) الصحيح، الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (ح٣٤٩).
(٢) صحيح مسلم، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (ح١٦٣).
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٤٨/٥) وسنده صحيح.
(٤) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (الصحيح، الإيمان، باب قوله ﷺ: «نور أنىٰ أراه. . .» ح١٧٨/ ٢٩١).
(٥) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (المصدر السابق ح١٧٨/ ٢٩٢).

وإبراهيم وعيسى، ولم يثبت لي كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم ﷺ في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل ﷺ ورسول الله ﷺ بإدريس قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قال: «قلت من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس - قال -: ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم - قال -: ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم».

قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام».

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أُمتي خمسين صلاة، قال: فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أُمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة فقال لي موسى: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أُمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك فقلت: قد استحييت من ربي، قال: ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى، قال: فغشيها ألوان ما أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[(١)] هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس عن الزهري، عن أنس عن أبي ذر مثل هذا السياق سواء[(٢)]، فالله أعلم.

رواية بريدة بن الحصيب الأسلمي:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمٰن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم واللفظ له، قالا: حدثنا [أبو تُميلة][(٣)]، حدثنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي - قال -: فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس - قال -: فوضع أصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق». ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو تُميلة، ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة، وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي به، وقال: غريب[(٤)].

رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسند وطوله (المسند ٣٥/ ٢١١، ٢١٣ ح٢١٢٨٨)، وصحح سنده محققوه.

(٢) تقدم تخريجه قبل الرواية السابقة.

(٣) كذا في (حم) و(ح)، وفي الأصل: «نميلة».

(٤) أخرجه الترمذي بسند البزار عن يعقوب بن إبراهيم به ثم قال: حسن غريب. (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل ح٣١٣٢)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي تميلة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦٠)، وصححه الألباني.

سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحِجر فجلَّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[١]. أخرجاه في الصحيحين من طرق عن حديث الزهري به[٢].

وقال البيهقي: حدثنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وأنه أتي بقدحين: قدح من لبن وقدح من خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت هديت للفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه، وقال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن: فتجهز ـ أو كلمة نحوها ـ ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فبها سمي أبو بكر الصديق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[٣].

رواية حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زرٍّ بن حبيش قال: أتيت على حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهو يحدث عن ليلة أسري بمحمد ﷺ، وهو يقول: فانطلقا حتى أتيا بيت المقدس فلم يدخلاه، قال: قلت: بل دخله رسول الله ﷺ ليلتئذ وصلى فيه، قال: ما اسمك يا أصلع؟ فأنا أعرف وجهك، ولا أدري ما اسمك، قال: قلت أنا زرُّ بن حبيش، قال: فما علمك بأن رسول الله ﷺ صلَّى فيه ليلتئذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرني بذلك، قال: فمن تكلم بالقرآن فلج[٤] اقرأ، قال: فقلت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ قال: يا أصلع، هل تجد صلى فيه؟ قلت: لا. قال: والله ما صلى فيه رسول الله ليلتئذ، لو صلى فيه لكتبت عليكم صلاة فيه كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق، والله ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما، قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه. قال: ويحدثونه أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٣٧٧) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، سورة بني إسرائيل، باب ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] (ح٤٧١٠)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (ح١٧٠).

(٣) أخرجه البيهقي بسنده ومتنه (دلائل النبوة ٢/ ٣٥٩، ٣٦٠)، وشطره الأول مرسل، والحديث كله له شواهد في الصحيحين بعضها تقدم وبعضها سيأتي.

(٤) أي: غلب.

الغيب والشهادة، قلت: يا عبد الله، أي دابة البراق؟ قال: دابة أبيض طويل، هكذا خطوه مد البصر(١). ورواه أبو داود الطيالسي عن حماد بن سلمة، عن عاصم به(٢). ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث عاصم وهو ابن أبي النجود به. وقال الترمذي: حسن صحيح(٣).

وهذا الذي قاله حذيفة ﷺ نفي وما أثبته غيره عن رسول الله ﷺ من ربط الدابة بالحلقة، ومن الصلاة ببيت المقدس مما سبق وما سيأتي مقدم على قوله، والله أعلم بالصواب.

رواية أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة: حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو محمد راشد الحماني، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال له أصحابه: يا رسول الله، أخبرنا عن ليلة أسري بك فيها. قال: قال الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ قال: فأخبرهم، قال: «فبينما أنا نائم عشاء في المسجد الحرام إذ أتاني آتٍ فأيقظني، فاستيقظت فلم أر شيئاً، فإذا أنا بكهيئة خيال فأتبعته بصري حتى خرجت من المسجد الحرام، فإذا أنا بدابة أدنى شبهاً بدوابكم هذه، بغالكم هذه، غير أنه مضطرب الأذنين يقال له: البراق، وكانت الأنبياء تركبه قبلي، يقع حافره عند مد بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داعٍ من يميني: يا محمد انظرني أسألك، يا محمد انظرني أسألك، يا محمد انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داعٍ عن يساري: يا محمد انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها.

ثم أتاني جبريل ﷺ بإنائين: أحدهما خمر والآخر لبن، فشربت اللبن وأبيت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أُمتك، فقلت: الله أكبر الله أكبر، فقال جبريل: ما أريت في وجهك هذا؟ قال: فقلت: بينما أنا أسير إذا دعاني داعٍ عن يميني: يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه، قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبته أو وقفت عليه لتهودت أمتك، قال: فبينما أنا أسير إذ دعاني داعٍ عن يساري قال: يا محمد انظرني أسألك فلم ألتفت ولم أقم عليه، قال: ذاك داعي النصارى أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك، قال: فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها الله تقول: يا محمد انظرني أسألك فلم أجبها ولم أقم عليها، قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو قمت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٨/ ٣٢١، ٣٢٢ ح٢٣٢٨٥).

(٢) المسند (ح٤١١).

(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل (ح٣١٤٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح. والسنن الكبرىٰ، التفسير، باب سورة الإسراء (ح١١٢٨٠).

قال: ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين، ثم أتيت المعراج الذي كانت تعرج عليه أرواح بني آدم فلم ير الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عُجْبُهُ بالمعراج، قال: فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك، قال: قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] قال: فاستفتح جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال جبريل: قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَقد بعث إليه؟ قال: نعم، فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله ﷻ على صورته، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين، فيقول: روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار، فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين، فمضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة[1] عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام، قال: ثم مضيت هنيهة، فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر فيقول: اللهم لا تقم الساعة. قال: وهم على سابلة آل فرعون، قال: فتجيء السابلة فتطؤهم، قال: فسمعتهم يضجون إلى الله، قال: قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال: ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، قال: فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يضجُّون إلى الله ﷻ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] قال: ثم مضيت هنيهة، فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن، فسمعتهنَّ يضججنَّ إلى الله ﷻ، قلت: يا جبريل من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أُمتك. قال: ثم مضيت هنيهة، فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون.

قال: ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله ﷻ قد فضل الناس في الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه فرد عليّ.

ثم صعدنا إلى السماء الثالثة، واستفتح فإذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلما عليّ، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكاناً علياً، فسلمت عليه فسلم عليّ.

قال: ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها، قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا المحبب في قومه، هذا هارون بن عمران ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ.

---

(١) أي: مائدة يؤكل عليها.

ثم صعدت إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران رجل آدم، كثير الشعر، لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص، فإذا هو يقول: يزعم الناس أني أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله مني. قال: قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ.

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمٰن، سانداً ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه فسلم عليّ. وإذا أنا بأمتي شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمد قال: فدخلت البيت المعمور، ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب السود وهم على خير، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معي.

قال: والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد تغطي هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: سلسبيل فينشق منها نهران: (أحدهما): الكوثر، (والآخر): يقال له: نهر الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر.

قال: إني رفعت إلى الجنة فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة، وإذا بأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كالدلاء[1] عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختكم هذه، فقال عندها ﷺ: «إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، قال: ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم أغلقت دوني.

ثم إني رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشاني فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى. قال: وينزل على كل ورقة منها ملك من الملائكة، قال: وفرضت علي خمسون صلاة، وقال: لك بكل حسنة عشر، فإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشراً، وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء، فإن عملتها كُتبت عليك سيئة واحدة.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ فقلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، فإن أُمتك لا تطيق ذلك، ومتى لا تطيقه تكفر، فرجعت إلى ربي فقلت: يا ربِّ خفف عن أُمتي، فإنها أضعف الأُمم، فوضع عني عشراً وجعلها أربعين، فما زلت أختلف بين موسى وربي كلما أتيت عليه قال لي مثل مقالته، حتى رجعت إليه، فقال لي: بمَ أُمرت؟ فقلت: أُمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك، فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أُمتي فإنها أضعف الأمم فوضع عني خمساً وجعلها خمساً فناداني ملك عندها تممت فريضتي وخففت عن عبادي وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بمَ أُمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فإنه لا

---

(١) جمع دلو.

يؤوده شيء، فاسأله التخفيف لأُمتك، فقلت: رجعت إلى ربي حتى استحييت. ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: إني أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء، ورأيت كذا وكذا، فقال أبو جهل ـ يعني: ابن هشام ـ: ألا تعجبون مما قال محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهراً ومقفلة شهراً، فهذه مسيرة شهرين في ليلة واحدة، قال: فأخبرتهم بعير لقريش لما كنت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت وجدتها عند العقبة، وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا، فقال أبو جهل: يخبرنا بأشياء، فقال رجل منهم: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه وهيئته، وكيف قربه من الجبل، فإن يك محمد صادقاً فسأخبركم وإن يك كاذباً فسأخبركم، فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس فأخبرني: كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ قال: فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته، قال: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا، فقال الآخر: صدقت، فرجع إليهم فقال: صدق محمد فيما قال أو نحواً من هذا الكلام[١].

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبي هارون العبدي، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدي به. ورواه أيضاً من حديث محمد ابن إسحاق حدثني روح بن القاسم عن أبي هارون به نحو سياقه المتقدم[٢]، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أحمد بن عبدة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، فذكره بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره على غرابته وما فيه من النكارة[٣]. ثم ذكره البيهقي أيضاً من رواية نوح بن قيس الحداني وهشيم ومعمر، عن أبي هارون العبدي[٤] واسمه عمارة بن جوين وهو مضعف عند الأئمة.

وإنما سقنا حديثه ههنا لما فيه من الشواهد لغيره، ولما رواه البيهقي: أخبرنا الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمٰن، أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حكيم قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أُمتك يقال له: سفيان الثوري لا بأس به. فقال رسول الله: «لا بأس به» حدثنا عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري عنك يا رسول الله ليلة أسري بك، قلت: رأيت في السماء، فحدثته بالحديث فقال لي: «نعم» فقلت له: يا رسول الله إن ناساً من أُمتك يحدثون عنك في المسرىٰ بعجائب؟ قال لي: «ذلك حديث القصاص»[٥].

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن

---

(١) أخرجه البيهقي بسنده بنحوه (دلائل النبوة ٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩٣)، وسنده ضعيف جداً لأن أبا هارون العبدي وهو عمارة بن جوين متروك (التقريب ص٤٠٨).

(٢) أخرجه الطبري وفي هذه الأسانيد أيضاً عمارة بن جوين.

(٣) سنده كسابقه.

(٤) دلائل النبوة ٢/ ٣٩٦.

(٥) دلائل النبوة ٢/ ٤٠٥، وفي سنده أيضاً أبو هارون عمارة بن جوين وهو متروك.

الضحاك الزبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي، حدثنا الوليد بن عبد الرحمٰن، عن جبير بن نفير، حدثنا شداد بن أوس قال: قلنا: يا رسول الله كيف أسري بك؟ قال: «صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً فأتاني جبريل ﷺ بدابة أبيض أو قال: بيضاء فوق الحمار ودون البغل فقال: اركب فاستصعب عليّ فرازها[١] بأذنها ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل، فأنزلني فقال: صلِّ فصليت ثم ركبت، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بيثرب صليت بطيبة.

فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها ثم بلغنا أرضاً قال: انزل، ثم قال: صلِّ. فصليت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بمدين عند شجرة موسى، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور فقال: انزل، فنزلت فقال: صلِّ. فصليت ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم.

ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فأتى قِبلةَ المسجد، فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأُتيت بإنائين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إلي بهما جميعاً، فعدلت بينهما ثم هداني الله ﷺ فأخذت اللبن فشربت حتى قرعت به جبيني[٢] وبين يدي شيخ متكئ على مثواة له فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى.

ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي قلت: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: وجدتها مثل الحمة[٣] السخنة، ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر ﷺ فقال: يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في مظانك؟ فقال: علمت أني أتيت من بيت المقدس الليلة، فقال: يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته به، فقال أبو بكر أشهد أنك لرسول الله، وقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، قال: فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا وكذا وقد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغراراتان سوداوان.

فلما كان ذلك اليوم قد أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ. هكذا رواه البيهقي من طريقين عن أبي إسماعيل الترمذي به[٤]

---

(١) أي: اختبرها.
(٢) أي: شرب جميع ما فيه.
(٣) أي: عين ماء حار.
(٤) دلائل النبوة ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧، وصحح سنده البيهقي ولا يخلو من الغرائب كالصلاة في طيبة ومدين وبيت =

ثم قال بعد تمامه: هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً من أحاديث غيره ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث.

وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو عبد الرحمٰن بن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي به، ولا شك أن هذا الحديث أعني الحديث المروي عن شداد بن أوس مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكر كالصلاة في بيت لحم. وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك، والله أعلم.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسري برسول الله ﷺ، دخل الجنة فسمع في جانبها وخشاً فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال المؤذن، فقال النبي ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا» قال: فلقيه موسى عليه السلام، فرحب به قال: مرحباً بالنبي الأُمي، قال: وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى، قال فمضى فلقيه عيسى فرحب به وقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عيسى قال: فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه، وكلهم يسلم عليه، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم ـ قال ـ: ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة ـ قال ـ: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى، قام يصلي فإذا النبيون أجمعون يصلون معه، فلما انصرف جيء بقدحين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: أصبت الفطرة[1]، إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

(طريق أخرى): قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثني عكرمة، عن ابن عباس قال: أُسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيرة وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال الناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدُّوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا[2]، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام وعيسى وموسى وإبراهيم، وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيته فيلمانياً[3] أقمر[4] هجاناً[5]، إحدى عينيه قائمة كأنها

= لحم، وهذا الحديث ذكره الهيثمي وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير... وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيىٰ بن معين وضعفه النسائي (مجمع الزوائد ١/٧٨، ٧٩). وقال الحافظ ابن حجر: صدوق كثيراً وأطلق محمد بن عوف أنه يكذب (التقريب ص٩٩) وغالباً ما تكون هذه الغرائب من أوهامه.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/٢٥٧) وسنده حسن، وصحح سنده الحافظ ابن كثير، والحافظ السيوطي (الخصائص الكبرىٰ ١/١٥٩).

(٢) أي: كلوا.

(٣) أي: عظيم الجثة.

(٤) أي: شديد البياض.

(٥) أي: الأبيض.

كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس حديد البصر، ومبطن الخلق، ورأيت موسى عليه السلام أسحم[١] آدم، كثير الشعر، شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى أرب[٢] منه إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم، قال جبريل: سلم على مالك، فسلمت عليه»[٣]. ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال، وهو ابن خباب به[٤]، وهو إسناد صحيح.

(**طريق أخرى**): قال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس»، وأرى مالكاً خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢] قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل[٥]، رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان، وأخرجاه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً[٦].

(**طريق أخرى**): وقال البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا دُبيس المعدل، حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط المشط من يدها فقالت: باسم الله، فقالت بنت فرعون: أبي؟ قالت: ربي وربك ورب أبيك، قالت: أوَلك رب غير أبي؟ قالت: نعم ربي وربك ورب أبيك الله.. قال: فدعاها، فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله عز وجل. قال: فأمر ببقرة من نحاس، فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها، قالت: إن لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع، قال: ذاك لك لما لك علينا من الحق، قال: فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه قعي ولا تقاعسي، فإنك على الحق، قال: وتكلم أربعة في المهد وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم عليه السلام»[٧]. إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

---

(١) أي: أسمر. (٢) أي: عضو.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وصحح سنده محققوه (المسند ٥/ ٤٧٦، ٤٧٧ ح٣٥٤٦).

(٤) السنن الكبرى، التفسير، سورة الإسراء (ح١١٢٨٣) وصحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٥) أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٢/ ٣٨٦) وسنده صحيح.

(٦) صحيح مسلم، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات (ح١٦٥/ ٢٦٧).

(٧) أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٢/ ٣٨٩)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق حماد بن سلمة به (المسند ٥/ ٣٠، ٣١ ح٢٨٢١) وحسن سنده محققوه. ولكن ذكر شاهد يوسف فيه غرابة لأنه لم يذكر أنه كان في المهد. وقال الحافظ ابن كثير: إسناد لا بأس به.

(**طريق أخرى**): قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وروح، المعنى قالا: حدثنا عوف عن زرارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي، فأصبحت بمكة فظعت وعرفت أن الناس مكذبي» فقعد معتزلاً حزيناً، فمرَّ به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وما هو؟ قال: «إني أُسري بي الليلة»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم»، قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة» فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعته وأنا أنظر إليه قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه - يقول عوف - قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه»[(١)].

وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة وهو الأعرابي به، ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة عن عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي أحد الأئمة الثقات[(٢)].

رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السري بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن الزبير بن عدي، عن طلحة بن مصرف، عن مرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ فانتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحمات يعني: الكبائر[(٣)].

ورواه مسلم في صحيحه عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن نمير به[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه، وصحيح سنده محققوه (المسند ٥/٢٨، ٢٩ ح٢٨١٩).
ونسبه الهيثمي إلى أحمد وغيره ثم قال: ورجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١/٦٥).

(٢) السنن الكبرىٰ للنسائي، التفسير، باب سورة الإسراء (ح١١٢٨٥ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٦٣).
وحسنه الحافظ ابن حجر ونسبه إلى البزار (فتح الباري ٧/١٩٩)، وصححه السيوطي (الخصائص الكبرى ١/١٦٠).

(٣) أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٢/٣٧٢).

(٤) صحيح مسلم، الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهىٰ (ح١٧٣).

ثم قال البيهقي: وهذا الذي ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج، وقد رواه أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ، ثم عن أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلاً من دون ذكرهما[١]، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدم[٢]، قلت: وقد روي عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه الحسن ابن عرفة في جزئه المشهور: حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد الله النهمي، حدثنا أبو ظبيان الجنبي قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة بن عبد الله يعني ابن مسعود، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسري بمحمد ﷺ، فقال أبو عبيدة: لا بل حدثنا أنت عن أبيك، فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت، قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملني عليه ثم انطلق يهوي بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم كأنه من رجال أزد شنوءة، فيرفع صوته يقول: أكرمته وفضلته، قال: فدفعنا[٣] إليه فسلمنا عليه فردَّ السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمد، قال: مرحباً بالنبي الأمي العربي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، قال: ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران. قال: قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك، قلت: ويرفع صوته على ربه؟ قال: إن الله قد عرف له حدته. قال: ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السرج[٤]، تحتها شيخ وعياله، قال: فقال لي جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم، فدفعنا إليه فسلما عليه فردَّ السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك أحمد، قال: فقال: مرحباً بالنبي الأُمي الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، يا بني إنك لاقٍ ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل.

قال: ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة في الحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها، ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، قال: ثم أُتيت بكأسين من عسل ولبن، فأخذت اللبن فشربت، فضرب جبريل عليه السلام منكبي وقال: أصبت الفطرة ورب محمد، قال: «ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا»[٥] إسناد غريب، ولم يخرجوه، فيه من الغرائب سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه، والمشهور في الصحاح كما تقدم أن جبريل كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة، وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السمٰوات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه. وصلى بهم فيه، ثم أنه ركب البراق وكرَّ راجعاً إلى مكة، والله أعلم.

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٣٧٣.

(٢) تقدم تخريج الأحاديث الثلاثة في الروايات السابقة. (٣) أي: ذهبنا إليه.

(٤) جمع: سراج.

(٥) سنده ضعيف للانقطاع فإن أبا عبيدة لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه. وفيه غرائب كما ذكر الحافظ ابن كثير.

(**طريق أخرى**): قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن [مؤثر بن عَفازة][١] عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة، قال: فردُّوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لي بها، فردُّوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردُّوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلي ربي أن الدجال خارج، قال: ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تَجوي الأرض من نتن ريحهم، أي تنتن، قال: فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليَّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً»[٢].

وأخرجه ابن ماجه عن بُندار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب.

رواية عبد الرحمٰن بن قرط أخي عبد الله بن قرط الثمالي:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثني عروة بن رويم، عن عبد الرحمٰن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من بين زمزم والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السمٰوات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحاً في السمٰوات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السمٰوات العلى من ذي المهابة مشفقات من ذي العلو بما علا سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى[٣]. ونذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثني أبو سنان عن عبيد بن آدم، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ،

---

(١) كذا في المسند وترجمته، وفي الأصل صحف إلى: «مرثد بن عنارة»، وفي (حم): «مرثد بن جنادة».

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٨٧.

(٣) أخرجه أبو نعيم من طريق سعيد بن منصور به (حلية الأولياء ٢/ ٧، ٨ وعوالي سعيد بن منصور ح٤ ص٣٤) وفي سنده مسكين بن ميمون قال الذهبي: لا أعرفه وخبره منكر (ميزان الاعتدال ٤/ ١٠١). وقد ذكره ابن حبان في الثقات ٧/ ٥٠٥، وابن شاهين من الثقات ص٢٢٩، وقال الفسوي: لا بأس به، (التاريخ ٢/ ٤٦٢)، ووثقه ابن معين (التاريخ ٤/ ٤٧١)، ولكن المتن تفرد به ولم يتابع عليه، من أجل ذلك فإن قول الإمام الذهبي معتمد معتبر.

فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس، فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم، ولكن منَّ الله عليه بالإسلام فهدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك، قال له أمير المؤمنين عمر: ضاهيت اليهودية ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه[١].

وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»[٢].

رواية أبي هريرة وهي مطولة جداً وفيها غرابة:

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»: حدثنا علي بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحي، عن أبي هريرة أو غيره، شك أبو جعفر، في قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل لميكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم كيما أطهر له قلبه وأشرح له صدره، قال: فشقَّ عن بطنه فغسله ثلاث مرات، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طِساس[٣] من ماء زمزم، فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غلّ، وملأه علماً وحلماً وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة، ثم أتاه بفرس فحمله عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره، قال: فسار وسار معه جبريل ﷺ، قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع[٤] والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال: «فما هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئاً، وما الله بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من اللحم النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل من أُمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه وضعف سنده محققوه لضعف أبي سنان وهو عيسى بن سنان الحنفي، (المسند ١/ ٣٧٠ ح٢٦١).

(٢) صحيح مسلم، الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة إليه (ح٩٧٢).

(٣) جمع طست وهو إناء.

(٤) الضريع: نبت له شوك كبار.

قال: ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته، قال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا مثل أقوام أُمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا الرجل من أُمتك يكون عليه أمانات للناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم؛ مقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردَّها.

ثم أتى على وادٍ، فوجد ريحاً طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتاً، فقال: يا جبريل «ما هذه الريح الطيبة الباردة، وما هذا المسك، وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة تقول: يا ربِّ ائتني بما وعدتني فقد كثرت غرفي وإستبرقي، وحريري وسندسي، وعبقري[1] ولؤلؤي، ومرجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي، وعسلي ومائي ولبني وخمري، فائتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليَّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون تبارك الله أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت.

قال: ثم أتى على وادٍ فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً خبيثة، فقال: «ما هذا يا جبريل وما هذا الصوت؟» فقال: هذا صوت جهنم تقول: يا ربِّ ائتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي، وأغلالي وسعيري، وحميمي، وضريعي وغساقي وعذابي، وقد بعد قعري واشتد حري، فائتني بما وعدتني، قال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: قد رضيت.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ، قالوا: أوَقد أرسل إليه فقال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أُمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار وجعلها عليَّ برداً وسلاماً، ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أُمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون، ثم إن

---

(١) العبقري الديباج، وقيل: البُسط المزركشة.

داود عليه السلام أثنى على ربه، فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن والطير، وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه، فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب[1] وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي طيباً ليس فيه حساب.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل، فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثلي كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني، وأعاذني وأُمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

قال: ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه عز وجل، فقال: «كلكم أثنى على ربه، وإني مثنٍ على ربي، فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ الفرقان فيه بيان كل شيء وجعل أُمتي خير أُمة أخرجت للناس، وجعل أُمتي أُمة وسطاً، وجعل أُمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً» فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم. قال أبو جعفر الرازي: خاتم: بالنبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتي بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأُتي بإناء منها فيه ماء، فقيل له: اشرب، فشرب منه يسيراً، ثم دُفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روي، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب، فقال: لا أريده قد رويت، فقال له جبريل: أما إنها ستحرم على أُمتك ولو شربت منها لم يتبعك من أُمتك إلا القليل.

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريل؟ فقال: محمد، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء، ففتح لهما، فدخل فإذا برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء، كما ينقص من خلق الناس، عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله بكى وحزن، فقلت: يا جبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شيء، وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل الجنة من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته بكى وحزن.

---

(١) أي: الحياض الكبار.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول الله، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو بشابين، فقال: يا جبريل من هذان الشابان؟ قال: هذا عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا الخالة عليهما السلام.

قال: فصعد به إلى السماء الثالثة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: من هذا يا جبريل الذي قد فضل على الناس في الحسن؟ قال: هذا أخوك يوسف عليه السلام.

قال: ثم صعد به إلى السماء الرابعة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس عليه السلام رفعه الله مكاناً علياً.

قال: فصعد به إلى السماء الخامسة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: بمن هذا يا جبريل، ومن هؤلاء حوله؟ قال: هذا هارون المحبب، وهؤلاء بنو إسرائيل.

قال: ثم صعد به إلى السماء السادسة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل جالس فجاوزه فبكى الرجل، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: موسى، قال: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله عز وجل، وهذا رجل من بني آدم قد خلفني في دنيا وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال ولكن مع كل نبي أُمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة، فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد، فقالوا: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، قال: فدخل، فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي، وعنده قوم جلوس، بيض الوجوه أمثال القراطيس[(١)]، وقوم في ألوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء. ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم، جاؤوا فجلسوا إلى

(١) يشبه بالقرطاس في بياضه.

أصحابهم، فقال: يا جبريل من هذا الأشمط[(١)]؟، ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء؟ وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاؤوا وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم، أول من شُمط على وجه الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه، فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأُمة كلها، قال: فغشيها نور الخلاق ﷻ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة، من حب الرب تبارك وتعالى، قالوا: فكلمه الله عند ذلك فقال له: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً وأعطيت داود ملكاً عظيماً وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل، فقال له الرب ﷻ: وقد اتخذتك خليلاً ـ وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمٰن ـ وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أُمتك خير أُمة أخرجت للناس، وجعلت أُمتك أُمة وسطاً، وجعلت أُمتك هم الأولين وهم الآخرين وجعلت أُمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أُمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً خاتماً، فقال النبي ﷺ: «فضلني ربي بست: أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه، وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبل، وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجداً»، قال: وفرض عليه خمسين صلاة.

فلما رجع إلى موسى قال: بمَ أُمرت يا محمد؟ قال: بخمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه ﷻ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً ثم رجع إلى موسى فقال له: بكم أُمرت؟ قال: بأربعين قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك أضعف الأُمم، ولقد لقيت من بني

---

(١) الأشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض.

إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى، فقال: بكم أُمرت؟ قال: أُمرت بثلاثين، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك أضعف الأُمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، فرجع النبي ﷺ إلى ربه ﷻ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً فرجع إلى موسى فقال له: بكم أُمرت؟ قال: بعشرين، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك أضعف الأُمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه ﷻ فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً فرجع إلى موسى عليه السلام، فقال له: بكم أُمرت؟ قال: بعشر، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك أضعف الأُمم، فقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: فرجع النبي ﷺ إلى ربه ﷻ فسأله التخفيف، فوضع عنه خمساً، فرجع إلى موسى عليه السلام، فقال له: بكم أُمرت؟ قال: بخمس، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك أضعف الأُمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شدة، قال: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت، فما أنا براجع إليه، قيل: أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها، قال: فرضي محمد ﷺ كل الرضا، قال: وكان موسى عليه السلام من أشدهم عليه حين مرّ به وخيرهم له حين رجع إليه.

ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبيد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره، شك أبو جعفر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه[(١)].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي عن أبي سعيد الماليني، عن ابن عدي، عن محمد بن الحسن السكوني البالسي بالرملة، حدثنا علي بن سهل فذكر مثل ما رواه ابن جرير عنه، وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيري، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان يعني أبا جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره، شك عيسى، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه[(٣)].

قلت: وأبو جعفر الرازي قال: فيه الحافظ أبو زرعة الرازي: يهم في الحديث كثيراً، وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والظاهر أنه سيء الحفظ، ففيما تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب في

(١) أخرجه الطبري بسنديه وطوله، وسنده ضعيف لسوء حفظ أبي جعفر الرازي كما سيأتي فيما نقله الحافظ ابن كثير عن جمع من النقاد، وهذه الرواية ليست من الصحيفة المشهورة التي يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب. لأن فيها شك أبي جعفر، وكذلك فيها أبو هريرة رضي الله عنه وهو لم يذكر في الصحيفة بل يذكر أُبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) دلائل النبوة ٢/٣٩٦، ٣٩٧، وسنده كسابقه. (٣) سنده ضعيف كسابقه فيه أبو جعفر الرازي أيضاً.

المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، والله أعلم.

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حين أسري بي، لقيت موسى عليه السلام فنعته، فإذا رجل حسبته قال: مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى، فنعته النبي ﷺ قال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني: حمام، قال: ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت خمراً غوت أمتك»[١] وأخرجاه من وجه آخر عن الزهري به نحوه.

وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع، عن حجين بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبدأني بالسلام»[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق، قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء آكلوا الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السمٰوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب». ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد[٣] به.

رواية جماعة من الصحابة ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقي: حدثنا أبو عبد الله يعني الحاكم، حدثنا عبدان بن زيد بن يعقوب الدقاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى

---

(١) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ...﴾ [مريم: ١٦] (ح٣٤٣٧)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (ح١٦٨).

(٢) صحيح مسلم، الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (ح١٧٢).

(٣) تقدم تخريجه وضعفه.

الفزاري، حدثنا عمر بن سعد النضري من بني نصر بن معين، حدثني عبد العزيز وليث بن أبي سليم، وسليمان الأعمش وعطاء بن السائب، بعضهم يزيد في الحديث على بعض، عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس ومحمد بن إسحاق بن يسار عمن حدثه عن ابن عباس، وعن سليم بن مسلم العقيلي، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن مسعود. وجويبر عن الضحاك بن مزاحم، قالوا: كان رسول الله ﷺ في بيت أُم هانئ راقداً وقد صلى العشاء الآخرة[١]، قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ، وذكر الحديث، فكتبت المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية.

قال البيهقي: فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدي في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق[٢].

قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثني إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثني محمد بن كثير الصنعاني، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: لما أسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك فارتدَّ ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق[٣].

رواية أم هانئ بنت أبي طالب:

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذان، عن أُم هانئ بنت أبي طالب في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا برسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: «يا أُم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٤٠٤ وهذه الطرق يشد بعضها بعضاً، قال الحافظ ابن حجر: والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هاني، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعاً وبه أثر النعاس، ثم أخرجه المَلَك إلى باب المسجد فأركبه البراق (فتح الباري ٧/ ٢٠٤).

(٢) دلائل النبوة ٢/ ٤٠٤، وتقدم ضعف رواية أبي هارون العبدي.

(٣) دلائل النبوة ٢/ ٣٦٠، ٣٦١، وأخرجه الحاكم عن مكرم بن أحمد القاضي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٦٢، ٦٣).

كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين»[١]. الكلبي متروك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى في مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري عن ضمرة بن ربيعة، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، عن أبي صالح، عن أُم هانئ بأبسط من هذا السياق، فليكتب ههنا[٢].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور عن عكرمة، عن أُم هانئ قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أسري به في بيتي، ففقدته من الليل، فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول الله ﷺ: «إن جبريل عليه السلام أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملني عليها ثم انطلق حتى أتى بي إلى بيت المقدس، فأراني إبراهيم عليه السلام يشبه خلقه خلقي ويشبه خلقي خلقه، وأراني موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة، وأراني عيسى ابن مريم ربعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفي، وأراني الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بقطن بن عبد العزى ـ قال ـ: وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت» فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك الله إنك تأتي قومك يكذبوك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك، قالت: فضرب ثوبه من يدي ثم خرج إليهم، فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم ما أخبرني، فقام جبير بن مطعم فقال: يا محمد أن لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجل من القوم: يا محمد هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: «نعم والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيراً لهم فهم في طلبه» قال: هل مررت بإبل فلان؟ قال: نعم «وجدتهم في مكان كذا وكذا وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها» قالوا: فأخبرنا عدتها، من الرعاة؟ قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً» فنام فأوتي بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة.

ثم أتى قريشاً فقال لهم: «سألتموني عن إبل بني فلان فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي تصبحكم بالغداة على الثنية» قال: فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال، فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضلَّ لكم بعير؟ فقالوا: نعم، فسألوا الآخر، هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم، قالوا: فهل كانت عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد ولا أهرقوه في الأرض، فصدقه أبو بكر وآمن به، فسمي يومئذٍ الصديق[٣].

---

(١) ذكره ابن هشام (السيرة ٢/ ٤٢٧)، وأخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به وسنده ضعيف جداً بسبب الكلبي.

(٢) أخرجه أبو يعلى مطولاً، (معجم الشيوخ ح١٠) وسنده ضعيف أيضاً لضعف أبي صالح وهو باذام أو باذان (ينظر تهذيب التهذيب ١/ ٤١٦).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٤٣٢، وسنده ضعيف جداً لأن عبد الأعلى بن أبي مساور متروك (مجمع الزوائد ١/ ٨٠).

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة[١]، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يتحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أُسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد، لأخبر النبي ﷺ به أُمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار[٢].

قال موسى بن عقبة الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً[٣]، والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السمٰوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السمٰوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذٍ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق،

---

(١) ونقل الحافظ ابن حجر أنه وقع مرتين: مرة في المنام توطئة وتمهيداً، ومرة ثانية في اليقظة (فتح الباري ٧/ ١٩٧).

(٢) وقد استبعد الحافظ ابن حجر وقوع التعدد (فتح الباري ٧/ ١٩٨).

(٣) ذكر هذه الأقوال البيهقي (دلائل النبوة ٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل ﷺ له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله ﷻ أعلم، وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا، لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه ﷺ وروحه، أو بروحه فقط؟ على قولين:

فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعد يقظة، لأنه كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري[١]، وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم][٢] والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أُسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبي سفيان، كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة[٣].

وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسري بروحه[٣].

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ولقول الله في الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] قال: ثم مضى على ذلك، فعرفت أن الوحي يأتي

---

(١) أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباس في صحيحه، التفسير، سورة الإسراء، باب ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] (ح٤٧١٦).

(٢) ذكره ابن هشام (السيرة ١/ ٤٠٠)، وأخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لأن يعقوب بن عتبة لم يدرك معاوية ﷺ.

(٣) ذكره ابن هشام (السيرة ١/ ٤٠٠)، وأخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف للانقطاع بين ابن إسحاق وعائشة ولم يصرح باسم شيخه.

للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً، فكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عيناي وقلبي يقظان»[١] والله أعلم، أي ذلك كان قد جاءه وعاين من الله فيه ما عاين على أي حالاته كان نائماً أو يقظاناً، كل ذاك حق وصدق[٢]، انتهى كلام ابن إسحاق.

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على ردِّه بعض ما تقدم[٣]، والله أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمرو بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر، فذكر وروده عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى مَن بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره وتصغره عنده. قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليَّ ولا يصدقني في شيء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النِجاف[٤] والبنيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليها، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط دابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا، وذكر تمام الحديث[٥].

فائدة:

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذرٍّ ومالك بن صعصعة وأبي هريرة

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث عائشة ﵂ (صحيح البخاري، التهجد، باب قيام النبي ﷺ في رمضان وغيره ح١١٤٧، وصحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ ح٧٣٨).

(٢) ذكره ابن هشام (السيرة ١/ ٤٠٠)، وأخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به.

(٣) ردَّه الطبري ردّاً علمياً بالنقل والعقل وباللغة.

(٤) النجاف أسكفة الباب.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ونسبه أبي نعيم في الدلائل، وسنده مرسل.

وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأُبي بن كعب وعبد الرحمٰن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبُريدة، وأبي أيوب وأبي أُمامة وسمرة بن جُندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأُم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي: هادياً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحاً ﷺ كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً.

قال الطبراني: حدثني علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حصين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أُسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بُردة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»[(٢)]. وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أُسامة به[(٣)].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال.

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٦/ ٢٢ ح٥٤٢٠)، وأخرجه الحاكم من طريق سفيان به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦٠)، وأخرجه البخاري من طريق أبي نعيم به (التاريخ الكبير ٤/ ٥٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١١٧) وسنده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (ح٢٧٣٤)، وسنن الترمذي، الأطعمة، باب ما جاء في الحمد على الطعام (ح١٨١٦)، والسنن الكبرى للنسائي، الدعاء بعد الأكل، باب ثواب الحمد (ح٦٨٩٩).

وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ـ بطوله، وفيه ـ فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك»[١] وذكر الحديث بكامله.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر] أي: تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: قوة وعدة وسلطنة شديدة، ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟

فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولاً ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾[٢].

وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده[٣].

وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل[٤].

وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال إلى أنه ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل[٥].

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة بني إسرائيل، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ...﴾ [الإسراء: ٣] (ح٤٧١٢).

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، ويتقوىٰ بقول قتادة فقد أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي المعلىٰ، وهو يحيىٰ بن ميمون الضبي العطار، عن سعيد بن جبير.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور بطوله ونسبه إلى ابن أبي حاتم.

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً[(١)]، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رَحِمَهُ اللهُ بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع ومن وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قصَّ الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبره الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلَّط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم، ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن.

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم[(٢)].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم، ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتْبِيرًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه.

قال ابن عباس: حصيراً أي: سجناً[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري ثم أردفه بطريق آخر فيه رجل مجهول.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصححه الحافظ ابن كثير، لكنه مرسل ويتقوى بما أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال مجاهد: يحصرون فيها[١]، وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فرشاً ومهاداً[٢].

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على مقتضاه، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها»[٤]. وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده، جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع، وقال: يا ربِّ [عجل][٥] قبل الليل[٦].

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة يونس آية ١١.

(٥) كذا في تفسير الطبري ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٠.

(٦) قول سلمان الفارسي رضي الله عنه أخرجه الطبري وابن أبي شيبة بسند رجاله ثقات لكنه من طريق إبراهيم النخعي عن سلمان، وإبراهيم لم يسمع من سلمان، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الضحاك عنه، والضحاك لم يلق ابن عباس.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجُمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك، ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠] وقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥] وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي: علامة يعرف بها، وهي: الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهي: النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥ ـ ٦] كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩].

قال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليلة وسدف[١] النهار[٢].

وقال ابن جريج، عن مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى[٣].

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل،

---

(١) أي: ضوء النهار.

(٢) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود فيه مقال ولكن يتقوىٰ برواية الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وهو لم يسمع من مجاهد.

والشمس آية النهار، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ السواد الذي في القمر[١].

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة أن ابن الكواء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ القرآن؟ فقال: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فهذه محوه[٢].

وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم[٣].

وقال ابن أبي نجيح، عن ابن عباس ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله ﷻ[٤].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما[٥] يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه[٦]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق] وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار] وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طائر كل إنسان في عنقه» قال ابن لهيعة: يعني الطيرة[٧]، وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث غريب جداً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً أو بشماله إن كان شقياً، منشوراً، أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري من طرق متعددة جيد كما قال الحافظ ابن كثير، وهو كما قال.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٤) سنده ضعيف لأن ابن أبي نجيح لم يسمع من ابن عباس ويتقوى بما سبق.
(٥) كذا في الأصل: و(ح)، وفي (حم): «وما».
(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسندين ضعيفين عنه، ويتقوى بما يليه فقد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.
(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لسوء حفظ ابن لهيعة (المسند ٢٣/١٦١ ح١٤٨٧٨).

فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة] ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ أي: إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي.

وقوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر[(١)]:

اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة[(٢)]

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة، وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» كذا رواه ابن جرير[(٣)]، وقد رواه الإمام عبد بن حميد في مسنده متصلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طير كل عبد في عنقه»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثني يزيد أن أبا الخير حدثه أنه سمع عقبة بن عامر ﷺ، يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»[(٥)] إسناده جيد قوي، ولم يخرجوه.

وقال معمر، عن قتادة: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: عمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكِّل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا متَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، اقرأ كتابك الآية، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك[(٦)]، هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله.

---

(١) هو الصحابي الجليل أحمد بن جحش ذكره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٠).

(٢) قوله: «طوقتها طوق الحمامة» مقتبس من الحديث الشريف: «من غصب شبراً من أرض طوقه يوم القيامة سبع أرضين» وفيه موعظة ابن جحش لأبي سفيان (ينظر الروض الأنف ٢/ ١٤).

(٣) أخرجه الطبري من طريق قتادة به وقال الشيخ الألباني: ورجاله ثقات رجال الشيخين، لكن قتادة لم يسمع من جابر، وروايته عنه صحيفة قال الإمام أحمد: قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها. (السلسلة الصحيحة ح١٩٠٧)، وحسنه السيوطي في الدر المنثور.

(٤) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومتنه (المنتخب ح١٠٥٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٤٦)، وأخرجه الحاكم من طريق يزيد بن أبي حبيب وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣٠٨)، ورواية ابن لهيعة من طريق عبد الله بن المبارك وروايته قبل احتراق كتب ابن لهيعة ولهذا قال الحافظ ابن كثير: إسنادهُ جيد قوي.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة والحسن.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ [فاطر: ١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحمل عنهم شيئاً، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك] وكذا قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت مقحمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

حدثنا عبد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول هل من مزيد؟ ثلاثاً» وذكر تمام الحديث[(١)]، فهذا إنما جاء في الجنة، لأنها دار فضل، وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة، وقالوا: لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجاه في الصحيحين، واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همّام، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحاجت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض. ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري، التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (ح٧٤٤٩).

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب وتقول هل من مزيد (ح٤٨٥٠)، وصحيح مسلم، الجنة، باب النار يدخلها الجبارون. . . (ح٢٨٤٦).

بقي [ههنا][(١)] مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار: ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

(فالحديث الأول): عن الأسود بن سريع. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»[(٢)].

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة مثله، غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»[(٣)]، وكذا رواه إسحاق بن راهويه عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد من حديث حنبل بن إسحاق عن علي بن عبد الله المديني به، وقال: هذا إسناد صحيح[(٤)]، وكذا رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يدلي على الله بحجة» فذكر نحوه[(٥)]، ورواه ابن جرير من حديث معمر، عن همام، عن أبي هريرة، فذكره موقوفاً، ثم قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٦)]. وكذا رواه معمر، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة موقوفاً.

(الحديث الثاني): عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها، فيكونوا من أهل النار، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها، فيكونوا من ملوك أهل الجنة، هم من خدم

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «هنا».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٢٤)، وصححه البيهقي كما نقل الحافظ ابن كثير في آخر التخريج لهذا الحديث، وقال البيهقي أنه المذهب الصحيح (الاعتقاد ص١٦٩) وذكر الهيثمي أن رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٢١٦)، وقال الحافظ ابن حجر: وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة (فتح الباري ٣/ ٢٤٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٤٣٤) وله شاهد في تفسير ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة، وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه ثابت السند (درء تعارض العقل ٨/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٤/ ٢٤).

(٤) الاعتقاد ص١٦٩.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم من طريق حماد بن سلمة به (السنة ح٤٠٤).

(٦) أخرجه الطبري من طريق محمد بن ثور عن معمر به وسنده صحيح.

أهل الجنة»[١].

(الحديث الثالث): عن أنس أيضاً.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن ليث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهرم كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى: لعنق من النار أبرز، ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم ادخلوا هذه، قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أنى ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً، فقال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار»[٢]. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد بإسناده مثله[٣].

(الحديث الرابع): عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله يعني: ابن داود، عن عمر بن ذرٍّ، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال: «هم مع آبائهم» وسئل عن أولاد المشركين، فقال: «هم مع آبائهم» فقيل: يا رسول الله ما يعملون؟ قال: «الله أعلم بهم»[٤]. ورواه عمر بن ذرٍّ، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره[٥].

(الحديث الخامس): عن ثوبان.

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان أن النبي ﷺ عظم شأن المسألة قال: «إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلين يحملون أوزارهم على ظهورهم، فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لِمَ ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا

---

(١) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ح٢١١١) وفي سنده يزيد بن أبان وهو الرقاشي: ضعيف (التقريب ص٥٩٩) وصححه الألباني بالشواهد (السلسلة الصحيحة ح١٤٦٨) ولكن تلك الشواهد فيها ضعف أيضاً، وذكره الهيثمي من طريقين فيهما ضعف (مجمع الزوائد ٧/ ٢١٩).

(٢) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ٧/ ٢٥، ح٤٢٢٤) وفي سنده ليث وهو ابن أبي سُليم وعبد الوارث هو مولى أنس، وكلاهما فيهما مقال، ويشهد له الحديث الأول.

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢١٧٧) وسنده كسابقه.

(٤) ذكره الحافظ ابن كثير في جامع المسانيد ٣٧/ ٨٧ ونسبه إلى مسند أبي يعلى، وسنده ضعيف لأن يزيد بن أمية مجهول (التقريب ص٥٩٩).

• وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الله بن أبي قيس مولى عُطيف عن عائشة رضي الله عنها بنحوه، وصححه محققوه بالشواهد (المسند ٤١/ ٩٥، ٩٦ ح٢٤٥٤٥)، ويشهد له ما أخرجه الشيخان من حديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الجهاد، باب أهل الدار يبيتون... ح٣٠١٢)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب جواز قتل النساء... من غير تعمد (ح١٤٧٥).

(٥) وسنده ضعيف كسابقه.

لك أمر؟ ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم، فيقولون: ربنا أخرجنا أو أجرنا منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم، فيقول: اعمدوا إليها فادخلوها، فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا وقالوا: ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوها داخرين» فقال نبي الله ﷺ: «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد[١].

قلت: وقد ذكره ابن حيان في ثقاته، وقال يحيى بن معين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود، وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به.

(الحديث السادس): عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري[٢]. قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك في الفترة والمعتوه والمولود، يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب، ويقول المعتوه: ربِّ لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولود: ربِّ لم أدرك العقل، فترفع لهم نار، فيقال لهم: ردُّوها، قال: فيردُّها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان في علم الله شقياً لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيتم، فكيف لو [أن][٣] رسلي أتتكم؟!»[٤] وكذا رواه البزار عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي، عن عبيد الله بن موسى، عن فضيل بن مرزوق به، ثم قال: لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه عن عطية عنه، وقال في آخره: «فيقول الله إياي عصيتم، فكيف برسلي بالغيب؟»[٥].

(الحديث السابع): عن معاذ بن جبل رضي الله عنه:

قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصوري: حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن نبي الله ﷺ قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً وبهالك في الفترة وبهالك صغيراً، فيقول الممسوخ: يا ربِّ لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني» وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك «فيقول الرب عز وجل: إني آمركم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار، قال: لو دخلوها ما

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار ٤/١٥٦ (ح٣٤٣٣)، قال الهيثمي: رواه البزار بإسنادين ضعيفين (مجمع الزوائد ١٠/٣٥٠)، وقد توبع ريحان بن سعيد في رواية الحاكم إذ أخرجه من طريق إسحاق بن إدريس عن أبان بن يزيد عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي قلابة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ويشهد له الحديث الأول المروي عن الأسود بن سريع رضي الله عنه.

(٢) هذه السطر في الأصل ورد قبل ثلاثة أسطر. (٣) الزيادة من (ح).

(٤) في سنده عطية وهو العوفي ضعفه الحافظ ابن حجر كما يلي.

(٥) أخرجه البزار من طريق عبيد الله بن موسىٰ عن فضيل بن مرزوق به مع تعليقه، وقال الحافظ ابن حجر: عطية ضعيف (مختصر زوائد مسند البزار ٢/١٥٩، ١٦٠ ح١٦١٦)، وضعفه الحليمي في شعب الإيمان ١/ ١٥٩، ويشهد له أيضاً الحديث الأول.

ضرتهم، فتخرج عليهم قوابض فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم ثانية، فيرجعون كذلك، فيقول الرب ﷻ: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتكم، وإلى علمي تصيرون، ضميهم، فتأخذهم النار»[(١)].

(الحديث الثامن):

عن أبي هريرة ﷺ قد تقدمت روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع ﷺ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»[(٢)].

وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما أعلم ـ شك موسى ـ قال: «ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم ﷺ»[(٤)].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول ﷺ عن الله ﷻ أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء»[(٥)]، وفي رواية لغيره «مسلمين»[(٦)].

(الحديث التاسع): عن سَمُرة ﷺ. رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي، عن أبي رجاء العطاردي، عن سَمُرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»[(٧)].

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضبي، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبي رجاء، عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين، فقال: «هم خدم أهل الجنة»[(٨)].

(الحديث العاشر): عن عم حسناء قال أحمد: حدثنا إسحاق ـ يعني: الأزرق ـ أخبرنا روح،

---

(١) أخرجه الطبراني من طريق عمرو بن واقد به (المعجم الأوسط ٨/ ٥٧ ح٧٩٥٥)، قال الهيثمي: فيه عمرو بن واقد وهو متروك عند البخاري وغيره، ورمي بالكذب (مجمع الزوائد ٧/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ (صحيح البخاري، القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ح٦٦٠٠، وصحيح مسلم، القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ح٢٦٥٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وحسنه أحمد شاكر (المسند ح٨٣٠٧) وحسنه محققوه (المسند ح٨٣٢٤)، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن ثابت به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٠) وصححه السيوطي وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة في الجامع الصغير (ح٦٠٣).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩.

(٦) وذكر الحافظ ابن حجر أنه رواه غير عياض فزاد فيه: حنفاء مسلمين (فتح الباري ٣/ ٢٤٨).

(٧) حديث صحيح أخرجه البخاري من طريق عوف الأعرابي به مطولاً وقد ورد نصه في آخر الحديث (الصحيح، التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح ح٧٠٤٧).

(٨) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٧/ ٢٩٥ ح٦٩٩٣) وضعف سنده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٣/ ٢٤٦)، وهذه التضعيف بسبب عباد بن منصور قال الهيثمي وثقه يحيى القطان وفيه ضعف (مجمع الزوائد ٧/ ٢١٩).

حدثنا عوف، عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت: حدثني عمي قال: قلت: يا رسول الله مَن في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة»[(١)].

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال في جملة ذلك المنام حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم ﷺ، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «نعم وأولاد المشركين»[(٢)].

ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله ﷺ: «هم مع آبائهم»[(٣)] ومنهم من ذهب إلى أنّهم (يمتحنون يوم القيامة في العرصات)، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف على الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله به بسابق الشقاوة وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض.

وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد.

وقد ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلف نفساً إلا وسعها[(٤)]؟

والجواب عمّن قال أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نصّ على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها.

وأما قوله: إن الدار الآخرة دار جزاء، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من إمتحان الأطفال وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم].

وقد ثبتت السُنة في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً كلما أراد السجود خرّ لقفاه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وضعف سنده محققوه لجهالة حسناء (المسند ٣٤/ ١٩٠ ح٢٠٥٨٣) والحق أن حسناء ليست مجهولة وإنما مقبولة، وفرق بين المقبود والمجهول، وكثير من المقبولين حُسنت أحاديثهم بل صُححت، ولهذا حسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٣/ ٢٤٦).

(٢) تقدم تخريجه والإشارة إلى طوله قبل روايتين. (٣) تقدم تخريجه وشواهده في حديث البراء ﷺ.

(٤) (التمهيد ١٨/ ١٣٠) وذكره القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٥١٤.

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً ويقول الله تعالى: يا ابن آدم ما أغدرك، ثم يأذن له في دخول الجنة[١].

وأما قوله: فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم؟ فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ويمرُّ المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي ومنهم من يحبو حبواً ومنهم المكدوش[٢] على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم.

وأيضاً فقد أثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً[٣]، فهذا نظير ذاك، وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه، وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل

إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال:

أحدها: أنهم في الجنة. واحتجوا بحديث سمرة أنه ﷺ رأى مع إبراهيم ﷺ أولاد المسلمين وأولاد المشركين، وبما تقدم في رواية أحمد عن حسناء عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولود في الجنة» وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخصّ منه.

فمن علم الله منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى الله تعالى يوم القيامة يكون في النار، كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعري عن أهل السنة، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة منهم من جعلهم مستقلين فيها، ومنهم من جعلهم خدماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زيد عن أنس عند أبي داود الطيالسي وهو ضعيف، والله أعلم[٤].

والقول الثاني: أنهم مع آبائهم في النار. واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي المغيرة، حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب، حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطيف أنه أتى

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ (صحيح البخاري، الأذان، باب فضل السجود ح٨٠٦، وصحيح مسلم، الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية ح١٨٢).

(٢) المكدوش: المطرود.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث حذيفة ﷺ (صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح٣٤٥٠، وصحيح مسلم، الفتن، باب «ذكر الدجال» ح٢٩٣٤).

(٤) هذه الأحاديث كلها تقدم تخريجها في تفسير الآية نفسها.

عائشة فسألها عن ذراري الكفار، فقال: قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم» فقلت: يا رسول الله بلا أعمال؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[(١)]. وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب عن محمد بن زياد الألهاني، سمعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تقول: سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المؤمنين، قال: «هم مع آبائهم» قلت: فذراري المشركين؟ قال: «هم مع آبائهم» فقلت بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[(٢)]. ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل وهو متروك عن مولاته بهية عن عائشة أنها ذكرت أطفال المشركين لرسول الله ﷺ فقال: «إن شئت أسمعتك تضاغيهم[(٣)] في النار»[(٤)].

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، عن محمد بن فضيل بن غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي رضي الله عنه قال: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال: «هما في النار» قال: فلما رأى الكراهية في وجهها فقال لها: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما» قال: فولدي منك؟ قال: قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار» - ثم قرأ: - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[(٥)] [الطور: ٢١] وهذا حديث غريب، فإن في إسناده محمد بن عثمان مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، والله أعلم.

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموؤدة في النار» ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود[(٦)].

وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تقري الضيف، وتصل الرحم، وإنها وأدت أختاً لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: «الوائدة والموؤدة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم»[(٧)]. وهذا إسناد حسن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه بالشواهد (المسند ٤١/ ٩٥، ٩٦ ح٢٤٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود من طريق محمد بن حرب به (السنن، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين ح٤٧١٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٩٤٣).

(٣) أي: صياحهم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لضعف أبي عقيل ولجهالة بهية. (المسند ٤٢/ ٤٨٤ ح٢٥٧٤٣).

(٥) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسنده ومتنه (المسند ١/ ١٣٤) وسنده ضعيف للعلتين اللتين ذكرهما الحافظ ابن كثير.

(٦) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين ح٤٧١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٩٤٨).

(٧) أخرجه الإمام أحمد عن ابن أبي عدي عن داود بن أبي هند به (المسند ٣/ ٤٧٨) وحسن سنده الحافظ ابن كثير. وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١/ ١١٩)، وأخرجه النسائي من طريق داود بن أبي هند به (التفسير من السنن الكبرى ح٦٦٩) وصححه محققه، وصححه ابن عبد البر (قاله القرطبي في التذكرة ص٢.

والقول الثالث: التوقف فيهم. واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وكذلك هو في الصحيحين من حديث الزهري عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس دار قرار ومآل أهلها الجنة، كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف، والله أعلم.

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء أنهم توقفوا في ذلك وأن الولدان كلهم تحت المشيئة، قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث، منهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه، وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة[١]، انتهى كلامه، وهو غريب جداً، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك أيضاً[٢]، والله أعلم.

وقد ذكروا في ذلك أيضاً حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم. وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه[٣].

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن

---

(١) ذكره أبو عمر بن عبد البر في التمهيد (١٨/١١١، ١١٢).

(٢) التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ص٥١٢، ٥١٣.

(٣) صحيح مسلم، القدر، باب معنىٰ كل مولود يولد على الفطرة (ح٢٦٦٢)، والمسند ٦/٤١، وسنن أبي داود، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين (ح٤٧١٣)، وسنن النسائي، الجنائز، باب الصلاة على الصبيان ٤/٥٧، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب في القدر (ح٨٢).

جرير بن حازم: سمعت أبا رجاء العطاردي، سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو مقارباً ما لم يتكلموا في الوِلدان والقدر»[١].
قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبي رجاء، عن ابن عباس موقوفاً[٢].

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف[٣].

واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، رواه ابن جريج عن ابن عباس[٤]، وقاله سعيد بن جبير أيضاً[٥].

وقال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، قلت إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ: (أمَّرنا[٦] مترفيها).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: (أمرَّنا مترفيها ففسقوا فيها) يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾[٧] [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس[٨].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً[٩] أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا

---

(١) أخرجه ابن حبان من طريق جرير به (الإحسان ٨/ ٢٥٦ ح٦٦٨٩)، وأخرجه الحاكم من طريق جرير به وصححه وقال: لا نعلم له علة ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٥١٥)، وانظر المزيد في الرواية التالية:
(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢١٨٠)، وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٢)، وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق جرير به موقوفاً على ابن عباس (السنة ٧٠٣).
(٣) وهي قراءة متواترة.
(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع ابن عباس.
(٥) أخرجه الطبري من طريق شريك عن سلمة أو غيره عن سعيد بن جبير وسنده ضعيف لعدم الجزم باسم شيخ شريك. ومعناه صحيح.
(٦) وهي قراءة شاذة تفسيرية.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.
(٨) قول أبي العالية والربيع بن أنس أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع تارة، وعن الربيع عن أبي العالية تارة أخرى وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.
(٩) وهي قراءة متواترة.

عددهم[(١)]، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة[(٢)]. وعن مالك، عن الزهري ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أكثرنا[(٣)].

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعيم العدوي، عن مسلم بن بديل، عن إياس بن زهير، عن سويد بن هُبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة»[(٤)].

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه الغريب: «المأمورة كثيرة النسل، والسكة الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة من التأبير».

وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مأزورات غير مأجورات»[(٥)].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قد أهلك من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودلَّ هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[(٦)]، ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم: خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية [سبحانه وتعالى][(٧)].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومٗا مَّدْحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورٗا ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه، بل إنما يحصل لمن

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي به ويتقوىٰ بالآثار الآتية:

(٢) قول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سماك عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف لإبهام شيخ الطبري، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ١٧٠)، وسنده ضعيف لأنه مرسل أرسله سويد وهو تابعي وقد رواه بلاغاً فيما أخرجه ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٤/ ٢٣٣)، وقد أكد البسوي أنه تابعي (المعرفة والتاريخ ٣/ ٦٩)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ٥/ ٢٥٨) وحتىٰ لو كان رجاله ثقات فعلة الإرسال باقية.

(٥) أخرجه ابن ماجه من حديث علي رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا نسوة جلوس فقال: ما يجلسكنَّ؟ قلن: ننتظر الجنازة قال: هل تغسلن؟ قلن: لا. قال هل تحملن؟ قلن: لا. قال هل تدلين فيمن يدلي؟ قلن: لا. قال: فارجعن مأزورات غير مأجورات (السنن، الجنائز، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز ح١٥٧٨) وفي التعليق عليه عن البوصيري: في إسناده دينار بن عمر، وهو وإن وثقه وكيع وذكره ابن حبان في الثقات فقد قال أبو حاتم: ليس بالمشهور. وقال الأزدي: متروك. وقال الخليلي في الإرشاد: كذاب. وهذا الحديث ذكره ابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٤٢٠).

(٦) تقدم تخريجه وصحته عن ابن عباس رضي الله عنهما. (٧) زيادة من (حم) و(ح).

أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات[(١)]، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً مقصياً ذليلاً مهاناً.

روى الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا دُويد، عن أبي إسحاق، عن عروة، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[(٢)].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مؤمن؛ أي: مصدق موقن بالثواب والجزاء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

[يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا رادَّ لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: لا يمنعه أحد، ولا يرده راد.

قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: منقوصاً[(٣)].

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد أي: ممنوعاً[(٤)].

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك.

﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العليا

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥].

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لأن دويد غير منسوب. (المسند ٤٠/ ٤٨٠ ح٢٤٤١٩) وجود المنذري سنده (الترغيب ٤/ ٧٧)، والعراقي وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح إلا دويد وهو ثقة (ينظر كشف الخفاء ١/ ٤١٠، ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح١٩٣٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) قول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سهل بن أبي الصلت عن الحسن بلفظ: كلا نعطي من الدنيا البر والفاجر، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف، بلفظ: منقوصاً، وبهذا اللفظ أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»[(١)] ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وفي الطبراني من رواية زاذان، عن سلمان مرفوعاً: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع، إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها»، ثم قرأ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[(٢)].

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾][(٣)].

يقول تعالى، والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي: على إشراكك به ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً وإما غنى عاجلاً»[(٤)].

رواه أبو داود والترمذي من حديث بشير بن سلمان به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب[(٥)].

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر.

قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وصى[(٦)]، وكذا قرأ أُبي بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه)[(٧)] ولهذا قرن بعبادته برّ الوالدين، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٦٩.

(٢) أخرجه الطبراني بسند ضعيف جداً من طريق أبي الصباح عبد الغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان به (المعجم الكبير ٦/ ٢٣٩ ح٦١٠١) قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه أبو الصباح عبد الغفور وهو متروك (المجمع ٧/ ٥٢).

(٣) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (ح) و(حم). وقد أشير إلى السقط في حاشية الأصل.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وحسن سنده محققوه (المسند ٦/ ٤١٥ ح٣٨٦٩)، وأخرجه الحاكم من طريق بشير بن سلمان به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٤٠٨).

(٥) سنن أبي داود، الزكاة، باب في الاستعفاف (ح١٦٤٥) وسنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها (ح٢٣٢٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٤٤٨).

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد بلفظ: «أوصىٰ». وابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٧) وهي قراءة شاذة تفسيرية، وقراءة أُبي أخرجها الطبري بسند حسن عنه، وقراءة ابن مسعود أخرجها عبد الرزاق =

إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾][١] أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك عليهما[٢].

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما، قال ابن عباس: ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾[٣] [التوبة: ١١٣].

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنسٍ وغيره أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين آمين آمين» قيل: يا رسول الله علامَ أمنّت؟ قال: «أتاني جبريل فقال: يا محمد رَغِمَ[٤] أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رَغِمَ أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رَغِمَ أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين»[٥].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زرارة بن أوفى، عن مالك بن الحارث، عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من ضمَّ يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة البتة، ومن أعتق امرأ مسلماً، كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه»[٦].

= عن معمر عن قتادة عنه، ورجاله ثقات لكن قتادة لم يسمع من ابن مسعود، وقراءة الضحاك أخرجها الطبري بسند ضعيف من طريق أبي إسحاق الكوفي، وهو عبد الله بن ميسرة وهو ضعيف، عنه وزيادة لفظ: «إنهم الصقوا الواو بالصاد فصارت قافاً». وردّه ابن الجوزي بقوله: وهذا خلاف ما انعقد عليه الإجماع فلا يلتفت إليه (زاد المسير ٥/ ٣٢).

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق واصل الرقاشي عن عطاء بن أبي رباح، وواصل ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) أي: ذل.

(٥) أخرجه البزار من طريق سلمة بن وردان عن أنس ﷺ بنحوه ثم قال البزار: سلمة: صالح وله أحاديث يستوحش منها، ولا نعلم روىٰ أحاديث بهذه الألفاظ غيره. (مختصر مسند البزار ٢/ ٤٤١ ح٢١٧٤)، ويشهد له حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه مسلم مختصراً (الصحيح، البر، باب رغم أنف من أدرك أبويه... ح٢٥٥١)، وأخرجه البخاري عن أبي هريرة كاملاً (الأدب المفرد ح٦٤٦ وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ح٥٠٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: صحيح لغيرة (المسند ٣١/ ٣٧٠ ح١٩٠٢٥) أي: بالشواهد.

ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت علي بن زيد فذكر معناه، إلا أنه قال عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد «ومن أدرك والديه أو أحدهما، فدخل النار فأبعده الله»(١).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، عن حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن زرارة بن أوفى، عن مالك بن عمرو القشيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله ﷻ، ومن ضمَّ يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة»(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى يحدث عن أُبي بن مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه»(٣)، ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به، وفيه زيادات أخر(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رَغِمَ أنف ثم رَغِمَ أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة»(٥) صحيح من هذا الوجه، ولم يخرجوه، سوى مسلم من حديث أبي عوانة وجرير وسليمان بن بلال عن سهيل به(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا ربعي بن إبراهيم، قال أحمد وهو: أخو إسماعيل بن علية وكان يفضل على أخيه، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ، وَرَغِمَ أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له، ورَغِمَ أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم

(١) هذا الحديث خلط فيه الحافظ ابن كثير من حديثين في المسند: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان عن زُرارة بن أوفىٰ عن عمرو بن مالك أو مالك بن عمرو، كذا قال سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضمَّ يتيماً بين أبويه فله الجنة البتة»، ثم قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت قتادة يحدث عن زُرارة بن أوفىٰ عن أُبي بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أدرك والديه أو أحدهما، ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه» (المسند ٣١/ ٣٧٢، ٣٧٣ ح١٩٠٢٦، ١٩٠٢٧)، وما ذكره الحافظ جزء من سند الحديث الثاني ثم جزء من سند الحديث الأول ثم ذكر متن الحديث الثاني. وكلا الحديثين صحح سندهما محققو المسند.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: صحيح لغيره دون قوله. «من أدرك أحد والديه...» فهو صحيح (المسند ٣١/ ٣٧٥ ح١٩٠٣٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده، دون ذكر حجاج، ومتنه، وصححه محققوه (المسند ٣١/ ٣٧٣ ح١٩٠٢٧).

(٤) مسند الطيالسي (ح١٣٢١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣٤٦)، وصححه الحافظ ابن كثير وهو على شرط مسلم كما يلي.

(٦) صحيح مسلم، البر، باب رغم أنف من أدرك أبويه... (ح٢٥٥١).

يدخلاه الجنة» قال ربعي: ولا أعلمه إلا قال: «أو أحدهما»[١]. ورواه الترمذي عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن ربعي بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه[٢].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل، حدثنا أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيل وهو: مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي عليَّ من برِّ أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما»[٣]. ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل به[٤].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال: «فهل لك من أُم»؟ قال: نعم قال: «فألزمها فإن الجنة عند رجليها» ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول[٥]، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج به[٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معديكرب، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب»[٧]. وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش به[٨].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسن سنده محققوه (المسند ١٢/ ٤٢١ ح٧٤٥١).

(٢) السنن، الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل» (ح٣٥٤٥)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ح٢٨١٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لجهالة حال علي بن عبيد (المسند ٢٥/ ٤٥٧ ح١٦٠٥٩)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ٢/ ١٦٢ ح٤١٨)، والحاكم (المستدرك ٤/ ١٥٤) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن سليمان به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) سنن أبي داود، الأدب، باب في بر الوالدين (ح٥١٤٢)، وسنن ابن ماجه، الأدب، باب صلة من كان أبوك يصله (ح٣٦٦٤).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسن سنده محققوه. (المسند ٢٤/ ٢٩٩ ح١٥٥٣٨)، وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٠٤).

(٦) سنن النسائي، الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والد ٦/ ١١، وسنن ابن ماجه، الجهاد، باب الرجل يغزو وله أبوان (ح٢٧٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٢٤١).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٣١)، وأخرجه البخاري من طريق إسماعيل بن عياش به (الأدب المفرد ح٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٦٦٦).

(٨) سنن ابن ماجه، الأدب، باب بر الوالدين (ح٣٦٦١)، وصححه البوصيري (مصباح الزجاجة ٢/ ٢٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٩٥٤).

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوانة، عن الأشعث بن سليم عن أبيه، عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[١].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن المستمر العُروقي، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ: هل أديت حقها؟ قال: «لا ولا بزفرة واحدة» أو كما قال، ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه[٢]. قلت: والحسن بن أبي جعفر ضعيف، والله أعلم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾[٣].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة[٤].

وعن ابن عباس: المسبحين[٥].

وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين[٦]، وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين[٧].

وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى[٨].

وقال شعبة عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون[٩]. [وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري، ومعمر عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب بنحوه[١٠]، وكذا رواه الليث وابن جريج][١١]، عن ابن المسيب به[١٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وأطول وصحح سنده محققوه (المسند ٢٧/ ١٥٩ ح١٦٦١٣).

(٢) أخرجه البزار بسنده ومتنه (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٢٣٨ ح١٧٧٧) قال الهيثمي: وفيه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس (مجمع الزوائد ٨/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حميد بن زياد عن محمد بن المنكدر.

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن عن عون العقيلي.

(٩) أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة من طريق يحيىٰ بن سعيد عن سعيد بن المسيب.

(١٠) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري ومعمر به. (١١) زيادة من (ح) و(حم).

(١٢) أخرجه الطبري من طريق الليث به وسنده صحيح.

وكذا قال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير[١].

وقال مجاهد، عن عبيد بن عمير في الآية: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها[٢]، ووافقه مجاهد في ذلك[٣].

وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا[٤].

وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه[٥]، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية].

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون تائبون، عابدون لربنا حامدون»[٦].

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى برَّ الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث «أمك وأباك ثم أدناك أدناك»[٧] وفي رواية «ثم الأقرب فالأقرب»[٨]، وفي الحديث «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه»[٩].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا [أبو يحيى التميمي][١٠]، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، ثم قال: لا نعلم حدَّث به عن فضيل بن مرزوق إلا [أبو

---

(١) قول عطاء بن يسار أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عقبة من مسلم عنه بنحوه وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر جعفر بن إياس عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد به.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح. (٥) ذكره الطبري بنحوه.

(٦) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ﷺ (الصحيح، العمرة، باب ما يقول: «إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو ح١٧٩٧»).

(٧) تقدم تخريجه في تفسير الآية ٢٣، ٢٤ من السورة نفسها.

(٨) تقدم تخريجه في تفسير الآية ٢٣، ٢٤ من السورة نفسها.

(٩) أخرجه الشيخان من حديث أنس ﷺ (صحيح البخاري، البيوع، باب من أحب البسط في الرزق ح٢٠٦٧، وصحيح مسلم، البر، باب صلة الرحم ح٢٥٥٧).

(١٠) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «أبو نجي»، وفي مسند البزار: «أبو يحيىٰ التيمي».

يحيى التميمي][١] وحميد بن حماد بن أبي الخوار[٢].

وهذا الحديث مشكل لو صحَّ إسناده، لأن الآية مكية، وفدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟ فهو إذاً حديث منكر، والأشبه أنه من وضع الرافضة، والله أعلم.

وقد تقدم الكلام على المساكين وأبناء السبيل في سورة براءة بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ الشَّيَٰطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك.

قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق[٣]. وكذا قال ابن عباس[٤].

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً[٥].

وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك إن كان، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين» فقال: يا رسول الله أقلل لي؟ فقال: «فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً» فقال: حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها ولك أجرها، وإثمها على من بدَّلها»[٧].

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «أبو نجي»، وفي مسند البزار: «أبو يحيىٰ التيمي».

(٢) أخرجه البزار بسنده ومتنه مع الفرق السابق (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٩٠ ح١٤٧٦) وضعفه الهيثمي لضعف عطية العوفي (مجمع الزوائد ٧/ ٥٢) ومتنه فيه غرابة لأن الآية مكية كما وضح الحافظ ابن كثير. وحكم عليه بأنه منكر. وفي سنده أيضاً عباد بن يعقوب رافضي يستحق الترك (ينظر التقريب ص٢٩١). وهذا يؤكد ما قاله الحافظ ابن كثير أنه من وضع الرافضة، فعباد متهم به.

(٣) أخرجه الطبري بأسانيد كثيرة صحيحة من طريق أبي العبيدين ـ وهو معاوية بن سبرة ـ عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه البخاري من الطريق نفسه وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٣٤٥) وكذا الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦١).

(٤) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن ابن عباس، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٣٤٦).

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد، وفي سنده أيضاً الحسين وهو ابن داود: ضعيف، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين لكن قيل في رواية سعيد بن =

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآية، أي: إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، أعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: عدهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ بالوعد، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد[(١)].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله - ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أي: نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملوماً محسوراً، وهذا من باب اللف والنشر؛ أي: فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال فيبخل بماله ... على قومه يستغن عنه ويذمم[(٢)]

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابّة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك] أي: كليل عن أن يرى عيباً، هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف: ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم[(٣)].

= أبي هلال عن أنس أنها مرسلة (المسند ١٩/ ٣٨٦ ح١٢٣٩٤)، وأخرجه الحاكم من طريق الليث بن سعد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦٠)، وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣/ ٦٦).

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بنحوه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عمارة بن أبي حفصة عنه بنحوه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عنه، وقول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) ديوان زهير ص٣٠.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عوف الأعرابي عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما[(١)]، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت[(٢)] على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو[(٣)] أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» هذا لفظ البخاري في الزكاة[(٤)].

وفي الصحيحين من طريق هشام بن عروة، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك». وفي لفظ: «ولا تحصي فيحصي الله عليك»[(٥)].

وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق، أنفق عليك»[(٦)]. وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مُزرد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللَّهم أَعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللَّهم أَعطِ ممسكاً تلفاً»[(٧)].

وروى مسلم عن قتيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً «ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله»[(٨)].

وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «إياكم والشحّ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[(٩)].

وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، [عن ابن بريدة][(١٠)]، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطاناً»[(١١)].

---

(١) التراقي: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان من الجانبين.
(٢) أي: كمُلت واتسعت. (٣) أي: تمحو أثر مشيته.
(٤) صحيح البخاري، الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل (ح١٤٤٣)، وصحيح مسلم، الزكاة باب مثل المنفق والبخيل (ح١٠٢١).
(٥) صحيح البخاري، الزكاة باب التحريض على الصدقة (ح١٤٣٣)، وصحيح مسلم، الزكاة باب الحث على الإنفاق (ح١٠٢٩).
(٦) صحيح مسلم، الزكاة، باب الحث على النفقة (ح٩٩٣).
(٧) صحيح البخاري، الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ...﴾ (ح١٤٤٢)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب في المُنفق والمُمسك (ح١٠١٠).
(٨) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع (ح٢٥٨٨).
(٩) أخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الله بن الحارث عن أبي كثير الزبيدي به وأطول وصحح سنده محققوه (المسند ١١/ ٢٦ ح٦٤٨٧)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١١/ ٥٧٩ ح٥١٧٦)، والحاكم كلاهما من طريق عبد الله بن الحارث به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١١).
(١٠) زيادة من المسند والسنن الكبرىٰ.
(١١) أخرجه البيهقي (السنن الكبرى ٤/ ١٨٧)، وأخرجه ابن خزيمة (الصحيح ٤/ ١٠٥ ح٢٤٥٧)، والحاكم كلاهما من طريق أبي معاوية به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٤١٧)، وأخرجه الإمام =

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة [الحداد][١]، حدثنا سُكين بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخباراً أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، كما جاء في الحديث: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه»[٣]. وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني حال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] أي: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً، وقرأ بعضهم: كان خطأ كبيراً وهو بمعناه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم: قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك ـ قلت: ثم أي؟ ـ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ـ قلت: ثم أي؟ ـ قال: أن تزاني بحليلة جارك»[٤].

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ

= أحمد من طريق أبي معاوية به (المسند ٣٨/ ٦٠ ح٢٢٩٦٢)، وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير الأعمش لم يسمع من ابن بريدة فيما يظن أبي معاوية، وهو محمد بن خازم الضرير، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٢٦٨).

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «الجعاد».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعفه محققوه لضعف إبراهيم الهجري (المسند ٧/ ٣٠٢ ح٤٢٦٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم من طريق الحسن بن يحيىٰ الخشني عن صدقة بن عبد الله عن هشام الكناني عن أنس (حلية الأولياء ٨/ ٣١٨) قال ابن رجب: الحسن بن يحيىٰ الخشني عن صدقة بن عبد الله الدمشقي الدمشقي وهما ضعيفان (جامع العلوم والحكم ص٣١٤) وذكر ابن الجوزي هذا الحديث في العلل المتناهية (١/ ١٣١).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٦٥.

فَٰحِشَةً﴾ أي: ذنباً عظيماً ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس طريقاً ومسلكاً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا [حريز](١)، حدثنا سليم بن عامر، عن أبي أُمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتحبه لأمك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللَّهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء(٢).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بَقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»(٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٤).

وفي السنن «لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم»(٥).

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك(٦).

---

(١) كذا في المسند وفي الأصل و(ح) و(حم) صُحف إلى: «جرير».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٦/ ٥٤٥ ح٢٢٢١١) وصحح سنده محققوه. وأخرجه الطبراني من طريق حُريز به (المعجم الكبير ٨/ ١٩٠ ح٧٦٧٩) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١/ ١٣٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح٣٧٠).

(٣) أخرجه ابن الجوزي من طريق ابن أبي الدنيا به (ذم الهوى ص١٩٠) وسنده ضعيف لإرسال الهيثم بن مالك فهو ليس بصحابي.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٩٢.

(٥) أخرجه الترمذي (السنن، الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن ح١٣٩٥)، والنسائي (السنن، تحريم الدم، باب تعظيم الدم ٧/ ٨٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وصححه الألباني بمجموع طرقه (غاية المرام ص٢٥٣).

(٦) كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الديات، باب من قتل له قتيل فهو بخير =

وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة أنه سيملك لأنه كان وليَّ عثمان، وقد قتل مظلوماً ﷺ، وكان معاوية يطالب علياً ﷺ أن يسلمه قتلته حتى يقتصّ منهم؛ لأنه أموي، وكان علي ﷺ يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك، حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه، كما قال ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب.

وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال: حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن ابن شَوْذَب عن مطر الوراق، عن زهدم الجرمي قال: كنا في سمر ابن عباس فقال: إني محدثكم بحديث ليس بسرٍّ ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان (يعني عثمان)، قلت لعلي: اعتزل فلو كنتَ في جحرٍ طُلبت حتى تُستخرج فعصاني، وايم الله ليتأمرنَّ عليكم معاوية، وذلك أن الله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ الآية، وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم، وليقيمنَّ عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذٍ بما يعرف نجا، ومن ترك - وأنتم تاركون - كنتم كقرن من القرون هلك فيمن هلك[1].

وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً قدراً.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢] ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذرّ: «يا أبا ذرّ إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تَولَّيَنَ مال اليتيم»[2].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي عنه.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ﴿وَزِنُوا۟

= النظرين ح٦٨٨٠، وصحيح مسلم، الحج، باب تحريم مكة مصيرها. . . ح١٣٥٥).

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١٠/ ٣٢٠ ح١٠٦١٣) وفي سنده مطر الوراق صدوق كثير الخطأ (التقريب ص٥٣٤) وقال الهيثمي: وفيه من لم أعرفهم (مجمع الزوائد ٧/ ٢٣٩).

(٢) صحيح مسلم، الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (ح١٨٢٦).

﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها[١]، كالقرطاس، وهو الميزان.

وقال مجاهد: هو العدل بالرومية[٢]. وقوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي: مآلا ومنقلباً في آخرتكم.

قال سعيد، عن قتادة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي: خير ثواباً وأحسن عاقبة[٣]. وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال، وهذا الميزان، قال: وذُكر لنا أن نبي الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»[٤].

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لا تقل[٥]. وقال العوفي عنه: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم[٦].

وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور[٧].

وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله[٨].

ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢] وفي الحديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[٩].

وفي سنن أبي داود «بئس مطية الرجل زعموا»[١٠] وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن

---

(١) كلتاهما قراءتان متواترتان.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بالسند السابق لكن قتادة لم يسمع من ابن عباس وأما قوله: وذُكر لنا فهو قول قتادة فيكون السند مرسلاً.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويشهد له سابقه.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً من طريق أبي عمر البزار، وهو حفص بن سليمان، عن محمد بن الحنفية، وأبو عمر متروك مع إمامته في القراءة.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٩) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الأدب، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ . . .﴾ [الحجرات: ١٢] ح٦٠٦٦، وصحيح مسلم، البر، باب تحريم الظن والتجسس ح٢٥٦٣).

(١٠) أخرجه أبو داود من حديث أبي مسعود رضي الله عنه (السنن، الأدب، باب قول الرجل زعموا ح٤٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤١٥٨)، والسلسلة الصحيحة (ح٨٦٦).

يري الرجل عينيه ما لم تريا»[١].

وفي الصحيح «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل»[٢].

وقوله: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه عما عمل فيها، ويصح استعمال أولئك مكان تلك، كما قال الشارع[٣]:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلة اللِّوى والعيش بعد أولئك الأيام

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبختراً متمايلاً مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيك، قاله ابن جرير: واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج[٤]:

وقاتم[٥] الأعماق[٦] خاوي[٧] المخترق[٨]

وقوله: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل[٩] فيها إلى يوم القيامة»[١٠] وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وفي الحديث «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير»[١١].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (الصحيح، التعبير باب من كذب في حلمه ح٧٠٤٣).

(٢) المصدر السابق (ح٧٠٤٢).

(٣) هو جرير، والبيت في ديوانه ص٤٥٢. واستشهد به الإمام الطبري.

(٤) ذكره الطبري، والبيت ذكره أيضاً ابن قتيبة (الشعر والشعراء ١/ ٦١). وهو صدر بيت عجزه: مشتبه الأعلام لمّاع الخفَق.

(٥) من القَتَمة وهي الغبرة المائلة إلىٰ الحمرة. (٦) جمع عمق وهو ما بعد من أطراف الصحراء.

(٧) أي: الخالي.

(٨) أي: مكان الاختراق، خرجت الأرض إذ جبتها.

(٩) أي: يغوص في الأرض، والجلجلة حركة مع صوت (النهاية ١/ ٢٨٤).

(١٠) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح البخاري، اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء ح٥٧٨٩، وصحيح مسلم، اللباس، باب تحريم التبختر في المشي ح٢٠٨٨).

(١١) أخرجه الطبراني (المعجم الأوسط ٨/ ١٧٢ ح٨٣٠٧)، والخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ٢/ ١١٠)، كلاهما من طريق سعيد بن سلام العطار عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عابس بن ربيعة عن عمر بن الخطاب. قال الهيثمي: في إسناده سعيد بن سلام العطار وهو كذاب (مجمع الزوائد ٨/ ٨٥)، وصححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (ح٢٣٢٨)، والصحيح أن شطره الأول هو الصحيح (ينظر: صحيح مسلم، البر، باب استحباب العفو والتواضع ح٢٥٨٨).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخمول والتواضع: «حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مرَّ عليه ابن الأهيم يريد: المنصور، وعليه جباب خزّ قد نضّد بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشي ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثاني عطفه، مصعر خده، ينظر في عطفيه؛ أي حميق ينظر في عطفه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدي حق الله منها، والله أن يمشي أحدهم طبيعته [يتلجلج][1] تلجلج المجنون في كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة، فسمعه ابن الأهيم فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليَّ وتُب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾»[2].

ورأى البختري العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً[3].

وقال خالد بن معدان: إياكم والخطر[4]، فإن الرجل[5] يده من سائر جسده[6]، رواهما ابن أبي الدنيا[7].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى عن سعيد[8]، عن يُحنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء[9]، وخدمتهم فارس والروم، سلط بعضهم على بعض»[10].

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده بنحوه (التواضع والخمول ص٢١٥ ح٢٣٧) وفي سنده أبو بكر الهذلي: متروك.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق مفضل بن غسان عن أبيه عن العمري العابد (التواضع والخمول ص٢١٨ ح٢٤٣) وأظنه صُحِّف اسم البختري إلى العمري.

(٤) في رواية ابن أبي الدنيا: الخطران (التواضع والخمول ص٢١٩).

(٥) في الأصل: و(ح) و(حم) بياض قدر كلمه بعد لفظ: «فإن الرجل»، وفي رواية ابن أبي الدنيا: فإن الرجل: بنا فؤاده من سائر جسده (التواضع والخمول ص٢١٩، ٢٢٠).

(٦) كذا في الأصل وفي (ح) و(حم): «من دون سائر جسده».

(٧) التواضع والخمول ص٢١٨، ٢١٩.

(٨) يحيىٰ بن سعيد كذا في الأصل و(ح) و(حم)، وفي النسخ المطبوعة: يحيىٰ عن سعيد وهو تصحيف. فقد ورد في المصدر الذي نقل منه الحافظ ابن كثير وهو كتاب التواضع والخمول: يحيىٰ بن سعيد (ص٢٢٠ ح٢٤٩). وكما سيأتي في التخريج.

(٩) قال ابن أبي الدنيا: سمعت ابن الأعرابي يقول: المطيطاء مشية فيها اختيال (التواضع ص٢٢٠).

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومتنه وسنده مرسل لأن يُحنس تابعي (التواضع ص٢٢٠)، وأخرجه البيهقي من طريق يحيىٰ بن سعيد به (دلائل النبوة ٦/ ٥٢٥)، وأخرجه الترمذي من طريق يحيىٰ بن سعيد عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ (السنن، الفتن، باب ٧٤ ح٢٢٦١)، وأخرجه ابن حبان من طريق يحيىٰ بن سعيد عن عبيد سنوطا عن خولة بنت قيس مرفوعاً بنحوه (الإحسان ١٥/ ١٢٢ ح٦٧١٦) وصححه محققه بشواهده.
وصححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (ح٩٥٦).

وقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ أما من قرأ سيئة[1]؛ أي: فاحشة فمعناه عنده كل هذا الذي نهيناه عنه من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إلى هنا فهو سيئه مؤاخذ عليها مكروه عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ سيئه على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى هنا فسيئه أي فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي: مبعداً من كل خير.

قال ابن عباس وقتادة: مطروداً[3]، والمراد من هذا الخطاب الأُمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى رادًّا على المشركين الكاذبين الزاعمين، عليهم لعائن الله: أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدَّد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في زعمكم أن لله ولداً، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: عن الحق وبعداً منه.

---

(١) كلتاهما قراءتان متواترتان. (٢) ذكره الطبري.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زُلفى لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه؛ فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه؛ بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزّه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى: تقدسه السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن؛ أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا حتى بلغ السمٰوات السبع. فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً في السمٰوات العلى مع تسبيح كثير سبحت السمٰوات العلى، من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى»[(١)].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[(٢)].

وفي حديث أبي ذرٍّ أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم[(٣)]، وهو حديث مشهور في المسانيد.

---

(١) تقدم تخريجه في بداية السورة.

(٢) صحيح البخاري، المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ح٣٥٧٩).

(٣) أخرجه البيهقي من طريق سويد بن يزيد السلمي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه (دلائل النبوة ٦/ ٦٤)، وضعفه الحافظ =

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زَبَّان، عن سهل بن معاذ، ابن أنس، عن أبيه ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه»[١].

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نقيقها تسبيح»[٢].

وقال قتادة، عن عبد الله بن بابي، عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال: لا إله إلا الله، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها، وإذا قال: الحمد لله، فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: الله أكبر، فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: سبحان الله، فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: أسلم عبدي واستسلم[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصّقعب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج، [أو مزورة بديباج][٤]، فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع بن راع ويضع كل رأس بن رأس، فقام إليه النبي ﷺ مغضباً فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل» ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس، فقال: «إن نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: إني قاص عليكما الوصية آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله فإن السمٰوات والأرض وما فيها لو وضعت في كفة وضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرىٰ كانت أرجع ولو أن السمٰوات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما، لقصمتهما أو لفصمتهما، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء»[٥]. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به[٦].

= ابن حجر (فتح الباري ٦/ ٥٩٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وحسنه محققوه بالشواهد إلى قوله: «ولا تتخذوها كراسي» (المسند ٢٤/ ٣٩٢ ح١٥٦٢٩).

(٢) أخرجه النسائي عن عبد الله بن عمرو ﷺ بدون قوله: نقيقها تسبيح، (السنن، كتاب الصيد، باب الضفدع ٧/ ٢١٠)، فهذه الزيادة ضعيفة، وأوله صحيح وقد صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (ح٤٠٦٢).

(٣) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به، وسنده منقطع لأن قتادة لم يسمع عبد الله بن عمر ﷺ ولبعضه شاهد وهو قوله: وإذا قال: «سبحان الله... بالصلاة والتسبيح»، وهذا الشاهد سيأتي مصححاً في الروايتين التاليتين:

(٤) زيادة من (ح) و(حم) وهي ثابتة في المسند.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ١١/ ٦٧٠ ح٧١٠١)، وأخرجه الحاكم من طريق الصقعب به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٤٨)، وصححه الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية ١/ ١١٩)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ٤/ ٢١٩).

(٦) المسند ٢/ ١٦٩.

وقال ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا محمد بن يعلى، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً عليه السلام قال لابنه: يا بني آمرك أن تقول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق» قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١].
إسناده فيه ضعف، فإن الربذي ضعيف عند الأكثرين.

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح[٢] ـ الأسطوانة: السارية ـ وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال سفيان الثوري عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يسبح[٣]، ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج[٤].

وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح، يعنون: من حيوان ونبات.

قال قتادة في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه [الروح][٥][٦].

وقال الحسن والضحاك في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قالا: كل شيء فيه الروح[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب، قالا: حدثنا حُديد[٨] أبو الخطاب، قال: كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام، فقدما الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعد، يسبح هذا الخوان؟ فقال: كان يسبح مرة[٩].

قلت: الخوان هو المائدة من الخشب، فكأن الحسن رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حياً فيه خضرة كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه، وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» أخرجاه في

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة وهو الربذي، ويشهد له سابقه.
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق يزيد، وهو ابن أبان الرقاشي: ضعيف، عن عكرمة، ومعناه صحيح.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الكبير بن عبد المجيد عن سفيان به.
(٤) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ . . .﴾ [الحج: ١٨].
(٥) في الأصل: (ح) و(حم) ورد لفظ كذا، والمثبت من تفسير الطبري وعبد الرزاق وفي النسخ المطبوعة عدم الإشارة إلى لفظ كذا، وعدم إثبات لفظ الطبري.
(٦) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق يونس عن الحسن، وبسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(٨) كذا في الأصل وفي (ح) و(حم) والطبعات كلها: جرير والصواب هو المثبت كما في تفسير الطبري الطبعة المحققة.
(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

الصحيحين[1]، قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[2] [هود].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج]، ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله تاب إليه وتاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]، وقال ههنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً.

قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم[3]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ بمعنى: ساتر كميمون ومشؤوم بمعنى: يا من وشائم؛ لأنه من يمنهم وشؤمهم، وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله[4].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة[5] وفي يدها فهر[6]

---

(١) صحيح البخاري، الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله (ح٢١٦)، وصحيح مسلم، الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول (ح٢٩٢).
(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة هود آية ١٠٢.
(٣) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.
(٤) ذكره الطبري.
(٥) الولولة: البلبلة والدعاء بالويل.
(٦) الفهر: الحجر مليء الكف.

وهي تقول: مذمماً أتينا ـ أو أبينا ـ قال أبو موسى: الشك مني، ودينه قلينا، وأمره عصينا، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه فقال أبو بكر ﷺ: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به منها ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم ترَ النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، قال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك، قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها(١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي منعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت لا إله إلا الله، ﴿وَلَّوْا۟﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور جمع نافر، وكقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر]، قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾، إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها [فلج](٢)، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها(٣).

(قول آخر في الآية):

روى ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد [الذارع](٤)، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي، وحدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ هم الشياطين(٥).

وهذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشياطين إذا قرئ القرآن أو نودي بالأذان أو ذكر الله انصرفوا.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ بما يتناجى به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق بشر بن موسىٰ الحميدي عن سفيان به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦٢)، ونسبه الحافظ ابن حجر إلى البزار وحسنه (فتح الباري ٨/ ٧٣٨)، ونقل الهيثمي تحسين البزار له ثم قال: ولكن فيه عطاء بن السائب وقد اختلط. (مجمع الزوائد ٧/ ١٤٤) ولكن يبدو رواية الراوي عن عطاء قبل الاختلاط أو أنه متابع كما في رواية أبي يعلىٰ والحاكم.

(٢) كذا في تفسير الطبري، وفي الأصل: «فلح والمعنىٰ متقارب».

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) كذا في (حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل: و(ح) صُحِّف إلىٰ: «الزارع».

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً فيه روح بن المسيب الكلبي متهم بالوضع (لسان الميزان ٢/ ٤٦٨).

قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السِّحْر على المشهور، أو من السَّحْر وهو الرئة؛ أي: إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يأكل، كما قال الشاعر[١]:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المُسحَّر[٢]

وقال الراجز[٣]:

ونسحر بالطعام وبالشراب

أي: يُغَذي، وقد صوَّب هذا القول ابن جرير[٤]، وفيه نظر؛ لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[٥].

---

(١) هو الصحابي الجليل لبيد بن ربيعة رضي الله عنه، والبيت في ديوانه ص٥٦.

(٢) أي نحن صغار ضعاف من ذراري قوم قد ذهبوا، والمسحر المعلل بالطعام والشراب.

(٣) هو الشاعر امرؤ القيس، وما ورد هو عجز وصدره: أرانا مُوضِعين لأمر غَيب (ديوان امرئ القيس ص٩٧) واستشهد به معمر بن المثنى (مجاز القرآن ١/ ٣٨١)، والطبري.

(٤) ما قاله الطبري أنه غير بعيد عن الصواب.

(٥) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ٣٢٨)، وأخرجه البيهقي من طريق محمد بن إسحاق به (دلائل النبوة ٢/ ٢٠٦)، وسنده مرسل، والقصة مشهورة.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: تراباً، قاله مجاهد[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: غباراً[٢].

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ أي: يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضوع الآخر ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢﴾ [النازعات].

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس]، وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾.

قال ابن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك، فقال: هو الموت[٣].

وروى عطية عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم[٤]، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم[٥]، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء؛ فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

وقد ذكر ابن جرير [ههنا][٦] حديثاً: «يجاء بالموت يوم القيامة وكأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، ثم يقال: يا أهل النار أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت،

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٣) أخرجه ابن إسحاق مصرحاً بالسماع (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣١٥) سنده حسن، أخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي نجيح به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦٢).
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن عطية به، ويشهد له ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بمعناه (الصحيح، الجنة، باب النار يدخلها الجبارون ح٢٨٤٩).
(٥) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول أبي صالح أخرجه الطبري بسند جيد من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.
(٦) زيادة من (ح) و(حم).

ويا أهل النار خلود بلا موت»[١].

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال[٢].

وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم[٣].

وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال النبي ﷺ: قال مالك: ويقولون: هو الموت[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء، وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها[٥]؛ لأن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم وهو: ولد النعامة نغضاً؛ لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه، ويقال: نَغَضَت سنّهُ إذا تحركت وارتفعت من منبتها وقال الراجز:

ونَغَضَت من هرمٍ أسنانها[٦]

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك؛ فإنه قريب سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تبارك وتعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]. وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

---

(١) أخرجه الطبري وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ (صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] ح٤٧٣٠)، وصحيح مسلم، الجنة، باب النار يدخلها الجبارون (ح٢٨٤٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن مجاهد.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) تقدم صحته عن جمع من التابعين.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بثلاثة أسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٦) استشهد به معمر بن المثنى (مجاز القرآن ١/ ٣٨٢) والطبري.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: فتستجيبون بحمده؛ أي بأمره[(١)]، وكذا قال ابن جريج[(٢)]، وقال قتادة بمعرفته وطاعته[(٣)].

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وله الحمد في كل حال[(٤)].

وقد جاء في الحديث: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون: لا إله إلا الله»[(٥)]. وفي رواية يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وسيأتي في سورة فاطر[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة؛ فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة؛ فإن الشيطان ينزغ في يده؛ أي: فربما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار»[(٧)]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق[(٨)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حدثني

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف ويتقوىٰ بسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) ذكره الطبري.

(٥)(٦) سيأتي تخريجهما في تفسير سورة فاطر آية ٣٤، إذ ذكرهما الحافظ بالسند.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/٣١٧)، وسنده صحيح متفق عليه.

(٨) صحيح البخاري، الفتن، باب قول النبي ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا» (ح٧٠٧٢)، وصحيح مسلم، البر، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (ح٢٦١٧).

رجل من بني سليط قال: أتيت النبي ﷺ وهو في أزفلة[1] من الناس فسمعته يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ههنا» قال حماد: وقال بيده إلى صدره: «وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما، المُحدِثُ شر والمُحدِثُ شر والمُحدِثُ شر»[2].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس أي: أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»[3] فإن المراد من ذاك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل فإذا دلَّ الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وفي الشورى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه. قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خُفِّف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ» يعني القرآن[4].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن

(١) أي: جماعة من الناس (النهاية ٢/ ٣٠٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: الشطر الأول منه صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان... وأما الشطر الثاني فحسن لغيره (المسند ٣٤/ ٢٨٩، ٢٩٠ ح٢٠٦٨٩).
(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آخر آية ١٤٣.
(٤) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] ح٤٧١٣).

دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ أي: بالكلية ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي: بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ الآية، قال: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزيراً[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الآية، روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن[(٢)] كانوا يعبدون فأسلموا[(٣)].

وفي رواية: قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[(٤)].

وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزماني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الآية، قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم، لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية[(٥)]، وفي رواية عن ابن مسعود كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن فذكره[(٦)].

وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ قال: عيسى وأمه وعزير[(٧)].

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى وعزير والشمس والقمر[(٨)].

وقال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة[(٩)].

واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القربة، كما قال قتادة[(١٠)]، ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٢) أُستشكل أن الناس ضد الجن، وأُجيب بأنه على قول من قال: «إنه من ناسَ إذا تحرك»، أو ذكر للتقابل حيث قال: «ناس من الإنس وناس من الجن» (فتح الباري ٨/ ٣٩٧، وينظر تاج العروس ٤/ ١٠٣).
(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] (ح٤٧١٥).
(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ ...﴾ [الإسراء: ٥٦] (ح٤٧١٤).
(٥) أخرجه مسلم من طريق قتادة به (الصحيح، التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ ح٣٠٣٠).
(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه يحيىٰ بن السكن وهو ضعيف.
(٧) أخرجه الطبري من طريق السدي به، وسنده ضعيف لضعف أبي صالح واسمه: باذام أو باذان.
(٨) أخرجه الطبري من طريق مغيرة به، وسنده ضعيف لأن مغيرة هو ابن مقسم الضبي ثقة لكنه يدلس عن إبراهيم، وإبراهيم هو النخعي لم يسمع من ابن عباس.
(٩) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(١٠) أي رواية قتادة عن معبد بن عبد الله المتقدم في صحيح مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتم وقضى بما عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق].

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

قال سُنيد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون: يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سُخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سرَّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا: فإن شئت أن نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نستأني بقومك استأنيت بهم. قال: «يا رب استأن بهم»[١]. وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما[٢].

وروى الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا، كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. وقال: «لا، بل استأن بهم» وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[٣]، ورواه النسائي وابن جرير به[٤].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سُنيد به، وسنده ضعيف لضعف سنيد وإرسال سعيد بن جبير، ويتقوىٰ بالروايات التالية لما فيها من المتابعات والشواهد.

(٢) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه لكنه مرسل وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند فيه سُنيد أيضاً ولكنهما يتقويان بالروايات التالية.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ٤/ ١٧٣ ح٢٣٣٣)، وصححه أيضاً أحمد شاكر، وأخرجه الحاكم من طريق جرير به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرك ٢/ ٣٦٢).

(٤) أخرجه الطبري والنسائي كلاهما من طريق جرير به (السنن الكبرى، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] ح١١٢٩٠). وسنده صحيح كسابقه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن [عمران بن الحكم][(١)]، عن ابن عباس، قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين»، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: «بل باب التوبة والرحمة»[(٢)].

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خلف بن تميم المصيصي، عن عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: «يا آل عبد مناف إني نذير» فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى سخر له البحر، وإن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصيّر لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. وقال: فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سرّي عنه، قال: «والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين» ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وقرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الرعد: ٣١][(٣)].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوه، فلما ظلموا بها؛ أي: كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله

---

(١) كذا صوبه الحافظ ابن حجر وهو عمران بن الحارث أبو الحكم (تعجيل المنفعة ص٢١٩) وقد ورد على الصواب في المسند ٥/ ٢٨٤ (ح٣٢٢٣)، وفي النسخ الخطية صحف إلى: عمران بن حكيم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وورد فيه عمران بن الحكم وهو تصحيف والصواب المثبت أعلاه (المسند ٤/ ٦٠ ح٢١٦٦)، وصحح سنده محققوه، ونبهوا على التصحيف.

(٣) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه وضعفه محققه لضعف عبد الجبار بن عمر الأيلي وعبد الله بن عطاء بن إبراهيم (المسند ٢/ ٤٠، ٤١ ح٦٧٩، وينظر مجمع الزوائد ٧/ ٨٨).

وعقروها، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه[١]. وهكذا روي أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر: أحدثتم والله لئن عادت لأفعلنّ ولأفعلنّ. وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال: يا أمة محمد واللهِ ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[٢].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً على إبلاغ رسالته مخبراً له بأنه قد عصمه من الناس؛ فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته.

وقال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم[٣].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم[٤]، وكذا رواه أحمد [وعبد الرزاق][٥] وغيرهما عن سفيان بن عيينة به[٦]. وكذا رواه العوفي عن ابن عباس[٧].

---

(١) سنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من ابن مسعود.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها (صحيح البخاري، الكسوف، باب الصدقة في الكسوف ح١٠٤٤)، وصحيح مسلم، الكسوف، باب صلاة في الكسوف (ح١٩٠١).

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بنحوه، وقول عروة أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] (ح٤٧١٦).

(٥) كذا في (حم) و(ح)، وفي الأصل صُحّف إلى: «عبد الرحمن».

(٦) المسند ١/ ٢٢١ وتفسير عبد الرزاق.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بما سبق.

وهكذا فَسر ذلك بليلة الإسراء[١] مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمٰن بن زيد، وغير واحد[٢]، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستوفاة ولله الحمد والمنة.

وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على[٣] الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا، حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد[٤]، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم. وقيل: المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية، وهو غريب ضعيف.

وقال ابن جرير: حُدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي، عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القرود، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات، قال: وأنزل الله في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية[٥]، وهذا السند ضعيف جداً فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة، وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً

---

(١) أي: شجرة الزقوم التي رآها النبي ﷺ ليلة الإسراء.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق فرات القزاز عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول مسروق أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي الضحىٰ عنه، وقول إبراهيم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) تقدم في بداية تفسير هذه السورة.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الإمام أحمد وتقدم تخريجه في بداية السورة في قصة الإسراء وصحح سنده الحافظ ابن كثير هناك، وقول الحسن البصري أخرجه بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عنه ولكنه مرسل ويتقوى بسابقه، وقول مسروق تقدم بلفظ: شجرة الزقوم، وقول أبي مالك أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبثر الكوفي عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً كما ذكر الحافظ ابن كثير.

له ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال أيضاً: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ يقول للرب جراءة وكفراً والرب يحلم وينظر ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الآية.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول لأستولين على ذريته إلا قليلاً[١].

وقال مجاهد: لأحتوينّ[٢].

وقال ابن زيد: لأضلنهم[٣].

وكلها متقاربة والمعنى: أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته عليَّ لإن أنظرتني لأضلنَّ ذريته إلا قليلاً منهم.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: ﴿ٱذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ قال مجاهد: وافراً[٤].

وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء قال مجاهد: باللهو والغناء أي استخفهم بذلك[٦].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داعٍ دعا إلى معصية الله[٧] ﷻ وقاله قتادة، واختاره ابن[٨] جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.
(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بمعناه.
(٦) أخرجه الطبري من طريق ليث وهو ابن أبي سُليم وفيه مقال عن مجاهد.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٨) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

وقال ابن عباس ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب وماشٍ في[١] معصية الله.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس[٢] وهم الذين يطيعونه تقول العرب أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله[٣].

وقال عطاء: هو الربا[٤].

وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام، وكذا قال قتادة[٥].

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعني من البحائر والسوائب ونحوها[٦] وكذا قال الضحاك وقتادة[٧].

وقال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله[٨]، وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك يعني: أولاد الزنا[٩].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم[١٠].

وقال قتادة والحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا على غير صبغة الإسلام، وجزؤوا أموالهم جزءاً للشيطان، وكذا قال[١١] قتادة سواء.

وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد الشمس وعبد فلان[١٢].

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.
(٤) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن بنحوه.
(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٧) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند فيه إبهام شيخ الطبري، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
(٨) ذكره الطبري بنحوه.
(٩) قول العوفي أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوي بما يليه فقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند فيه إبهام شيخ الطبري.
(١٠) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.
(١١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن.
(١٢) أخرجه الطبري من طريق أبي صالح به، وسنده ضعيف لضعف أبي صالح وهو: باذام أو باذان.

بما يكرهه الله أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله أو بالزنا بأمه أو بقتله أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصي الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة[١]، وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[٢].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضىٰ بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[٤]. ينضي أي: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم في فضله عليكم ورحمته بكم.

---

(١) ذكره الطبري بنحوه.

(٢) تقدم مراراً وآخر مرة في تفسير آية ١٥ من هذه السورة.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما صحيح البخاري، الوضوء، باب التسمية على كل حال (ح١٤١)، وصحيح مسلم، النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (ح١٤٣٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعفه محققوه لسوء حفظ ابن لهيعة (١٤/ ٥٠٤ ح٨٩٤٠) ولكن رواية قتيبة وهو ابن سعيد عن ابن لهيعة معتمدة فقد سأل الإمام أحمد قتيبة فقال: أحاديثك عن ابن لهيعة صحاح؟ فأقره قتيبة على ذلك وقال: لأنا كنا نكتب من كتاب ابن وهب ثم نسمعه من ابن لهيعة (ينظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا مسَّ النَّاس ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً فركب في البحر يدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره اللَّهم لك علي عهد لإن أخرجتني منه لأذهبنَّ فلأضعن يدي في يدي محمد فلأجدنَّه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه[١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً؟ وهو المطر الذي فيه حجارة قاله مجاهد[٢] وغير واحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر] وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك] وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً يردُّ ذلك عنكم وينقذكم منه.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب.

قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها[٣].

---

(١) أخرجه النسائي من طريق السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه بنحوه مطولاً (السنن، تحريم الدم، باب الحكم في المرتد ٧/ ١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ح٣٧٩١، والسلسلة الصحيحة ح١٧٢٣)، وأخرجه الحاكم عن السدي به دون ذكر القصة وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٤).

(٢) لم أجده عن مجاهد وإنما أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه، وذكر السيوطي ونسبه إلى الطبري عن قتادة ولم يذكره عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «عاصفاً».

وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيراً[١].

وقال مجاهد: نصيراً ثائراً[٢]؛ أي: يأخذ بثأركم بعدكم.

وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك[٣].

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

ويخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين] أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة فقال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت كن فكان»[٤]. وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روي من وجه آخر متصلاً.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق علي بن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه عبد الرزاق بسند ثابت عن معمر عن قتادة بنحوه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده ضعيف لإرسال زيد بن أسلم، وقد روي من طرق أخرى لكنها ضعيفة السند كما يلي.

بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان»[١].

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي، حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عروة بن رويم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا خلقتنا وخلقت بني آدم، وجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب ويلبسون الثياب ويتزوجون النساء ويركبون الدواب ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال الله ﷻ: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كن، فكان»[٢].

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا معمر بن سهل، حدثنا عبيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغاف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم» قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»[٣]. وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك:

فقال مجاهد وقتادة: نبيهم[٤]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس].

وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ.

وقال ابن زيد: لكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع[٥]. واختاره ابن جرير.

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الأوسط ٦/ ١٩٦ ح٦١٧٣) وسنده ضعيف جداً قال الهيثمي وفيه: إبراهيم بن عبد الله بن خالد وسنده ضعيف جداً فيه.
المصيصي: وهو كذاب متروك (مجمع الزوائد ١/ ٨٥).

(٢) أخرجه البيهقي من طريق عبد ربه بن صالح القرشي عن عروة بن رويم عن جابر الأنصاري مرفوعاً بنحوه، ثم قال: وقال فيه غيره عن هشام بن عمار بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وفي ثبوته نظر (الجامع لشعب الإيمان ١/ ١٧٢ ح١٤٩).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي من طريق عبيد الله بن تمام به (تاريخ بغداد ٤/ ٤٥) وكذا أخرجه البيهقي ثم قال: تفرد به عبيد الله بن تمام (الجامع لشعب الإيمان ١/ ١٧٤ ح١٥٣)، قال الهيثمي بعد أن نسبه إلى الطبراني في الكبير: وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف (مجمع الزوائد ١/ ٨٥)، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: غريب جداً، وفي هذا نقد للمتن أيضاً.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: بكتبهم(١). فيحتمل أن يكون أراد هذا وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم(٢) وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك(٣). وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] [ويحتمل أن المراد بإمامهم أي كل قوم بمن يأتمون به فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء ﷺ وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١] وفي الصحيحين: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الطواغيت»(٤) الحديث](٥).

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية] وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فإنه لا بدّ أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩] وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء] ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه [ويحب](٦) قراءته كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة(٧).

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يعمر ومحمد بن عثمان بن كرامة قالا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه، فيرونه من بعيد فيقولون: اللّهم آتنا بهذا وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بنحوه ويشهد له سابقه ولاحقه.
(٣) قول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس، وقول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق قتادة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند فيه إبهام شيخ الطبري.
(٤) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الأذان، باب فضل السجود ح٨٠٦، وصحيح مسلم، الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ح٢٩٩).
(٥) زيادة من (ح) و(حم).
(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «محب».
(٧) تقدم في تفسير سورة النساء آية ٤٩.

فيقولون: أعوذ بالله من هذا أو من شر هذا اللّهم لا تأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللّهم اخزه فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا»[١]. ثم قال البزار لا يروى إلا من هذا الوجه، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ الآية، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: في الحياة الدنيا[٢] ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا عياذاً بالله من ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره مؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر. روى البيهقي عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غُنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدَّق ما قالوا فغزا تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث.

وفي هذا الإسناد نظر[٣]، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي لم يغز تبوك عن قول اليهود،

---

(١) سنده ضعيف إذ مداره يتوقف على عبد الرحمن بن أبي كريمة والد السدي الكبير وهو مجهول الحال (التقريب ص٣٤٩)، وأخرجه الترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل ح٣١٣٦)، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٤٦ ح٧٣٤٩)، وأبو نعيم (الحلية ٩/ ١٥)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٢٤٢) كلهم من طريق السدي عن أبيه به. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفيه نظر.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٣) وهو كما قال فقد أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٥/ ٢٥٤) وفي سنده شهر بن حوشب فيه مقال، وعبد الرحمن بن غنم مختلف في صحبته.

وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]، وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم.

ولو صحَّ هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان، عن سليم بن عامر، عن أبي أُمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام» قال الوليد: يعني: بيت المقدس[١]. وتفسير الشام بتبوك أحسن، مما قال الوليد إنه بيت المقدس، والله أعلم.

وقيل نزلت في كفار قريش، هَمُّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلَّطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ قيل لغروبها، قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد[٢].

وقال هشيم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس: دلوكها زوالها[٣]، ورواه نافع عن ابن عمر[٤]، ورواه مالك في تفسيره عن الزهري، عن ابن عمر[٥]، وقاله أبو برزة الأسلمي[٦] وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة[٧]، واختاره ابن جرير.

---

(١) أخرجه الطبراني من طريق الوليد بن مسلم به (المعجم الكبير ٨/ ٢٠١)، وفي سنده عفير بن معدان وهو ضعيف (التقريب ص٣٩٣).

(٢) قول ابن مسعود أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وأخرجه أيضاً من طريق الزهري عن ابن عباس وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الإمام مالك (الموطأ برواية الشيباني، التفسير رقم ١٠٠٦) وسنده صحيح.

(٥) سنده صحيح.

(٦) أخرجه البخاري بسنده عن أبي برزة ﵁ (الصحيح، مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال ح٥٤١).

(٧) أخرجه الطبري بأسانيد قوية إلا قول الضحاك فسنده ضعيف لأنه من طريق جويبر.

ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير: حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلى، عن رجل، عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس»[(١)]. ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عوانة، عن الأسود بن قيس، عن [نبيح][(٢)] العَنزي، عن جابر، عن رسول الله ﷺ نحوه[(٣)]، فعلىٰ هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وهو ظلامه، وقيل غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، وعن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ في هذه الآية ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار[(٤)].

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[(٦)]، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، ثلاثتهم عن عبيد بن [أسباط][(٧)] بن محمد، عن أبيه به، وقال الترمذي: حسن صحيح[(٨)].

وفي لفظ في الصحيحين من طريق مالك عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي؟

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن جابر ولكنه توبع في الرواية السابقة

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل غير منقوط.

(٣) أخرجه الطبري عن محمد بن عمارة الرازي عن سهل به، وهذا السند مع الذي قبله يقوىٰ أحدهما الآخر.

(٤) أخرجه ابن ماجه من طريق الأعمش به (السنن، الصلاة، باب وقت صلاة الفجر ح٦٧٠) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٥٤٤).

(٥) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (ح٤٧١٧).

(٦) المسند ٤/ ٤٧٤، وتقدم الحكم على صحته في رواية ابن ماجه قبل السابقة.

(٧) كذا في (ح) و(حم) والتخريج، وفي الأصل صُحِّف إلى: «إسباد».

(٨) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (ح٣١٣٥)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] (ح١١٢٩٣)، وحكمه كسابقه.

فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[١].

وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء[٢]، وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية[٣].

وأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول، وأنه تعالى يقول: من يستغفرني أغفر له، من يسألني أعطيه، من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر، فلذلك يقول: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار، فإنه[٤] تفرد به زيادة، وله بهذا حديث في سنن أبي داود[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل»[٦]. ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد النوم. قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير[٧] واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس وعائشة[٨] وغير واحد من الصحابة ﷺ، كما هو مبسوط في موضعه، ولله الحمد والمنة.

وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء[٩]. ويحمل على ما كان بعد النوم، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة، رواه العوفي عن ابن عباس[١٠]، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي رحمه الله، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه. قال مجاهد[١١]: وهو

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الرعد آية ١١.

(٢) أخرجه الطبري والطبراني (المعجم الكبير ٩/ ٢٦٥ ح٩١٣٩) من عدة طرق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود، ويشهد له ما تقدم في الصحيح من حديث أبي هريرة قبل روايتين.

(٣) قول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الأعمش عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف زيادة بن محمد فهو منكر الحديث (التقريب ص٢١١).

(٥) السنن، الطب، باب كيفية الرقى؟ (ح٣٨٩٢) وحكمه كسابقه.

(٦) صحيح مسلم، الصيام، باب فضل صوم المحرم (ح١١٦٣).

(٧) قول علقمة والأسود أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٨) أخرجه البخاري من طريق الأسود عن عائشة قالت: كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع إلى فراشه... (الصحيح، التهجد، باب من نام أول الليل وأحيى آخره ح١١٤٦).

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق هشام عن الحسن.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(١١) ذكره الحافظ ابن حجر ونسبه إلى الطبري وابن أبي حاتم عن مجاهد وحسّن سنده (فتح الباري ٣/ ٣)، وقول مجاهد أخرجه الطبري والبيهقي (دلائل النبوة ٥/ ٤٨٧) كلاهما من طريق عبد الله بن كثير عن مجاهد.

في المسند عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه[١].

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك في الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم[٢].

ذكر من قال ذلك:

حدثنا [ابن بشار][٣]، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صِلة بن زُفَر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: «لبيك وسعديك، والخير في يديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت» فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل[٤].

ثم رواه عن بندار، عن غندر، عن شعبة، عن أبي إسحاق به[٥]، وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، والثوري، عن أبي إسحاق به[٦]، وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة[٧]، وكذا قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد[٨]، وقاله الحسن البصري[٩].

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[١٠].

قلت: لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق شهر بن حوشب عن أبي أُمامة قال: إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ. وضعفه محققوه لضعف شهر بن حوشب (المسند ٣٦/ ٥٤٤ ح٢٢٢١٠).

(٢) ذكره الطبري بلفظه.

(٣) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحِّف إلى: «يسار».

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الحاكم من طريق سفيان به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٦٣)، وقال الهيثمي: رواه البزار موقوفاً ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٠) ورجح أبو حاتم وقفه (العلل ٢/ ٢١٧) وكذا أخرجه النسائي في السنن الكبرى التفسير، باب قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] (ح١١٢٩٤) وصحح سنده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وحكمه كسابقه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق به.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه رشدين وهو ضعيف، ويتقوىٰ بالشواهد التي سيأتي سردها عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن الحسن.

(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل.

عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم[١].

وفي حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذِن الله تعالى في الشفاعة للعصاة، شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك[٢]، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص، ولله الحمد والمنة.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

قال البخاري: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أُمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً[٣]. ورواه حمزة بن عبد الله عن أبيه، عن النبي ﷺ[٤].

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شعيب بن الليث، حدثنا الليث، عن عبيد الله بن أبي جعفر، أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذٍ يبعثه الله مقاماً محموداً»[٥]. وهكذا رواه البخاري في الزكاة عن يحيى بن بكير وعلقمة، عن عبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد به، وزاد. فيومئذٍ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم[٦].

قال البخاري: حدثنا علي بن عياش، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّت

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (الصحيح، الإيمان، باب في قوله النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة...» ح٣٣٢).

(٢) تقدم تخريج الصور الطويل في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] (ح٤٧١٨).

(٤) صحيح البخاري، الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً (ح١٤٧٥).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وهو في الصحيح كما يليه.

(٦) صحيح البخاري، الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً (ح١٤٧٤).

له شفاعتي يوم القيامة»[1]. انفرد به دون مسلم.

حديث أُبي بن كعب:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أُبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»[2]. وأخرجه الترمذي من حديث أبي عامر عبد الملك بن عمرو العقدي، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به[3]، وقد قدمنا في حديث أُبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال ﷺ في آخره: «فقلت اللهم اغفر لأُمتي، اللهم اغفر لأُمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي فيه الخلق حتى إبراهيم ﷺ»[4].

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه ﷻ من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتونه فيقول: لست هناكم، لكن ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك ويقول: ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين»، قال أنس: «حتى أستأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له، أو خررت ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، قال: ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدّاً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود إليه ثانية فإذا رأيت ربي وقعت له أو خررت ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود الثالثة فإذا رأيت

---

(١) صحيح البخاري، الأذان، باب الدعاء عند النداء (ح٦١٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه بالشواهد والمتابعات (المسند ٣٥/١٦٩ ح٢١٢٤٥).

(٣) سنن الترمذي، المناقب، باب في فضل النبي ﷺ (ح٣٦١٣)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب ذكر الشفاعة (ح٤٣١٤) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٤٨٢).

(٤) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (ح٨٢٠).

ربي وقعت ـ أو خررت ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: «يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن»، فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»[١]، أخرجاه من حديث سعيد به[٢]، وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصاري، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثني نبي الله ﷺ قال: «إني لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى عليه السلام فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله لغمّ ما هم فيه، فالخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك، فذهب نبي الله ﷺ، فقام تحت العرش فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن اذهب إلى محمد، وقل له ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع، فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فما زلت أتردد إلى ربي عز وجل، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت حتى أعطاني الله عز وجل، من ذلك أن قال: يا محمد أدخل من أُمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك»[٤].

حديث بريدة رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حصيرة، عن ابن بريدة، عن أبيه أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية تأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، وهو يرى أنه يتكلم بمثل ما قال الآخر، فقال بريدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومَدَرَة[٥]»، قال: «فترجوها أنت يا معاوية ولا يرجوها علي رضي الله عنه»[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١١٦) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، سورة البقرة (ح٤٤٧٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة (ح١٩٣).

(٣) المسند ٣/ ٢٤٧.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: ورجاله رجال الصحيح، وفي متن هذا الحديث غرابة (المسند ٢٠/ ٢٠٩ ح١٢٨٢٤).

(٥) مَدَرَة: واحدة المدر، وهو قِطع الطين اليابس.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٧/ ٢٩ ح٢٢٩٤٣) وضعف سنده محققوه لضعف إسرائيل وهو إسماعيل بن خليفة العبسي. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ح٢٠٩٤).

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البناني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مليكة إلى النبي ﷺ فقالا: إن أُمَّنا تكرم الزوج وتعطف على الولد، قال: وذكر الضيف غير أنها كانت وأدت في الجاهلية، فقال: «أمكما في النار» قال: فأدبروا والسوء يرى في وجوههما، فأمر بهما فردا فرجعا والسرور يرى في وجوههما رجاء أن يكون قد حدث شيء، فقال: «أُمي مع أُمكما» فقال رجل من المنافقين: وما يغني هذا عن أمه شيئاً ونحن نطأ عقبيه. فقال رجل من الأنصار: ـ ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه ـ يا رسول الله: هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟ قال: فظن أنه من شيء قد سمعه، فقال: «ما سألته ربي وما أطمعني فيه، وإني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة» فقال الأنصاري: يا رسول الله وما ذاك المقام المحمود؟ قال: ذاك إذا جيء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم ﷺ، فيقول: «اكسوا خليلي فيؤتى بريطتين بيضاوين فيلبسهما، ثم يقعده مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطني فيه الأولون والآخرون» قال: ويفتح لهم من الكوثر إلى الحوض، فقال المنافق: إنه ما جرى ماء قط إلا على حال أو رضراض[١]، فقال رسول الله ﷺ: «حاله المسك، ورضراضه اللؤلؤ» فقال المنافق: لم أسمع كاليوم، فإنه قلما جرى ماء على حال أو رضراض إلا كان له نبت؟ فقال الأنصاري، يا رسول الله هل له نبت؟ فقال: «نعم قضبان الذهب» قال المنافق لم أسمع كاليوم، فإنه قلما ينبت قضيب إلا أورق وإلا كان له ثمر، وقال الأنصاري: يا رسول الله: هل له ثمرة؟ قال: «نعم ألوان الجوهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لا يظمأ بعده، ومن حرمه لم يرو بعده»[٢].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن أبي الزعراء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله ﷻ في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله ثم يقوم عيسى أو موسى، قال أبو الزعراء: لا أدري أيهما، قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذي قال الله ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٣].

حديث كعب بن مالك رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدي، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن [كعب][٤] بن مالك، عن كعب بن مالك أن

---

(١) أي: الحصىٰ الصغار (النهاية ٢/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٣٩٨)، وسنده ضعيف لضعف عثمان وهو ابن عمير البجلي وأخرجه الحاكم من طريق عثمان به وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: لا والله، فعثمان ضعفه الدارقطني (المستدرك ٢/ ٣٦٤، ٣٦٥) وضعفه الهيثمي أيضاً (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦١).

(٣) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ١/ ٥١ ح٣٨٩) وسنده ضعيف جداً لأن يحيىٰ بن سلمة بن كهيل متروك (التقريب ص٥٩١).

(٤) زيادة من (ح) و(حم) والمسند.

رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأُمتي على تلّ، ويكسوني ربي ﷻ حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»[1].

حديث أبي الدرداء ﷺ:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك» فقال رجل: يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأُمم فيما بين نوح إلى أُمتك؟ قال: «هم غُرٌّ محجَّلون[2] من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم»[3].

حديث أبي هريرة ﷺ:

قال الإمام أحمد ﷺ: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حيان، حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش[4] منها نهشة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم ﷺ، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى أنت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه. (المسند ٢٥/ ٦٠ ح١٥٧٨٣).

(٢) أي: بيض موضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ١٩٩) وفي سنده ابن لهيعة وقد تابعه الليث في رواية الحاكم إذ أخرجه من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٧٨).

(٤) أي: أخذ بمقدم أسنانه منها.

رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي ﷻ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: أُمتي يا رب، أُمتي أُمتي يا رب، أُمتي أُمتي يا رب أُمتي أُمتي، فيقال: يا محمد أدخل من أُمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر(١)، أو كما بين مكة وبُصرى(٢)(٣)، أخرجاه في الصحيحين(٤).

وقال مسلم رَحِمَهُ اللهُ: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِقل بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حدثني عبد الله بن فروخ، حدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع»(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن داود بن يزيد الزعافري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ سئل عنها فقال: «هي الشفاعة»(٦). رواه الإمام أحمد عن وكيع ومحمد بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه»(٧).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه

---

(١) مدينة في البحرين. (٢) مدينة في سوريا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٤٣٥، ٤٣٦) وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الشيخان من طريق أبي حيان به بلفظ: حمير بدل هجر، وحمير في اليمن. وكلا المسافتين متقاربة، (صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥] ح٣٣٤٠) وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (ح٣٢٧).

(٥) صحيح مسلم، الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (ح٢٢٧٨).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وصححه الطبري نفسه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: حسن لغيره (المسند ١٥/ ٤٥٨ ح٩٧٣٥) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٢٣٦٩).

- قال النبي ﷺ - فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمٰن تبارك وتعالى والله ما رآه قبلها، فأقول: أي ربِّ إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليَّ، فيقول الله ﷻ، صدق ثم أشفع فأقول: يا ربِّ عبادك عبدوك في أطراف الأرض، قال: فهو المقام المحمود»[١]. وهذا حديث مرسل.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ الْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة، فأنزل الله ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾[٢]. وقال الترمذي: حسن صحيح[٣].

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[٤].

وقال قتادة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة[٥]، وكذا قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم[٦]، وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: الحياة بعد الموت[٧]، وقيل غير ذلك من الأقوال، والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير[٨].

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعزَّ فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له[٩].

وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم[١٠].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وهو مرسل وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وأخرجه الحاكم موصولاً من طريق الزهري عن علي بن الحسين عن جابر مرفوعاً وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٧٠، ٥٧١)، وأخرجه ابن أبي حاتم (كما في الفتح ٨/ ٤٠٠) والحاكم من طريق علي بن الحسين عن رجل من أهل العلم، وقال الحافظ ابن حجر: ورجاله ثقات وهو صحيح إن كان الرجل صحابياً (فتح الباري ٨/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لضعف قابوس (المسند ٣/ ٤١٧ ح١٩٤٨)، وصححه أحمد شاكر (المسند ح١٩٤٨).

(٣) السنن، التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل (ح٣١٣٩)، وأخرجه الحاكم من طريق قابوس به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٣) وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح٦١١).

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن الحسن لكنه مرسل ويتقوىٰ بالمرسل التالي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، لكنه مرسل ويتقوىٰ بالمرسل السابق.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به. (٨) ذكره الطبري.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن الحسن.

(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

قال مجاهد: ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حجة بينة[(١)]، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(٢)] أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ ۚ﴾ الآية، تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك؛ فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[(٣)]. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة[(٤)] به، [وكذا رواه عبد الرزاق عن ابن أبي نجيح به][(٥)(٦)].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شبابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر ﷺ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً تعبد من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»[(٧)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) لم أجدهُ مسنداً ومعناه صحيح وقد ذكره ابن الأثير وبين معناه: أي من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن والله تعالى، يقال: وزعه يزعه وزعاً فهو وازع، إذا كفَّه ومَنَعه. (النهاية ٥/ ١٨٠).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ ۚ﴾ ح٤٧٢٠).

(٤) صحيح البخاري، المظالم، باب هل تكسر الدِّنان التي فيها خمر؟ (ح٢٤٧٨)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة (ح١٧٨١)، وسنن الترمذي التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل (ح٣١٣٨)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ ۚ﴾ [الإسراء: ٨١] (ح١١٢٩٧).

(٥) زيادة من (ح) و(حم).

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة عن شبابة بن سوار به (المصنف ١٤/ ٤٨٧)، وحسن سنده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (ح٤٣٦٤)، ويشهد له الحديث السابق عن ابن مسعود ﷺ. وذكره السيوطي في الدر المنثور ونسبه إلى أبي يعلى وغيره.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزل على رسول الله ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة] والآيات في ذلك كثيرة.

[قال قتادة في][1] قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين[2].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه.

قال مجاهد: بعد عنا[3].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ﴾ [يونس: ١٢] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٦٧] وبأنه ﴿إذا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وهو المصائب، والحوادث والنوائب ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: قنط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته[4].

وقال مجاهد: على حدته وطبيعته[5].

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «تباعد مِنّا».

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد.

وقال قتادة: على نيته[١].

وقال ابن زيد: دينه[٢]، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الآية [هود]، ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا يخفى عليه خافية.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله هو: ابن مسعود ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمرَّ بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ قال: فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه[٣]. وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به[٤].

ولفظ البخاري عند تفسيره هذه الآية عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكئ على عسيب، إذ مرَّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية[٥].

وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنه نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، من أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: وأنزل الله:

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «على ما ينوي».

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٤٤٤) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، العلم، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] (ح١٢٥)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (ح٢٧٩٤).

(٥) صحيح البخاري، التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل (ح٤٧٢١).

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[1] [الكهف].

وقد روى ابن جرير عن محمد بن المثنى، عن [ابن عبد الأعلى][2]، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ الآية [لقمان: ٢٧]، قال: ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار، فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل[3].

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا: يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «كُلّاً قد عنيت». فقالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم»، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان][4].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال:

(أحدها): أن المراد أرواح بني آدم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: جاءني به جبريل من عند الله، فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧][5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٥ ح٢٣٠٩)، وصحح سنده محققوه. ولكن فيه داود وهو ابن أبي هند ثقة ثبت كان يهم بآخره (التقريب ص٢٠٠) قال الآجري عن أبي داود: خولف في غير حديث وقال لا ثرم عن الإمام أحمد: كان كثير الاضطراب والاختلاف (تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٤)، واخشىٰ أن يكون من أوهامه في ذكر ابن عباس لأنه قد رواه عن عكرمة مرسلاً دون ذكر ابن عباس كما يلي في رواية الطبري. قال الحافظ ابن حجر: ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك، وإن ساغ هذا وإلا فما في الصحيح أصح (فتح الباري ٨/ ٤٠١)، وقد استبعد ابن قيم التعدد فقال: ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ﷺ، ولبادر إلىٰ جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه (الروح ص٢٠٥)

(٢) كذا في تفسير الطبري، وفي النسخ الخطية والمطبوعة: عبد الأعلىٰ.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لإبهام شيخ ابن إسحاق.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويشهد لشطره الأول ما تقدم في الرواية السابقة في =

وقيل: المراد بالروح ههنا جبريل، قاله قتادة[١]: قال: وكان ابن عباس يكتمه[٢]، وقيل: المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ يقول: الروح ملك[٣].

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري، حدثنا وهب بن روق أبو هبيرة[٤]، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكاً لو قيل له التقم السمٰوات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل، تسبيحه سبحانك حيث كنت»[٥]. وهذا حديث غريب بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدثني علي، حدثني عبد الله، حدثني [أبو هزان][٦] يزيد بن سمرة صاحب قيسارية، عمن حدثه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[٧]، وهذا أثر غريب عجيب، والله أعلم.

وقال السهيلي: روي عن علي أنه قال: هو ملك له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، في كل وجه مائة ألف فم، في كل فم مائة ألف لسان، يسبح الله تعالى بلغات مختلفة[٨].

قال السهيلي: وقيل: المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم، وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى، والمعنى أنه علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى، وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على

= الصحيح، وشطره الثاني مخالف لما في الصحيح.

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة به ولكن قتادة لم يسمع من ابن عباس.

(٢) هو تتمة لسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) كذا في النسخ الخطية وفي المعجم الكبير ورد بلفظ: «أبو هريرة».

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١١/ ١٩٥ ح١١٤٧٦)، وقال الهيثمي: تفرد به وهب بن روق. (مجمع الزوائد ١/ ٨٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ح١٩٥٤)، وكذا الحافظ ابن كثير.

(٦) كذا في تفسير الطبري وترجمته في التاريخ الكبير ٨/ ٢٣٧، والجرح والتعديل ٩/ ٢٦٨، وفي الأصل صُحف إلى: «نمران».

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرجه أبو الشيخ (العظمة ح٤٠٨)، والبيهقي (الأسماء والصفات ص٤٦٢) كلاهما من طريق أبي هزان به. ومتنه فيه غرابة.

(٨) الروض الآنف ١/ ١٩٨، وهو غريب كسابقه.

حافة السفينة فنقر في البحر نقرة، أي شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر[١]، أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال السهيلي: قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوا، لأنهم سألوا على وجه التعنت، وقيل: أجابهم. وعوّل السهيلي على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من شرعه، أي فادخلوا فيه وقد علمتم ذلك؛ لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما ينال من جهة الشرع، وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم[٢].

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مصطاراً أو خمراً، ولا يقال له ماء حينئذٍ إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه.

فحاصل ما نقول: أن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه[٣].

وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح[٤].

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: يطرق الناس ريح حمراء، يعني في آخر الزمان من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية[٥].

---

(١) ستأتي هذه القصة في الصحيح في تفسير سورة الكهف آية ٦٠ ـ ٦٥.

(٢) الروض الآنف ١/١٩٨، ١٩٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أفاد منه ابن قيم في كتابه الروح.

(٥) أخرجه الطبري من طريق المسيب بن رفع عن ابن مسعود، وسنده منقطع لأن المسيب لم يسمع من =

ثم نبَّه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له؟ وقد روى محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل الله هذه الآية[١]، وفي هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية، أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: جحوداً للحق ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين[٢] سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلاً من بني عبد الدار[٣]، وأبا البختري أخا بني أسد[٤]، والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أُمية، وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيهاً ومُنبهاً ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه[٥]، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء[٦]، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم[٧] حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك

= ابن مسعود ﷺ. وقد توبع فأخرجه الحاكم من طريق شداد بن معقل عن عبد الله بن مسعود بنحوه (المستدرك ٤/ ٥٠٤) وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة. (مجمع الزوائد ٧/ ٥٤)، وأخرجه الدارمي بسند صحيح من طريق زر بن حبيش عن ابن مسعود بنحوه (السنن ح٣٣٤٦).

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده حسن فصلتُ حكمه في مقدمة التفسير الصحيح. وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ٥٧٠).

(٢) وقد صرح الحافظ ابن كثير أنه محمد بن أبي محمد المذكور في الرواية السابقة.

(٣) هو النضر بن الحارث بن كلدة، صرح بذلك ابن هشام في السيرة.

(٤) هو العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، (الكامل في التاريخ ٢/ ٥٠).

(٥) أي: حتىٰ تقدموا العذر فيه فلا تلامون على النتائج بعد لقائكم هذا.

(٦) أي: ظهر لهم ما لم يكن ظهر أولاً. (٧) العنت: ما يشق على الإنسان فعله.

لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعِبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرَّقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمعون التابع من الجن الرئي ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً.

فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسلِ ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك» فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنَّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمٰن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمٰن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد

الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من عذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[(١)].

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس فذكر مثله سواء[(٢)].

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأُجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطالبون ذلك كفراً وعناداً له، فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة؟ فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة»، كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً[(٣)] في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابهم على جميع ما سألوه وطلبوا ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/٣٠٦ - ٣٠٩)، ولبعضه شواهد صحيحة تقدمت في الآية ٥٩ من هذه السورة، وشواهد ذكرها الحافظ ابن كثير بعد هذه الرواية.

(٢) في سنده إبهام شيخ ابن إسحاق.

(٣) أي: جارية.

وتهوي وتدلي أطرافها، فاجعل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفاً، [أي قطعاً كقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا][1] كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أُمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله ﷻ.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: هو الذهب[2]، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: أو يكون لك بيت من ذهب[3] ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان تصبح موضوعة عند رأسه[4].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زَحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة، عن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ﷻ ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[5]. ورواه الترمذي في الزهد عن سويد بن نصر، عن ابن المبارك به، وقال: هذا حديث حسن، وعلي بن يزيد يضعف في الحديث[6].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ ويتابعوا الرسول إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).
(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه ويتقوى بالأثرين التاليين، إذ أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة.
(٣) أخرجه الطبري من طريق مجاهد عن ابن مسعود، ومجاهد لم يسمع من ابن مسعود والقراءة شاذة تفسيرية.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وهو لم يسمع من مجاهد.
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً. لضعف عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد.
(٦) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (ح٢٣٤٧).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن]. وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] والآيات في هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة] ولهذا قال ههنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: عليماً بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة، ولهذا قال:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه؛ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل، عن نُفيع قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»(١)، وأخرجاه في الصحيحين(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف جداً، نفيع وهو أبو داود الأعمىٰ متروك الحديث (المسند ٢٠/ ١٣١ ح١٢٧٠٨).

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان] (ح٤٧٦٠)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب يحشر الكافر على وجهه (ح٢٨٠٦).

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد][(١)]، حدثنا الوليد بن جميع القرشي عن أبيه، حدثنا أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذرّ فقال: يا بني غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار، فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال: «يلقي الله ﷻ الآفة[(٢)] على الظهر حتى لا يبقى ظهر، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة فيعطيها بالشارف ذات القتب[(٣)] فلا يقدر عليها»[(٤)].

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أي: لا يبصرون، ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون، ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون، وهذا لا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾.

قال ابن عباس: سكنت[(٥)].

وقال مجاهد: طفئت[(٦)].

﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ].

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾.

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمي والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي: بالية نخرة ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣﴾ [الأحقاف] وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ

---

(١) زيادة من المسند كما في التخريج. (٢) أي: آفة الموت.

(٣) الشارف: الناقة المُسنة، والقتب للبعير شبه الرحل.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: إسناده قوي (المسند ٣٥/ ٣٦٠، ٣٦١ ح٢١٤٥٦). قال الحافظ ابن حجر: أي يشتري الناقة المسنة لأجل كونها تحمله على القتب بالبستان الكريم لهوان العقار الذي عزم على الرحيل عنه، وعزّه الظهر الذي يوصله إلى مقصوده. (فتح الباري ١١/ ٣٨١).

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس]. وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بدّ من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود].

وقوله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر[1]، خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعاً[2]، وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء] أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج] ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه»[3].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عنه، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس، ومعناه صحيح، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بلفظ: «خشية الفاقة».

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «بخيلاً»، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر بلفظ: «خشية الفاقة».

(٣) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ صحيح البخاري، التفسير، باب (وكان عرشه على الماء ح٤٦٨٤، وصحيح مسلم، الزكاة، باب الحث على النفقة... ح٩٣٣).

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس[(١)].

وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا، والخمس في الأعراف والطمسة[(٢)] والحجر[(٣)].

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم[(٤)].

وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون[(٥)] ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النحل: ١٤]، وما نجعت فيهم: فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المراد ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل] فذكر هاتين الآيتين العصا واليد وبيَّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها.

وقد أوتي موسى ﷺ آيات أخر كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتيه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال: لا

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٢) الطمسة هي دعاء موسىٰ وتأمين هارون، كما في الرواية نفسها في الطبري.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه عنعنة ابن إسحاق، وفيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

(٤) قول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق والطبري كلاهما من طريق قتادة عن ابن عباس وقتادة لم يسمع من ابن عباس ويتقوى بما يليه. وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف، وقول عكرمة أخرجه أحمد بن منيع في مسنده بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه (المطالب العالية رقم ٤٠٣٣) وقول الشعبي أخرجه مسدد في مسنده (المطالب العالية رقم ٤٠٣٢)، والطبري كلاهما بسند صحيح من طريق مغيرة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة عن الحسن.

تقل له نبي، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين، فسألاه، فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال لا تفروا من الزحف شعبة الشاك - وأنتم يا يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت» فقبلا يديه ورجليه، وقالا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تتبعاني؟» قالا: لأن داود ﷺ دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود[(١)].

فهذا الحديث رواه هكذا الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير في تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج به، وقال الترمذي: حسن صحيح[(٢)]. وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم، ولهذا قال موسى لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكاً، قاله مجاهد وقتادة[(٣)]، وقال ابن عباس: ملعوناً[(٤)]، وقال أيضاً هو والضحاك ﴿مَثْبُورًا﴾ أي: مغلوباً[(٥)]، والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله، قال الشاعر عبد الله بن الزبعري:

إذ [أُجاري][(٦)] الشيطان في سنن الغـ ـيِّ ومَن مال ميله مثبور[(٧)]

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: علمتُ[(٨)]، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٠/ ١٢، ١٣ ح١٨٠٩٢) وقال محققوه: إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن سَلِمَةَ المرادي. اهـ. وأيضاً فإن رواية عمرو بن مرة عنه بعدما كبر وتغير حفظه.

(٢) سنن الترمذي، الاستئذان، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل (ح٢٧٣٣)، وسنن النسائي، تحريم الدم، باب السحر ٧/ ١١١، وسنن ابن ماجه، الأدب، باب الرجل يقبل يد الرجل (ح٣٧٠٥)، وتفسير الطبري، وسنده ضعيف كسابقه.

(٣) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وبسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٦) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحف إلى: «أجارمى».

(٧) استشهد به الطبري وابن هشام ٢/ ٤١٩.

(٨) وهي قراءة متواترة.

على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله، وليس المراد منها كما ورد في الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه؛ وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاءهم هذا الوهم إلا من قبل عبد الله بن سلمة؛ فإن له بعض ما ينكر، والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات فحصل وهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك فإن أهل مكة همُّوا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء]، ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: لفيفاً أي: جميعاً[1].

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد أنه بالحق نزل، أي: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وصل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس[2].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه ومعناه صحيح ويتقوى بالآثار التالية: فقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٢) أخرجه الطبري والنسائي (السنن الكبرىٰ، التفسير، باب سورة الفرقان ح١١٣٧٢)، والحاكم (المستدرك =

وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: فرقناه بالشديد(١)، أي: أنزلناه آية آية مبيناً ومفسراً، ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، أي: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مهل ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله ﷻ شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعاً لله ﷻ وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]. وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف السجود على السجود، كما قال الشاعر:

إلى الملك القَرْم وابن الهُمام وليث الكتيبة في المزدحم

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله ﷻ، المانعين من تسميته بالرحمٰن ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمٰن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

= (٢/٣٦٨)، والبيهقي (دلائل النبوة ٧/١٣١)، كلهم من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ووافقهما الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٩/٤).

وأصله في صحيح البخاري من طريق هشام عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه (الصحيح، مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ ح٣٨٥١).

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف. والقراءة شاذة تفسيرية.

وقد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمٰن يا رحيم» فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين، فأنزل الله هذه الآية[(١)]، وكذا روي عن ابن عباس[(٢)]، رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن وسبُّوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[(٣)]. أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به[(٤)]، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس، وزاد: فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أي ذلك شاء[(٥)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبَوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[(٦)]. وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة[(٧)].

وقال شعبة، عن [الأشعث بن سليم][(٨)] عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود لم يخافت بها من أسمع أذنيه[(٩)].

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سلمى بن علقمة، عن محمد بن سيرين

---

(١) أخرجه الطبري من طريق الأوزاعي عن مكحول وسنده مرسل.

(٢) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن واقد عن أبي الجوزاء عن ابن عباس، وسنده ضعيف جداً لأن عبد الله بن واقد متروك (التقريب ص٣٢٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/٢٣) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] (ح٤٧٢٢)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية (ح٤٤٦).

(٥) أخرجه الطبري بسند فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف، والضحاك لم يلق ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وداد بن الحصين ثقة إلا في عكرمة كما في التقريب.

(٧) قول عكرمة تقدم في الرواية السابقة، وقول الحسن البصري أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٨) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل: «أبي سليم».

(٩) أخرجه الطبري عن شيخه مطر بن محمد ولم يتبين لي من هو لأنه ورد ثلاثة شيوخ بهذا الاسم.

قال: نُبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي ﷻ وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً[١].

وقال أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء[٢]، وهكذا روى الثوري ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ أنها نزلت في الدعاء[٣]، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير[٤].

وقال الثوري، عن ابن عياش العامري، عن عبد الله بن شداد قال: كان أعرابي من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قال: «اللهم ارزقنا إبلاً وولداً» قال: فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[٥].

(قول آخر): قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂: نزلت هذه الآية في التشهد ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[٦]، وبه قال حفص عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين مثله[٧].

(قول آخر): قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: لا تصلِّ مراءاة للناس ولا تدعها مخافة الناس[٨].

وقال الثوري، عن منصور، عن الحسن البصري ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسيء سريرتها[٩]، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر، عن الحسن به[١٠]،

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وسنده ضعيف لأن ابن سيرين لم يسمع من أبي بكر ﵁، وقد رواه بصيغه: «نُبئت».

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي شيبة (المصنف ٢/ ٤٤١)، وأحمد بن منيع في مسنده (المطالب العالية ٨/ ٦٠٦) كلهم من طريق أشعث بن سوار به وفي سنده أشعث بن سوار وهو ضعيف كما في التقريب، ويتقوى برواية عائشة ﵂ التالية.

(٣) سنده صحيح وأخرجه الشيخان من طريق هشام بن عروة به صحيح البخاري، التفسير، باب (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ح٤٧٢٣، وصحيح مسلم، الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية ح٤٤٧).

(٤) هذه الآثار مراسيل أخرجها الطبري بأسانيد صحاح ويقوي بعضها بعضاً وتتقوى بالرواية السابقة.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ٢/ ٤٤١)، والطبري كلاهما من طريق الثوري به، وسنده مرسل لأن عبد الله بن شداد تابعي.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح إلا أن حفص بن غياث تغير في آخره كما في التقريب، وأخرجه ابن خزيمة من طريق حفص بن غياث به (الصحيح ١/ ٣٥٠ ح٧٠٧) وكذا أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٣٠). وقد خالف حفص الثوري ورواية الصحيح.

(٧) أخرجه الطبري من طريق حفص بن غياث به وسنده ضعيف لضعف أشعث وإرسال ابن سيرين.

(٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٩) أخرجه الطبري من طريق سفيان به، وسنده صحيح.

(١٠) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

وهشيم، عن عوف عنه به[١]، وسعيد عن قتادة عنه كذلك[٢].

قول آخر: قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون ثم يجهر أحدهم بالحرف، فيصيح به ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سنَّ له جبريل من الصلاة[٣].

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لمَّا أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزَّه نفسه عن النقائض فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وليّ أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها وحده لا شريك له.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لم يخالف أحداً ولا يبتغي نصر أحد[٤].

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر، عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى يقولون: اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون[٥] والمجوس[٦]: لولا أولياء الله لذل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾[٧].

وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة ذُكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله والكبير[٨].

قلت: وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمّى هذه الآية آية العزّ[٩]، وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة، والله أعلم.

---

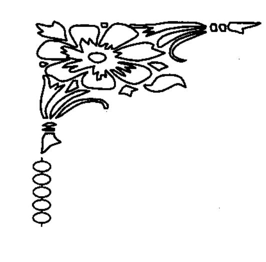
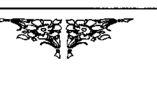
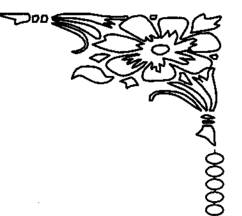
(١) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده صحيح.
(٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة، وسنده صحيح.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن مع تقديم وتأخير، لكنه معضل لأن عبد الرحمن تابع تابعي.
(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) الصابئة: صبأ الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق قيل لهم الصابئة (الملل والنحل ٢/ ٥).
(٦) المجوس: هم الذين يقولون بالأصلين: وهما النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة (الملل والنحل ١/ ٢٣٠).
(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل.
(٨) أخرجه الطبري بسند ومتنه، ورجالة ثقات لكنه مرسل.
(٩) أخرجه الإمام أحمد بسند ضعيف عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه (المسند ٣/ ٤٣٩) في سنده ابن لهيعة وزبان بن فائد.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، أو يدي في يده، فأتى على رجل رث الهيئة فقال: «أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟» قال: السقم والضر يا رسول الله، قال: «ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر؟» قال: لا، قال: ما يسرني بها أن شهدت معك بدراً أو أُحداً، قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: «وهل يدرك أهل بدر وأهل أُحد ما يدرك الفقير القانع؟» قال: فقال أبو هريرة: يا رسول الله إياي فعلمي، قال: «فقل يا أبا هريرة توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً» قال: فأتى علي رسول الله وقد حسنت حالي قال: فقال لي: «مهيم» قال: قلت: يا رسول الله لم أزل أقول الكلمات التي علمتني»[1]، إسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة سبحان.

---

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف موسىٰ بن عبيدة الربذي (المسند ١٢/ ٢٣ ح٦٦٧١).

سُورَةُ الكَهْفِ
وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن»[١]. أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به[٢]، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أُسيد بن الحضير كما تقدم في تفسير سورة البقرة[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»[٤]. رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به، ولفظ الترمذي: «من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف» وقال: حسن صحيح[٥].

(طريق أخرى):

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»[٦] ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به. وفي لفظ النسائي: «من قرأ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٢٨١) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ح ٣٦١٤)، وصحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن (ح٧٩٥).

(٣) تقدم في فضائل سورة البقرة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الصمد وعفان كلاهما عن همام به، وصحح سنده محققوه (المسند ٤٥/ ٥٢٧) (ح٢٧٥٤٢).

(٥) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (ح٨٠٩)، وسنن أبي داود، الملاحم، باب خروج الدجال (ح٤٣٢٣)، والسنن الكبرى للنسائي، كتاب فضائل القرآن (ح٨٠٢٥)، وسنن الترمذي، فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الكهف (ح٢٨٨٦).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه ثم ذكروا فائدة مهمة في قولهم: لكن شذّ فيه شعبة فقال: «من أواخر سورة الكهف» فخالف همّام بن يحيىٰ في الرواية السالفة برقم (٢١٧١٢)، وسعيد بن أبي عروبة في الرواية الآتية برقم (٢٧٥٤٠)، وشيبان النحوي في الرواية (٢٧٥٤١)، وهشام الدستوائي عند مسلم (٨٠٩) قالوا جميعاً: من أول سورة الكهف (المسند ٤٥/ ٥٠٨، ٥٠٩ ح٢٧٥١٦).

عشر آيات من الكهف» فذكره[١].

حديث آخر: وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»[٢] فيحتمل أن سالماً سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبان بن فايد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين السماء والأرض»[٣]. انفرد به أحمد ولم يخرجوه.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره بإسناد له غريب عن خالد بن سعيد [بن][٤] أبي مريم، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين»[٥] وهذا الحديث في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.

وهكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سننه عن هشيم بن بشير، عن أبي هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: من قرأ سوة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق. هكذا وقع موقوفاً[٦]، وكذا رواه الثوري، عن أبي هاشم به من حديث أبي سعيد الخدري وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضيل بن محمد الشعراني، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هشيم، حدثنا أبو هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين» ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٧]. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه عن الحاكم، ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما نزلت، كانت له نوراً يوم القيامة»[٨]. وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب، عن منظور بن زيد بن خالد الجهني، عن علي بن الحسين، عن

---

(١) صحيح مسلم، الحديث السابق والسنن الكبرى للنسائي، كتاب عمل اليوم والليلة (ح١٠٧٨٦).
(٢) المصدر السابق (ح١٠٧٨٤).
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ٢٤/ ٣٩٠ ح١٥٦٢٦).
(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحِّف إلى: «عن».
(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة محمد بن خالد الختلي مسنداً ونقل عن ابن الجوزي أنه كذبوه، وعن ابن منده: صاحب مناكير (لسان الميزان ٥/ ١٥١) ولهذا وصفه الحافظ ابن كثير بالغرابة، والراجح وقفه كما قرر الشيخ الألباني وأن له حكم الرفع (إرواء الغليل ٣/ ٩٤)، وقال المنذري: رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به (الترغيب ١/ ٥١٣)، والصحيح وقفه.
(٦) سنده صحيح وهذا الموقوف هو الراجح، وقد رجح ذلك البيهقي (الجامع لشعب الإيمان ح٢٤٤٦).
(٧) أخرجه الحاكم بسنده ومتنه وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: نعيم ذو مناكير (المستدرك ٢/ ٣٦٨).
(٨) السنن الكبرى ٣/ ٢٤٩.

أبيه، عن علي مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه»[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً جلياً نذيراً للكافرين، بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الأخرى ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: مثوبة عند الله جميلة ﴿مَّـٰكِثِينَ فِيهِ﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء.

وقوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله[٢].

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بهذا لقول الذي افتروه وائتفكوه من علم ﴿وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ﴾ أي: لأسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمةً. وقيل: على التعجب تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم بزيد رجلاً، قاله بعض البصريين، وقرأ ذلك بعض قراء مكة: (كبرت كلمةٌ)[٣] كما يقال: عظم قولك وكبر شأنك، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ﴾ أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي بسنده ومتنه (المختارة ٢/ ٤٢٩)، وفي سنده عبد الله بن مصعب فهو الجهني تُكلم فيه (لسان الميزان ٣/ ٣٦٢).

(٢) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ٣٠٢).

(٣) وهي قراءة شاذة.

قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب؟ وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها[١] ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطّواف، وقول الله عز وجل ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء][٢].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء] باخع؛ أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً.

قال قتادة: قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم[٣].

وقال مجاهد: جزعاً[٤]، والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم؛ بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

---

(١) الرجل هو ذو القرنين.

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وذكره ابن هشام (السيرة ١/٣٠٢) وسنده ضعيف لإبهام شيخ ابن إسحاق.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

قال قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[١].

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ أي: وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيداً جرزاً لا ينبت ولا ينتفع به.

كما قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ يقول: يهلك كل شيء عليها ويبيد[٢].

وقال مجاهد: صعيداً جرزاً بلقعاً[٣].

وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات[٤].

وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [السجدة][٥].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ يعني: الأرض وأن ما عليها لفانٍ وبائد، وأن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى[٦].

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال [ابن جريج][٧] عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ يقول:

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٦٥.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٦) يشهد له ما سبق.

(٧) كذا في (ح) وفي الأصل صُحّف إلى ابن جرير وكذا في (حم).

قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك[(١)].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم[(٢)].

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون[(٣)]، وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو وادٍ قريب من أيلة[(٤)]، وكذا قال عطية العوفي وقتادة[(٥)].

وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي[(٦)].

وقال مجاهد: الرقيم [كتاب تبيانهم][(٧)]، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم[(٨)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله الرقيم: كان يزعم كعب أنها القرية[(٩)].

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف[(١٠)].

وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس[(١١)].

وقال ابن جريج: أخبرني وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران[(١٢)].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وليس عن مجاهد، وما ورد عن ابن جريج عن مجاهد بلفظ: «كانوا يقولون: هم عجب».

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق بنحوه وكذا ابن هشام والسيرة ١/ ٣٠٣.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٥) قول عطية العوفي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن إدريس عن أبيه عنه بلفظ: «الرقيم وادٍ»، وكذا أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٧) كذا في تفسير الطبري: كتاب تبيانهم وفي (ح) و(حم): كتاب بنيانهم، وصحف في الأصل إلى: «كان»، وهكذا في جميع الطبعات.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) أخرجه البستي من طريق سفيان به، وسنده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح أيضاً.

(١٠) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يلق ابن عباس.

(١١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وفي سنده عنعنة ابن إسحاق، وشيخ الطبري هو محمد بن حميد وهو الرازي: ضعيف.

(١٢) أخرجه الطبري والإمام أحمد كلاهما من طريق حجاج عن ابن جريج به (العلل برواية ابنه عبد الله ١/ ١٠٠) ووهب بن سليمان سكت عنه ابن أبي حاتم (الجرح ٩/ ٢٧) وذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ٥٥٧) والرواية إسرائيلية.

إلا حناناً والأواه والرقيم[١].

وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ كتاب أم بنيان[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيم الكتاب[٣]. وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف[٤].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين][٥]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير، قال: الرقيم فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل، وللمجروح جريح، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: هَب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً؛ أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً»[٦].

وفي المسند من حديث بُسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللَّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلِّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»[٧].

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وفي رواية سماك عن عكرمة اضطراب ولكنه توبع في الرواية التالية، فسنده حسن.

(٢) أخرجه القاضي البستي بسند صحيح عن ابن أبي عمر، وهو العدني، عن سفيان عن عمرو بن أبي دينار به، وأخرجه الطبري من طريق الحسين عن حجاج عن ابن جريج به، وفي سنده الحسين وهو ابن داود: ضعيف ويتقوىٰ بسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن قيس عن سعيد بن جبير.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، وهو عبد الله، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به وأطول.

(٦) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة ﵂ كاملاً وما ورد هو من آخر الحديث، وصحح سنده محققوه (المسند ٤٢/ ٦٧ ح٢٥١٣٧)، وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح٦٣٩) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٤٩٧).

(٧) أخرجه الإمام أحمد وقال محققوه: رجاله موثقون غير أيوب بن ميسرة فقد روىٰ عنه اثنان، وذكره ابن حبان في الثقات، وبسر بن أرطاة مختلف في صحبته (المسند ٢٩/ ١٧٠، ١٧١ ح١٧٦٢٨)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٥٩١)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ١٠/ ١٨١).

أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإنّ الأمد الغاية، كقوله[١]:

سبق الجواد إذا استولى على الأمد[٢]

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة[٣] يعني: الحلق، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم؛ أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذُكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس[٤] أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدلَّ هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على

---

(١) هو النابغة الذبياني ذكره في ديوانه ص١٤.

(٢) هذا عجز البيت وصدره:

إلا لمثلك أو مَن أنت سابقه

وكذا استشهد به الطبري كاملاً.

(٣) رواه مجاهد بلاغاً ومن الواضح أنه من الإسرائيليات الموسومة بالتكلف.

(٤) تقدم في أول التفسير بسند ضعيف.

مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السمٰوات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان[(١)].

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[(٢)]. وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ[(٣)].

والناس يقولون: الجنسية علة الضم، والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره، فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السمٰوات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ[(٤)]، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾.

ولن لنفي التأبيد؛ أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم:

---

(١) أخرجه الطبري بأسانيد ضعيفة ومرسلة عن مجاهد وعبيد بن عمير وهي من أخبار بني إسرائيل، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد في تفسيره وابن أبي حاتم بسند صححه الحافظ ابن حجر عن ابن عباس مطولاً (تغليق التعليق ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة ح٣٣٣٦) ووصله الحافظ ابن حجر من طرق كثيرة (تغليق التعليق ٤/ ٥ ـ ٧)، وأخرجه البخاري موصولاً في الأدب المفرد وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٦٩١).

(٣) صحيح مسلم، البر، باب الأرواح جنود مجندة (ح٢٦٣٨).

(٤) هذه تتمة القصة التي تقدم تخريجها قبل روايتي البخاري ومسلم.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وبهتاناً ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[(١)] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم فيه ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هِراباً إلى الكهف فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال أنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيّه محمد ﷺ، وصاحبه الصديق حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[(٢)]. وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة]، فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.

وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم، فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك[(٣)]، وفي هذا نظر، والله أعلم، فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشياً، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ (الصحيح، الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن (ح١٩).

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي بكر ﷺ (صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ...﴾ [التوبة: ٤٠] (ح٤٦٦٣)، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (ح٢٣٨١).

(٣) هذه نهاية القصة التي تقدم تخريجها قبل بضع روايات.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.

هذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تميل[1]، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القِبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، ولله الحمد.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تتركهم[2]، وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، وقد تكلَّف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة.

وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به»[3] فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: تميل[4] ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس[5].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سالم الأفطس عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ: «تذرهم»، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه بلفظ: «تدعهم».

(٣) أخرجه الطبراني من حديث أبي ذرٍّ ﷺ مرفوعاً (المعجم الكبير ٢/ ١٥٥ ح١٦٤٧) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقري وهو ثقة (مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٨٠٣).

(٤) يشهد له ما تقدم صحته عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة قبل روايتين.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صححه الحافظ ابن حجر من طريق سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مطولاً (تغليق التعليق ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الآية؛ أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر[(١)]:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض[(٢)].

قوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد: الفناء[(٣)]، وقال ابن عباس: بالباب[(٤)]. وقيل: بالصعيد[(٥)]. وهو التراب، والصحيح أنه بالفناء وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة] أي: مطبقة مغلقة، ويقال: وصيد وأصيد، ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب[(٦)]، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح ولا صورة[(٧)] ولا جنب[(٨)] ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن[(٩)]، وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم

---

(١) هو حميد بن ثور، والبيت في ديوانه ص١٠٤.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بالطريق السابق الذي صححه الحافظ ابن حجر.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس بسند ثابت من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سالم الأفطس عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري بأسانيد ضعيفة عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

(٦) أخرجه الطبري بلفظ: «يُمسك عليهم الباب».

(٧) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعاً (الصحيح، اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ح٥٩٦٠).

(٨) أخرجه أبو داود (السنن، الطهارة، باب في الجنب يؤخر الغسل ح٢٢٧)، والنسائي (السنن، الطهارة، باب الجنب إذا لم يتوضأ ١/١٤١)، وابن ماجه (السنن، اللباس، باب الصور في البيت ح٤٤) كلهم من طريق عبد الله بن نُجي عن أبيه عن علي بن أبي طالب ﷺ مرفوعاً: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنباً»، ونجي: مقبول (التقريب ص٥٦٠)، ولم يتابع، فسنده ضعيف.

(٩) ضعيف كما تقدم وليس بحسن.

على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين وصحبه كلبه، فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة همام بن الوليد الدمشقي: حدثنا صدقة بن عمر الغساني، حدثنا عباد المنقري، سمعت الحسن البصري يقول: كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام: جرير، واسم هدهد سليمان عليه السلام: عنقز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه: بهموت، وهبط آدم عليه السلام بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية بأصفهان[1]. وقد تقدم عن شعيب الجبائي أنه سماه حمران[2]، واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها، فلهذا قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها، والألف واللام للعهد ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعاماً. كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى] ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره، وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر:

---

(١) ذكره ابن منظور (مختصر تاريخ دمشق ٢٧/١٤٣) وهو ضعيف سنداً ومتناً، فالسند مرسل، والمتن من الإسرائيليات.

(٢) تقدم في تفسير الآية رقم ٩.

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة ... وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب[١]

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو: الطيب الحلال سواء كان كثيراً أو قليلاً.

وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وليختف كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يعلمنّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون: أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في مِلّتهم التي هم عليها، أو يموتوا، وإن واتوهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة[٢]، وذكروا أن اسمها: دقسوس[٣]، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر:

أما الديار فإنها كديارهم ... وأرى رجال الحي غير رجاله[٤]

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها: لا خواصها ولا عوامّها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعلّ بي جنوناً أو مسّاً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة؟ لعله وجدها من كنز وممن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى

---

(١) البيت للقتال الكلابي كما في: الكتاب لسيبويه ٣/ ٥٦٥، واستشهد به معمر (المجاز ١/ ٢٣٧) دون نسبه وكذا الطبري.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة عن عكرمة لكنه مرسل ومن أخبار بني إسرائيل.

(٣) وفي تفسير الطبري: أقسوس، وفي بعض النسخ: بلفظه.

(٤) استشهد به الطبري ولم يعزه لأحد.

أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف ـ ملك البلد وأهلها ـ حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم، وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه: تيدوسيس، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله ﷻ[١]، فالله أعلم.

قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمرّوا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف، فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلثمائة سنة، ورواه ابن جرير[٢].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم.

﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين:

(أحدهما): أنهم المسلمون منهم.

(والثاني): أهل الشرك منهم[٣]، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»[٤] يحذر ما فعلوا، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه؛ فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده عن وهب بن منبه والخبر من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة به، وقتادة لم يسمع من ابن عباس.

(٣) وهذه الأخبار كسابقها.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جُندب مرفوعاً (الصحيح، المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ح٥٣٢).

ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ، كانوا سبعة[١]. وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله ﷻ ويقول: عدتهم سبعة[٢]، وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمٰن، حدثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة عن ابن عباس؛ «ما يعلمهم إلا قليل» قال: أنا من القليل، كانوا سبعة، فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة سنة وضح الورق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله يبكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر[٣]: مكسلمينا[٤] وكان أكبرهم وهو الذي كلم الملك عنهم، ومجسيميلنينا ومرطونس وكشطونس وبيرونس ودنيموس ويطبونس وقالوش[٥]، هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل أن هذا من كلام ابن إسحاق أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية، وقد تقدم عن شعيب الجبائي أن اسم كلبهم حمران، وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب؛ أي: من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل

---

(١) أخرجه الطبري من طريق قتادة قال ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول... بنحوه. وسنده منقطع لأن قتادة لم يسمع من ابن عباس، وقد توبع فقد أخرجه الطبري والبستي بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني به ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه الطبراني بسند ضعيف من طريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس (المعجم الأوسط ٦/ ١٧٥ ح٦١١٣) وهذا يخالف ما صح عن ابن عباس كما تقدم بأنهم سبعة.

(٤) كذا في تفسير الطبري و(ح) و(حم) وفي الأصل صُحف إلى: «مكيليمنينا».

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق من كلامه مطولاً وهو كما قال الحافظ ابن كثير أنه من كلام ابن إسحاق، والخبر من الإسرائيليات.

أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، علّام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليه السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية: تسعين امرأة، وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية قال له الملك: قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهم فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته» وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعين»[١] وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف غداً أجيبكم» فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة[٢]، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ قيل: معناه: إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري[٣].

وقال هشيم عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف قال: له أن يستثني ولو إلى سنة وكان يقول: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ ذلك، قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد؟ فقال: حدثني به ليث بن أبي سُليم تُرى ذهب كسائي هذا[٤]! ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش به[٥].

ومعنى قول ابن عباس أنه يستثني ولو بعد سنة؛ أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير رحمه الله[٦]، ونصّ على ذلك لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ أي إذا غضبت[٧]. وهذا تفسير باللازم.

وقد قال الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن

---

(١) أخرج الروايتين البخاري (الصحيح، النكاح، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي ح٥٢٤٢) وكتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان (ح٦٧٢٠).

(٢) تقدم في الآية رقم (٥) وتبين أنه ضعيف السند.

(٣) قول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري والبيهقي (الأسماء والصفات ٣٦٦) بسند منقطع من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه بلاغاً عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وأخرجه الحاكم من طريق الأعمش به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/٣٠٣) وقول الأعمش: تُرى ذهب كسائي هذا! ورد معناه في حاشية تفسير الطبري المحقق: يريد أنه لم ينقصه شيء بإسقاط ليث بن أبي سليم من الإسناد.

(٥) المعجم الكبير (١١/٦٨ ح١١٠٦٩).

(٦) ذكره الطبري بنحوه ولكن فيه: «ولو بعد عشر سنين» بدل سنة.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٨/٢٨٨)، والطبري بسند جيد من طريق ثابت بن جابان عن عكرمة.

العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله[(١)].

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث [الجُبيلي][(٢)]، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حصين، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس [في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله[(٣)]. وروى الطبراني أيضاً عن ابن عباس[(٤)]] في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء فاستثن إذا ذكرت، وقال: هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه، ثم قال: انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين[(٥)]، ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وذكر الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي الثلثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد ثلثمائة وازدادوا تسعاً.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد[(٦)] وغير واحد من السلف والخلف.

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١٢/ ١٧٩ ح١٢٨١٧) وسنده حسن.

(٢) كذا في المعجم الكبير ١٢/ ١٧٩ (ح١٢٨١٧) وفي الأصل: «الجيلي» وفي (ح) و(حم): الحبلي.

(٣) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الأوسط ٧/ ٦٨ ح٦٨٧٢)، قال الهيثمي: وفيه عبد العزيز بن حصين وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٧/ ٥٦)، وقد تابعه سفيان بن حسين في الرواية السابقة فيكون سنده حسناً لغيره.

(٤) زيادة من (ح) و(حم).

(٥) في سنده عبد العزيز بن الحصين وهو ضعيف كما تقدم في الرواية السابقة ولم يتابع فسنده ضعيف.

(٦) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد ردّه الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾[١]. قال: وفي قراءة عبد الله (وقالوا ولبثوا)، يعني أنه قاله الناس[٢]، وهكذا قال كما قال قتادة مطرف بن عبد الله، وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: وازدادوا تسعاً، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور، فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: أنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء[٣]. ثم روي عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع[٤].

وقال ابن زيد ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً[٥].

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرّف ولا مؤول.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [عن مجاهد ملتحداً قال: ملجأ[٦].

وعن قتادة: ولياً ولا مولى[٧]. قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله[٨]][٩]، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع ابن مسعود، والقراءة شاذة تفسيرية.

(٣) ذكره الطبري بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرج الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «ملجأ ولا موئلاً».

(٨) ذكره الطبري بنحوه.

(٩) زيادة من (ح) و(حم).

مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم، وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي، عن إسرائيل، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن سعد هو: ابن أبي وقاص قال: كنَّا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما يشاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ﴾[(١)]. انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي التيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أُمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاصٍّ يقصُّ فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قصّ، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب»[(٢)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هاشم، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت كردوس بن قيس، وكان قاصّ العامة بالكوفة، يقول: أخبرني رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب» قال شعبة: فقلت أي مجلس؟ قال: كان قاصاً[(٣)].

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً» فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين ألفاً وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل، والله ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (الصحيح، فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ؓ ٢٤١٣).
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعفه محققوه (المسند ٣٦/ ٥٩٠ ح٢٢٢٥٤).
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعفه محققوه لجهالة كردوس (المسند ٢٥/ ٢٣٦ ح١٥٩٠٠).
(٤) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ص٢٨١ ح٢١٠٤)، وسنده ضعيف لضعف يزيد بن أبان وهو الرقاشي.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي مسلم وهو: الكوفي أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبي ﷺ سكت، فقال النبي ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»، هكذا رواه أبو أحمد عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر مرسلاً.

وحدثنا يحيى بن المعلى، عن المنصور، حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، قالا: جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر، أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون [المرئي](٢)، حدثنا ميمون بن سياه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم منادٍ من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات»(٣). تفرد به أحمد رحمه الله.

وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمٰن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية، فخرج يتلمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم»(٤) عبد الرحمٰن هذا، ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادات الصحابة رضي الله عنهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم(٥). يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

---

(١) أخرجه البزار متصلاً ومرسلاً كما في كشف الأستار (ح٢٣٢٥، ٢٣٢٦)، قال الهيثمي وفيه عمرو بن ثابت وهو متروك (مجمع الزوائد ٧/ ١٦٧).

(٢) كذا في المسند، وفي الأصل (ح) و(حم): «المراي».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: صحيح لغيره (المسند ١٩/ ٤٣٧ ح١٢٤٥٣).

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن وهب به. وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٢٤)، ولكن سنده مرسل لأن عبد الرحمن تابعي وليس بصحابي، فقد أخرجه ابن منده وأبو نعيم في الصحابة، واستدرك ابن الأثير بقوله: «ولا يصح وإنما لصحبة لأبيه ولأخيه أبي أمامة وله رؤية» (أسد الغابة ٣/ ٣٥٣).

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن ابن عباس، ويتقوىٰ بما أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة»(١). وأخرجه الترمذي في صفة النار، وابن جرير في تفسيره، من حديث دراج أبي السمح به(٢).

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال: حائط من نار(٣).

قال ابن جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم عن عبد الله بن أُمية، حدثني محمد بن حيي بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أُمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم» قال: فقيل له: [كيف ذلك]؟(٤) فتلا هذه الآية، أو قرأ هذه الآية ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً أو ما دمت حياً لا تصيبني منها قطرة»(٥).

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل: الماء الغليظ مثل دُردي(٦) [الزيت](٧)(٨).

وقال مجاهد: هو كالدم والقيح(٩).

وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره(١٠).

وقال آخرون: هو كل شيء أذيب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٩)، وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم. وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (السنن، صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار ح٢٥٨٧)، والطبري كلاهما من طريق دراج به، وحكمه كسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٤) الزيادة من تفسير الطبري.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لجهالة محمد بن حيي، وأخرجه الإمام أحمد من طريق محمد بن حيي به، وضعفه محققوه لجهالة محمد بن حيي (المسند ٢٩/ ٤٧٨ ح١٧٩٦٠).

(٦) الدردي: ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان (النهاية ٢/ ١١٢).

(٧) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحفت إلى: «الزبيب».

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس ويتقوى برواية الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «أسود كهيئة الزيت».

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(١٠) أخرجه الطبري عن سعيد بن جبير وليس عن عكرمة.

وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد، قال: هذا أشبه شيء بالمهل[١].

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود[٢].

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في سرادق النار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل ـ قال ـ كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه»[٣]. وهكذا رواه الترمذي في صفة النار من جامعه من حديث رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج به، ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث رشدين، وقد تكلم فيه من قبل حفظه هكذا، قال: وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن دراج، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك وبقية بن الوليد: عن صفوان بن عمرو، عن عبد الله بن بسر، عن أبي أُمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧]، قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾»[٤].

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا، فأغيثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها، فاجتثت جلود وجوههم، فلو أن ماراً مرَّ بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود[٥]، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية] أي: حارة، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٤].

﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما

---

(١) أخرجه الطبري من طريق قتادة به، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود.

(٢) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد، وهو ابن سليمان، عن الضحاك.

(٣) تقدم تخريجه وضعفه في بداية تفسير هذه الآية. (٤) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم آية ١٧.

(٥) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن: الإقامة، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

و﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحلية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وفصله ههنا، فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس ثياب رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها. وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد ههنا، ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[(١)]، فيه القولان: والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناة، والله أعلم.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قال: هي الحجال، قال معمر وقال غيره: السرر في الحجال[(٢)].

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتفقاً، أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان]، ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان].

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين؛ أي: بستانتين من أعناب، محفوفتين بالنخيل، المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا. ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به المال، روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (الصحيح، الأطعمة، باب الأكل متكئاً ح٥٣٩٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

وقيل: الثمار[(١)]، وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الأخرى ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٌ﴾ بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب. وقرأ آخرون ثمر بفتح الثاء والميم[(٢)]، فقال أي صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره، أي يجادله، ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال وعزة النفر[(٣)].

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكار المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، ذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكوننَّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم] أي: في الدار الآخرة تألى على الله ﷻ. وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة [وعليه التكلان][(٤)(٥)].

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية؟ كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٢) القراءتان متواترتان.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.
(٤) زيادة من (ح) و(حم).
(٥) سيأتي في تفسير سورة مريم آية ٧٧.

ثـم قـال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ هذا تحضيض وحثٌّ على ذلك؛ أي: هلّا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريم. وقد روي فيه حديث مرفوع، أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زرارة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت» وكان يتأول هذه الآية ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[(١)].

قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس لا يصح حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رهم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله»[(٢)] تفرد به أحمد.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي [بَلْج][(٤)]، عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال: قلت: نعم فداك أبي وأُمي. قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله» قال [أبو بَلج][(٤)]: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم» قال: فقلت لعمرو: قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: لا إنها في سورة الكهف ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[(٥)].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر إلى مسند أبي يعلى (المطالب العالية ٣/ ٣٥٠ ح٣٦٧٣)، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣٠١ ح٤٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٤ ح٤٥٢٥) كلاهما من طريق عيسىٰ بن عون به، وسنده ضعيف لضعف عبد الملك بن زراه كما قرر الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله (المسند ١٦/ ٩٠ ح١٠٠٥٦) وهذا التصحيح بالمتابعات والشواهد.

(٣) أخرجه الشيخان (صحيح البخاري، القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله ح٦٦١٠)، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (ح٢٧٠٤).

(٤) كذا في (ح) وفي المسند، وفي الأصل صحفت إلى: «بلخ»، وفي (حم): بلح.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسن سنده محققوه دون قوله: «تحت العرش» (المسند ١٤/ ١٤٩ ح٨٤٢٦)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي بلج به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٢١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٥٢٨).

جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري؛ أي: عذاباً من السماء(١).

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بلقاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم.

وقال ابن عباس: كالجُرز(٢) الذي لا ينبت شيئاً.

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك] أي: جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر(٣):

تظل جياده نوحاً عليه ... مقلدة أعنتها صفونا(٤)

بمعنى نائحات عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغترَّ بها وألْهته عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾.

وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾(٥) أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموطن الذي حلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدئ بقوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ يبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾.

ثم اختلفوا في قراءة الولاية، فمنهم من فتح الواو من الولاية، فيكون المعنى هنالك الموالاة لله؛ أي: هنالك كل أحد مؤمن أوكافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر]

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوىٰ بما يليه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول مالك عن الزهري صحيح سنده.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٣) هو عمرو بن كلثوم وقد استشهد بهذا البيت معمر بن المثنىٰ في (مجاز القرآن ١/ ٤٠٤) والطبري.

(٤) صفونا: الصافن من الخيل الذي قد قلب أحد حوافره وقام على ثلاث قوائم.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] ومنهم من كسر الواو من الولاية[1]؛ أي: هنالك الحكم لله الحق، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان] ومنهم من خفض القاف[2] على أنه نعت لله ﷻ، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله ﷻ، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشبَّ وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ الآية [٢٤]، وقال في الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ الآية، وقال في سورة الحديد ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة»[3].

وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات الصلوات

---

(١) وهي قراءة متواترة. (٢) وهي قراءة متواترة.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٦٥.

الخمس[١].

وقال عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير، عن ابن عباس: الباقيات الصلحات سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر[٢]، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رواه الإمام أحمد، حدثنا أبو عبد الرحمٰن المقري، حدثنا حيوة، حدثنا أبو عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان بن عفان ﷺ يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء في إناء أظنه سيكون فيه مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح. ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهي الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[٣]. تفرد به.

وروى مالك عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٤].

وقال محمد بن عجلان، عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهنَّ الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٥].

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن نافع بن سرجس أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن الباقيات الصالحات. قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، [وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك[٦].

وقال مجاهد: الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبد الله بن مسلم بن هرمز عنه، وعبد الله بن مسلم بن هرمز ضعيف كما في التقريب.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الملك العرزمي عن عطاء به، وأخرجه من طريق عبد الله بن مسلم بن هرمز عن سعيد بن جبير به، وقد توبع عبد الله بن مسلم بواسطة عبد الملك العرزمي.

(٣) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة هود آية ١١٤.

(٤) أخرجه الإمام مالك بسنده ومتنه (الموطأ، القرآن، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى ١/ ٢١٠ ح٢٣) وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن عجلان به، ويشهد له سابقه.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به وسنده جيد.

أكبر][(١)(٢)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هن الباقيات الصالحات[(٣)].

قال ابن جرير: وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات»[(٤)].

قال: وحدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هن يا رسول الله قال: «الملة» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(٥)]. وهكذا رواه أحمد من حديث دراج به[(٦)].

قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمٰن مولى سالم بن عبد الله حدثه قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي في حاجة، فقال: قل له القني عند زاوية القبر، فإن لي إليك حاجة، قال: فالتقيا فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال له سالم: متى جعلت فيها لا حول ولا قوة إلا بالله؟ قال: ما زلت أجعلها، قال: فراجعه مرتين أو ثلاثاً فلم ينزع، قال: فأثبت؟ قال سالم: أجل فأثبت، فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «عرج بي إلى السماء فأريت إبراهيم ﷺ، فقال: يا جبريل من هذا الذي معك؟ فقال: محمد، فرحب بي وسهل، ثم قال: مُر أُمتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، فقلت: وما غراس الجنة فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله»[(٧)].

---

(١) ما بين معقوفين سقط واستدرك من نسخة (ح) و(حم).

(٢) أخرجه الثوري عن منصور، وهو ابن المعتمر، عن مجاهد، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الطبراني من طريق داود بن بلال عن عبد العزيز بن مسلم به (المعجم الصغير ١/ ١٤٥) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير داود بن بلال وهو ثقة (مجمع الزوائد ١٠/ ٩٢)، وأخرجه الحاكم من طريق عبد العزيز بن مسلم به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥٤١)، وقال المنذري: إسناده جيد قوي (الترغيب والترهيب ٢/ ٤٣٢) ويشهد له ما تقدم.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم ويشهد له ما سبق.

(٦) المسند ٣/ ٧٥ وسنده كسابقه ويتقوى بالشواهد المتقدمة.

(٧) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن وهب به، وأخرجه الإمام أحمد من طريق حيوة عن أبي صخر به مختصراً، وضعف سنده محققوه لجهالة حال عبد الله بن عبد الرحمن (المسند ٣٨/ ٥٣٣ ح٢٣٥٥٢)، وأخرجه ابن حبان من طريق أبي صخر مختصراً (الإحسان ٣/ ١٠٣ ح٨٢١) وقال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة، لم يتكلم فيه أحد، ووثقه ابن حبان (مجمع الزوائد ١٠/ ١٠٠) وتوثيق ابن حبان في هذا المقام لا يكفي، وحسنه المنذري (الترغيب ٢/ ٤٤٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد عن العوام، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء، ثم قال: «أما إنه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه. ألا وإن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بخ بخ[٢] لخمس ما أثقلهنَّ في الميزان: لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولدُ الصالح يتوفى فيحتسبه والده - قال -: بخٍ بخٍ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن دخل الجنة: يؤمن بالله واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعثُ بعد الموت، وبالحساب»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية، قال: كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر، فنزل منزلاً فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة نعبث بها، فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب». ثم رواه أيضاً النسائي من وجه آخر عن شداد بنحوه[٤].

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمي الحسين، عن يونس بن نفيع الجدلي، عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال: كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السراة غدوة، فأتيت منى عند العصر، فتصاعدت في الجبل: ثم هبطت فأتيت النبي ﷺ، فأسلمت وعلمني ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات»[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، وفي سنده إبهام شيخ العوام، ويشهد لآخره الروايات السابقة.

(٢) بخ بخ: يقال عند المدح والرضا بالشيء، ويكرر للمبالغة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، والمولى الذي لم يسمَّ هو أبو سلمى راعي رسول الله ﷺ (المسند ٢٤/ ٤٣٠ ح١٥٦٦٢)، وهذا التصحيح بالشواهد والمتابعات.

(٤) تقدم تخريجه وبيان غريبه في تفسير سورة التوبة آية ٣٥.

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٦/ ٥١ ح٥٤٨٣)، قال الهيثمي: وفيه الحسين بن الحسن العوفي وهو ضعيف. (مجمع الزوائد ٧/ ١٦٩)، والروايات السابقة تشهد لآخره.

وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل»[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قال: هي ذكر الله قول: لا إله إلا الله، والله أكبر وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السمٰوات والأرض[٢].

وقال العوفي، عن ابن عباس: هُنَّ الكلام الطيب[٣].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها[٤]، واختاره ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة] وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتاً، أي لا وادي ولا جبل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾][٦] لا خَمَر فيها ولا غيابة[٧]. قال قتادة: لا بناء ولا شجر[٨].

---

(١) أخرجه الطبراني (المعجم ٦/ ٥٢ ح٥٤٨٤) وسنده كسابقه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٥) اختاره مستدلاً برواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ما بين معقوفين زيادة من (ح) و(حم).

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة] وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ] ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر، إلا أحصاها، أي ضبطها وحفظها.

وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا من وجد عوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به» قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: «أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه»[(١)].

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ أي: من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق] أي: تظهر المخبآت والضمائر.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة [يعرف به»[(٢)]. أخرجاه في الصحيحين[(٣)]، وفي لفظ: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة][(٤)] عند استه بقدر غدرته، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٦/ ٥٢ ح٥٤٨٥) وسنده ضعيف أيضاً فيه الحسين بن الحسن بن عطية وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١٤٢) وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر (ح٣١٨٧)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب تحريم الغدر (ح١٧٣٧).

(٤) زيادة من (ح) و(حم).

(٥) صحيح البخاري، الجزية، باب إثم الغادر (ح٣٦٨٦)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب تحريم الغدر (ح١٧٣٨).

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء] والآيات في هذا كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً، فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله ﷻ الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلاً بهما» قلت: وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديَّان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصّه منه حتى اللّطمة: قال: قلنا: كيف وإنما نأتي الله ﷻ حفاة عراة غرلاً بهما؟ قال: «بالحسنات والسيئات»[(١)].

وعن شعبة، عن العوام بن مزاحم، عن أبي عثمان، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجماء[(٢)] لتقتص من القرناء يوم القيامة»[(٣)] رواه عبد الله بن الإمام أحمد، وله شواهد من وجوه أخر، وقد ذكرناها عند قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وعند قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسن سنده محققوه (المسند/ ٤٣١ - ٤٣٣ ح١٦٠٤٢)، وأخرجه البخاري من طريق عبد الله بن عقيل به (الأدب المفرد ح٩٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد ح٧٤٦.

(٢) أي: الشاة الجماء وهي التي لا قرن لها (النهاية ١/ ٣٠٠).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٣٩.

وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه وبألطافه رزقه وغذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(١) فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة، ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن؛ أي: على أنه خلق من نار، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر(٢)، رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت(٣). وقال الضحاك أيضاً عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله، واستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين.

قال ابن عباس قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: من خزان الجنان، كما يقال للرجل مكي ومدني وبصري وكوفي(٤). وقال ابن جريج عن ابن عباس نحو ذلك(٥)، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: هو من خزان الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد به(٦). وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة

---

(١) صحيح مسلم، الزهد، باب في أحاديث متفرقة (ح٢٩٩٦).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف، وهو الأعرابي، عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الضحاك به، والضحاك لم يلق ابن عباس، وفي سنده أيضاً بشر بن عمارة وهو ضعيف.

(٤) تخريجه كسابقه.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وفي سنده شيخ الطبري سفيان بن وكيع فيه مقال.

سماء الدنيا(١).

وقال ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه: عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جناً(٢).

وقال ابن جريج، عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر ـ أحدهما أو كلاهما ـ عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فسخط الله عليه فمسخه شيطاناً رجيماً، لعنه الله ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه، وإذا كانت في معصية فارجُه(٣).

وعن سعيد بن جبير أنه قال: كان من الجنَّانين الذين يعملون في الجنة(٤)، وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث، وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعيث والفساد، ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ الآية، أي بدلاً عني، ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به وسنده ضعيف لعنعنة ابن إسحاق، وفيه شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به وفي سنده عنعنة ابن جريج، والحسين هو ابن داود: ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣]، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعواناً[١].

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في دار الدنيا ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الآية [القصص]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد: مهاداً[٢].

وقال قتادة: ذُكر لنا أن عمر البكالي حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو وادٍ عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة[٣]. وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾ وادياً في جهنم[٤].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم، سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم[٥].

وقال الحسن البصري: موبقاً: عداوة[٦]، والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، والمعنى أن الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه بلفظ: «هلاكا».

(٣) أخرجه الطبري والبيهقي (البعث والنشور ٥٢١) كلاهما من طريق قتادة به وسنده ضعيف لإبهام شيخ قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وليس عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الصمد به (الزهد ص٣١١، ٣١٢) وسنده ضعيف لضعف يزيد بن درهم قال فيه ابن معين: ليس بشيء، وساق ابن حجر هذا الأثر بعد قول ابن معين (لسان الميزان ٦/ ٢٨٤).

(٦) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق عوف الأعرابي عن الحسن.

وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك[١] فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بدّ لهم منها.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [«إن الكافر ليرى جهنم فيظن][٢] أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة»[٤].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد بيّنا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة المعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله بصره لطريق النجاة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً (صحيح مسلم، الجنة، باب في شدة حر نار جهنم ح٢٨٤٢).

(٢) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري وفي الأصل حُرِّفت إلى: «إن الكافرين في جهنم فيظن».

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم، وله شاهد إذ أخرجه الإمام أحمد (المسند ٣/ ٧٥)، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٤٩ ح٧٣٥٢)، وحسنه محققه، وأخرجه الحاكم كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ الحديث التالي، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٥٩٧) وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٦)، فيكون الإسناد حسناً لغيره.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: حسن لغيره، (المسند ١٨/ ٢٤٢ ح١١٧١٤) وينظر أقوال النقاد في الرواية السابقة.

قال الإمام أحمد: حدثنا [أبو اليمان][(١)]، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني علي بن الحسين، أن حسين بن علي أخبره، أن علي بن أبي طالب أخبره، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[(٢)] أخرجاه في الصحيحين[(٣)].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ۝٥٥ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ۝٥٦﴾.

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء] وآخرون قالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ أي: يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾ أي: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوٗا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ۝٥٨ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾.

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها؛ أي: تناساها وأعرض

---

(١) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل: «أبو اليماني».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ١١٢) وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل... (ح١١٢٧)، وصحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتىٰ أصبح (ح٧٧٥).

عنها ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] والآيات في هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي: ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون، هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه[(١)]، وقال لفتاه ذلك ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال سائراً ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق[(٢)]:

فما برحوا حتى تهادت نساؤهم ... ببطحاء ذي قار[(٣)] [عياب][(٤)] اللطائم[(٥)]

قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب[(٦)].

---

(١) هذا طرف من حديث صحيح سيأتي في تفسير هذه الآية.

(٢) البيت ورد في ديوانه ٢/ ٢١٧، واستشهد به الطبري.

(٣) منطقة بين واسط والكوفة في جنوب العراق، وسميت محافظة ذي قار باسمها.

(٤) عياب اللطائم: أوعية المسك.

(٥) كذا في ديوان الفرزدق وتفسير الطبري و(ح) و(حم) وفي الأصل صحفت إلى: «عات».

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه آدم بن أبي أياس والطبري بسند صحيح من =

وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة[١]، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: ولو أني أسير حقباً من الزمان.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس سنة[٢]، ثم روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة[٣].

وقال مجاهد: سبعون خريفاً[٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهراً[٥]، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك[٦].

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت، فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكتل مع يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده[٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب في الأرض.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر[٨].

وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة[٩].

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[١٠].

وقال قتادة: سرب من البحر حتى أفضى إلى البر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك طريقاً فيه إلا

= طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(١) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي، وأبو معشر هو السندي وكلاهما ضعيف.

(٢) ذكره الطبري وقد نقله عن الفراء كما في معاني القرآن ٢/ ١٥٤.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) وقول قتادة وابن زيد بلفظ: «زمانا»، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٧) هذا النص طرف من حديث سيأتي ذكره كاملاً ومكرراً.

(٨) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به. وهاتان الروايتان لهما شواهد تالية.

(١٠) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وله شاهد سيأتي برواية صحيحة.

صار ماء جامداً[١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن] وإنما يخرج من المالح على أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعني: تعباً ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾. قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: (ما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان)[٢]. ولهذا قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ أي: طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: هذا هو الذي نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أي: يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ وهذا هو الخضر ﷺ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ﷺ، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أُبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا ربِّ وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ﷺ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان الحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى[٣] بثوب، فسلم عليه موسى فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام. فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف] يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق قتادة به، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود، والقراءة شاذة تفسيرية.

(٣) أي: مغطى.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول[١]، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدُّوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف] قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فكانت الأولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف] قال: وهذه أشد من الأولى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف] أي: مائلاً، فقال الخضر بيده ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما» قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين)[٢].

ثم رواه البخاري عن قتيبة عن سفيان بن عيينة فذكر نحوه، وفيه: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الحوت من ماء تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ قال: وساق الحديث، ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه[٣].

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، يزيد أحدهما على صاحبه، وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال سلوني، فقلت: أي أبا عباس جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاصّ يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل، أما عمرو فقال لي قال: كذب عدو الله وأما يعلى فقال لي قال ابن عباس: حدثني أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسول الله ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون

---

(١) أي: بغير أجرة.

(٢) صحيح البخاري، تفسير سورة الكهف، باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] (ح٤٧٢٥) والقراءة الشاذة تفسيرية.

(٣) صحيح البخاري، تفسير سورة الكهف، باب ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣] (ح٤٧٢٧).

ورقّت القلوب ولّى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى، قال أي ربِّ، وأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أي ربِّ اجعل لي علماً أعلم ذلك به. قال لي عمرو: قال حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون ـ ليست عند سعيد بن جبير ـ قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان[1] إذ يضرب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه، لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، ويضرب الحوت حتى دخل في البحر فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كأن أثره في حجر، قال: فقال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه واللتين تليهما، قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: وقد قطع الله عنك النصب ـ ليست هذه عند سعيد بن جبير ـ أخبره فرجعا فوجدا خضراً قال: قال عثمان بن أبي سليمان: على طنفسة خضراء على كبد[2] البحر.

قال سعيد بن جبير: مسجى[3] بثوب قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه عند رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى؟ إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر، عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح، قال: فقلنا لسعيد بن جبير: خضر؟ قال: نعم، لا نحمله بأجر، فخرقها ووتد فيها وتداً، قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] قال مجاهد: منكراً، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف] كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً، ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف]، قال يعلى: قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، فقال: أقتلت نفساً زكية لم تعمل الحنث؟ وابن عباس قرأها: (زكية مسلمة) كقولك غلاماً زكياً، فانطلقا فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال سعيد: بيده هكذا ودفع بيده فاستقام، قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام، قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال سعيد: أجراً نأكله، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: (أمامهم ملك)[4] يزعمون، عن غير سعيد، أنه: هدد بن بدد، والغلام المقتول اسمه ـ يزعمون ـ جيسور ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فأردت إذا هي مرّت به أن يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها، منهم من يقول سدوها بقارورة، ومنهم من يقول بالقار، ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠]، وكان هو كافراً، ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه، ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا

---

(١) أي: أرض في ترابها بلل وندىٰ.
(٢) أي: وسطه.
(٣) أي: مغطىٰ.
(٤) وهي قراءة شاذة تفسيرية.

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]، كقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤]، وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر.

وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية، وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية[١].

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: خطب موسى عليه السلام بني إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره مني، فأمر أن يلقى هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان[٢]، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة، عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العالم إنما هو موسى بن ميشا، قال سعيد: فقال ابن عباس: أنوف يقول هذا يا سعيد؟ فقلت له: نعم أنا سمعت نوفاً يقول ذلك، قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: نعم، قال: كذب نوف.

ثم قال ابن عباس: حدثني أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أن موسى بني إسرائيل سأل ربه، فقال: أي ربِّ إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلني عليه، فقال له: نعم في عبادي من هو أعلم منك، ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح[٣]، قد قيل له: إذا حيي هذا الحوت في مكان، فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جهده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي، فلما نزلا ومسَّ الحوت الماء حيي، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، فانطلقا فلما جاوزا النقلة قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قال الفتى وذكر: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها، فإذا رجل متلفف في كساء له، فسلم موسى عليه فردَّ عليه السلام، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لشغل؟ قال له موسى: جئتك لتعلمني مما علمت رشداً. قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، وكان رجلاً يعلم علم الغيب، قد عُلِّم ذلك، فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف] أي إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف] وإن رأيت ما يخالفني، قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [الكهف: ٢٠] وإن أنكرته ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتمسان من يحملهما، حتى مرَّت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما، من السفن شيء أحسن، ولا أجمل ولا أوثق منها، فسأل أهلها أن يحملوهما فحملوهما، فلما أطمأنا فيها ولجت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له[٤] ومطرقة، ثم

---

(١) صحيح البخاري، تفسير سورة الكهف، باب ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا...﴾ [الكهف: ٦١] (ح٤٧٢٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق وسنده صحيح. (٣) أي: مملوح بالملح.

(٤) المنقار آله حديدية كالفأس ينقر بها.

عمد إلى ناحية فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها، ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها، فقال له موسى ورأى أمراً أفظع به ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣] أي: بما تركت من عهدك ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] ثم خرجا من السفينة، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية، فإذا غلمان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس في الغلمان أظرف منه، ولا أثرى ولا أوضأ منه فأخذه بيده وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه[١] فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً لا صبر عليه، صبي صغير قتله لا ذنب له، قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] أي: صغيرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف] أي: قد أعذرت في شأني ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] فهدمه ثم قعد يبنيه، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف وما ليس له عليه صبر فأقامه، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] أي: قد استطعمناهم فلم يطعمونا وضفناهم[٢] فلم يضيفونا، ثم قعدت تعمل من غير صنيعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله، قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] وفي قراءة أُبي بن كعب: (كل سفينة صالحة) وإنما عبتها لأرده عنها، فسلمت منه حين رأى العيب الذي صنعت بها، ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف]. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ﴾ [الكهف: ٨٢] أي: ما فعلته عن نفسي ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] فكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس قالا: لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله أن ذكرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون، وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله في الأرض، وقال: كلَّم الله نبيكم تكليماً واصطفاني لنفسه، وأنزل عليَّ محبة منه، وآتاكم الله من كل ما سألتموه، فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمة أنعم الله عليهم إلا وعرفهم إياها، فقال له رجل من بني إسرائيل: هم كذلك يا نبي الله قد عرفنا الذي تقول: فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى عليه السلام فقال: إن الله يقول: وما يدريك أين أضع علمي؟ بلى إن لي على شط البحر رجلاً هو أعلم منك. قال ابن عباس: هو الخضر، فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه أن ائت البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذه فادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطئ البحر، فإذا نسيت الحوت، وهلك منك، فثمَّ تجد العبد الصالح الذي تطلب.

فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه

---

(١) أي: أصاب دماغه. (٢) أي: نزلنا عليهم ضيوفاً.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به وسنده ضعيف لأن الحسن بن عمارة وهو البجلي متروك كما في التقريب. ولمعظمه شواهد في الصحيح.

﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سرباً فأعجب من ذلك، فرجع موسى حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس عنه الماء حتى يكون صخرة، فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر فلقي الخضر بها، فسلم عليه فقال الخضر: وعليك السلام، وأنى يكون السلام بهذه الأرض، ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال الخضر: صاحب بني إسرائيل؟ قال: نعم، فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال جئتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف] يقول: لا تطيق ذلك، قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألني عن شيء أصنعه حتى أبين شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠][(١)].

وقال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرُّ بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس: هو الخضر، فمر بهما أُبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى، بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾، فإني نسيت الحوت، قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فوجدا عبدنا خضر، فكان من شأنهما ما قصّ الله في كتابه»[(٢)].

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى ﷺ لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصَّه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم.

وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك وأرافقك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي: إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ومعظمه له شواهد تقدم ذكرها في الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري من طريق الزهري به (الصحيح، العلم، باب ما ذكره ذهاب موسىٰ ﷺ في البحر إلى الخضر (ح٧٤).

شريعتك؛ لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: على ما أرى من أمورك ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أي: ابتداءً ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال: أي ربِّ أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي ربِّ أي: عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال: أي ربِّ هل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم قال: فمن هو؟ قال: الخضر. قال: وأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلَّم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أحب أن أصحبك، قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى. قال: فإن صحبتني ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه، قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ[1] من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ. قال: يا موسى، فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر[2]، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجرة، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم

---

(١) أي: أصاب.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي، ولمعظمه شواهد تقدمت في الصحيح.

يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر[١]:

لـدوا لـلـمـوت وابـنـوا لـلـخـراب[٢]

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال مجاهد: منكراً[٣].

وقال قتادة: عجباً[٤]، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها؛ لأنك لم تحط بها خبراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾أي: لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً»[٥].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله، وروي أنه احتز رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتلعه بيده، والله أعلم، فلما شاهد موسى عليه السلام هذا، أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي: صغيرة لم تعمل الحنث ولا عملت إثماً بعد فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مستند لقتله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي: ظاهر النكارة ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت إليّ مرة بعد مرة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً» [مثقلة][٦][٧].

---

(١) هو أبو العتاهية كما في ديوانه ص٤٦. (٢) عجزه: فكلكم يصير إلى تباب.
(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.
(٥) تقدم في رواية البخاري في أول تفسير الآية.
(٦) زيادة من (ح) و(حم) وتفسير الطبري.
(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الحاكم من طريق حمزة الزيات به، وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرك ٢/ ٥٧٤).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما ﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الأيلة[(١)][(٢)]، وفي الحديث: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً»[(٣)]؛ أي: بخلاء ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض هو السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: فردَّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه ردَّه بيديه ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لأجل أنهم لم يضيفونا، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ لأنهم كانوا يمرون بها على مَلك من الظلَمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة؛ أي: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها لأردَّه عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل: إنهم أيتام، وروى ابن جريج، عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي أن اسم الملك هدد بن بدد[(٤)]، وقد تقدم أيضاً في رواية البخاري[(٥)]، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق، وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جيسور. وفي هذا الحديث عن ابن عباس، عن أُبي بن

---

(١) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحفت إلى: «الأيكة».
(٢) أخرجه الطبري من طريق عمران بن المعتمر صاحب الكرابيسي عن حماد أبي صالح عن ابن سيرين، وعمران، وحماد لم أقف لهما على ترجمة.
(٣) أخرجه الإمام مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، (الصحيح، الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام ح٢٣٨٠).
(٤) أخرجه الطبري من طريق الحسين عن حجاج عن ابن جريج به، وسنده ضعيف لضعف الحسين، وهو ابن داود.
(٥) تقدم في تفسير الآيات ٦٠ ـ ٦٥ من السورة نفسها.

كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً» رواه ابن جرير من حديث أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس به[١]، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر.

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب[٢]، وصحّ في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»[٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أي: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج[٤].

وقال قتادة: أبرّ بوالديه[٥]، وقد تقدم أنهما بدلا جارية.

وقيل: لما قتله الخضر كانت أُمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج[٦].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وقال هنهنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف] يعني: مكة والطائف، ومعنى الآية؛ أن هذا الجدار إنما أصلحته؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة وقتادة وغير واحد: وكان تحته مال مدفون لهما[٧]، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان تحته كنز علم[٨]، وكذا قال سعيد بن جبير[٩].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق به، وأخرجه مسلم من طريق رقبة عن أبي إسحاق به مطولاً (الصحيح، الفضائل، باب من فضائل الخضر ﷺ ح٢٣٨٠/ ١٧٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة (المصنف رقم ٢٠٢١١).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ٩٥.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري كما في الرواية قبل السابقة.

(٧) قول عكرمة أخرجه الثوري والطبري من طريق أبي حصين عن عكرمة، وأخرجه الطبري من طريق شعبة عن أبي حصين عن عكرمة قال شعبة: ولم يسمعه منه. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بما يليه.

(٩) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

وقال مجاهد: صحف فيها علم[1].

وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك. قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس [القتباني][2]، عن ابن حجيرة، عن أبي ذرّ رفعه قال: «إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت، مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب، وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك، وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله»[3]. وبشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثه وهم.

وقد روي في هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير في تفسيره: حدثني يعقوب، حدثنا الحسن بن حبيب بن ندبة، حدثنا سلمة، عن نعيم العنبري وكان من جلساء الحسن قال: سمعت الحسن - يعني: البصري - يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله[4].

وحدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن [عمرو][5] مولى غُفرَة قال: إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مصمت، مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار ثم ضحك، عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب، عجب لمن أيقن بالموت ثم أمِنَ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[6].

وحدثني أحمد بن حازم الغفاري، حدثتنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبي حماد بن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح؟ وقد قال الله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكانت بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً[7].

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم، وإن صحَّ لا ينافي قول عكرمة أنه

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) كذا في (ح) و(حم) ومختصر زوائد مسند البزار، وفي الأصل صحف إلى: «القيناني».

(٣) أخرجه البزار بسنده ومتنه (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٩١ ح١٤٧٩) وسنده ضعيف، قال الهيثمي: الحارث وبشر لا أعرفهما. (مجمع الزوائد ٧/ ٥٦).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل.

(٥) كذا في تفسير الطبري وفي التقريب، وفي الأصل صحف إلى: «عفير»، وفي (ح) و(حم) صحف إلى: «عمرو». والصواب ما أثبت، وهو عمر بن عبد الله المدني مولى غُفرة: ضعيف كثير الإرسال (التقريب ص٤١٤).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل أيضاً.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل أيضاً.

كان مالاً؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة.

قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً[1].

وتقدم أنه كان الأب السابق، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١] وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام وولدي الرجل الصالح، وما فعله عن أمري أي لكني أُمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف] وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً، نقله الماوردي في تفسيره[2]، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً، فالله أعلم.

وذكر ابن قتيبة في (المعارف) أن اسم الخضر بليا بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام[3]، قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيف، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[4]، وبأنه لم ينقل أنه جاء رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي»[5]، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك عن مسعر عن عبد الملك بن ميسرة عن سعيد بن جبير به (الزهد رقم ٣٣٢)، وفي سنده عبد الملك بن ميسرة: مقبول أو مجهول (ينظر: التقريب ص٣٦٥)، ومعناه صحيح.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٩٥. (٣) المعارف ص٤٢.

(٤) صحيح مسلم، الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (ح١٧٦٣).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٨١، ٨٢ بدون ذكر عيسىٰ.

وقال الألباني: وهو حديث محفوظ دون ذكر عيسىٰ فيه، فإنه منكر عندي لم أره في شيء من طرقه، وهي مخرجة في (إرواء الغليل، رقم ١٥٨٩).

يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من تحته خضراء»(١). ورواه أيضاً عن عبد الرزاق(٢)، وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة، فإذا هي تهتز من تحته خضراء»(٣). والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرّح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، هذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة: حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث ، وقد كان معه؟ قال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفينة، ثم أرسله في البحر فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب(٤). إسناده ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: عن خبره وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح؛ فنزلت سورة الكهف(٥)، وقد أورد ابن جرير

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ١٣/ ٤٧٤ ح٨١١٣).
(٢) (المسند ١٣/ ٥٣٤ ح٨٢٢٨)، وصحح سنده محققوه.
(٣) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (ح٣٤٠٢).
(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً؛ لأن الحسن بن عمارة متروك، كما قرر الحافظ ابن كثير. وفيه أيضاً عنعنة ابن إسحاق.
(٥) تقدم تخريجه في تفسير الآيات ١ ـ ٥.

ههنا والأموي في مغازيه حديثاً أسنده، وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر أن نفراً من اليهود جاءوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء، فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك إلى السماء وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجه الكلاب[١]، وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل.

والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره، ساقه بتمامه في كتابه (دلائل النبوة)، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني، وهو ابن فيليبس المقدوني الذي تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان وزيره الخضر عليه السلام، وأما الثاني فهو إسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذي تؤرخ من مملكته ملة الروم، وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن، فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرقي وغيره، وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية[٢]، ولله الحمد.

وقال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس[٣]، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصحاً لله، فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه، فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين[٤]، وكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل سمع علياً يقول ذلك[٥].

ويقال: إنه سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً[٦].

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص٣٨)، وضعفه الحافظ ابن كثير، ونقد سنده وبين نكارته.

(٢) ينظر البداية والنهاية ٢/١٠٢ ـ ١٠٩.

(٣) أخرجه الطبري عن وهب والخبر من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١١/٥٦٣)، والبستي والطبري كلهم من طريق يحيى بن سعيد عن سفيان به. وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري من طريق شعبة به، وسنده صحيح.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد لم أجده، وقول قتادة =

وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها[١].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم[٢].

وقال ابن لهيعة: حدثني سالم بن غيلان، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

وهذا الذي أنكره معاوية ﷺ على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار، فإن معاوية كان يقول عن كعب: إن كنا لنبلو عليه الكذب؛ يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحفه، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيليات التي غالبها مُبدّل مُصحَّف مُحرَّف مُختلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض. وتأويل كعب قول الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق، فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقي في أسباب السمٰوات، وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أنه مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين، يسر الله له الأسباب؛ أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق[٣] والبلاد والأراضي، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم.

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي من طريق قتيبة، عن أبي عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن جماز قال: كنت عند علي ﷺ وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد[٤].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

[قال ابن عباس: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ يعني بالسبب المنزل][٥][٦].

= أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب بلفظ آخر وهو: «من كل شيء علماً».

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور من طريق سعيد بن أبي هلال به.

(٣) جمع رستاق، وهي القرى والأراضي الخضراء.

(٤) أخرجه الضياء من طريق قتيبة به وأطول، وصحح سنده محققه (المختارة ١/ ٣٢ رقم ٤٠٩).

(٥) زيادة من (ح) و(حم).

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما يليه.

وقال مجاهد: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب[١].

وفي رواية عن مجاهد ﴿سَبَبًا﴾ قال: طريقاً في الأرض[٢].

وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها[٣].

وقال الضحاك: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: المنازل[٤].

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ قال: علماً، وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدي.

وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة، والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم، وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين[٥] من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨] أي: طين أملس، وقد تقدم بيانه[٦].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أنبأنا نافع بن أبي نعيم: سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول: ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرها ذات حمئة، قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار، فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء[٧]، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس[٨]، وبه قال مجاهد وغير واحد[٩].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مصدع، عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب: أن النبي ﷺ أقرأه حمئة[١٠].

---

(١) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي يحيىٰ القتات عن مجاهد، وأبو يحيىٰ لين الحديث (التقريب ص٦٨٤).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٥) أي قراءة: (حمئة) وهو متواترة، والقراءة الأخرى: ﴿حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤] وهي متواترة أيضاً.

(٦) تقدم في تفسير سورة الحجر، آية ٢٨.

(٧) أخرجه نافع بن أبي نعيم في تفسيره بسنده ومتنه (التفسير رقم ٣٣)، وسنده صحيح، وأخرجه الطبري عن يونس به.

(٨) أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق عكرمة وعثمان بن حاضر، وكلها أسانيد ثابتة.

(٩) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(١٠) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند رقم ٥٣٦)، وأخرجه أبو داود السجستاني من طريق محمد بن دينار به (السنن، الحروف والقراءات ح٣٩٨٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٣٧٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: **(وجدها تغرب في عين حامية)** يعني: حارة[١]، وكذا قال الحسن البصري[٢].

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب[٣]، قلت: ولا منافاة بين معنييهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: «في نار الله الحامية في نار الله الحامية لولا ما يزعها[٤] من أمر الله لأحرقت ما على الأرض»[٥].

قلت: ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون[٦]. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد ـ يعني: ابن بشر ـ، حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر: أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف **(تغرب في عين حامية)** قال ابن عباس لمعاوية: ما نقرؤها إلا ﴿حَمِئَةٍ﴾، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال: عبد الله كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين، وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أني عندك أفدتك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمئة، قال ابن عباس: وإذاً ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى [مغاب][٧] الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب وثأط حرمد[٨]

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة، قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود، قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل، وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عباس، يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قال كعب: والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس، فإنا نجدها في التوراة (تغرب في مدرة سوداء)[٩].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عن الحسن.
(٣) ذكره الطبري بنحوه. (٤) أي: يمنعها.
(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام مولىٰ عبد الله بن عمرو.
(٦) أخرجه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون به (المسند ١١/ ٥٢٦ ح٦٩٣٤)، وسنده كسابقه.
(٧) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحفت إلى: «مغار».
(٨) قاله أُمية بن أبي الصلت كما في ديوانه ص٤٨، ونسبه الحافظ ابن حجر لتُبَّع الحميري (فتح الباري ٦/ ٣٨٤).
(٩) أخرجه الطبري من طريق إسماعيل بن علي عن عثمان بن حاضر به بدون ذكر الشعر وما بعده. وأخرجه =

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال في تفسير ابن جريج: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب[١] الشمس حين تجب[٢].

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمّة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم، وقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم، وخيّره إن شاء قتل وسبي، وإن شاء منّ أو فدى فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله، وبيانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾.

قال قتادة: بالقتل[٣].

وقال السدي: كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا[٤].

وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم[٥]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً وفي هذا إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: اتبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله ﷻ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفاً[٦].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأُمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أُمة ما تستعين به جيوشه على قتال الأقاليم المتاخمة لهم، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يكنهم[٧]، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس.

= عبد الرزاق من طريق خليل بن أحمد، ومن طريق عمرو بن مبذول عن عثمان بن حاضر عن ابن عباس بنحوه، وهذه الطرق تقوي بعضها بعضاً. والقراءة شاذة تفسيرية.

(١) أي: سقوطها عند المغيب.

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن أبي يعلى به (العظمة ٤/ ١٤٤٠ ح٩٥٢) وسنده مرسل، وهو من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي كما في الدر المنثور.

(٥) وهذه الرواية والتي قبلها ظاهرها من الإسرائيليات.

(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أي: يسترهم.

وقال سعيد بن جبير: كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك(١).

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت: سمعت الحسن وسئل عن قول الله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم قال الحسن: هذا حديث سَمُرة(٢).

وقال قتادة: ذُكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم(٣).

وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليست لهم أكنان(٤) إذا طلعت الشمس طلعت عليهم فلأحدهم أذنان يفرش إحداهما ويلبس الأخرى(٥).

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: هم الزنج(٦).

وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها، قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام؟ قال: هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ههنا... فماتوا، قال: فذهبوا هاربين في الأرض(٧).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ قال مجاهد والسدي: علماً(٨)؛ أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: ثم سلك طريقاً من مشارق

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المثور.

(٢) أخرجه الطبري من طريق أبي داود به، وأخرجه أبو الشيخ من طريق سهل به (العظمة رقم ٩٧٩)، وسنده منقطع؛ لأن الحسن لم يسمع من سمرة سوى حديث العقيقة.

(٣) أخرجه الطبري من طريق قتادة به وسنده مرسل لأن قتادة لم يذكر اسم شيخه.

(٤) الأكنان: جمع كِن، وهو البيت والوِقاء.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور، وهذا الخبر غريب عليه أمارات الإسرائيليات.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٨) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول السدي لم أجده.

الأرض حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان متناوحان[١] بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذٍ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال: إن فيكم أمّتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج»[٢].

وقد حكى [النووي][٣] رحمه الله في شرح مسلم عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك[٤]، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء، وهذا قول غريب جداً لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحايث المفتعلة، والله أعلم.

وفي مسند الإمام أحمد عن سَمُرة أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»[٥].

قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبو الترك، وقال: إنما سمي هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة.

وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم[٦]، وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها[٧]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً[٨]. يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا لهم من بينهم مالاً يعطونه

---

(١) أي: متقابلان.

(٢) أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري (صحيح البخاري، الرقاق، باب قوله ﷻ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] ح٦٥٣٠) وصحيح مسلم، الإيمان، باب قوله: (يقول الله لآدم: أخرج بعث النار... ح٣٧٩).

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «النوادي».

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٩٧.

(٥) أخرجه الإمام أحمد من طريق الحسن البصري عن سَمُرة رضي الله عنه، وضعف سنده محققوه لأن الحسن لم يصرح بالسماع (المسند ٣٣/ ٢٩٣ ح٢٠١٠٠)، وأخرجه الحاكم من طريق الحسن به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٤٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ح٣٢١٤)، وهو كما قال.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن إسحاق عن مجهول عن وهب ونقد متنه الحافظ ابن كثير.

(٧) ذكرها السيوطي في الدر المنثور.

(٨) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.

إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه ولكن ساعدوني بقوة؛ أي بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ والزبر: جمع زبرة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة[(١)]، وهي كاللبنة يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي: أجج عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي هو النحاس[(٢)]: زاد بعضهم المذاب[(٣)]، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحبر.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، عن يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال: «انعته لي» قال: كالبرد المحبر[(٤)]، طريقة سوداء وطريقة حمراء قال: «قد رأيته»[(٥)]، هذا حديث مرسل.

وقد بعث الخليفة الواثق في دولته أحد أمرائه وجهز معه جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا، فتوصلوا من هناك إلى بلاد ومن ملك إلى ملك حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عالٍ منيف شاهق لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلّاً بما يناسبه فقال:

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن يحيىٰ القتات عنه، ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، ويتقوىٰ بما يليه، فقول مجاهد أخرجه آدم بن إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) ذكره معمر بن المثنى (مجاز القرآن ١/ ٤١٥). (٤) أي: الثوب الملون.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وهو مرسل كما قال.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: حدثنا أبو رافع، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس[١]، قال الذي عليهم[٢]: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثني[٣] فيعودون إليه كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً[٤] في رقابهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده إن دوابَّ الأرض لتسمن وتشكر[٥] شكراً من لحومهم ودمائهم»[٦].

ورواه أحمد أيضاً عن حسن هو: ابن موسى الأشهب، عن سفيان، عن قتادة، به[٧]. وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع، وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة، ثم قال: غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه[٨]. وإسناده جيد قوي ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون: غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك فيصبحون، وهو كما كان فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه ويلهمون أن يقولوا: إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه[٩]. وهذا متجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع[١٠] فرفعه، والله أعلم.

ويؤكد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع قول

---

(١) أي: عند غروب الشمس.
(٢) أي: أميرهم.
(٣) أي يقول: إن شاء الله.
(٤) هو دود يكون في أنوف الإبل والغنم.
(٥) أي: تسمن.
(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ١٦/ ٣٧٠ ح١٠٦٣٢)، وأخرجه ابن ماجه من طريق سعيد بن أبي عروبة به (السنن، الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسىٰ ابن مريم... ح٤٠٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٢٩٨) ومن الطريق نفسه أخرجه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٢٤٢ ح٦٨٢٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٤٨٨).
(٧) المسند ١٦/ ٣٧١ (ح١٠٦٣٣).
(٨) أخرجه ابن ماجه كما تقدم في الرواية السابقة، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب (السنن، التفسير، باب ومن سورة الكهف ح٣١٥٣).
(٩) نسبه السيوطي إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.
(١٠) لكن لبعضه شواهد في صحيح من مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ (الصحيح، الفتن، باب ذكر الدجال ح٢١٣٧)، وقد أجاب الألباني على نقد الحافظ ابن كثير (السلسلة الصحيحة ح١٧٣٥).

الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمى، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها أُم حبيبة، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلَّق[١] قلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث[٢]»[٣]. هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم[٤] على إخراجه من حديث الزهري، ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة وأثبتها مسلم، وفيه أشياء عزيزة قليلة نادرة الوقوع في صناعة الإسناد منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده كلهن يروي بعضهم عن بعض، ثم كل منهن صحابية، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان رضي الله عنهن.

قد رُوي نحو هذا عن أبي هريرة، أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأموج مثل هذا» وعقد التسعين، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهيب به[٥].

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]: أي مساوياً للأرض.

وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قال: طريقاً كما كان[٦]، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائناً لا محالة.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: الناس يومئذٍ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس[٧]، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أول القيامة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: إذا ماج الجن والإنس

---

(١) أي: حلّق بأصبعيه الإبهام والسبابة. (٢) أي: الفسوق والفجور.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/٤٢٨). وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (ح٣٣٤٦)، وصحيح مسلم، الفتن، باب اقتراب الفتن (ح٢٨٨٠).

(٥) صحيح البخاري، الباب السابق (ح٣٣٤٧)، وصحيح مسلم، الباب السابق (ح٢٨٨١).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور. (٧) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.

يوم القيامة يختلط الإنس والجن[١].

وروى ابن جرير عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بني فزارة في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر، فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، فيقول: ما من محيص، ثم يظعن يميناً وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض، فيقول: ما من محيص، فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كالشراك فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟ ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه، فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة، فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار فيتلكأ عليه، فيقول: به وبذريته بجناحيه، فيقذفهم في النار، فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبتيه[٢]، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به[٣]، ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب عن هارون بن عنترة، عن أبيه عن ابن عباس ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: الإنس والجن يموج بعضهم في بعض[٤].

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصفهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل وتايس ومنسك»[٥] هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروى النسائي من حديث شعبة، عن النعمان بن سالم، عن ابن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون كما شاؤوا، ولا يموت رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[٦].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والصور كما جاء في الحديث: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، كما تقدم في الحديث بطوله[٧]، والأحاديث فيه كثيرة.

وفي الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم[٨] وصاحب القرن قد

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ونسبه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وسنده مرسل. (٣) سنده كسابقه.

(٤) تقدم عزوه قبل حاشيتين.

(٥) أخرجه الطيالسي عن المغيرة به (المسند ح٢٢٨٢)، وضعفه الحافظ ابن كثير وزاد (في البداية والنهاية ٢/ ١٣١) وفيه نكارة شديدة.

(٦) أخرجه النسائي بسنده ومتنه (السنن الكبرىٰ، التفسير، باب سورة الأنبياء، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦] ح١١٣٣٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ح٢٠٢٧).

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

(٨) أي: أفرح وأتنعم.

التقم القرن وحنىٰ جبهته[١] واستمع متى يؤمر؟» قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»[٢].

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة] ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمّ والحزن لهم.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[٣]. ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ أي: تغافلوا وتعاموا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف] وقال ههنا: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك وينتفعون به ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم]. ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعدَّ لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مصعب قال: سألت أبي ـ يعني سعد بن أبي وقاص ـ عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين[٤].

وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية[٥]، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه

---

(١) أي: أمالها، وهي كناية عن المبالغة في التوجه لإصغاء السمع.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ١٧٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وكلا الطريقين ضعيف لضعف عطية وهو العوفي.

(٣) تقدم تخريجه في الآية رقم ٥٣ من هذه السورة الكريمة.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ ح٤٧٢٨).

(٥) قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخرجه البستي بسند صحيح من طريق أبي الطفيل عنه، وأخرجه الطبري من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً.

أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا[١]، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل مَن عبدَ اللهَ على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية] وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ ثم فسرهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ـ وقال: ـ اقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»[٢]. وعن يحيى بن بكير، عن مغيرة بن عبد الرحمٰن، عن أبي الزناد مثله، هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً، وقد رواه مسلم عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن [بكير][٣]، به[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها» قال: وقرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي الصلت، عن أبي الزناد، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة مرفوعاً... فذكره بلفظ البخاري سواء[٥].

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عمارة، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد الله بن بُريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر في حلّة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بُريدة هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً» ثم قال: تفرد به واصل مولى أبي عنبسة، وعون بن عمارة، وليس

---

(١) ونحوه ذكره القسطلاني (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٧/ ٢٣٠).
(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥] (ح٤٧٢٩).
(٣) كذا في (حم) و(ح) وصحيح مسلم، وفي الأصل صحفت إلى: «طبر».
(٤) صحيح مسلم، صفة القيامة والجنة والنار (ح٢٧٨٥).
(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وهو حديث صحيح متفق عليه كما سبق.

بالحافظ ولم يتابع عليه[١].

وقد قال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمٰن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرأوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسوله هزواً، استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية[٣]. وقال كعب والسدي والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب[٤]، وقال أبو أُمامة: الفردوس سرة الجنة[٥]، وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ: «الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأحسنها»[٦]. وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سَمُرة مرفوعاً[٧]، وروي عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه روى ذلك كله ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»[٨]. وقوله: تعالى ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة، فإن النزل الضيافة. وقوله: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها،

---

(١) أخرجه البزار بسنده ومتنه وتعليقه، كما في مختصر زوائد مسند البزار (١/ ٦٥٠ ح١١٧٧)، وضعفه الحافظ ابن حجر وقال الهيثمي: فيه عون بن عمارة وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٥/ ١٢٨).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل ويشهد له سابق المتفق عليه.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الله بن كثير عن مجاهد.

(٤) قول كعب أخرجه ابن المبارك (الزهد رقم ١٤٦٠)، وابن أبي شيبة (المصنف ١٣/ ١٤٩)، والطبري، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/ ١٤٨)، والطبري، والطبراني (المعجم الكبير ح٧٩٦٦) كلهم من طريق الفرج بن فضالة عن لقمان بن عامر عن أبي أمامة. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ح٣٢٧٣). وأخرجه الحاكم من طريق جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: جعفر: هالك. (المستدرك ٢/ ٣٧١).

(٦) أخرجه الترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة المؤمنون ح٣١٧٤)، والطبري وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني إلا قوله: والفردوس ربوة. أنها مدرجة (السلسلة الصحيحة ٤/ ٤٢٧).

(٧) أخرجه الطبري من طريق إسماعيل بن مسلم به، وفي سنده الحسن لم يصرح بالسماع ولم يسمع من سَمُرة سوى حديث العقيقة.

(٨) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (الصحيح، الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ح٢٧٩٠).

كما قال الشاعر[١]:

[فحلّت][٢] سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن حُبّها أتحول

وفي قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يملّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جراً بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان].

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى﴾ يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول: إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

روى الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان قال: هذه آخر آية أُنزلت[٣].

يقول تعالى رسوله محمد صلاوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر، ولولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ أي: ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله

---

(١) هو النابغة الذبياني، واستشهد به صاحب مغني اللبيب ص٣٦٥.

(٢) كذا في (ح) و(حم) ومغني اللبيب، وفي الأصل صُحف إلى: «فحلت».

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٩٢/١٩، قال الهيثمي: ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٧/٧).

وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يُرى موطني فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١]، وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد[٢].

وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم، عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا كثير بن زيد، عن [رُبيح][٤] بن عبد الرحمٰن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده تكون له حاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا، فكثر المحتسبون[٥] وأهل النوب[٦]، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ قال: «ما هذه النجوى؟» ألم أنهكم عن النجوىٰ؟ قال: فقلنا: تبنا إلى الله؛ أي نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا[٧] منه، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح[٨] عندي؟» قال: قلنا: بلى، فقال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد - يعني: ابن بهرام - قال: قال شهر بن حوشب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية[١٠] أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت فأخذ يميني بشماله، وشمال أبي الدرداء بيمينه، فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجى، والله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر به، وأخرجه الطبري والحاكم (المستدرك ٤/٣٢٩) وسكت عنه هو والذهبي، وسنده صحيح لكنه مرسل ويتقوىٰ بالمراسيل والأحاديث التالية.

(٢) أخرجه الطبري وفي سنده الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري من طريق الأعمش وفي سنده الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٤) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل بدون نقط.

(٥) أي: الضيوف.

(٦) أي: أصحاب الحاجة.

(٧) أي: خوفاً.

(٨) أي: المسيح الدجال.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لضعف كثير بن زيد وربيح بن عبد الرحمن (المسجد ١٧/ ٣٥٤، ٣٥٥ ح١١٢٥٢)، وأخرجه ابن ماجه من طريق كثير بن زيد به (السنن، الزهد، باب الرياء والسمعة ح٤٢٠٤)، وحسنه البوصيري، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣٨٩)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله موثقون (مجمع الزوائد ١/ ٣٢٠)، وأخرجه الحاكم من طريق كثير به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣٢٩).

(١٠) الجابية: قرية تابعة لدمشق.

أعلم بما نتناجى به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين؛ يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ، فأعاده وأبدأه وأحلَّ حلاله وحرم حرامه ونزله عند منازله لا يحور[١] فيكم إلا كما يحور رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضي الله عنه وعوف بن مالك فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من الشهوة الخفية والشرك» فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء: اللهم غفراً ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب؛ أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق له، أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم والله إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك، فقال شداد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك» فقال عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد إليه إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد عند ذلك: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً، فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني»[٢].

طريق أخرى لبعضه قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نسي، عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية» قلت: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: «نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه»[٣]، ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نسي به[٤]، وعبادة فيه ضعف، وفي سماعه من شداد نظر.

(**حديث آخر**): قال الحافظ أبو بكر البزاز: حدثنا الحسين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خير شريك من أشرك بي أحداً فهو له كله». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سمعت العلاء يحدث، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه

---

(١) أي: لا يرجع.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٤/ ١٢٥، ١٢٦) وفي سنده شهر بن حوشب، ولبعضه شاهد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه يأتي بعد الرواية التالية.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٤/ ١٢٤)، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الواحد بن زياد به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: عبد الواحد: متروك (المستدرك ٤/ ٣٣٠).

(٤) السنن، الزهد، باب الرياء والسمعة (ح٤٢٠٥) وضعفه الحافظ ابن كثير.

غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك»[١]، تفرد به من هذا الوجه.

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن يزيد ـ يعني: ابن الهاد ـ، عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[٢].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا عبد الحميد ـ يعني: ابن جعفر ـ، أخبرني أبي، عن زياد بن ميناء، عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[٣]، وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث محمد، وهو البرساني، به.

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي ـ يعني: عبد العزيز بن أبي بكرة ـ، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمَّع[٤] سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «من يرائي يرائي الله به، ومن يسمِّع يسمِّع الله به»[٦].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من سمع الناس بعمله سمّع الله به، ساء خلقه وصغره وحقره» فذرفت عينا عبد الله[٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة، فيقول الله: ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً، فيقول: إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي»[٨]. ثم قال: الحارث بن غسان روى عنه جماعة، وهو ثقة بصري، ليس به بأس.

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (الصحيح، الزهد، باب من أشرك في عمله لغير الله ح٢٩٨٥).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة يوسف آية ١٠٧. (٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة يوسف آية ١٠٧.

(٤) سمع فلان بعلمه: إذا أظهره ليسمع (النهاية ٢/ ٤٠٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٤٥)، وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية وهو ابن سعد العوفي (المسند ١٧/ ٤٥٣ ح١١٣٥٧).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والرجل الذي أبهم اسمه: خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة صرح باسم الطبراني في الكبير (المسند ١١/ ٥٦ ح٦٥٠٩) وقال المنذري: رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح (الترغيب ١/ ٣١).

(٨) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٣٤٣٥) وسنده ضعيف، وأخرجه العقيلي بسند ضعيف من طريق الحارث بن غسان به، والحارث بن غسان مجهول (لسان الميزان ٢/ ١٥٥).

وقال ابن وهب: حدثني يزيد بن عياض، عن عبد الرحمٰن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رياء وسمعة، لم يزل في مقت الله حتى يجلس»[١].

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عوف بن مالك، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل»[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش، حدثنا عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن[٣].

وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعلّ معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها؛ بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قرة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية، كان له من النور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة»[٤]. غريب جداً.

آخر تفسير سورة الكهف، ولله الحمد.

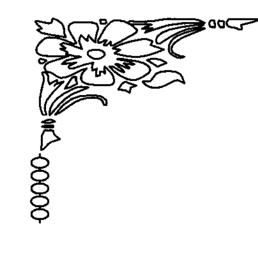
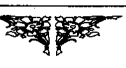
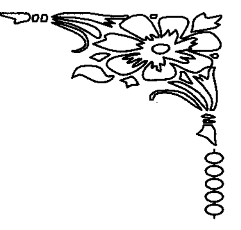
---

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه يزيد بن عياض وهو متروك، (مجمع الزوائد ١٠/٢٢٣) وحكم عليه الألباني بالوضع، ضعيف الجامع الصغير (ح٥٧٥٥).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ١٤٢، ١٤٣.

(٣) تقدم تخريجه في بداية تفسيره هذه الآية.

(٤) أخرجه البزار كما في مختصر زوائد مسند البزار ٢/٤١٩ (ح٢١٢٦) قال الحافظ ابن حجر: قال الشيخ ـ أي الهيثمي ـ وأبو قرة تفرد عنه النضر. قلت: قد وثق وصح سماع سعيد من عمر.اهـ. وأخرجه الحاكم من طريق النضر بن شميل به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: أبو قرة فيه جهالة ولم يضعف (المستدرك ٢/٣٧١).

سُورَةُ مَرْيَمَ

وهي مكية

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة(١)، وأحمد بن حنبل، عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا، وقرأ يحيى بن يعمر (ذَكَّرَ(٣) رحمة ربك عبده زكريا) وزكريا يمد ويقصر، قراءتان مشهورتان(٤)، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري: أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة(٥).

وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي(٦).

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾ إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفيّ(٧).

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٤٧، وأخرجه الإمام أحمد مطولاً وحسنه محققوه (المسند ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٩ ح١٧٤٠).

(٢) ينظر الحديث السابق ففيه نص قراءة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه صدر سورة مريم. وحديث ابن مسعود أخرجه الإمام أحمد وضعفه سنده محققوه (المسند ٧/ ٤٠٨ ح٤٤٠٠)، وحسنه الحافظ ابن حجر (الفتح ٧/ ١٨٩) وجوده الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية ٣/ ٦٩).

(٣) وهي قراءة شاذة تفسيرية ذكرها أبو حيان ونسبها إلى يحيىٰ بن يعمر والحسن البصري (البحر المحيط ٦/ ١٧٢).

(٤) ومتواترتان.

(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الفضائل، باب من فضائل زكريا عليه السلام ح٢٣٧٩).

(٦) ذكره الماوردي بمعناه. النكت والعيون ٢/ ٥١٥.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد، وهو ابن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا ربِّ، يا ربِّ، فقال الله له: لبيكَ لبيكَ لبيكَ[١].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعفت وخارت القوى ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: اضطرم المشيب في السواد، كما قال ابن دريد في مقصورته[٢]:

أما ترى رأسي حاكى لونه طُرَّةَ[٣] صَبحٍ تحت أذيال الدُّجى[٤]
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغَضا[٥]

والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالي على أنه مفعول، وعن الكسائي: أنه سكن الياء[٦] كما قال الشاعر:

كأن أيديهن في القاع القِرق[٧] أيدي جوار يتعاطَينَ الورق[٨]

وقال الآخر:

فتى لو يُباري الشمس ألقت قناعَها أو القمرَ الساري لألقى المقالدا[٩]

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

تغاير الشعرُ منه إذ سهرتُ له حتى ظننت قوافيه ستقتتل[١٠]

وقال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي: العصبة[١١].

وقال أبو صالح: الكلالة[١٢].

وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يقرؤها (وإني خفَّت الموالي من ورائي) بتشديد [الفاء][١٣][١٤] بمعنى: قلّت عصباتي من بعدي.

وعلى القراءة الأولى وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً،

(١) لم أجد من أخرج هذا الخبر وهو من الإسرائيليات، ومثله لا يقبل إلا برواية مرفوعة أو لها حكم الرفع.
(٢) شرح مقصورة ابن دريد ص٢.
(٣) طرة كل شي: جانبه وحافته.
(٤) أي: أطراف الظلمة.
(٥) الغضا: نوع من الشجر له جمر يمكث طويلاً.
(٦) القراءاتان متواترتان.
(٧) القرق: المكان المستوي، إذ يصف الراجز إبلاً بالسرعة.
(٨) أي: الفضة، والشاهد فيه أن الراجز سكّن ياء «أيديهن»، وهي اسم كأن.
(٩) الشاهد فيه أيضاً تسكين الياء في «الساري».
(١٠) ديوان أبي تمام ص٢٢٧، والشاهد فيه تسكين الياء في «قوافيه».
(١١) قول مجاهد أخرجه الثوري والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقوله السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.
(١٢) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.
(١٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «الياء».
(١٤) أخرجه الطبري تعليقاً، وهي قراءة شاذة تفسيرية.

فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

الثاني: أنه[1] لم يذكر أنه كان ذا مال؛ بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه[2]، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»[3].

وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»[4]، وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذْ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصّة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»[5].

قال مجاهد في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: كان وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب[6].

وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء[7].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه[8].

وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب[9].

وعن مالك، عن زيد بن أسلم ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم[10].

وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة[11]، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

---

(١) أي: الوجه الثاني. (٢) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث عمر ﷺ (صحيح البخاري، فرض الخمس، باب فرض الخمس ح١٩٧، وصحيح مسلم، الجهاد، باب حكم الفيء ح١٧٥٨).

(٤) سنن الترمذي، السير، باب ما جاء في تركة النبي ﷺ (ح١٦١٠)، وسنده صحيح كما قال الحافظ ابن كثير.

(٥) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده صحيح.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١٠) سنده صحيح. (١١) أخرجه الطبري من طرق يقوي بعضها بعضاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة أن النبي ﷺ قال: «يرحم الله زكريا وما كن عليه من وراثة ماله، ويرحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك هو: ابن فضالة، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي زكريا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال: هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب»[(٢)]. وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾.

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال قتادة وابن جريج وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم[(٣)]، واختاره ابن جرير رحمه الله.

قال مجاهد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: شبيهاً[(٤)]، [وأخذه من معنى قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي شبيهاً] [مريم: ٦٥][(٥)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله[(٦)].

وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم، وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما، ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده مرسل لكن له أصل في الصحيحين، فقد أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ...﴾ [الأعراف: ٨٠] ح٣٣٧٥، وصحيح مسلم، الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ ٢٣٧/ ١٥٣).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل ويتقوى بسابقه وأصله.

(٣) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١١/ ٥٦٢ رقم ١١٩٥٩) والطبري كلاهما بسند صحيح من طريق الحكم بن عتيبة عن مجاهد.

(٥) زيادة من (ح) و(حم).

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [الحجر].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا؛ أي: عسا عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا يعتو عتياً وعتواً، وعسا يعسو عسواً وعسياً[(١)]، وقال مجاهد: عتيا؛ يعني: نحول العظم[(٢)]، وقال ابن عباس وغيره: عتيا؛ يعني: الكبر[(٣)]، والظاهر أنه أخص من الكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السُّنة كلّها غير أني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[(٤)] أو عُسياً؟[(٥)(٦)]، ورواه الإمام أحمد عن سُريج بن النعمان وأبو داود، عن زياد بن أيوب كلاهما عن هشيم به[(٧)].

﴿قَالَ﴾ أي: الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿هَيِّنٌ﴾ أي: يسير سهل على الله.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾

---

(١) ذكره الطبري.
(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الحاكم بسند ضعيف جداً عن ابن عباس رضي الله عنهما (المستدرك ٢/ ٣٧٢).
(٤) بضم العين وهي قراءة متواترة.
(٥) وهي قراءة شاذة تفسيرية.
(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٧) أخرجه الإمام أحمد عن سُريج به وصحح سنده محققوه (المسند ٤/ ١١٢ ح٢٢٤٦)، وأخرجه أبو داود عن زياد بن أيوب به مقتصراً على الشطر الأول (السنن، الصلاة، باب قدر القراءة في صلاة الظهر والعصر ح٨٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٧٢٢)، وأخرجه الحاكم من طريق حصين به مثل رواية أبي داود، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٤٤).

أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليالٍ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة[(١)]. قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة[(٢)].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: متتابعات[(٣)]، والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خرس[(٤)].

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه.

قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار[(٥)]. وبه قال وهب وقتادة[(٦)].

وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: كتب لهم في الأرض[(٧)]، وكذا قال السدي[(٨)].

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو: يحيى عليه السلام، وأن الله علَّمه الكتاب، وهو: التوارة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، وقد كان سنُّه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٢٩١)، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق قتادة عنه بلفظ: «من غير خرس»، وقول وهب - وهو ابن منبه - أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن وهب، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه بلفظ عكرمة، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) سنده صحيح.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) قول وهب أخرجه الطبري بسند ضعيف كسابقه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الحكم بن عتيبة عن مجاهد.

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

وعلى والديه فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلم الكتاب بقوة؛ أي: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث، قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقت، فلهذا أنزل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١].

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا[٢]، وكذا قال عكرمة[٣] وقتادة والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا[٤]، وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا[٥].

وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وتعطفاً من ربه عليه[٦].

وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: محبة عليه[٧].

وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة[٨].

وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: تعظيماً من لدنا[٩].

وقال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا والله ما أدري ما حناناً[١٠].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فقال: سألت عنها ابن عباس فلم يجد فيها شيئاً[١١].

والظاهر من السياق أن قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة؛ أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حنَّت الناقة على ولدها وحنَّت المرأة على زوجها، ومنه سميت المرأة حنة من الحَنّة، وحنَّ الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر[١٢]:

تَحنَّن عليّ هَداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا

---

(١) أخرجه الطبري عن أحمد بن مَنيع عن عبد الله بن المبارك به، ورجاله ثقات لكنه مرسل، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سِماك عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد، وهو: محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب ـ وهو عبد الله ـ عن ابن زيد.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو: ابن داود: ضعيف.

(١٠) أخرجه البُستي بسند صحيح من طريق ابن جريج به.

(١١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن حميد، ولكنه توبع في الرواية السابقة فيكون السند حسناً لغيره.

(١٢) هو الحُطيئة، والبيت في ديوانه ص٧٢.

وفي المسند للإمام أحمد عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان»[(١)].

وقد يثنى، ومنهم من يجعل ما ورد في ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة:

أبا منذر[(٢)] أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض[(٣)]

وقوله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب.

وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح[(٤)].

وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي[(٥)].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ذا طهر فلم يهمّ بذنب[(٦)].

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذلك طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصّه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي، عن صدقة بن الفضل عنه[(٧)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا» قال قتادة: عن الحسن قال: قال النبي ﷺ ما أذنب ولا همّ بامرأة[(٨)]، مرسل.

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص أنه سمع النبي ﷺ قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»[(٩)].

ابن إسحاق هذا مدلس، وقد عنعن هذا الحديث، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد مطولاً وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً (المسند ٢١/ ١٠٠ ح١٣٤١١).

(٢) كنية عمرو بن هند. (٣) ديوان طرفة بن العبد ٢٠٨.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٩) أخرجه الطبري عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق به وفي سنده ابن حميد وهو: محمد بن حميد الرازي: ضعيف، وفيه أيضاً عنعنة ابن إسحاق.

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدمَ إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى»[١]. وهذا أيضاً ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: استغفر لي أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلَّمت على نفسي، وسلَّم الله عليك فعرف واللهِ فضلَهما[٢].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام. وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة؛ أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في سورة آل عمران[٣]، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهب إلى شرق المسجد المقدس. وقال السدي: لحيض أصابها[٤]، وقيل لغير ذلك.

قال أبو كدينة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٥٤) وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (الزهد ص٧٦)، والطبري كلاهما من طريق سعيد بن أبي عروبة به، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٣) في الآية ٣٧.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(١).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إني لأعلمُ خلقِ اللهِ لأي شيء اتخذت النصارى المشرقَ قبلةً لقول الله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذو ميلاد عيسى قبلة(٢).

وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شاسعاً منتحياً(٣).

وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها(٤) لتستقي الماء.

وقال نوف البكالي: اتخذتْ لها منزلاً تتعبد فيه(٥)، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرائيل عليه السلام(٦). وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء] وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب قال: إن روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام، وهو الذي تمثل لها بشراً سوياً(٧)؛ أي روح عيسى، فحملت الذي خاطبها، وحلَّ في فيها، وهذا في غاية الغرابة والنكارة وكأنه إسرائيلي.

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ أي: لما تبدى لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل.

قال ابن جرير: حدثني أبو كريب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل وذكر قصة

---

(١) أخرجه الطبري مقطعاً من طريق محمد بن الصلت عن أبي كدينة به، وفي سنده: قابوس بن أبي ظبيان فيه لين (التقريب ص٤٤٩).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وداود هو ابن أبي هند، وعامر هو الشعبي، وأخرجه البستي من طريق ابن أبي عدي عن داود به مختصراً، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أي: بجرتها.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ونسبه إلى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد عن نوف بنحوه مطولاً.

(٦) قول مجاهد لم أجده، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، لكنه قال: ذُكر لنا، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، وقول وهب أخرجه الطبري بسند ضعيف لإبهام الراوي عن وهب، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٧) أخرجه الحاكم من طريق أبي جعفر الرازي به بنحوه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٣)، ولكن متنه منكر من أخبار أهل الكتاب كما قرر الحافظ ابن كثير.

مريم، فقال: قد علمت أن التقيَّ ذو نُهيةٍ حين قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾[١]؛ أي: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين ولكني رسول ربك، أي بعثني الله إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمٰن انتفض جبريل فرقاً وعاد إلى هيئته وقال: ﴿قَالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ليهبَ لَكَ غُلَاماً زَكِيّاً﴾ هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء، وقرأ الآخرون ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ وكلا القراءتين له وجه حسن[٢] ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ والبغي: هي الزانية، ولهذا جاء في الحديث نهي عن مهر البغي[٣].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران] أي: يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمٰن بن إبراهيم دُحيم، حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد: قال: قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سبّح في بطني وكبّر[٤].

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح، وأخرجه البخاري تعليقاً، ووصله عبد بن حميد في تفسيره من طريق المسعودي عن عاصم به (تغليق التعليق ٤/٣٧).

(٢) وكلتاهما متواترتان.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث أبي مسعود الأنصاري: نهىٰ رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن (صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب ح٢٢٣٧، وصحيح مسلم، المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب ح١٥٦٧).

(٤) وسنده مرسل، وعليه أمارات الإسرائيليات.

زُوجِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا﴾ أي: إن الله قد عزم على هذا فليس منه بدٌّ(١)، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك - وهو جبريل عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم، فقامت إليها فاعتنقتها وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبلى، وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذي في بطنها يسجد للذي في بطن مريم؛ أي يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملَّتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام، ولكن حُرِّم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قُرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمٰن بن القاسم قال: قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام؛ لأن الله جعله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص(٢).

ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر. وقال ابن جريج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت، وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٤] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها.

وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً(٣)، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي وهو: ضعيف.
(٢) سنده ضعيف، لأن مالكاً رواه بلاغاً.
(٣) وهو حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل =

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] فالمشهور الظاهر، ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس[١] في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عَرَّضَ لها في القول فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي. قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ [فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه. أما قولك: هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب؟][٢]، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم، فصدقها وسلَّم لها حالها[٣]، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً؛ أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها[٤] ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه.

وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس[٥].

وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق. وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية[٦] أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها: بيت لحم[٧].

قلت: وقد تقدم في أحاديث الإسراء من رواية النسائي، عن أنس ﷺ، والبيهقي عن شداد بن أوس ﷺ أن ذلك ببيت لحم[٨]، فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صح.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فيه دليل على جواز

= ذلك...» (صحيح البخاري، كتاب القدر، باب رقم (١) ح٦٥٩٤، وصحيح مسلم، القدر، باب كيفية خلق الآدمي ح٢٦٤٣).

(١) أي: يدور مستمراً. (٢) زيادة من (ح) و(حم).

(٣) هذه القصة أخرجها الطبري بسنده عن وهب بن منبه، وهو مشهور بالإسرائيليات.

(٤) أي: جرَّتها.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) كذا في الأصول، وفي تفسير الطبري: «ستة أميال».

(٧) أخرجه الطبري بسنده عن وهب بن منبه، وهو من أخبار أهل الكتاب.

(٨) تقدم في الآية الأولى من سورة الإسراء.

تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئاً، قاله ابن عباس(١).

وقال السدي: قالت ـ وهي تطلقُ من الحَبَل استحياء من الناس ـ: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل(٢)، ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ نسي فترك طلبه كخرق الحيض التي إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر، وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي.

وقال قتادة: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: شيئاً لا يُعرف ولا يُذكر ولا يُدرى من أنا(٣).

وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ هو: السقط(٤).

وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط(٥).

وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾.

قرأ بعضهم: «مَنْ تحتها» بمعنى الذي تحتها، وقرأ الآخرون: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ على أنه حرف جر(٦)، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها(٧)، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدي وقتادة: إنه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام(٨)؛ أي: ناداها من أسفل الوادي.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ [مريم: ١٦] قبل ح٣٤٣٦)، ووصله الطبري بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس، ومعناه صحيح.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٦) القراءتان متواترتان.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بما يليه.

(٨) قول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول عمرو بن ميمون أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حصين عنه، وحصين هو ابن عبد الرحمن السلمي الكوفي ثقة تغير حفظه في الآخر (التقريب ص١٧٠، وينظر: تهذيب =

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قال: عيسى بن مريم[١]، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها[٢]، وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾[٣] [مريم: ٢٦] واختاره ابن زيد[٤] وابن جرير في تفسيره[٥].

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أي: ناداها قائلاً: لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول[٦]، وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السري: النهر[٧]، وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه[٨].

وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية[٩].

وقال سعيد بن جبير: السري: النهر الصغير بالنبطية[١٠].

وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية[١١].

وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير[١٢].

وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز[١٣].

وقال وهب بن منبه: السري هو ربيع الماء[١٤].

وقال السدي: هو النهر[١٥]، واختار هذا القول ابن جرير[١٦].

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلُيّ، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر

= التهذيب، ترجمة عمرو بن ميمون ١٠٩/٨)، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر، عنه.

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري بسند قوي من طريق ثابت بن عجلان عن سعيد بن جبير.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٥) رجحه الطبري.

(٦) أخرجه الطبري من طريق سفيان ومن طريق شعبة كلاهما عن ابن إسحاق عن البراء، وكلاهما سندٌ صحيح.

(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن ميمون.

(٩) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: وهو ضعيف.

(١١) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان بلفظ: «الجدول الصغير».

(١٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق مغيرة عن إبراهيم.

(١٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(١٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام الراوي عن وهب.

(١٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١٦) رجحه الطبري واستدل بالشعر.

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر أخرجه الله لتشرب منه»(١).

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نَهيك هذا هو الحبلى، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث.

وقال آخرون: المراد بالسري: عيسى ﷺ، وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم(٢) والقول الأول أظهر. ولهذا قال بعده: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس(٣). وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة(٤). وقال الثوري: [عن أبي داود](٥) نفيع الأعمى: كانت صرفانة(٦)، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه(٧)، ولهذا امتنَّ عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة(٨).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم ﷺ، وليس من الشجر شيء يلقح غيرها» وقال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الوُلّد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» هذا حديث منكر جداً ورواه أبو يعلى عن شيبان به(٩).

وقرأ بعضهم ﴿تَسَّاقط﴾ بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها(١٠). وقرأ أبو نهيك: «تُسْقط عليك

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١٢/ ٣٤٦ ح١٣٣٠٣)، وضعف سنده الحافظ ابن كثير لضعف أيوب بن نَهيك.

(٢) قول الحسن ذكره الحافظ ابن حجر ونسبه إلى الطبري وقال: وهذا شاذ (فتح الباري ٦/ ٤٧٩)، ونسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن. وبهذا يكون أخرجه الطبري بسند صحيح عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله وهب، عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عيسىٰ بن ميمون عن مجاهد.

(٥) كذا في (حم)، وترجمته في التقريب، وهو متروك وكذبه ابن معين (التقريب ص٥٦٥)، وفي الأصل: «أبو الأسود».

(٦) الصَرَفان: نوع من التمور الجيدة، واحدته: صرفانة.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الصمد بن معقل عن وهب: أنه الرطب.

(٨) أخرجه عبد الرزاق والبستي والطبري بسند صحيح من طريق حصين ـ وهو ابن عبد الرحمن الكوفي ـ عن عمرو بن ميمون. وكلامه صحيح مجرب.

(٩) أخرجه العقيلي (الضعفاء الكبير ٤/ ٢٥٦)، وابن عدي (الكامل ٦/ ٢٤٢٤)، وأبو يعلىٰ (المسند ١/ ٣٥٣ ح٤٥٥) كلهم من طريق مسرور بن سعيد التميمي به، وسنده ضعيف لضعف مسرور، وعروة لم يسمع عن علي ﷺ. وقال الألباني: موضوع (السلسلة الضعيفة ح٢٦٣).

(١٠) القراءتان متواترتان.

رطباً جنياً»[١] وروى أبو إسحاق عن البراء أنه قرأها «يَسَّاقَطْ»[٢] أي: الجذع، والكل متقارب.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتاً[٣]، وكذا قال ابن عباس والضحاك[٤]، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً[٥]، وكذا قال قتادة وغيرهما[٦].

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد[٧]. وقال أبو إسحاق عن [حارثة][٨] قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم، فقال عبد الله بن مسعود: كلّم الناس وسلّم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام[٩] -؛ ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه[١٠]، وكذا قال وهب[١١].

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر،

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد، وهو: محمد بن حميد الرازي: ضعيف، والقراءة شاذة.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي إسحاق به، والقراءة متواترة.

(٣) أخرجه الطبري من طريقين يقوي أحدهما الآخر عن أنس رضي الله عنه.

(٤) قول ابن عباس أخرجه البستي بسند جيد من طريق المغيرة بن عبد الله الثقفي عن ابن عباس، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٥) أخرجه أبو عبيد (فضائل القرآن ص١٧٦)، والطبري بسند صحيح من طريق سليمان التيمي، وهو ابن طرخان، عن أنس، وفيه: أنه قرأ، وعليه فإن القراءة شاذة تفسيرية.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٨) كذا في (حم) و(ح)، وفي تفسير الطبري وفي ترجمته في التقريب، وهو ابن مضرِّب. وفي الأصل صُحف إلى: «جارية».

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق به.

(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(١١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام الراوي عن وهب.

فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها، فسلَّمت لأمر الله ﷻ واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، و﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: أمراً عظيماً، قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: وخرج قومها في طلبها، قال: وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئاً، فلقوا راعي بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نعتها؟ قال: لا ولكني رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيّار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً فتوجهوا حيث قال لهم؛ فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها فجاؤوا حتى قاموا عليها و﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[٢] أمراً عظيماً.

﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟

قال علي بن أبي طلحة والسدي: قيل لها: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ أي: أخي موسى، وكانت من نسله كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر[٣]، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون[٤]، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة، وحكى ابن جرير، عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له: هارون[٥].

ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين [الهجستاني حدثنا ابن أبي مريم][٦]، حدثنا المفضل بن فضالة، حدثنا أبو صخر عن القرظي في قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهي أخت موسى أخي هارون التي قصت أثر موسى ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١][٧].

وهذا القول خطأ محض، فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل، فدل

---

(١) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٢) ذكره السيوطي مطولاً وعزاه إلى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد، ونوف البكالي مشهور بروايته الإسرائيليات.

(٣) ذكره الطبري وأخرجه بنحوه بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحوه، وهو الذي رجحه الطبري.

(٥) ذكره الطبري تعليقاً دون سند وعزو.

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «الهنجاني حدثنا ابن مريم».

(٧) هذا الخبر من الإسرائيليات التي نقلها القرظي، وهو: محمد بن كعب، وقد ردَّ الحافظ ابن كثير هذا الخبر.

على أنه آخر الأنبياء بعثاً، وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم إلا أنه ليس بيني وبينه نبي»[(١)]، ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد، ولكان قبل سليمان وداود، فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وذكر القصة إلى أن قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، والذي جرّأ القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين تضرب بالدف هي والنساء معها يسبِّحنَ الله ويشكرنه على ما أنعم به على بني إسرائيل، فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى وهذه هفوة وغلطة شديدة. بل هي باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس؛ سمعت أبي يذكره عن سماك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[(٢)]، انفرد بإخراجه مسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن إدريس عن أبيه، عن سماك به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سعيد بن أبي صدقة، عن محمد بن سيرين قال: نُبئت أن كعباً قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ ليس بهارون أخي موسى قال: فقالت له عائشة: كذبت. قال: يا أم المؤمنين إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتت[(٤)]. وفي هذا التاريخ نظر.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ الآية، قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر[(٥)]، قال: وذُكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل[(٦)].

---

(١) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم] (ح٣٤٤٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسن سنده محققوه (المسند ٣٠/ ١٤١ ح١٨٢٠١).

(٣) صحيح مسلم، الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم (ح٢١٣٥)، وسنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة مريم (ح٣١٥٥)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] (ح١١٣١٥).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن محمد بن سيرين لم يسمع الخبر من كعب الأحبار.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الطبري وهو تتمة لسابقه إلا أن قتادة في هذا الشطر لم يصرح باسم شيخه، والخبر متنه غريب جداً.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟.

قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قالت: كلموه[١]، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلِّم من كان في المهد صبياً.

وقال السدي: لما «أشارت إليه» غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلِّم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[٢]؛ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أول شيء تكلم به أن نزَّه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٣].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البناني: رفع أصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية[٤].

وقال عكرمة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا يحيى بن سعيد ـ هو: العطار ـ، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمها وهو في بطن أُمه، فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[٦]. يحيى بن سعيد العطار الحمصي: متروك.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري: وجعلني معلماً للخير[٧]. وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً[٨].

وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي،

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد عن ميمون.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٣) ذكره السيوطي وعزاه إلى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد والخبر من الإسرائيليات؛ لأن نوف البكالي معروف برواية القصص عن أهل الكتاب.
(٤) لم أجده عن ثابت.
(٥) أخرجه سفيان الثوري والطبري بسند حسن من طريق سماك عن عكرمة.
(٦) سنده ضعيف جداً لأن يحيىٰ بن سعيد العطار متروك كما قرر الحافظ ابن كثير.
(٧) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف عنه، وقول الثوري أخرجه الطبري عن يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيان. ويونس لم يدرك الثوري.
(٨) أخرجه الطبري والبيهقي (الجامع لشعب الإيمان رقم ٧٦٦١) بسند ضعيف عن ليث، وهو ابن أبي سليم، عن مجاهد.

سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان[1]. وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر[2].

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يُقبل على الغضب[3].

وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ قال: ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦][4].

قال قتادة: ذُكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص في آيات سلطه الله عليهنَّ وأذنَ له فيهنَّ، فقالت: طوبى للبطن الذي حملَك، وطوبى للثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى عليه السلام يجيبها: طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع ما فيه، ولم يكن جباراً شقياً[5].

وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيىٰ ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، [صلوات الله وسلامه عليه][6].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه بلفظ: «وقد اجتمع الفقهاء»، وسنده جيد.
(٢) سنده صحيح.
(٣) أخرجه البستي بسند صحيح عن ابن أبي عمر العدني عن سفيان.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبد الله بن واقد أبي رجاء عن بعض أهل العلم.
(٥) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل، ومثل هذا الخبر لا يؤخذ إلا من حديث مرفوع أو له حكم الرفع.
(٦) زيادة من (حم).

عيسى عليه السلام: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولهذا قرأ الأكثرون ﴿قولُ الحق﴾ برفع قول، وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾[(١)]، وعن ابن مسعود أنه قرأ «ذلك عيسى بن مريم قالُ الحق»[(٢)]، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران] ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم؛ أي: قويم من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى. وقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلف أقوال أهل الكتاب[(٣)] في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: بل هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا في عيسى حين رفع، فقال بعضهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية، فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل أنت فيه. قال: هو ابن الله؛ وهم النسطورية، فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله؛ وهم الإسرائيلية ملوك النصارى ـ عليهم لعائن الله ـ. قال الرابع: كذبت؛ بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته؛ وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا فظُهِرَ على المسلمين، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] قال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً[(٤)].

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم

---

(١) القراءتان متواترتان.

(٢) أخرجه الطبري تعليقاً، وهي قراءة مفسرة، وهو بمعنىٰ قراءة «قولُ الحق».

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده صحيح.

قريباً من ذلك[١].

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً، جداً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه شيئاً، وسبعون تقول فيه قولاً آخر، وخمسون تقول شيئاً آخر ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة، وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه، فمال إليهم الملك وكان فيلسوفاً فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة؛ بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء، وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيروه، فابتنى لهم حينئذٍ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قمامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا بل رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود][٢]. وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم] ولهذا قال ههنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة.

وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[٤].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة هود آية ١٠٢.

(٣) صحيح البخاري، الأدب، باب الصبر على الأذىٰ (ح٦٠٩٩)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب لا أحد أصبر على أذىٰ من الله ﷻ (ح٢٨٠٤).

(٤) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ...﴾ [آل عمران: ٤٥] (ح٣٤٣٥) وصحيح مسلم، الإيمان، باب الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (ح٣١٠).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم[١] ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وَهُمْ﴾ أي: اليوم ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون به.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟، قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأشار بيده، ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد[٢]، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الأعمش به، ولفظهما قريب من ذلك[٣]. وقد روى هذا الحديث [الحسن][٤] بن عرفة: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله[٥]، وفي سنن ابن ماجه وغيره من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة نحوه[٦]، وهو في الصحيحين عن ابن عمر[٧].

رواه ابن جريج قال: قال ابن عباس.. فذكر من قبله نحوه[٨]، ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة فيذبح والناس ينظرون[٩].

---

(١) أخرج نحوه ابن أبي حاتم بسنده صحيح عن ابن عباس (ينظر: فتح الباري ٨/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وصحح سنده محققوه (المسند ١٧/ ١٢٠ ح١١٠٦٦).

(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] (ح٤٧٣٠)، وصحيح مسلم، الجنة، باب النار يدخلها الجبارون... (ح٢٨٤٩).

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «المسد».

(٥) أخرجه الطبري من طريق أسباط بن محمد به.

(٦) سنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة النار (ح٤٣٢٧) وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ح٣٤٩٣).

(٧) صحيح البخاري، الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (ح٦٥٤٤) وصحيح مسلم، الجنة، باب النار يدخلها الجبارون... (ح٢٨٥٠).

(٨) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يلقَ ابن عباس، ويشهد له ما تقدم.

(٩) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج عن أبيه، وسنده ضعيف لأن فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، =

وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل: حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ في قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار وهو يوم الحسرة، فيرى أهل النار البيت الذي في الجنة، ويقال لهم: لو عملتم، فتأخذهم الحسرة، قال: ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال لهم: لولا أن الله منَّ عليكم[١].

وقال السدي، عن زياد، عن زرٍّ بن حُبيش، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أُتي بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادي منادٍ: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح لماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذره عباده[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[٤] [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً؛ بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً، ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

قال ابن أبي حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسي، حدثنا حزم بن أبي حزم [القُطعي][٥] قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على خلقه: (إنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون)[٦].

= ويشهد له ما ثبت في الصحيحين.

(١) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وسنده صحيح.

(٢) يشهد له ما سبق.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «البطعي».

(٦) سنده ضعيف لأن ابن أبي حاتم رواه معلقاً عن هدبة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن، الذين هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه، كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيره[1].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه البخاري معلقاً، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (تغليق التعليق ٤/٢٤٨)، وصحح سنده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/٢٣٧)، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، لكنه توبع في رواية ابن أبي حاتم المتقدمة.

وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق: يعني دهراً[(١)].

وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً[(٢)].

وقال السدي: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: أبداً[(٣)].

وقال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: سوياً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة[(٤)]، وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدلي وأبو مالك وغيرهم[(٥)]، واختاره ابن جرير.

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً[(٦)]؛ أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له.

وقال قتادة ومجاهد وغيرهما ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال: عوّده الإجابة[(٧)].

وقال السدي: الحفي: الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق ﵉ في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم] وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] يعني: إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به، ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الكريم، وهو الجزري عنه، وقول عكرمة أخرجه سفيان الثوري والطبري بسند صحيح من طريق أبي حصين عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي حصين عنه، وقول ابن إسحاق أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف ويشهد له سابقه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى برواية الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «اجتنبني سوياً».

(٥) قول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول عطية الجدلي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قرة بن خالد عنه.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٧) قول مجاهد ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله (وأدعو ربي) أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ وعسى: موجبة لا محالة، فإنه ﷺ سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب؛ يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نصّ القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب؛ أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقرّ الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب ﷺ قد نبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله»(١)، وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»(٢).

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الثناء الحسن(٣)، وكذا قال السدي ومالك بن أنس، وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٤).

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام(٥) من الإخلاص في العبادة. قال الثوري، عن

---

(١) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ...﴾ [البقرة: ١٣٣] (ح٣٣٧٤)، وصحيح مسلم، الفضائل، باب فضائل يوسف ﷺ (ح٢٣٧٨).

(٢) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر ﷺ (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ...﴾ [يوسف: ٦] ح٤٦٨٨).

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به. (٤) ذكره الطبري واستشهد له بالشعر.

(٥) وهي قراءة متواترة.

عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة قال: قال الحواريون: يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله؟ قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس[١]. وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة فرآها تلوح، فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه.

روى ابن جرير: حدثنا [ابن بشار][٢]، حدثنا يحيى ـ هو القطان ـ، حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال: أُدني حتى سمع صريف القلم[٣]، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم؛ يعنون: صريف القلم بكتابة التوارة[٤].

وقال السدي: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال: نجا بصدقه[٥].

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحراني، عن أبي واصل، عن شهر بن حوشب، عن عمرو بن معديكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً[٦].

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص] وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء] ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) سنده مرسل لأن مثل هذه الروايات لا تؤخذ إلا من حديث رسول الله ﷺ.

(٢) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحف إلى: «ابن يسار».

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الثوري عن عطاء به، وأخرجه البستي من طريق ابن بشار، به وسنده حسن.

(٤) قول مجاهد أخرجه أبو الشيخ (العظمة ح٢٨٢)، والطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وكلاهما مرسل يقوي أحدهما الآخر ويتقويان بسابقهما.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وفي سنده شهر بن حوشب فيه مقال، والخبر من أهل الكتاب.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له[1]، وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً عن يعقوب وهو: ابن إبراهيم الدّورقي به[2].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد.

قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها؛ يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه، فجاء ونسي الرجل، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا. قال: إني نسيت قال: لم أكن أبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[3].

وقال سفيان الثوري: بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه[4].

وقال [ابن شوذب][5]: بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع مسكناً[6].

وقد روى أبو داود في سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه مكارم الأخلاق، من طريق إبراهيم بن طهمان، عن بُديل بن ميسرة، عن عبد الكريم - يعني: ابن عبد الله بن شقيق -، عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء، قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث، فبقيت له علي بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: «يا فتى لقد شققت عليّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك». لفظ الخرائطي[7]، وساق آثاراً حسنة في ذلك، ورواه ابن منده أبو عبد الله في كتاب معرفة الصحابة بإسناده عن إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به[8].

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فصدّق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خُلْفه من الصفات

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن. (٢) سنده كسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرساله.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم وسنده ضعيف لأن الثوري رواه بلاغاً.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «سودب».

(٦) وسنده ضعيف كسابقه.

(٧) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في العِدة (ح٤٩٩٦)، ومكارم الأخلاق (ح٣٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ح١٠٦٢).

(٨) سنده كسابقه.

الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[(١)].

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً لا يعد أحداً شيئاً إلا وفّى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي» ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له، فجاء جابر بن عبد الله فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا» يعني: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها[(٢)].

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»[(٣)]. وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه ﷻ، آمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طـه]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦] أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً، فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبىٰ نضحت في وجهه الماء» أخرجه أبو داود وابن ماجه[(٤)].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له[(٥)].

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الإيمان، باب علامة المنافق ح٣٣)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان خصال المنافق (ح١٠٧).

(٢) أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه (صحيح البخاري، فضائل الصحابة، باب أصهار النبي ﷺ ح٣٧٢٩) وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة رضي الله عنها (ح٢٤٤٩).

(٣) صحيح مسلم، الفضائل، باب نسب النبي ﷺ (ح٢٢٧٦).

(٤) سنن أبي داود، الصلاة، باب قيام الليل (ح١٣٠٨)، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (ح١٣٣٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١١٦٠).

(٥) سنن أبي داود، الصلاة، باب قيام الليل (ح١٣٠٩)، والسنن الكبرى للنسائي، قيام الليل، باب ثواب من =

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

هذا ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة[1]. وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله ﷻ لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ فقال كعب: أما إدريس، فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له: إن الله أوحى إلي كذا وكذا، فكلم لي ملك الموت فليؤخرني حتى ازداد عملاً، فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هوذا على ظهري. قال ملك الموت: العجب، بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك قول الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾[2]. هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة، والله أعلم.

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أنه سأل كعباً فذكر نحو ما تقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله؛ يعني: ملك الموت، كم بقي من أجلي لكي أزداد من العمل؟ وذكر باقيه، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال: لا أدري حتى أنظر، فنظر ثم قال: إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعر به[3]، ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وذكر بقيته كالذي قبله أو نحوه[4].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال إدريس: رفع ولم يمت كما رفع عيسى[5].

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: السماء الرابعة[6].

= استيقظ وأيقظ امرأته فصليا (ح١٣١)، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (ح١٣٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١١٦١).

(١) تقدم في تفسير سورة الإسراء آية ١.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن، لكنه من أخبار كعب الأحبار المعروف برواية الإسرائيليات.

(٣) حكمه كسابقه.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم وحكم كسابقه.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، لكنه غريب تفرد به مجاهد، ومثل هذا لا يؤخذ إلا من حديث ثابت مرفوع.

(٦) أخرجه الثوري بسنده ومتنه، وسنده صحيح موافق للحديث الصحيح المتقدم في بداية تفسير سورة الإسراء، =

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها[(١)]، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم[(٢)].

وقال الحسن وغيره في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ قال: الجنة[(٣)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط؛ بل جنس الأنبياء ﷺ استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ الآية، قال السدي وابن جريج رحمهما الله. فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح[(٤)].

(قلت): هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليه السلام، وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذ من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل: والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام[(٥)].

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد: أن إدريس أقدم من نوح، فبعثه الله إلى قومه فأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبوا فأهلكهم الله عز وجل[(٦)].

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٦ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

= وأخرجه ابن أبي شيبة عن سفيان به (المصنف ١١/ ٥٥٠)، وكذا الطبري.

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان، وهو مخالف لما في الصحيحين أنه في السماء الرابعة.

(٣) قول مخالف لما في الصحيحين أنه في السماء الرابعة وليس في الجنة.

(٤) ذكره الطبري دون ذكر السدي.

(٥) تقدم في بداية تفسير سورة الإسراء.

(٦) سنده مرسل ولعله من أخبار أهل الكتاب.

وفي صحيح البخاري عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي ﴿صٓ﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فنبيكم ممن أمر يقتدي بهم، قال: وهو منهم؛ يعني: داود[١].

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر قال: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود فأين البكي؟ يريد البكاء، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[٢]، وسقط من روايته ذكر أبي معمر فيما رأيت، فالله أعلم.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾.

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء ﷺ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره، ذكر أنه ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي: قرون أُخر ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غياً؛ أي: خساراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن أسلم والسدي[٣]، واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة[٤] للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»[٥].

والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٦]، وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه (صحيح البخاري، التفسير، سورة ص ح٤٨٠٧)، وسورة الأنعام باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] (ح٤٦٣٢)، وكأن الحافظ ابن كثير، أورده بالمعنى.

(٢) سنده صحيح، وهو كما قال الحافظ ابن كثير فقد أخرجه الطبري من طريق الثوري به دون ذكر أبي معمر.

(٣) قول محمد بن كعب القرظي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي صخر عنه.

(٤) ورأي الجمهور أن تكفير تارك الصلاة إذا كان جاحداً لها.

(٥) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ (الصحيح، الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ح١٣٤).

(٦) أخرجه الترمذي من حديث بريدة ﷺ وقال: حسن صحيح غريب (السنن، الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة ح٢٦٢١)، وكذا أخرجه ابن ماجه (السنن، إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة ح١٠٧٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٨٨٤).

وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ﴾ قال: أي: أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً[(١)].

وقال وكيع عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون] و﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] و﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر[(٢)].

وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهنَّ: إضاعتهنَّ عن وقتهنَّ[(٣)].

وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت[(٤)].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ﴾ قال: عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة[(٥)]، وكذا روى ابن جريج، عن مجاهد مثله[(٦)]، وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة[(٧)]؛ يعنون: في آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ﴾ قال: هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض[(٨)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقري، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني، أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدري

---

(١) أخرجه الطبري وأبو نعيم (الحلية ٦/ ٨٠) كلاهما عن الأوزاعي به، وأخرجه الطبري بسند آخر عن الأوزاعي عن القاسم بن مخيمرة، وأخرجه الطبري بسند آخر من طريق أبي عمرو عن القاسم بن مخيمرة، وهذه الأسانيد يقوي بعضها بعضاً. وهذا الرأي أيضاً يخالف قول الجمهور المتقدم.

(٢) أخرجه الطبري عن سفيان بن وكيع عن أبيه، به وسنده ضعيف لضعف سفيان بن وكيع.

(٣) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، والخطيب البغدادي في «المتفق والمفترق»، وأخرجه الطبري بسند كسابقه.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وفي سنده الحسين كسابقه، ويتقوى بطريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري من طريق جابر به، وفي سنده الحسين، وهو ابن داود، وهو ضعيف.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده إبراهيم بن مهاجر فيه مقال، وقد تابعه ابن أبي نجيح في الرواية قبل السابقة فيتقوىٰ بها.

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق وفاجر» وقال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: «المؤمن: مؤمن به، والمنافق: كافر به، والفاجر: يأكل به» وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقري به[(١)].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، عن مالك، عن أبي الرجال أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصفة، وتقول: لا تعطوا منه بربرياً، ولا بربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»[(٢)]، هذا الحديث غريب. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حريز، عن شيخ من أهل المدينة أنه سمع محمد بن كعب القرظي يقول في قول الله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب يملكون وهم شر من ملك[(٣)].

وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله ﷻ: شرّابين للقهوات، ترّاكين للصّلوات، لعّابين بالكعبات، رقّادين عن العتمات، مفرطين في الغدوات، ترّاكين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾[(٤)].

وقال الحسن البصري: عطّلوا المساجد ولزموا الضيعات.

وقال أبو الأشهب العطاردي: أوحى الله إلى داود ﵇: يا داود، حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه من طاعتي[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا أبو [السمح][(٦)] التميمي عن [أبي][(٧)] قبيل أنه سمع عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف على أُمتي اثنتين: القرآن، واللبن أما اللبن فيتبعون الريف ويتبعون الشهوات ويتركون الصلاة، أما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين»[(٨)]، ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة: حدثنا أبو قبيل عن عقبة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق أبي عبد الرحمن به، وحسّن سنده محققوه (المسند ١٧/ ٤٤٠ ح١١٣٤٠)، وأخرجه الحاكم من طريق حيوة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٢٥٨).

(٢) أخرجه الحاكم من طريق إبراهيم بن موسىٰ به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: عبيد الله مختلف في توثيقه، ومالك لا أعرفه، ثم هو منقطع (المستدرك ٢/ ٢٤٤، ٢٤٥) ومتنه منكر.

(٣) سنده ضعيف لإبهام الراوي عن محمد بن كعب.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٥) سنده معضل؛ لأن أبا الأشهب العطاردي هو جعفر بن حيان من أتباع التابعين.

(٦) كذا في (ح) و(حم) ومسند أحمد، وفي الأصل بياض.

(٧) كذا في (ح) و(حم) ومسند أحمد، وفي الأصل صحف إلى: «ابن».

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٥) وفي سنده أبو قبيل، وهو حُيي بن هاني: صدوق يهم =

به، مرفوعاً بنحوه، تفرد به[(١)].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: أي: خسراناً[(٢)].

وقال قتادة: شراً[(٣)].

وقال سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق، عن أبي إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: وادٍ في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم[(٤)].

وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زياد ابن زيار، حدثنا شرقي بن قطامي، عن لقمان بن عامر الخزاعي قال: جئت أبا أُمامة صُدي بن عجلان الباهلي، فقلت: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشرة أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفاً، ثم تنتهي إلى غي وآثام»، قال: قلت: ما غي وآثام؟ قال: [بئران][(٥)] في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكرهما الله في كتابه ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، وقوله: في الفرقان: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[(٦)] [الفرقان: ٦٨] هذا حديث غريب ورفعه منكر.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها، وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[(٧)]، ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسياً، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

= (التقريب ص١٨٥)، ولم يتابع. وأبو السمح فيه مقال أيضاً.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٥) وسنده كسابقه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به. (٣) عزاه السيوطي في الدر إلى ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري بهذه الطرق، وفيها كلها أبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود.

(٥) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحف إلى: «نيران».

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ووصفه الحافظ ابن كثير بالغرابة والنكارة في رفعه.

(٧) أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (السنن، الزهد، باب ذكر التوبة ح٤٢٥٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٤٢٧)، وهذا التحسين يبدو أنه بالشواهد لأنه ذكره في السلسلة الضعيفة (ح٦١٥) وأعله بالانقطاع بين أبي عبيدة وابن مسعود رضي الله عنه.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾.

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن؛ أي: إقامة ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ بظهر الغيب؛ أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم..

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] أي: كائناً لا محالة، وقوله ههنا: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ بمعنى آتياً؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت علي خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا.

وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ استثناء منقطع كقوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة].

وقوله: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي: في مثل وقت البكرات ووقت العشيات لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوّة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً»[(١)]. أخرجاه في الصحيحين من حديث معمر به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري، عن محمود بن لبيد الأنصاري، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً» تفرد به أحمد من هذا الوجه[(٣)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ قال: مقادير الليل والنهار[(٤)].

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/٣١٦)، وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (ح٣٢٤٥)، وصحيح مسلم، الجنة، باب في صفات الجنة (ح٢٨٣٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسنه محققوه، ونقلوا عن السندي قوله: «على بارق نهر الجنة» لعل المراد به الموضع الذي يبرق منه النهر الذي بباب الجنة ويظهر (المسند ٤/ ٢٢٠ ح٢٣٩٠).

(٤) أخرجه الثوري عن سعيد بن سنان عن الضحاك به، وسنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما.

قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، ويعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب[١].

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُليد، عن الحسن البصري، وذكر أبواب الجنة فقال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فَتُهمْهِمُ، انفتحي انغلقي فتفعل[٢].

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثَمَّ ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور[٣].

وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا[٤].

وقال الحسن وقتادة وغيرهما: كانت العرب الأنعم فيهم من يتغدى ويتعشى، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٥].

وقال ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: البكور يرد على العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سليم بن منصور بن عمار، حدثني أبي، حدثني محمد بن زياد قاضي أهل شمشاط، عن عبد الله بن حدير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من غداة من غدوات الجنة وكلُّ الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولي الله، فيها زوجة من الحور العين أدناهنَّ التي خلقت من الزعفران» قال أبو محمد: هذا حديث غريب منكر[٧].

وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله ﷻ في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى ووكيع قالا: حدثنا عمر بن ذرّ، عن أبيه، عن سعيد بن جبير،

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده معضل لأن مثل هذا الأثر لا يؤخذ إلا من حديث شريف.
(٢) أخرجه الطبري بسنده بلفظ: «فتفهمهم»، وسنده مرسل.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، لكنه مرسل ويتقوىٰ بالمراسيل التالية.
(٤) أخرجه الثوري وعبد الرزاق والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
(٦) سنده صحيح لكنه مرسل، ويتقوىٰ بالمراسيل الثلاثة السابقة.
(٧) وهو كما قال، فإن منصور بن عمار: ضعيف.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر ما تزورنا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . .﴾ إلى آخر الآية[١].

انفرد بإخراجه البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم، عن عمر بن ذرّ، به[٢]. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عمر بن ذرّ به وعندهما زيادة في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن فأتاه جبريل وقال: يا محمد ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية[٤].

وقال مجاهد: لبث جبرائيل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة، ويقولون: أقل، فلما جاءه قال: «يا جبرائيل لقد لبثت عليَّ حتى ظنَّ المشركون كلَّ ظن» فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. قال: وهذه الآية كالتي في الضحى[٥][٦]، وكذلك قال الضحاك بن مزاحم وقتادة والسدي وغير واحد: إنها نزلت في احتباس جبرائيل[٧]. وقال الحكم بن أبان عن عكرمة قال: أبطأ جبرائيل النزول على النبي ﷺ: أربعين يوماً، ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: «ما نزلت حتى اشتقت إليك» فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور، فأوحى الله إلى جبرائيل أن قل له: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية[٨]، ورواه ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو غريب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على النبي ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: «ما حبسك يا جبريل؟» فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصّون أظفاركم، ولا تنقّون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون. ثم قرأ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . .﴾ إلى آخر الآية[٩].

وقد قال الطبراني: حدثنا أبو عامر النحوي، حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري، حدثنا سليمان بن عبد الرحمٰن الدمشقي، حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرني ثعلبة بن مسلم، عن أبي كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أن جبرائيل أبطأ عليه فذكر له ذلك، فقال: وكيف وأنتم لا تستنون[١٠]، ولا تقلمون أظفاركم، ولا تقصّون شواربكم، ولا تنقّون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٣١)، وسنده صحيح.
(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] (ح٤٧٣١).
(٣) أخرجه الطبري من طريق وكيع عن عمر بن ذر، وسنده صحيح، والزيادة صحيحة.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بسابقه.
(٥) أي: قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى].
(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، لكنه مرسل ويتقوى برواية الصحيح السابقة.
(٧) قول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وهذان المرسلان يقوى أحدهما الآخر ويتقويان بالحديث الصحيح المتقدم.
(٨) وسنده مرسل، والحكم بن أبان: صدوق له أوهام، كما في التقريب.
(٩) رجاله ثقات لكنه مرسل، ويتقوىٰ بما سبق.
(١٠) أي: لا تستعملون السواك.

رواجبكم[(١)(٢)]؟ وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، عن ابن عباس بنحوه[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب، عن مالك بن دينار، حدثني شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أصلحي لنا المجلس فإنه ينزل ملك إلى الأرض لم ينزل إليها قط»[(٤)].

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أمر الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بين النفختين، هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهما، والسدي والربيع بن أنس[(٥)].

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بين الدنيا والآخرة، ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري،[(٦)]، واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال مجاهد: معناه ما نسيك ربك[(٧)]، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان يعني: أبا الجماهر، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[(٨)].

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [أي: خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقّب لحكمه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾][(٩)] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هل

---

(١) الرواجب: ما بين عقد الأصابع من داخل.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١١/٤٣١، ٤٣٢ ح١٢٢٢٤)، وسنده ضعيف لجهاله ثعلبة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبي اليمان به، وضعف سنده محققوه، كما في رواية الطبراني (المسند ٤/٦٨ ح٢١٨١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/٢٩٦) وسنده ضعيف لإبهام اسم الراوي عن أم سلمة ﵂.

(٥) قول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول الربيع بن أنس أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، أحدهما تقدم في رواية أبي العالية، وقول عكرمة وسعيد بن جبير أخرجهما ابن أبي حاتم كما عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه ويتقوى بالآثار التالية: إذ أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٨) سنده حسن وأخرجه الحاكم من طريق عاصم به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٧٥)، ونسبه الهيثمي إلى البزار والطبراني وحسّن سنده (مجمع الزوائد ١/١٧٦).

(٩) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (ح) و(حم).

تعلم للرب مثلاً أو شبهاً[(١)]، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج، وغيرهم[(٢)].

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمٰن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه[(٣)].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس] وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة؛ يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[(٤)].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: يعني: قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨][(٥)].

وقال السدي في قوله: ﴿جِثِيًّا﴾: يعني: قياماً[(٦)]، وروي عن مرة، عن ابن مسعود، مثله[(٧)].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: مِنْ كل أُمة، قاله مجاهد ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[(٨)].

قال الثوري، عن [علي بن الأقمر][(٩)]، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: يحبس الأول

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الأعمش عن مجاهد، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، ويتقوىٰ بما سبق.

(٣) أخرجه الحاكم من طريق سماك بن حرب عن عكرمة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٥).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ (الصحيح، التفسير، سورة الإخلاص ح٤٩٧٥).

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل بلفظ: «أبي» ثم بياض مقدار كلمة.

(٩) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾[١].

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ قال: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر[٢]، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف[٣]، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البرساني، عن أبي سُميَّة قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً، وقال سليمان بن مرة: يدخلونها جميعاً، وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه، وقال: صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردِهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً»[٤]، غريب ولم يخرجوه.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن [بكار][٥] بن أبي مروان، عن خالد بن معدان قال: قال أهل الجنة بعدما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة[٦].

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدري

---

(١) أخرجه البستي بسند حسن من طريق الثوري به.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن جريج بمعناه، وفي سنده الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لجهالة أبي سُميَّة (المسند ٢٢/٣٩٦ ح١٤٥٢٠).

(٥) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحف إلى: «مكان».

(٦) أخرجه الطبري عن الحسن بن عرفة به، وسنده مرسل؛ لأن خالد بن معدان تابعي معروف بكثرة الإرسال، كما في التقريب.

أأنجو منها أم لا؟. وفي رواية: وكان مريضاً[١].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن مالك بن مغول، عن أبي إسحاق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ قال: أُخبرنا أنّا واردوها ولم نُخبَر أنّا صادرون عنها[٢].

وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟، قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رُئي ضاحكاً حتى لحق بالله[٣].

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس: الورود: الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء] أوردوا أم لا، وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود] وردوا أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع[٤].

وروى ابن جريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحروري - وهو: نافع بن الأزرق -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] فقال ابن عباس: ويلك، أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم] ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً[٥].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟[٦].

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة: أخبرني عبد الله بن السائب، عمن سمع ابن عباس يقرؤها «وإن منهم[٧] إلا واردها» يعني: الكفار[٨]، وهكذا روى عمر بن الوليد الشنّي أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك «وإن منهم إلا واردها» قال: وهم الظلمة كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[٩].

---

(١) أخرجه الطبري والحاكم من طريق إسماعيل بن أبي خالد به، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: فيه إرسال (المستدرك ٤/ ٥٨٨).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن. وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن يمان به (المصنف ١٣/ ٤١٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك (الزهد ٢١١)، وابن أبي شيبة (المصنف ١٣/ ٥٠٠) بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن الحسن.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به. ويتقوىٰ برواية مجاهد عن ابن عباس التالية.

(٥) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٧) وهي قراءة شاذة.

(٨) أخرجه الطبري من طريق أبي داود به، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس ﷺ.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن عمر بن الوليد الشني به، والقراءة شاذة تفسيرية.

وقال العوفي، عن ابن عباس: قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ فسمى الورود على النار: دخولاً، وليس بصادر[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن، عن إسرائيل، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله، هو: ابن مسعود: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس النار كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»[(٢)]. [ورواه الترمذي عن عبد بن حميد][(٣)]، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدي به. ورواه من طريق شعبة، عن السدي، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً[(٤)]، هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً.

وقد رواه أسباط، عن السدي، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مرّاً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس[(٥)]. . . وذكر تمام الحديث، رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم. ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلِّم سَلِّم[(٦)]، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس[(٧)] وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة ﷺ.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن الجريري، عن [أبي السليل][(٨)]، عن غنيم بن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار الناس كأنها متن إهالة حتى يستوي عليها أقدام الخلائق: برُّهم وفاجرهم، ثم يناديها منادٍ: أن امسكي أصحابك ودعي أصحابي، قال: فتخسف بكل ولي لها، وهي أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسّن سنده محققوه (المسند ٧/ ٢٠٦ ح٤١٤١).
(٣) كذا في (ح) و(حم) وسنن الترمذي، وفي الأصل صحف إلى: «ورواه الزهري عن محمد بن حميد».
(٤) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة مريم ح٣١٦٠.
(٥) سنده حسن.
(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن، وأخرجه الحاكم من طريق إسرائيل، به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٥).
(٧) أخرجه الشيخان (صحيح البخاري، الرقاق، باب صفة الجنة والنار ح٦٥٦٥)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (ح٢٢٢).
(٨) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحف إلى: «ابن أبي ليلىٰ».

شعبتين، يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فسمعته يقول: «﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾»[٢].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[٣].

وفي الصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحِلَّة القسم[٤]»[٥].

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلّة القسم» يعني: الورود[٦].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زمعة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[٧].

وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الرحمٰن بن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال: «إن الله تعالى يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة»[٨]، غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه.

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن المبارك (الزهد ٤٠٥)، وأبو عبيد (في غريب الحديث ٤/٣٤٦) كلاهما من طريق الجريري به، وسنده مرسل.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٢٨٥) وسنده صحيح، وأخرجه مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه به (الصحيح، فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة ح٢٤٩٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٣٦٢)، وسنده صحيح.

(٤) تحلة القسم: وهو أن يباشر من الفعل الذي يُقسِم عليه المقدارَ الذي يُبِرُّ به قسمه، مثل أن يحلف على النزول بمكان، فلو وقع به وقعة خفيفة أجزأته .. فالمعنىٰ: لا تمسه النار إلا مسّة يسيرة مثل تحلة قسم الحالف (النهاية ١/ ٤٣٠).

(٥) صحيح البخاري، الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] (ح٦٦٥٦)، وصحيح مسلم، البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (ح٢٦٣٢).

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف زمعة كما في التقريب، ولكنه توبع في الروايات السابقة فيكون حسناً لغيره.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن يزيد به، وقال محققوه: =

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زبّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات، بنى الله له قصراً في الجنة» فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب»، وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً إن شاء الله، ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلَّة القسم»[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وإن الذكر في سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف. وفي رواية: بسبعمائة ألف ضعف[٣].

وروى أبو داود عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أيوب، كلاهما عن زبّان، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف»[٤].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: هو الممر عليها[٥].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزالون والزالات يومئذٍ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذٍ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلِّم سلِّم»[٦].

وقال السدي، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: قسماً واجباً[٧].

وقال مجاهد: ﴿حَتْمًا﴾، قال: قضاءً[٨]، وكذا قال ابن جريج[٩].

= إسناده جيد (المسند ١٥/ ٤٢٢ ح٩٦٧٦)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي أسامة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٤٥).

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه مقطعاً إلى أربعة أقسام، وضعف سنده محققوه لضعف زبّان (المسند ٢٤/ ٣٧٦ - ٣٨٠ ح١٥٦١٠ - ١٥٦١٣).

(٣)

(٤) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الجهاد، باب في تضعيف الذكر في سبيل الله ح٢٤٩٨) وفي سنده أيضاً زبّان، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ح٥٣٧).

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن، والشطر الأول وهو من تفسير عبد الرحمن بن زيد سنده صحيح، والشطر الثاني المرفوع سنده ضعيف معضل.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً من طريق أبي عمرو داوِدَ بنِ الزبرقان، وهو متروك كما في التقريب ص١٩٨، عن السدي به.

(٨) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيُخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يُخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أحسن منازل وأرفع دوراً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وهو: مجتمع الرجال للحديث؛ أي: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام] ولهذا قال تعالى راداً على شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً ومناظر وأشكالاً وأمتعة.

قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندي: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقصّ شأنهم في القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الدخان] فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قصّ على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] والعرب تسمي المجلس: النادي(٢).

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سفيان عن الأعمش به مقطعاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ شطره الأول بسابقه.

وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[١]. وكذا قال مجاهد[٢] والضحاك.

ومنهم من قال في الأثاث هو: المال[٣]، ومنهم من قال: الثياب[٤]، ومنهم من قال: المتاع والرئي المنظر، كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد[٥].

وقال الحسن البصري: يعني: الصور[٦]. وكذا قال مالك: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على حق وأنكم على باطل: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أي: منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمٰن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله [﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾][٧] يصيبه ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى.

قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: فليدعه الله في طغيانه[٨].

وهكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أي: ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً، ولله الحمد، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران[٩]، حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد [ذكر][١٠] الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا

---

(١) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل ويتقوى بمرسل مجاهد التالي.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وهذا المرسل مع سابقه يقوي أحدهما الآخر.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن.

(٤) أخرجه البستي بسند حسن من عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٥) قول ابن عباس أخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق أبي ظبيان عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٧) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «إما بعذاب».

(٨) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) آية ٦١.

(١٠) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض فيه حرف: «د».

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران]، فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف(١).

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومرداً على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحطَّ ورقه، ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحانه الله، والحمد لله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهنَّ يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهلّلنَّ الله، ولأكبرنَّ الله، ولأسبحنَّ الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون(٢). وهذا ظاهره أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة عن أبي الدرداء، والله أعلم، وهكذا وقع في سنن ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن عمر بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء. . . فذكر نحوه(٣).

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خبَّاب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً(٤) وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾(٥). أخرجه

---

(١) آية ٤٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده ضعيف لضعف عمر بن راشد (التقريب ص٤١٢).

(٣) سنن ابن ماجه، الأدب، باب فضل التسبيح (ح٣٨١٣)، وسنده ضعيف كسابقه.

(٤) القين: الحدّاد.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١١١) وسنده صحيح.

صاحبا الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه... فذكر الحديث[(١)]. وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً[(٢)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خبَّاب بن الأرت: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل، فاجتمعت لي عليه دراهم فجئت لأتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[(٣)].

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطالبون العاص بن وائل السهمي بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به، فضرب الله مثله في القرآن، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[(٤)]، وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل[(٥)].

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ بعضهم بفتح الواو من ولداً، وقرأ آخرون بضمها[(٦)]، وهو بمعناه قال رؤبة:

الحمد لله العزيز فرداً ... لم يتخذ من وُلدِ شيء ولداً[(٧)]

وقال الحارث بن حلزة:

ولقد رأيت معاشراً ... قد ثمَّروا مالاً وولدا[(٨)]

وقال الشاعر:

فليت فلاناً كان في بطن أمه ... وليت فلاناً كان ولد حمار[(٩)]

وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكار على هذا القائل: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعني: يوم القيامة؛ أي أعلم ماله

---

(١) صحيح البخاري، البيوت، باب ذكر القين والحداد (ح٢٠٩١)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (ح٢٧٩٥).
(٢) صحيح البخاري، التفسير سورة مريم (ح٤٧٣٣).
(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويشهد له سابقه ولاحقه.
(٥) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح عنه لكنه مرسل، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند حسن عنه، وهو مرسل أيضاً، وهذان المرسلان يقوي أحدهما الآخر، ويشهد لهما ما سبق في الصحيحين.
(٦) كلتاهما قراءتان متواترتان.
(٧) استشهد به الطبري منسوباً لرؤبة.
(٨) استشهد به الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٣ والطبري.
(٩) استشهد به الطبري وابن جني في المحتسب ١/ ٣٦٥.

في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك، وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها(٢).

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾(٣)(٤).

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً زيادة على الذي له في الدنيا؛ بل في الآخرة يسلب منه الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: من المال والولد.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال: نرثه(٥).

قال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ ماله وولده. وذلك الذي قال العاص بن وائل(٦).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده. وهو قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾. وفي حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عنده»(٧).

وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لا مال له ولا ولد(٨).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير(٩).

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾

---

(١) تقدم آنفاً.

(٢) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلق ابن عباس ويتقوى برواية البيهقي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (الأسماء والصفات ص١٣٤).

(٣) أخرجه البستي بسند ضعيف من طريق سعيد الخراط عن محمد بن كعب، ويشهد له سابقه.

(٤) ورد في الأصل رواية ابن أبي حاتم التي ستأتي في تفسير الآية ٨٧ من هذه السورة، وأما في (ح) و(حم) والطبعات فقد وردت رواية ابن أبي حاتم عند الآية ٨٧، لذا فقد أثبت الرواية هناك.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، والشطر الأول سنده صحيح عن قتادة، والشطر الثاني سنده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من ابن مسعود ﷺ، والقراءة شاذة تفسيرية.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

يعتزون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال: ﴿كَلَّآ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف] وقرأ أبو نهيك: **(كلٌّ سيكفرون بعبادتهم)**[١]. وقال السدي: ﴿كَلَّآ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الأوثان[٢].

وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما رجوا منهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعواناً[٣].

قال مجاهد: عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم[٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء[٥].

وقال قتادة: قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض[٦].

وقال السدي: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء في الخصومة[٧]، وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء[٨].

وقال ابن زيد: الضد: البلاء[٩].

وقال عكرمة: الضد: الحسرة[١٠].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: تغويهم إغواءاً[١١].

وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد، وأصحابه[١٢].

وقال مجاهد: تشليهم إشلاء[١٣]. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله[١٤].

وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراءاً وتستعجلهم استعجالاً.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن أبي نهيك بلفظ: «كُلّا» ذكره السيوطي وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن أبي نهيك بلفظ: «كُلّا». وهي قراءة شاذة تفسيرية ذكرها ابن جني (المحتسب ٢/ ٤٥).

(٢) لم أجده، ومعناه صحيح.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به، ويتقوى بسابقيه.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «ويتبرأ بعضهم من بعض».

(٧) لم أجده ويشهد له سابقه.

(٨) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(١٠) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم عن عكرمة، وعزاه إلى عبد بن حميد عن ابن عباس.

(١١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(١٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بسابقه.

(١٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(١٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

وقال السدي: تطغيهم طغياناً.

وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف][١].

وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله. وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق] ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان] ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقال السدي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ السنين والشهور والأيام والساعات، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «إنما نعدهم عدّا» قال: نعد أنفاسهم في الدنيا[٢].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه، والوفد هم: القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب[٣] من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿وِرْدًا﴾ عطاشاً، قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد[٤]، وههنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد، عن عمرو بن قيس الملائي، عن ابن مرزوق ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيّب ريحك وحسّن وجهك، فيقول: أنا عملك الصالح، هكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا فهلم اركبني فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾[٥].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ قال: ركباناً[٦].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أي: من أفاضل الحيوان، وقد بينته السُّنة أنهم يركبون الإبل.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) سنده مرسل.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

وقال ابن جرير: حدثني [ابن المثنى][١]، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبي هريرة ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ قال: على الإبل[٢].

وقال ابن جريج: على النجائب[٣].

وقال الثوري: على الإبل النوق[٤].

وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ قال: إلى الجنة[٥].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا سويد بن سعيد، أخبرنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد، قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ولكن بنوق لم يرَ الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة[٦]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به. وزاد عليها: رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد.. والباقي مثله[٧].

وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن علي، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي: سمعت أبا معاذ البصري قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب، شُرُك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة، فيسمع لها طَنين [يا علي][٨]، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خرّ له ـ قال مسلمة: أراه قال: ساجداً ـ فيقول: ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك، فيتبعه، ويقفو أثره فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبي وأنا حبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا

---

(١) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل: «مثنى».

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي هريرة رضي الله عنه ولكنه يتقوى برواية الشيخين فقد أخرجاه عن أبي هريرة بنحوه (صحيح البخاري، الرقاق، باب الحشر ح٦٥٢٢، وصحيح مسلم، الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر ح٢٨٦١).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن جريج ويشهد له ما سبق.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن سفيان الثوري ويشهد له ما سبق.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد بسنده ومتنه في زوائده على المسند، وضعفه محققوه لضعف عبد الرحمن بن إسحاق وجهالة النعمان بن سعد (المسند ٢/٤٤٧ ح١٣٣٣).

(٧) أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن إسحاق به، وسنده ضعيف كسابقه.

(٨) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «على».

الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن، فيدخل بيتاً من رأسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أحمر وأصفر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفي البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه، الأنهار من تحتهم تطرد أنهار من ماء غير آسن، قال: صافٍ لا كدر فيه، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامهم، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل فيستحلي الثمار، فإن شاء أكل قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان] فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر، فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها؛ أي: الألوان شاء، ثم تطير فتذهب فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف] ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواد في نور»[1]، هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه في المقدمات من كلام علي ﷺ بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: عطاشاً ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله ﷻ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطي، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يوم القيامة يقول: من كان له عند الله عهد فليقم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا. قال: قولوا: اللّهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أن لا تكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد[2]. وقال المسعودي: فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود وكان يُلْحِق بهنّ مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك. ثم رواه من وجه آخر عن المسعودي بنحوه.

---

(١) سنده ضعيف لضعف أبي معاذ، وهو: سليمان بن أرقم البصري، وهو لم يدرك أحداً من الصحابة (ينظر: التقريب ص٢٥٠)، ولبعضه شواهد من القرآن والسنة.

(٢) أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن سعد عن المسعودي عن عون عن الأسود بن يزيد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٧، ٣٧٨).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي: في قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك: أي عظيماً[1].

ويقال: (إداً) بكسر الهمزة[2] وفتحها، ومع مدها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ أي: يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له؛ بل هو الأحد الصمد.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة»، فقالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال: «تلك أوجب وأوجب». ثم قال: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن» هكذا رواه ابن جرير[3]، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم.

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن فرقاً من عظمة الله[4].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي: غضباً له ﷻ[5]، ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

قال ابن عباس: هدماً[6]، وقال سعيد بن جبير: هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) وهي قراءة متواترة وما سواها شاذ.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الأحاديث المرفوعة لا بدّ فيها من معرفة الواسطة، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: ويشهد له حديث البطاقة، وحديث البطاقة صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٣٥).

(٤) أخرجه أبو الشيخ من طريق جويبر عن الضحاك، العظمه رقم ٧٦. سنده ضعيف لضعف جويبر.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقبري، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون، عن عبد الله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان، هل مرَّ بك اليوم ذاكر الله ﷻ؟ فيقول: نعم ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾[1].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هَوذة، حدثنا عوف، عن غالب بن عجرد، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة ـ أو قال: ـ كان لهم فيها منفعة، ولم تزل الأرض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم: اتخذ الرحمن ولداً، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنه يشرك به ويجعل له ولداً، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم»[3] أخرجاه في الصحيحين[4]. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم».

وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي

---

(١) أخرجه الطبراني من طريق سفيان به (المعجم الكبير ٩/ ١٠٧). قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ٧٩).

(٢) في سنده شيخ غالب مبهم، أخرجه الطبري من طريق قتادة عن كعب، وسنده منقطع لأن قتادة لم يسمع من كعب، وكعب معروف برواية الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٣٩٥)، وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، الأدب، باب الصبر في الأدب (ح٦٠٩٩)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ (ح٢٨٠٤).

ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية، يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لا بدَّ منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض»[١]. ورواه مسلم من حديث سهيل[٢]، ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عقبة، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ بنحوه[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليلتمس مرضاة الله ﷻ، فلا يزال كذلك فيقول الله ﷻ لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السمٰوات السبع، ثم يهبط إلى الأرض»[٤] غريب. ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن محمد بن سعد الواسطي، عن أبي ظبية، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقة من الله - قال شريك: هي المحبة - والصيت في السماء، فإذا أحبَّ الله عبداً قال لجبريل عليه السلام: إني أحبُ فلاناً، فينادي جبريل: إن ربكم يمق - يعني يحب - فلاناً فأحبوه - أرى شريكاً قد قال: فتنزل له المحبة في الأرض - وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فينادي جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه - أرى شريكاً قال: - فيجري له البغض في الأرض»[٥] غريب، ولم يخرجوه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو داود الحفري، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - وهو [الدراوردي][٦]، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وصححه سنده محققوه (المسند ١٤/ ١٩٦ ح٨٥٠٠).

(٢) صحيح مسلم، البر والصلة، باب إذا أحب الله عبده حببه إلى عباده (ح٢٦٣٧).

(٣) المسند ٢/ ٥١٤، وصحيح البخاري، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (ح٣٢٠٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه، وحسّن سنده محققوه (المسند ٣٧/ ٨٧ ح٢٢٤٠١)، وأخرجه الطبراني من طريق ميمون به (المعجم الأوسط ٨/ ٢٠٦ ح٢٩٧٦)، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: صحيح لغيره (المسند ٣٦/ ٦٠٤ ح٢٢٢٧٠).

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحفت إلى: «المرواوردي».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾»[(١)]، رواه مسلم والترمذي، كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردي، به. وقال [الترمذي][(٢)]: حسن صحيح[(٣)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ قال: حباً[(٤)].

وقال مجاهد عنه: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا[(٥)].

وقال سعيد بن جبير عنه: يحبهم ويحببهم[(٦)]؛ يعني إلى خلقه المؤمنين، كما قال مجاهد[(٧)] أيضاً والضحاك وغيرهم.

وقال العوفي، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق[(٨)].

وقال قتادة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ إيْ والله في قلوب أهل الإيمان، وذُكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم[(٩)].

وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله[(١٠)].

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن البصري رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدنَّ الله عبادة أُذكر بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي، فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا بشر، لأجعلنَّ عملي كلَّه لله عز وجل، فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾[(١١)].

---

(١) سنده حسن.

(٢) كذا في (ح) و(حم) وسنن الترمذي، وفي الأصل صحفت إلى: «الزهري».

(٣) صحيح مسلم، البر والصلة، باب إذا أحب الله عبده حببه إلى عباده (ح٢٦٣٧)، وسنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة مريم (ح٣١٦١).

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبيد المكتب عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف، فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويشهد لأوله ما سبق.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأما رواية قتادة عن هرم فضعيفة؛ لأنه لم يسمع من هرم.

(١٠) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من عثمان رضي الله عنه.

(١١) سنده حسن.

وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف[١]، وهو خطأ، فإن هذه السورة بكمالها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: يا محمد، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ لا يستقيمون[٢].

وقال الثوري، عن إسماعيل ـ وهو السدي ـ عن أبي صالح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ عوجاً عن الحق[٣].

وقال الضحاك: الألد الخصم[٤].

وقال القرظي: الألد الكذاب.

وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ صمّاً[٥]، وقال غيره: صم آذان القلوب.

وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ يعني: قريشاً[٦].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ فجاراً[٧]، وكذا روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد[٨].

وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤][٩].

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً.

وقال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد: يعني صوتاً[١٠].

وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً[١١]؟، والركز في أصل اللغة هو: الصوت الخفي.

---

(١) أخرجه الطبري من طريق أبي عبيدة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) سنده حسن.

(٤) أخرجه البستي بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٥) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، والذي أخرجه الطبري بسند صحيح بلفظ: «جدلاً بالباطل».

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بلفظ: «ظلمة».

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ليث به.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(١٠) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

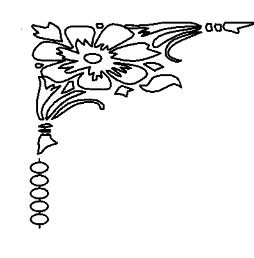
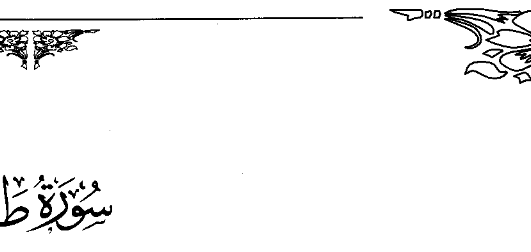
(١١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

قال الشاعر[1]:

فـتـوجَّـسـت ركـز الأنـيـس فـراعـهـا   عـن ظـهـر غـيـب والأنـيـس سَـقـامـهـا

آخر تفسير سورة مريم ولله الحمد والمنّة، ويتلوه إن شاء الله تفيسر سورة طه والحمد لله، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

(١) هو الصحابي الجليل لبيد بن ربيعة ﷺ، والبيت في ديوانه ص٣١١.

سُورَةُ طه

وهي مكية

روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في (كتاب التوحيد) عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الحزامي: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولى الحرقة - يعني عبد الرحمٰن بن يعقوب -، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قرأ (طه) و(يس) قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأُمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا»[(١)]. هذا حديث غريب وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

فقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبة الواسطي، حدثنا أبو أحمد - يعني: الزبيري - أنبأنا إسرائيل، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه يا رجل[(٢)]، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى أنهم قالوا: طه: بمعنى يا رجل[(٣)].. وفي رواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري: أنها كلمة بالنبطية معناها: يا رجل[(٤)]. وقال أبو صالح: هي معربة[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة بسنده ومتنه (التوحيد ص١٠٩)، وسنده ضعيف جداً، وذكر ابن حبان أنه موضوع (المجروحين ١/١٠٨)، وكذا ابن الجوزي (الموضوعات ١/ ١١٠).

(٢) سنده حسن.

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً عن عكرمة والضحاك وابن جبير، ووصل الحافظ ابن حجر هذه المعلقات (تغليق التعليق ٤/ ٢٥١ - ٢٥٣)، وأخرجه الطبري والبستي عن أغلبهم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) قول ابن عباس وسعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم من طريقين عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (تغليق التعليق ٤/٢٥٣) وسنده حسن، وقول الثوري أخرجه البستي بسند صحيح من طريق ابن أبي عمر العدني عنه.

(٥) ذكره السيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب ص١١١.

وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء من طريق عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا هاشم بن القاسم، عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ يعني: طأ الأرض يا محمد ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾[1] ثم قال: ولا خفاء بما في هذا الإكرام وحسن المعاملة[2].

وقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ قال جويبر، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾[3] فليس الأمر كما زعمه المبطلون؛ بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[4].

وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن مسلمة، حدثنا إبراهيم الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سماك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»[5] إسناده جيد، وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي، ذكره أبو عمر في استيعابه، وقال: نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب[6].

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ هي كقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة[7].

وقال قتادة: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة[8] ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السمٰوات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه

---

(١) سنده ضعيف لإرسال الربيع بن أنس، وهو من صغار التابعين.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ١/٢٦.

(٣) أخرجه البستي من طريق جويبر به، وسنده ضعيف لضعف جويبر، وإرسال الضحاك.

(٤) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (ح٧١)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب النهي عن المسألة (ح١٠٣٧).

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٣/ ٨٤ ح١٣٨١)، وسنده ضعيف جداً لأن العلاء بن مسلمة متروك كما في ميزان الاعتدال وقد جعله ابن الجوزي ضمن الموضوعات (١/ ٢٦٣).

(٦) الاستيعاب ١/ ٢٠٤.

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي أبي عروبة عن قتادة.

الترمذي وغيره أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبعد ما بينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام[١].

وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديث الأوعال من رواية العباس عم رسول الله ﷺ ورضي الله عنه[٢].

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف[٣] بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي: الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه ولا رب غيره. وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾.

قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة[٤].

وقال الأوزاعي: إن يحيى بن أبي كثير حدثه أن كعباً سئل فقيل له: ما تحت هذه الأرض؟ فقال: الماء قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء، قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء، قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء، قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الصخرة، قيل: وما تحت الصخرة؟ قال: ملك، قيل: وما تحت الملك؟ قال: حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت؟ قال: الهواء والظلمة وانقطع العلم[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله بن أخي بن وهب، حدثنا عمي، حدثنا [عبد الله بن عياش][٦]، حدثنا عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد الملك، والثانية سجن الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، والخامسة فيها حيات جهنم، والسادسة فيها عقارب جهنم، والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه، فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه»[٧]. وهذا حديث غريب جداً، ورفعه فيه نظر.

---

(١) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد (ح٣٢٩٨)، وسنده ضعيف؛ لأن فيه الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ذكر ذلك الترمذي ولهذا قال: غريب من هذا الوجه.

(٢) سيأتي في تفسير سورة فاطر آية ٧، وهو من الإسرائيليات.

(٣) آية: ٥٤.

(٤) أخرجه الطبري من طريق محمد بن رفاعة عن محمد بن كعب، ومحمد بن رفاعة: مقبول كما في التقريب.

(٥) الخبر من الإسرائيليات التي اشتهر بها محمد بن كعب.

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «عبد الله بن عباس».

(٧) سنده ضعيف لضعف أبي عبيد الله ابن أخي ابن وهب كما في ميزان الاعتدال، واسمه أحمد بن عبد الرحمن، وفيه درّاج روى مناكير، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: غريب جداً، وفيه ضعف عبد الله بن عياش، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الله بن عياش به، وصححه الحاكم وتعقبه =

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو موسى الهروي، عن العباس بن الفضل قال: قلت: ابن الفضل الأنصاري؟ قال: نعم، عن القاسم بن عبد الرحمٰن، عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين في حرٍّ شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين منتشرين، قال: وكنت في أول العسكر إذ عارضنا رجل فسلَّم، ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابي ووقفت معه، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل في وسط العسكر على جمل أحمر مقنع بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل هذا رسول الله ﷺ قد أتاك، فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البكر الأحمر، فدنا منه فأخذ بخطام راحلته، فكفَّ عليه رسول الله ﷺ فقال: أنت محمد؟ قال: «نعم». قال: إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمهنَّ أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان؟ فقال: رسول الله ﷺ: «سل عما شئت» قال: يا محمد أينام النبي؟ فقال رسول الله ﷺ: «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قال: صدقت. ثم قال: يا محمد من أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأي الماءين غلب على الآخر نزع الولد» فقال: صدقت، فقال: ما للرجل من الولد، وما للمرأة منه؟ فقال: «للرجل العظام والعروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والشعر» قال: صدقت، ثم قال: يا محمد ما تحت هذه؟ - يعني: الأرض - فقال رسول الله ﷺ: «خلق» فقال: فما تحتهم؟ قال: «أرض». قال: فما تحت الأرض؟ قال: «الماء». قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: «الهواء». قال: فما تحت الهواء؟ قال: «الثرى». قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: «انقطع علم الخلق عند علم الخالق، أيها السائل ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس هل تدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا جبريل عليه السلام»[1]. هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمٰن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: ليس يساوي شيئاً، وضعفه أبو حاتم الرازي، وقال ابن عدي: لا يعرف. قلت: وقد خلط في هذا الحديث، ودخل عليه شيء في شيء وحديث في حديث، وقد يحتمل أنه تعمد ذلك أو أدخل عليه فيه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسمٰوات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿وَأَخْفَى﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨][2].

وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما تحدث به نفسك، ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم

= الذهبي لضعف عبد الله بن عياش، ودراج وهو كثير المناكير (المستدرك ٤/ ٥٩٤).

(١) سنده ضعيف لضعف القاسم بن عبد الرحمن، كما في ميزان الاعتدال، وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

تحدث به نفسك بعد[١].

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً[٢].

وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعني: الوسوسة[٣].

وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أي: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝٨﴾ أي: الذي أنزل عليك القرآن، هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠﴾.

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضلَّ الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً؛ أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩] وهي الجمر الذي معه لهب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] دلَّ على وجود البرد.

وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلَّ على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثوري، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها[٤].

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ۝١٦﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار، واقترب منها ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ وفي الآية الأخرى

---

(١) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
(٢) أخرجه الطبري من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً عن سعيد بن جبير.
(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) أخرجه الطبري من طريق الثوري به وسنده ضعيف لضعف أبي سعيد الأعور.

﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] وقال ههنا: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال [علي بن أبي طالب][١] وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف[٢]: كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة. وقال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة، وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي[٣]، وكذا قال غير واحد[٤]، فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه، وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح؛ كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك.

وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي: استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على «المكلفين» أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحّدني، وقم بعبادتي من غير شريك ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صلِّ لتذكرني، وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي، ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلِّها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»[٥]، وفي الصحيحين: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصلّيها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[٦].

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها (أكاد أخفيها من نفسي)، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً[٧].

---

(١) كذا في (ح) و(حم) والتخريج، وفي الأصل صُحف إلى: «علي بن أبي طلحة».

(٢) قول علي رضي الله عنه أخرجه الثوري وعبد الرزاق في تفسيريهما بسند ضعيف من طريق جابر الجعفي عن علي، وجابر ضعيف، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقول أبي أيوب أخرجه البستي بسند فيه ابن لهيعة، وفيه مقال، والخبر عليه أمارات الروايات الإسرائيلية.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١٨٤)، وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها (ح٥٩٧)، وصحيح مسلم، المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة (ح٦٨٤).

(٧) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلقَ ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: من نفسه[١]، وكذا قال مجاهد وأبو صالح ويحيى بن رافع[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيري[٣].

وقال السدي: ليس أحد من أهل السمٰوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود (إني أكاد أخفيها من نفسي)، يقول: كتمتها عن الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت[٤].

وقال قتادة: أكاد أخفيها، وهي في بعض القراءات: (أخفيها من نفسي)، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين[٥]. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: ثقل علمها على أهل السمٰوات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب، حدثنا أبو تميلة، حدثني محمد بن سهل الأسدي، عن وِقاء، قال: أقرأنيها سعيد بن جبير: (أكاد أَخفِيها)، يعني: بنصب الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم قال: أما سمعت قول الشاعر[٦]:

دأبَ شهرين ثم شهراً دميكاً   بأريكين يخفيان غميراً[٧]

قال السدي: الغمير: نبت رطب ينبت في خلال يبس، والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام، وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله ﷻ: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا . . .﴾ الآية، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين؛ أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل].

---

(١) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف ويشهد له المراسيل التالية.

(٢) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول أبي صالح أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به بلفظ: «لا ظهر عليها أحداً غيري».

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) هو كعب بن زهير كما صرح الحافظ ابن كثير، والبيت في ديوانه ص١٧٤.

(٧) في سنده وقاء، وهو ابن إياس الأسدي الكوفي: لين الحديث (التقريب ص٥٨١)، ويتقوىٰ بما سبق.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾.

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر دلَّ على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل. وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له، وقيل: وإنما قال له ذلك على وجه التقرير؛ أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ استفهام تقرير ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي.

قال عبد الرحمٰن بن القاسم، عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخبط[1]، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر - موسى عليه الصلاة والسلام - صيرورتها ثعباناً فما كان يفرُّ منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة، وروي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ما شا[2]، والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩﴾ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ أي: صارت في الحال حية عظيمة ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾ أي: تمشي وتضطرب.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جميع، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبراً، ونودي: أن يا موسى خذها فلم يأخذها، ثم نودي الثانية: أن خذها ولا تخف، فقيل له في الثالثة: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] فأخذها[3].

وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ قال: فألقاها على وجه

---

(١) معناه صحيح، ولعل هذا النص من تفسير الإمام مالك المفقود، فقد نقل منه الحافظ ابن كثير مراراً.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وهي من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري عن أحمد بن عبدة الضبي به، وسنده ضعيف لضعف حفص بن جُميع (التقريب ص١٧٣).

الأرض ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون فدب يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحجن منها عرفاً، قيل: شعره مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القليب[1] الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف[2]، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبراً ولم يعقّب، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى أن ارجع حيث كنت فرجع موسى وهو شديد الخوف فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، وعلى موسى حينئذٍ مدرعة من صوف فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها، أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف، ومن ضعف خلقت، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين، ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك[3].

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

وهذا برهان ثانٍ لموسى ﷺ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى، وههنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ وقال في مكان آخر: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال مجاهد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كفك تحت عضدك[4]، وذلك أن موسى ﷺ كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر.

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير برص ولا أذى ومن غير شين، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم[5].

وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه ﷻ[6]، ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) أي: البئر. (٢) أي: صوت احتكاك.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن وهب مختصراً والخبر من الإسرائيليات الغريبة.
(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.
(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف، فيه يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف (التقريب ص٦٠١)، ويتقوىٰ بالمراسيل التالية: فقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قرة، وهو ابن خالد، عن الحسن.

وقال وهب: قال له ربه: ادنه فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه[١].

وقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارّاً منه وهارباً فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى.

قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتي فإنك بسمعي وعيني، وإنّ معك أيدي ونصري، وإني قد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي وزعم أنه لا يعرفني، فإني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السمٰوات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرّقته، [ولكنه][٢] هان علي وسقط من عيني ووسعه حلمي واستغنيت بما عندي وحقي إني أنا الغني لا غني غيري، فبلّغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي، وتوحيدي وإخلاصي وذكره أيامي، وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنّك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، وقل له: أجب ربك، فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمائة سنة في كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبّه وتتمثل به، وتصدّ عباده عن سبيله، وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب، ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم، وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قِبَل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة، ولا قليل مني، تغلب الفئة الكثيرة بإذني، ولا تعجبنكما زينته ولا ما متع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين نظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي وقديماً ما جرت عادتي في ذلك، فإني لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك العناء، وما ذاك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم في دار كرامتي سالماً موفراً لم تكلمه الدنيا.

واعلم أنه لا يتزين لي العباد بزينة هي أبلغ فيما عندي من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقاً حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلّل قلبك ولسانك، واعلم أنه من

---

(١) وهب معروف بالرواية عن أهل الكتاب، وهذه الرواية منها.

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض وكلمة غير منقوطة.

أهان لي ولياً أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة وبادأني وعرض لي نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني؟ أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني؟ وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة لا أَكِلُ نصرتهم إلى غيري؟. رواه ابن أبي حاتم[(١)].

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادَّعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝﴾ أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝﴾ وذلك لما كان أصابه، من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝﴾ [الزخرف] أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝﴾ قال: حلَّ عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله فحل عقدة من لسانه[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن عمرو بن عثمان، حدثنا بَقية، عن أرطأة بن المنذر، حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه، قال: أتاه ذو قرابة له: فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن في كلامك، ولست تعرب في قراءتك، فقال القرظي: يا ابن أخي ألست أفهمك إذا حدثتك؟ قال: نعم. قال: فإن موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحلّ عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها[(٣)]، هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝﴾ وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.

---

(١) الخبر كسابقه.

(٢) هذا الخبر جزء من حديث الفتون التالي في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

(٣) سنده ضعيف لإبهام الراوي عن محمد بن كعب، ولإرسال محمد بن كعب، ورواه ابن أبي حاتم تعليقاً.

قال الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فنبئ هارون ساعتئذٍ حين نبئ موسى عليه السلام[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن ابن نمير، حدثنا أبو أُسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري. قال: أنا والله أدري. قالت: فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني: إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله. قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[(٢)] [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أي: في مشاورتي ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾.

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكيراً له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أُمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه، لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغمّ والهمّ ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص: ٨] أي: قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [أي: عند عدوك جعلته يحبك.

قال سلمة بن كهيل ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾][(٣)] قال: حببتك إلى عبادي[(٤)].

---

(١) في سنده أبو سعيد، وهو البقال فيه مقال.

(٢) سنده ضعيف؛ لأن ابن أبي حاتم لم يصرح باسم شيخه.

(٣) زيادة من (ح) و(حم).

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق موسىٰ بن قيس الحضرمي عن سلمة.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله[١].

وقال قتادة: تغذى على عيني[٢].

وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ بحيث أرى[٣].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة[٤].

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجاءت أخته: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] تعني: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنى وأجزل، ولهذا جاء في الحديث: «مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[٥]، وقال تعالى ههنا: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني: القبطي ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه: قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

(حديث الفتون): حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبي أيوب، أخبرني سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون: ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياءً وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: كيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار[٦] يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولد ذكر، واتركوا بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشبّ

(١) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(٣) ذكره معمر في مجاز القرآن ٢/١٩.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بنحوه.
(٥) لم أجد من أخرجه.
(٦) الشفار: جمع شفرة، وهي السكين العريضة.

الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل، حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهمّ والحزن، وذلك من الفتون - يا ابن جبير - ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به، فأوحى الله إليها أن ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دوابّ البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرضَة[١] مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهنّ: إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنّه كهيئته لم يخرجنّ منه شيئاً حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أُم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكُم، فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لكِ فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون قُرّة[٢] عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك»، فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً[٣]، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل.

وأصبحت أُم موسى والهاً فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً: أَحيٌ ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلا شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أُمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أُم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت

---

(١) فرضة النهر: مشرب الماء منه.

(٢) القُرة: كل شيء قرت به عينك؛ أي سُرَّت به.

(٣) أي: المرضعة غير ولدها.

نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه(١) خيراً فعلت، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أُم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت(٢) على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني فدعتها يوماً تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها(٣): لا يبقينّ أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحل(٤) تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها بجلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتينّ به فرعون فلينحلنّه وليكرمنّه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدَّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به.

وأريد به [فتوناً](٥) فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهنّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين، عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين، فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همَّ به، وكان الله بالغاً فيه أمره، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أُم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز(٦) موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من

---

(١) أي: لا أمنعه خيراً ولا أقصّر في أمره. (٢) أي: اشتدت.

(٣) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه، وهو لفظ فارسي معرّب (لسان العرب ١٢/٤٩٦).

(٤) أي: العطايا.

(٥) زيادة من (ح) و(حم).

(٦) أي: ضربه بجُمع كفه (أساس البلاغة باب (وك ز)).

آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صَغوه[١] مع قومه لا يستقيم له أن يقيد[٢] بغير بينة ولا ثبت[٣]، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى فندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا وانطلق الفرعوني، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم[٤] يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ولم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه ﷺ، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣] يعني بذلك: حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء[٥]، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى ﷺ فاستظل بشجرة وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً[٦]، فقال: إن لكما اليوم لشأناً، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه[٧] فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ

---

(١) أي: ميله.
(٢) من القود: وهو القصاص.
(٣) أي: الحجة.
(٤) أي: يمشون على رسلهم.
(٥) جمع راعي.
(٦) أي: ممتلئة الضرع والبطون.
(٧) أي: خفض رأسه.

عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]؟ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد، وهو ابن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذٍ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قصّ الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون ﷺ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قصَّ الله عليك في القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل، فأبى عليه وقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة، فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردَّها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا واللهِ ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء] يعنون موسى وهارون استهزاء بهما؟ فقالوا يا موسى - لقدرتهم بسحرهم -: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] قال: بل ألقوا ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء] فرأى موسى من

سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألقِ عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزراً[(١)] إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتعلته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله ﷻ، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾ [الأعراف] وامرأة فرعون بارزة متبذلة[(٢)] تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمّها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفَّها عنه ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كفَّ ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف[(٣)] مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى: إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾ [الأعراف] قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإني قد استخلفته عليكم، فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً، وقد صامهنَّ ليلهنَّ ونهارهنَّ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذي كان ـ؟، قال: يا ربِّ إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم ائتني.

---

(١) أي: الشاة الصالحة للجزر؛ أي تذبح للأكل. (٢) أي: تاركة الزينة.
(٣) أي: صوت هائل.

ففعل موسى عليه السلام ما أمر به، فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري[1] وودائع ولكم فيهم مثل ذلك، فإني أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادّين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقته، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة، فمرَّ بهارون فقال له هارون عليه السلام: يا سامري ألا تلقي ما في يدك، وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك؟ فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم ولكن موسى أضلَّ الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠] قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.

فلما كلَّم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ [طه: ٨٦] فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم فنبذتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٧﴾ [طه]، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض! فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ

(١) جمع عارية، وهو الشيء الذي يستعار من الغير.

مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف] فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلّا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى ﷺ متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرُّوا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها، فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون، قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة] فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسمّاهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذٍ، فاستجاب الله له وسمَّاهم كما سمَّاهم موسى فاسقين، وحرَّمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، وظلَّل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلَى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من منقلة[1] إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به، ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره.

---

(١) أي: مرحلة من مراحل السفر.

وهكذا رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما، كلهم من حديث يزيد بن هارون به[١]، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس ﷺ مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى ﷺ: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فارّاً من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال مجاهد: أي على موعد[٢].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال: على قدر الرسالة والنبوة[٣].

وقوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي؛ أي: كما أريد وأشاء.

وقال البخاري عند تفسيرها: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلقني، قال: نعم فحج آدم موسى» أخرجاه[٤].

وقوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تُبطئا[٥].

---

(١) أخرجه النسائي بسنده ومتنه بنحوه (السنن الكبرى، التفسير، باب قوله: ﷻ ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ [طه: ٤٠] ح١١٣٢٦)، وأخرجه الطبري وأبو يعلىٰ من طريق يزيد بن هارون به (المسند ٥/ ١٠ ح٢٦١٨)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلىٰ ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان (مجمع الزوائد ٧/ ٦٥)، وقد رجّح وقفه الحافظ ابن كثير والمزي علي ابن عباس ﷺ، ولبعضه شواهد مرفوعة صحيحة.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه] (ح٤٧٣٦)، وصحيح مسلم، القدر، باب حجاج آدم موسى ﷺ (ح٢٦٥٢).

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تضعفا[١]، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله؛ بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»[٢]. وقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟[٣].

وقال وهب بن منبه: قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: لا إله إلا الله[٤].

وقال عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أعذرا إليه قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنّةً وناراً[٥].

وقال بقية، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مزاحم، عن النزال بن سبرة، عن علي في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: كَنِّه[٦]، وكذا روي عن سفيان الثوري: كنِّه بأبي مرة[٧]، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

[وقوله][٨]: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى؛ أي: يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: (لمن أراد أن يذكر أو يخشى) فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة.

وقال الحسن البصري: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر إليه، وههنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأُمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا

---

(١) لم أجده عن مجاهد عن ابن عباس، ولكن أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بسابقه.

(٢) يعني: عند القتال، هكذا أكمله الترمذي ثم قال: ليس إسناده بالقوي (السنن، الدعوات، باب ١١٩ ح٣٥٨٠).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٦) سنده ضعيف لإبهام الراوي عن الضحاك.

(٧) عزاه السيوطي في الدر إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٨) زيادة من (ح) و(حم).

فقلت له: فاذهب وهارون فادعُوَا إلى الله فرعون الذي كان باغيا
فقولا له: هل أنت سويت هذه بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له: آأنت رفعت هذه بلا عمد أرفق إذن بك بانيا
وقولا له: آأنت سويت وسطها منيراً إذا ما جنَّه الليل هاديا
وقولا له: من يخرج الشمس بكرة فيصبح ما مَسّت من الأرض ضاحيا
وقولا له: من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبة في رؤوسه؟ ففي ذاك آيات لمن كان واعيا[1]

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾.

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، أنهما قالا متسجيرين بالله تعالى شاكيين إليه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ يعجل[2].

وقال مجاهد: يبسط علينا[3].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يعتدي[4].

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون قال: ربِّ أي: شيء أقول؟ قال: قل: هيا شراهيا. قال الأعمش: فسر ذلك: أنا الحي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء[5]. إسناده جيد، وشيء غريب. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار أن موسى وأخاه هارون خرجا فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه، وهما يقولان: إنا رسولا رب العالمين فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغني

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٢٨.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.
(٣) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلقَ ابن عباس رضي الله عنه، ومعناه صحيح.
(٥) سنده ضعيف؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

سنتين يغدوان ويروحان لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه، فقال له: أيها الملك إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً غيرك أرسله إليك. قال: ببابي؟ قال: نعم، قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفي يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إني رسول رب العالمين، فعرفه فرعون(١).

وذكر السدي أنه لما قدم بلاد مصر ضاف أمه وأخاه، وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما ليلتئذ الطفيل وهو: اللفت، ثم عرفاه وسلما عليه، فقال له موسى: يا هارون إن ربي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله وأمرك أن تعاونني. قال: افعل ما أمرك ربك، فذهبا وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون، فغضب وقال: من يجترئ على هذا الصنيع الشديد، فأخبره السدنة والبوابون بأن ههنا رجلاً مجنوناً يقول: إنه رسول الله، فقال: علّي به، فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر الله في كتابه(٢).

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى؛ ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»(٣)، وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك؛ أما بعد، فإني قد أشركتك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريشاً قوم يعتدون، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»(٤). ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات] وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل] وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة]؟ أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه

---

(١) رواه ابن إسحاق بلاغاً كما صرح في هذه الرواية، وهي من الإسرائيليات.

(٢) وهذا الخبر أيضاً من أخبار أهل الكتاب.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس عن أبي سفيان ﷺ صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٦ (ح٧)، وصحيح مسلم، الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (ح١٧٧٣).

(٤) أخرجه ابن سعد من طريق الواقدي (الطبقات ١/ ٢٠٩)، وأخرجه ابن إسحاق (السيرة النبوية ٢/ ٦٠٠).

ومليكه، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: الذي بعثك وأرسلك من هو، فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجه(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة(٢).

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته(٣).

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: سوّى خلق كل دابة(٤).

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح(٥).

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى] أي: قدر قدراً وهدى الخلائق إليه؛ أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه.

يقول ربنا الذي خلق الخلق وقدَّر القدر وجبل الخليقة على ما أراد ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى؛ أي: الذين لم يعبدوا الله؛ أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك، هم وإن لم يعبدوه فإن علمهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] ثم [اعترض](٦) الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٢) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٣) أخرجه الطبري من طريق ليث به، وليث فيه مقال، ويتقوى خبره بما يليه.
(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.
(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.
(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «أعرض».

﴿ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾ وفي قراءة بعضهم ﴿مهاداً﴾[(1)] أي: قراراً تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١] ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ أي: لدلالات وحججاً وبراهين ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم؛ أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف] وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال: «﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾» ثم أخذ أخرى، وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾، ثم أخرى، وقال: ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[(2)].

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ يعني: فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره فكذّب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا﴾ أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونيروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارث العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضحًى.

---

(١) وهي قراءة متواترة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه بنحوه، وضعف سنده محققوه (المسند ٣٦/ ٥٢٤ ح٢٢١٨٧)، وضعفه الهيثمي (مجمع الزوائد ٣/ ٤٣).

قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء(١).

وقال السدي وقتادة وابن زيد: كان يوم عيدهم(٢).

وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم(٣)، ولا منافاة.

قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح(٤).

وقال وهب بن منبه: قال فرعون: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى لم أومر بهذا إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون: اجعله إلى أربعين يوماً ففعل(٥).

وقال مجاهد وقتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مكاناً سوى منصفاً(٦).

وقال السدي: عدلاً(٧).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مستو بين الناس، وما فيه لا يكون صوب ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى(٨).

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما [تواعد](٩) هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى؛ أي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩] ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾؛ أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم،

---

(١) عزاه السيوطي إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه: ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي: وهو ضعيف.

(٤) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ . . .﴾ [الأعراف: ١٣٨] ح٤٦٨٠).

(٥) الخبر من الإسرائيليات.

(٦) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٩) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «توعد».

يقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء]، ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا [بقية][1] له ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوٓا إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وهذه لغة لبعض العرب جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إنَّ هذين لسامران﴾[2] وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون موسى وهارون ـ ساحران عالمان، خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أي: ويستبدّا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هشيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما[3].

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قال: أولو الشرف والعقل والأسنان[4].

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أشرافكم وسرواتكم[5].

وقال عكرمة: بخيركم[6].

وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذٍ بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما[7].

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بالذي أنتم عليه[8].

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

(٢) القراءتان متواترتان.

(٣) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق وهو الواسطي، وقيل: كوفي (التقريب ص٣٣٦).

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أي: اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ أي: أنت أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] وقال ههنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كان حيلة، وكانوا جماً غفيراً وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألقِ ما في يمينك يعني عصاك، فإذا هي تلقف ما صنعوا وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس[(١)]، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشيباني، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن، عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أخذتم ـ يعني الساحر ـ فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: لا يؤمن به حيث وجد» وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً[(٢)].

---

(١) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن به، ثم قال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث.. والصحيح عن جندب موقوف (السنن، الحدود، باب ما جاء في حد الساحر، ح١٤٦٠)، وفي سنده أيضاً الحسن لم يسمع من جندب البجلي (المراسيل لابن أبي حاتم ص٤٢). ونبه الحافظ المزي أن هذا الحديث من مسند جندب الخير الأزدي لا من مسند جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه (تحفة الأشراف ٢/٤٤٦)، وتبقى العلة قائمة لضعف إسماعيل بن مسلم، وعنعنة الحسن البصري، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح٢٤٤)، ولشطره الأول شواهد في الصحيح صريحة في قتل الساحر.

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء: كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجّداً لله، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف] ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[(١)].

وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة: كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن حمزة، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء[(٣)].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعي: لما خرَّ السحرة سجداً، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها[(٤)].

قال: وذُكر عن سعيد بن سلام، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم[(٥)]، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم [وتوعدهم][(٦)] وقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: ما أمرتكم بذلك وافتتم علي في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بُهت وكذب ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى

(١) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن، كما سيأتي في تفسير هذه الآية.
(٢) هذه الأقوال كلها من أخبار بني إسرائيل، وقد أخرج الطبري قول القاسم بن أبي بزة وقول السدي بأسانيد ثابتة، ورواية الثوري صحيحة الإسناد وإن تكلم في أبي ثمامة فلا يضر؛ لأنه يفسر ولم يرو.
(٣) سنده حسن، ولكن تعيين العدد من الإسرائيليات. (٤) سنده مرسل.
(٥) سنده ضعيف لأن روايته معلقة. (٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «أوعدهم».

رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مثلة، ولأقتلنكم ولأشهرنكم.

قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ و﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على «البينات»؛ يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من الحسر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾[(١)]، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[(٢)].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا[(٣)]. وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله.

وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أُطيع ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: منك عذاباً، إن عُصي[(٤)]. وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أي:

---

(١) أخرجه الطبري من طريق نعيم بن حماد به، وسنده ضعيف لضعف أبي سعيد، وهو البقال.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن، والخبر من الإسرائيليات.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن إسحاق بنحوه.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، وفيه أبو معشر، وهو السندي: ضعيف.

يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦] وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)﴾ [الأعلى] وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية[١]، وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبي سلمة سعيد بن يزيد به[٢].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حيان، سمعت سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤)﴾ قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى بهم نهراً يقال له: الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا همام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عُبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[٤]. ورواه الترمذي من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة في كل درجة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلي، في كل درجة أمير يرون له الفضل والسؤدد[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ١٧/ ١٣٤ ح١١٠٧٧).
(٢) صحيح مسلم، الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (ح١٨٥).
(٣) سنده ضعيف؛ لأنه معلق.
(٤) أخرجه الإمام بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ٣٨/ ٣٦٩ ح٢٢٦٩٥).
(٥) السنن، صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة (ح٢٥٣١).
(٦) سنده ضعيف لإرساله.

وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[١].

وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما»[٢].

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين أبداً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داعٍ ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل في المدائن حاشرين؛ أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه[٣]، يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء]، ثم لما جمع جنده واستوسق[٤] له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء] أي: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ فضرب البحر بعصاه، وقال: انفلق عليَّ بإذن الله ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يبساً كوجه الأرض، فلهذا قال: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي: من فرعون ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] وقال الشاعر:

أنا أبو النجم وشعري شعري

أي الذي يعرف، وهو مشهور. وكما تقدم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلّهم وما هداهم إلى

---

(١) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (ح٣٢٥٦)، وصحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف (ح٢٨٣١).

(٢) أخرجه أبو داود من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً مختصراً (السنن، الحروف والقراءات (ح٣٩٨٧)، وسنده ضعيف لضعف عطية العوفي، وأخرجه ابن ماجه من الطريق نفسه (السنن، المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ح٩٦)، وسنده ضعيف كسابقه.

(٣) أي: القرى.

(٤) أي: اجتمع.

سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود].

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ومِننه الجسام، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقرَّ أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينجُ منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه»[(١)]. رواه مسلم أيضاً في صحيحه[(٢)].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي [غضون][(٣)] ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصُّه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: أغضب عليكم.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي فقد شقي[(٤)].

وقال شفي بن ماتع: إن في جهنم قصراً يرمى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ رواه ابن أبي حاتم[(٥)].

وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: كل من تاب إليَّ، تبت عليه من أي ذنب كان، حتى أنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق.

وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بقلبه. ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: بجوارحه.

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ...﴾ [طه: ٧٧] (ح٤٧٣٧).

(٢) صحيح مسلم، الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (ح١١٢٥).

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «غبون».

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي ثم لم يَشكُك[(١)].

وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: استقام على السنة والجماعة وروي نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت[(٢)].

وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: علم أن لهذا ثواباً، و«ثم» ههنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد].

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾.

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ [الأعراف] وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها عشراً، فتمت أربعين ليلة؛ أي يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي: لتزداد عني رضا ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري.

وفي الكتب الإسرائيلية أنه كان اسمه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف] أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ أي: بعدما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا قال: رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾؛ أي جزعاً[١].

وقال قتادة والسدي: ﴿أَسِفًا﴾ حزيناً على ما صنع قومه من بعده[٢] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم، ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أم ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، قالوا - أي بنو إسرائيل - في جواب ما أنّبهم موسى وقرّعهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾؛ أي ألقيناها عنا.

وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار.

وفي رواية السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس، إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفرة، ويجعل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى عليه السلام، رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار؛ أي صوت استدراجاً، وإمهالاً ومحنة واختباراً، ولهذا قال: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[٣].

وقال ابن أبي حاتم: [حدثنا محمد بن عبادة بن البختري][٤]، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضرُّ ولا ينفع، فقال هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون. وقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم[٥]. ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: أعمل ما ينفع ولا يضر.

وقال السدي: كان يخور ويمشي[٦]. ﴿فَقَالُوا۟﴾ - أي الضّلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه -: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: نسيه ههنا وذهب يتطلبه، كذا تقدم في حديث

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٣) سنده حسن، والرواية من الإسرائيليات.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «محمد بن عباد النحوي».

(٥) سنده حسن، والرواية من الإسرائيليات.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

الفتون عن ابن عباس، وبه قال مجاهد(١).

وقال سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم(٢).

وقال محمد بن إسحاق، عن [حكيم بن جبير](٣)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط؛ يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام؛ يعني: السامري(٤). قال الله تعالى ردّاً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ أي: العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: في دنياهم ولا في أخراهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره. فيخرج من فمه فيسمع له صوت، وقد تقدم في [حديث الفتون](٥) عن الحسن البصري أن هذا العجل اسمه بهموت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب؛ يعني: هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعني: الحسين -، وهم يسألون عن دم البعوضة(٦).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادة العجل وإخباره إياهم، إنما هذا فتنة لكم وإن ربكم الرحمٰن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم،

---

(١) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) سنده حسن.
(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «حكيم بن جرير».
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف، فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، وفيه ابن إسحاق لم يصرح بالسماع، وحكيم بن جبير: ضعيف (التقريب ص١٧٦).
(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «متون الحديث».
(٦) أخرجه البخاري (الصحيح، الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ح٥٩٩٤).

فامتلأ عند ذلك غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في سورة الأعراف بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[١]، وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم ههنا أرقّ وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾، هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له[٢].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾.

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟.

قال محمد بن إسحاق، عن [حكيم بن جبير][٣]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرما[٤]، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر[٥].

وفي رواية عن ابن عباس: أنه كان من كرمان. وقال قتادة: كان من قرية سامرا[٦] ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، أخبرني عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي بن عمارة، عن علي رضي الله عنه قال: إن جبريل عليه السلام لما نزل فصعد بموسى عليه السلام إلى السماء، بصر به السامري من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس، قال:

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٥٠. (٢) أخرجه الطبري بالسند المتقدم والتالي.

(٣) كذا في تفسير الطبري، وفي الأصل و(ح) و(حم) صُحف إلى: «حكيم بن جرير»، وحكيم بن جبير ترجم له الحافظ ابن حجر وضعفه (التقريب ١٧٦).

(٤) باجرما: قرية من أعمال البليخ قرب الرقة في أرض الجزيرة (معجم البلدان ١/ ٤٥٤)، والرقة بلدة معروفة في سوريا.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق به، وتقدم تضعيف سنده، والرواية من الإسرائيليات (تفسير الطبري ١/ ٦٧٢، تفسير سورة البقرة، آية ٥١).

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «من قبيلة»، وليس «قرية».

وحمل جبريل موسى ﷺ خلفه حتى إذا دنا من باب السماء صعد وكتب الله الألواح، وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح، فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده، قال: نزل موسى فأخذ العجل فأحرقه[(١)]. غريب.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل[(٢)]، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري؛ أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة أن السامري رأى الرسول، فألقي في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء فقلت له: كن فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول فيبست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه فجمعوه، فأوقدوا عليه فذاب، فرآه السامري فألقي في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: كن فيكون، فقذف القبضة وقال: كن، فكان عجلاً جسداً له خوار، فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[(٣)] [طه: ٨٨]. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها مع من ألقى ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي: حسّنته وأعجبها، إذ ذاك ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول: لا مساس، أي لا تماسّ الناس ولا يمسونك ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لا محيد لك عنه.

وقال قتادة: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس[(٤)].

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ قال الحسن وقتادة وأبو نَهيك: لن تغيب عنه[(٥)].

وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: أقمت على عبادته يعني: العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس[(٦)] والسدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار[(٧)]. وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار[(٨)]، ثم ألقى رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا

---

(١) في سنده عبيد الله بن موسى والسدي كلاهما من الشيعة، وروايتهما عن علي ﷺ، والرواية من الإسرائيليات، وقد استغرب متنه الحافظ ابن كثير، وهو كما قال.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) عمارة هو ابن أبي حفصة، يروي عن عكرمة ويروي عنه يزيد بن زريع، وهو ثقة (تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٥). والخبر من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) ذكره الطبري معلقاً عنهم ثلاثتهم ثم أسنده عن قتادة وأبي نَهيك، وهذا التفسير على قراءة «لن تُخلِفه» بضم التاء وكسر اللام، وهي قراءة متواترة.

(٦) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلقَ ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بلفظ: «ثم حرقه بالمبرد».

(٨) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم بلفظ: «وكان له لحم ودم!».

عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن، عن علي رضي الله عنه قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد، فبرده بها وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً[1]. وهكذا قال السدي، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسط ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد له.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ نصب على التمييز؛ أي هو عالم بكل شيء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقصُّ عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو: القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت] الذي لم يعطِ نبي من الأنبياء [منذ بعثوا إلى أن ختموا][2] بمحمد ﷺ كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذّب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: إثماً كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هُدي ومن خالفه وأعرض عنه، ضلَّ وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس الحمل حملهم.

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق إسرائيل به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) زيادة من (حم) و(ح).

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

ثبت في [الحديث][1]: أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قرن ينفخ فيه».

وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السمٰوات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»[2].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه: زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسارُّون بينهم[3]؛ أي يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾؛ أي في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تناجيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: العاقل الكامل فيهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها، كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون] أي: [إنما][4] كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطاً واحداً، والقاع هو: المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «الصحيح»، وقد أثبت لفظ: الحديث؛ لأن الحديث في المسند والسنن، وليس في الصحيح.

(٢) تقدم تخريج هذه الأحاديث الثلاثة في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «بما».

ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف[(١)].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر].

وقال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، ويطوي السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي منادٍ، فيتبع الناس الصوت يؤمّونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾[(٢)].

[وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يميلون عنه.

وقال أبو صالح: لا عوج له أي: لا عوج عنه][(٣)(٤)].

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قال ابن عباس: سكنت[(٥)]، وكذا قال السدي ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال سعيد بن جبير، عن عباس: يعني وطء الأقدام[(٦)]، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم[(٧)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الصوت الخفي[(٨)]، وهو رواية عن عكرمة والضحاك[(٩)]. وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الحديث وسره ووطء الأقدام[(١٠)]، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ما بين معقوفين زيادة من (ح) و(حم).

(٤) قول قتادة وأبي صالح عزاهما السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق علي بن عابس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير به، وعلي بن عابس ضعيف كما في التقريب. ويتقوىٰ بما يلي عن التابعين وعن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة عن عكرمة وقتادة والحسن وابن زيد، ولكن ما ورد عن مجاهد بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «خفض الصوت»، وقد ورد عن مجاهد بلفظ: «نقل الأقدام» ولكنه لم يصح لأن البستي أخرجه من طريق رجل مجهول.

(٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٩) قول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(١٠) نسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود].

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ].

وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله ﷺ أنه قال: «آتي تحت العرش، وأخرُّ لله ساجداً، ويُفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني، ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع، واشفع تشفع، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة ثم أعود»[١] فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وفي الحديث أيضاً: «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال مِن إيمان، أخرجوا مِن النار مَن كان في قلبه ما يزن ذرة، مَن كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة مِن إيمان. . .» الحديث[٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلّت[٣] واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيّم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كلَّ حقٍّ إلى صاحبه حتى

---

(١) أخرجاه من حديث أنس ﷺ، صحيح البخاري، الرقاق، صفة الجنة والنار (ح٦٥٦٥)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (ح٣٢٢).

(٢) أخرجه الشيخان بنحوه من حديث أنس ﷺ، صحيح البخاري، الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (ح٤٤)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها ٣٢٥.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «ذلّت».

يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، وفي الحديث: «يقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم»[(١)]، وفي [الصحيح][(٢)]: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[(٣)].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنّى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون؛ أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد[(٤)]، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده حق، ووعيده حق ورسله حق، والجنة حق، والنار حق وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، كقوله تعالى في سورة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]، وثبت في الصحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية[(٥)]؛ يعني: أنه ﵇ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية، قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة] أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس

---

(١) عزاه الزبيدي إلى الخطيب البغدادي من حديث جابر بن عبد الله وغيره مطولاً من عدة طرق (ينظر: إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٧٩).

(٢) كذا في (حم)، وفي الأصل: «الصحيحين»، والصواب المثبت؛ لأنه في صحيح مسلم دون صحيح البخاري.

(٣) أخرجه مسلم من حديث جابر ﵁ الشطر الأول بنحوه الصحيح، البر والصلة، باب تحريم الظلم (ح٢٥٧٨).

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق علي ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ميمون بن سياه عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) أخرجه البخاري (الصحيح، التفسير، باب سورة القيامة (ح٤٩٢٧)).

من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة]، وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علماً.

قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل.

ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ»[١].

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال»[٢]. وأخرجه الترمذي، عن أبي كريب، عن عبد الله بن نمير، به. وقال: غريب من هذا الوجه[٣]. ورواه البزار، عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عبيدة، به. وزاد في آخره: «وأعوذ بالله من حال أهل النار».

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سُمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي[٤]، وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه[٥]. وقال مجاهد والحسن: ترك[٦]. وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة[٧]، وفي الأعراف[٨]، وفي الحجر[٩]، والكهف[١٠]، وسيأتي في

(١) أخرجه الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، (صحيح البخاري، فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي.. ح٤٩٨٢)، وصحيح مسلم، التفسير (ح٣٠١٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه (السنن، المقدمة، باب اتباع الرسول ﷺ ح٢٥١) وفي سنده موسىٰ بن عبيدة وهو الربذي ضعيف، ولشطر الأول شواهد، ولهذا صححه الألباني دون قوله: «والحمد لله على كل حال» (صحيح سنن ابن ماجه ح٢٠٣).
(٣) أخرجه الترمذي من طريق موسىٰ بن عبيدة به، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (السنن، الدعوات، باب في العفو والعافية ح٣٥٩٩).
(٤) سنده صحيح.
(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «فترك».
(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) الآيات ٣٠ ـ ٣٨.
(٨) الآيات ١١ ـ ٢٤.
(٩) الآيات ٢٨ ـ ٤٠.
(١٠) آية ٥٠.

آخر سورة ﴿صٓ﴾[١] يذكر تعالى فيها خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: امتنع واستكبر ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ يعني: حواء عليها السلام ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ أي: إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب وتعن وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨﴾ إنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حرُّ الباطن وهو العطش، والضحى حرُّ الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ قد تقدم أنه ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف]، وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها وكانت شجرة الخلد؛ يعني: التي مَن أكل منها خلد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي الضحاك: سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، وهي شجرة الخلد»، ورواه الإمام أحمد[٢].

وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن [سعيد بن أبي عروبة][٣]، عن قتادة، عن الحسن، عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفرّ، فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء، أرأيت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾[٤] [البقرة: ٣٧]، وهذا منقطع بين الحسن وأُبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وكذا قال قتادة والسدي[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما[٦].

---

(١) في الآيات ٧١ ـ ٨٥.
(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الرعد آية ٢٩.
(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «سعيد عن عروبة».
(٤) سنده ضعيف؛ لأن الحسن لم يسمع من أُبي.
(٥) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، والخبر من الإسرائيليات.
(٦) سنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.

وقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني؟»، قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدم موسى»[(١)]، وهذا الحديث له طرق في الصحيحين[(٢)]، وغيرهما من المسانيد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذياب، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ آدم وموسى عند ربهما، فحجَّ آدمُ موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأَسجَدَ لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك، قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟» قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدم موسى»، قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ[(٣)].

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً؛ أي من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة[(٤)].

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان[(٥)] ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] ح٤٧٣٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسىٰ (ح٥١٥)، وصحيح مسلم، القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (ح٢٦٥٢/١٣).

(٣) سنده صحيح، وأخرجه مسلم عن إسحاق بن موسىٰ بن عبد الله عن أنس بن عياض به (الصحيح، القدر، باب حجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام ح٢٦٥٢/١٥).

(٤) آية: ٣٦.

(٥) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية في تفسير سورة البقرة آية ٣٨ (١/٥٨٩).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/ ٣٧١)، والطبري بسند حسن كلاهما من طريق عمرو بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشرح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: الشقاء[(١)].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: كل ما أعطيته عبداً من عبادي قلّ أو كثر، لا يتّقيني فيه، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، ويقال أيضاً: إن قوماً ضُلّالاً أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفاً لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به، اشتدت عليه معيشته؛ فذلك الضنك[(٢)].

وقال الضحاك: هو العمل السيء والرزق الخبيث[(٣)]، وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار[(٤)].

وقال سفيان بن عيينة، عن أبي حازم، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه[(٥)]. وقال أبو حاتم الرازي: [النعمان بن أبي عياش يكنى][(٦)] أبا سلمة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، أنبأنا الوليد، أنبأنا عبد الله بن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: ضمة القبر له[(٧)]، والموقوف أصح. وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجَيرة واسمه: عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيما أنزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً؛ أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون»[(٨)]، رفعه منكر جداً.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بلفظه تقريباً.

(٣) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٤) قول عكرمة أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه محمد بن حميد، وهو الرازي، وهو ضعيف. وقول مالك بن دينار عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه البستي من طريق سفيان بن عيينة به، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق أبي حازم به (المصنف ١٣/ ٣٩٢)، وسنده صحيح وله حكم الرفع؛ لأن أبا سعيد هو الخدري ﷺ.

(٦) كذا في (ح) وترجمته، وفي (حم): «النعمان بن أبي عياض يكنىٰ»، وفي الأصل صُحف إلىٰ: «اليعمري أبي عباس يحيىٰ».

(٧) سنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.

(٨) أخرجه أبو يعلى من طريق دراج به (المسند ١١/ ٥٢١)، وضعف متنه الحافظ ابن كثير لما فيه من الغرائب.

وقال البراز: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي: حدثنا محمد بن عمر، حدثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ابن حجيرة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «المعيشة الضنك الذي قال الله أنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة»(١).

وقال أيضاً(٢): [حدثنا](٣) أبو زرعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذاب القبر»(٤). إسناد جيد.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: لا حجة له(٥)، وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم(٦)، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، فإن الجزاء من جنس العمل.

فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، [عن](٧) يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم»(٨)، ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ... فذكر مثله سواء(٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِى

---

(١) أخرجه البزار بسنده ومتنه كما في زوائد مسند البزار (٢/ ٩٤)، وسنده ضعيف جداً؛ لأن محمد بن عمر هو الواقدي، وهو متروك.

(٢) القائل هو: ابن أبي حاتم.

(٣) زيادة من (ح) و(حم).

(٤) جوّد سنده الحافظ ابن كثير.

(٥) قول مجاهد أخرجه الثوري بسند صحيح عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقول أبي صالح أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه.

(٦) عزاه السيوطي إلى هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) كذا في (حم) و(ح)، وفي الأصل صحفت إلى: «بن».

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٢٨٥)، وسنده ضعيف؛ لجهالة عيسىٰ بن فائد وجهالة شيخه.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٣٢٣)، وسنده ضعيف لجهالة عيسىٰ بن فائد.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[(١)].

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج] وقال في سورة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة، ولهذا قال لنبيه مسلياً له: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن [رؤيبة][(٣)] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[(٤)]، رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير، به[(٥)]. وفي المسند والسنن عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين»[(٦)].

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة النور.
(٢) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (ح٥٥٤)، وصحيح مسلم، المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر (ح٦٣٢).
(٣) كذا في (ح) و(حم) والمسند وصحيح مسلم، وفي الأصل صحف إلى: «روبة».
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/١٣٦)، وسنده صحيح.
(٥) صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي العصر (ح٦٣٤).
(٦) أخرجه الإمام أحمد من طريق ثوير بن أبي فاختة عن ابن عمر، وضعف سنده محققوه لضعف ثوير (المسند ٨/٢٤٠ ح٤٦٢٣)، وأخرجه الترمذي (السنن، صفة الجنة ح٢٥٥٣)، وأبو يعلى (المسند ح٥٧٢٩).

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى].

وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[(١)].

وفي الحديث: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة، فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة»[(٢)].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور.

وقال مجاهد: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى]، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ[(٣)] وأهب[(٤)] معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أَوَ في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»[(٥)].

فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، صحيح البخاري، الرقاق، باب صفة الجنة والنار (ح٦٥٤٩)، وصحيح مسلم، الجنة، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (ح٢٨٢٩).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة يونس آية ٢٦.

(٣) أي: كومة مما يُدبغ به الجلود.

(٤) أي: جلد من البقر والغنم والوحش.

(٥) أخرجه البخاري مطولاً (الصحيح، المظالم، باب الغرفة والعليَّة المشرفة.. ح٢٤٦٨)، وأخرجه مسلم (الصحيح، الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء.. ح١٤٧٩).

قال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»(١).

وقال قتادة والسدي: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ يعني: زينة الحياة الدنيا(٢).

وقال قتادة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم(٣).

وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام؛ يعني: أهله، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٤).

وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات]، ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

وقال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه: أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفاً، فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار قرأ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ثم يقول: الصلاة، الصلاة، رحمكم الله(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا [عبد الله بن أبي زياد القطواني](٦)، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: يا أهلاه صلُّوا، صلُّوا. قال ثابت: وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة(٧).

وقد روى الترمذي وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك

---

(١) سنده صحيح، أخرجه مسلم من طريق ابن وهب به (الصحيح، الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ح١٠٥٢/ ١٢٢)، وأخرجه البخاري بلفظ: «إنما أخشى عليكم من بعدي أن يفتح عليكم من بركات الأرض ثم ذكر زهرة الدنيا»، (صحيح البخاري، الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله ح٢٨٤٢).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري كسابقه.

(٤) سنده حسن، وأخرجه الطبري من طريق هشام بن سعد به.

(٥) سنده حسن، وأخرجه الطبري من طريق هشام بن عروة به.

(٦) كذا في ترجمته في التقريب، وفي الأصل صحف إلى: «عبد الله بن زياد البطراني»، وفي (ح) و(حم): «عبد الله بن أبي زياد القطراني».

(٧) سنده مرسل؛ لأن ثابت هو ابن أسلم البناني، وهو تابعي.

غنًى وأسدُّ فقرك؛ وإن لم تفعل، ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك»[١].

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم همّاً واحداً همّ المعاد كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أيِّ أوديته هلك»[٢]. وروي أيضاً من حديث شعبة، عن عمر بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[٣].

وقوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع، وأنّا أتينا برطب ابن طاب، فأوّلت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب»[٤].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوۡلَا﴾ أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه؛ أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يعني: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمّي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

وفي [الصحيحين][٥] عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٦].

---

(١) سنن الترمذي، صفة القيامة (ح٢٤٦٦)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب الهمّ بالدنيا (ح٤١٠٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣١٥).

(٢) المصدر السابق (ح٤١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣١٤).

(٣) المصدر السابق (ح٤١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣١٣).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «برطب من رطب ابن طاب» (الصحيح، الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ ح٢٢٧٠)، ورطب ابن طاب: نوع من التمور.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «وفي الصحيح».

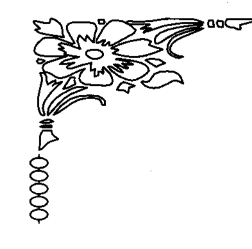
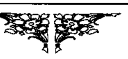
(٦) صحيح البخاري، فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي؟ (ح٤٩٨١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (ح١٥٢).

وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها ﷺ، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم، لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يبيّن تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام] وقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر] وقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي: فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: الطريق المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر].

آخر تفسير سورة طه، ولله الحمد والمنّة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سُورَةُ الأنبِيَاءِ

وهي مكية

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأُوَل، وهن من تلادي(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

هذا تنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها؛ أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها.

وقال النسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ ﴿فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «في الدنيا»(٢).

وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر]، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نواس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول(٣):

النـاس فـي غَـفَـلاتِـهـم ... وَرَحـا الـمـنـيَّـة تـطـحـن

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾. [وروى في ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الآمدي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم

(١) تقدم تخريجه ومعناه في مطلع تفسير سورة الإسراء.

(٢) السنن الكبرى - التفسير - سورة الأنبياء ٢/ ١٠٤ وأخرجه الطبري من طريق أبي صالح عن أبي هريرة ورجاله ثقات وسنده صحيح.

(٣) ديوانه ص٤٢٩.

عامر مثواه، وكلَّم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾][1][2].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم، وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب. رواه البخاري بنحوه[3].

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: قائلين فيما بينهم خفية: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعنون: كناقة صالح وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ أي: ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس] هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء،

---

(١) زيادة من نسخة دار الكتب حسب طبعة البابي الحلبي.

(٢) سنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٣) صحيح البخاري، الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» (ح٧٣٦٣).

صلوات الله وسلامه عليهم [أجمعين][(١)].

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: ذُكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي، حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول: كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقرئ بعضُنا بعضاً القرآن، فجاء عبد الله بن أُبي ابن سلول ومعه نمرقة[(٢)] وزربية[(٣)]، فوضع واتكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلاً، [فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون، جاء موسى بالألواح، وجاء][(٤)] دواد بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة، فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخرج رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يقام لي إنما يقام لله عَزَّ وَجَلَّ» فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق، فقال: «إن جبريل قال لي: اخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك، وفضيلته التي فضلت بها، فبشرني أني بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجن، وآتاني كتابه وأنا أمّي، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمي في الأذان، وأمدني بالملائكة، وآتاني النصر، وجعل الرعب أمامي، وآتاني الكوثر، وجعل حوضي من أكثر الحياض يوم القيامة وروداً، ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون رؤوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب، وآتاني السلطان والملك، وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم، فليس فوقي أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحلَّ لي ولأمتي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا»[(٥)]. وهذا الحديث غريب جداً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم؛ لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).
(٢) أي: وسادة صغيرة.
(٣) أي: البساط المخملي.
(٤) زيادة من (ح) و(حم).
(٥) سنده ضعيف لإبهام الراوي عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستغرب متنه الحافظ ابن كثير.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أي: قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بضارٍّ لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ أي: في الدنيا؛ بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله ﷻ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

يقول تعالى منبِّهاً على شرف القرآن ومحرِّضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم(١).

وقال مجاهد: حديثكم(٢).

وقال الحسن: دينكم(٣).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج].

وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ أي: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون هاربين ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ هذا تهكُّم بهم نزراً، أي قيل لهم: نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم(٤).

---

(١) أخرجه البيهقي من طريق سليمان عن أبيه عن ابن عباس (شعب الإيمان رقم ١٦١٦)، ولم يسم والد سليمان.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ أي: ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هجّيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾.

يخبر تعالى أنه خلق السمٰوات والأرض بالحق؛ أي: بالعدل [والقسط](1)، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾.

قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ يعني: من عندنا(2)، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً.

وقال الحسن وقتادة وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ اللهو: المرأة، بلسان أهل اليمن(3).

وقال إبراهيم النخعي: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ﴾ من الحور العين(4).

وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو ههنا الولد(5)، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [الزمر: ٤] فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي ما كنا فاعلين(6).

وقال مجاهد: كل شيء في القرآن ﴿إِن﴾ فهو إنكار(7).

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «أي بالقسط».
(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.
(٣) قول الحسن أخرجه الطبري من طريق عقبة بن أبي جسرة عنه، بلفظ: «اللهو: المرأة»، وسنده حسن ترجمة، ويتقوىٰ بقول قتادة الذي أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.
(٥) قول عكرمة عزاه السوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد.
(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب مضمحل ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون لله ولد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دُلامة البغدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن محرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»[١] غريب، ولم يخرجوه، ثم رواه ـ أعني ابن أبي حاتم ـ من طريق يزيد بن [زريع][٢]، عن سعيد، عن قتادة مرسلاً[٣]. وقال محمد بن إسحاق، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل. فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي ثم قال: يا بني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟[٤][٥].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؛ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السمٰوات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي: في السمٰوات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا

---

(١) في سنده عبد الوهاب بن عطاء، وهو الخفاف: صدوق ربما أخطأ (التقريب ص٣٦٨)، وأظنه هو الذي رفعه، وإلا في الرواية التالية مرسلة.
(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «رافع».
(٣) رجاله ثقات لكنه مرسل.
(٤) أخرجه الطبري من طريق يقوي أحدهما الآخر.
(٥) الروايات الثلاث وردت في الأصل في تفسير الآية التالية.

ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]، وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون أنَّ له ولداً أو شريكاً ﷻ وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: دليلكم على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أُنزل على كل نبي أُرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ كما قال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى ردّاً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به؛ بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي:

من ادعى منهم أنه إله من دون الله؛ أي مع الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه؟ ألم يروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً؟ أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السمٰوات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السمٰوات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس: نعم، كانت السمٰوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: صدق هكذا كانت، فقال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً[٢].

وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر فأمطرت، وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأنبتت[٣].

---

(١) أخرجه الثوري، ومن طريقه أخرجه عبد الرزاق والبستي والطبري، وسنده صحيح.

(٢) سنده ضعيف لضعف حمزة بن أبي محمد (التقريب ص١٨٠).

(٣) سنده ضعيف لضعف الرواة عن عطية العوفي.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قال: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سمٰوات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين[(١)]. وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين[(٢)].

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه[(٣)].

وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء[(٤)].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: أصل كل الأحياء منه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن [بشير][(٥)]، حدثنا قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة أنه قال: يا نبي الله إذا رأيتك قرَّت عيني وطابت نفسي، فأخبرنا عن كل شيء قال: «كل شيء خلق من ماء»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة، قال: «أفشِ السلام، وأطعم الطعام، وصلِ الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»[(٧)]. ورواه أيضاً عن عبد الصمد وعفان وبهز، عن همام[(٨)]، تفرد به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم، والترمذي يصحح له، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس؛ أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها؛ لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع. فإنه بادٍ للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات، ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: ثغراً في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البستي بسند حسن من طريق مالك بن سعيد عن إسماعيل به.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى أبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن الحسن وقتادة.

(٥) كذا في (ح) و(حم) وترجمته، وفي الأصل صُحف إلى: «سعيد بن نفير».

(٦) سنده ضعيف؛ لضعف سعيد بن بشير.

(٧) أخرجه الإمام بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ١٣/ ٣١٤ ح٧٩٣٢)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة (مجمع الزوائد ٥/ ١٦).

(٨) المسند ٢/ ٣٢٣، ٣٢٤.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس] ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس»[1] أي: خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: عالياً محروساً أن ينال.

وقال مجاهد: مرفوعاً[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث ـ يعني: ابن إسحاق القمي ـ، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال رجل: يا رسول الله ما هذه السماء؟ قال: «موج مكفوف عنكم»[3]. إسناده غريب.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف] أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ اللهُ في كتابه التفكر والاعتبار: أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة، فلم يرَ ذلك الرجل شيئاً مما كان يحصل لغيره، فشكى ذلك إلى أمه فقالت له: يا بني فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه؟ فقال: لا والله ما أعلمه، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا ولا هممت، قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم كثيراً، قالت: فمن ههنا أتيت.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] أي: يدورون.

قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة[4].

قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (صحيح البخاري، الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (ح٨)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان أركان الإسلام، ١٩).

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) وقفه أصح، ولعل جعفر رفعه لأنه يهم، ولهذا استغرب سنده الحافظ ابن كثير.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف بلفظ: «فلك السماء»، فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن[(١)]، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ [الأنعام].

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: يا محمد ﴿ٱلۡخُلۡدَ﴾ أي: في الدنيا؛ بل ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن] وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر ﷺ مات وليس بحي إلى الآن؛ لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ﴾.

وقوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ أي: يا محمد ﴿فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾، وقد روي عن الشافعي رحمه الله أن أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد[(٢)]

وقوله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ أي: نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ يقول: نبتليكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة[(٣)]. وقوله: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني: كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ يعنون: أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ [الفرقان].

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «فلك كهيئة حديدة الرّحىٰ».

(٢) ذكر البيتين ابن أبي حاتم الرازي (مناقب الشافعي ص١١٩).

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

وقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] أي: في الأمور.

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي ـ وقبض أصابعه يقللها ـ فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه»، قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم[٢].

قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به. ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم] فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: تأتيهم النار بغتة أي: فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذعرهم،

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل، والخبر عليه أمارات الإسرائيليات.
(٢) أخرجه مسلم مقتصراً على شطره الأول (الصحيح، الجمعة، باب فضل يوم الجمعة ح٨٥٤)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/٢٧٨).

فيستسلمون لها حائرين ولا يدرون ما يصنعون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام]، ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ﴾ أي: بدل الرحمن يعني غيره، كما قال الشاعر[(١)]:

جارية لم تلبس المرققا ... ولم [تذق][(٢)] من البقول الفستقا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم؛ بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ؛ أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أي يُجارون[(٣)].

وقال قتادة: لا يصبحون من الله بخير[(٤)]. وقال غيره: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يمنعون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرَّهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونُعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظاً لهم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه

---

(١) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن، وذكره ابن هشام في مغني اللبيب ص٣٥٥.

(٢) كذا في (ح) و(حم) ومغني اللبيب، وفي الأصل صحفت إلى: «تدرمي».

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن عباس، وليس عن طريق العوفي، كذا في الأصل ولعل الأولى «من».

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

في سورة الرعد[١] وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧﴾ [الأحقاف].

وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر[٢].

والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون والأرذلون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عمّا أوحاه الله إليّ، ولكن لا يجدي هذا عمَّن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفنَّ بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء]، وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾ [لقمان].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، عن عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا ربِّ. قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فيبهت الرجل فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة

---

(١) في الآية ٤١.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الرعد آية ٤١.

(٣) صحيح البخاري، الدعوات، باب فضل التسبيح (ح٦٤٠٦)، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح (ح٢٦٩٤).

فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول: أحضروه، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم قال: فتوضع السجلات في كفة قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم»[(١)]، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، وقال الترمذي: حسن غريب[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه فيمايل به الميزان قال: فيبعث به إلى النار قال: فإذا أدبر به إذا صائح من عند الرحمن ﷻ يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا له إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان»[(٣)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح [قُراد][(٤)]، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتصَّ لهم منك الفضل الذي بقي قبلك»، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾»، فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيرٌ من فراق هؤلاء - يعني: عبيده -، إني أشهدك أنهم أحرار كلُّهم[(٥)].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه، وقال محققوه: إسناده قوي (المسند ١١/ ٥٧١ ح٦٩٩٤).

(٢) سنن الترمذي، الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (ح٢٦٣٩)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة (ح٤٣٠٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٤٦٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسنه محققوه (المسند ١١/ ٦٣٧ ح٧٠٦٦) وهو كما قالوا، فإن رواية قتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة قديمة قبل احتراق الكتب، وحسنه أيضاً الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/ ٨٥).

(٤) كذا في المسند، وفي الأصل صحفت إلى: «قراءة»، وفي (ح) و(م): «مراراً».

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ٤٣/ ٤٠٦، ٤٠٧ ح٢٦٤٠١).

قال مجاهد: يعني: الكتاب[١].

وقال أبو صالح: التوراة[٢].

وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل[٣].

وقال ابن زيد: يعني: النصر[٤]. وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضّلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيراً لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ كقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك].

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، ثم قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفتنكرونه وهو في غاية [الجلاء][٥] والظهور؟

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ أنه آتاه رشده من قبل؛ أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع، وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصّر فيها، وما قصّه كثير من المفسرين وغيرهم فعامّتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم، قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه؛ بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخصّ كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما لا ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد، ويشهد له ما يلي.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد بمعناه.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروَج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأُمة. والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من قبل ذلك.

وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: وكان أهلاً لذلك، ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعيد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة قال: مَرَّ [عليٌّ رضي الله عنه][(١)] على قوم يعلبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأن يَمسَّ أحدكم جمراً حتى يطفأ، خير له من أن يمسَّها[(٢)].

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محقّاً فيه، فإنا لم نسمع به قبلك ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السمٰوات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدنَّ أصنامهم؛ أي ليحرصنَّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين؛ أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه.

قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم فجعلوا يمّرون عليه وهو صريع فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعه أولئك[(٣)].

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) سنده ضعيف جداً؛ لأن الأصبغ بن نباتة متروك، رمي بالرفض (التقريب ص١١٣).

(٣) الخبر من الإسرائيليات، ويشهد له قول ابن مسعود التالي.

وقال أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ فسمعه ناس منهم[(١)].

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: حطاماً كسرها كلَّها، إلا كبيراً لهم؛ يعني: إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسَّرها ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ أي: قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾؛ أي شاباً، ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس، [عن أبيه][(٢)]، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾[(٣)].

وقوله: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلِّهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبيِّن في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني: الذي تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] قال: وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأُخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فأهوى إليها، فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل

---

(١) سند صحيح، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم. (٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل سقط.
(٣) سنده ضعيف؛ لأن قابوس فيه لين (التقريب ص٤٤٩).

ذلك الثالثة، فأُخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحسَّ إبراهيم بمجيئها، انفتل من صلاته، وقال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر». قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

[قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء،][2][3]، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

وقال السدي: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: في الفتنة[4].

وقال ابن زيد: أي في الرأي[5]، وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٨٣].

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه

---

(١) أخرجه البخاري من طريق أيوب عن محمد بن سيرين به (الصحيح، النكاح، باب اتخاذ السراري ح٥٠٨٤)، وكذا أخرجه مسلم (الصحيح، الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ ح٢٣٧١).

(٢) زياد من (ح) و(حم).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبَة[١] من الأرض وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد.

قال شعيب الجبائي: اسمه هيزن: فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[٢]، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل. كما رواه البخاري، عن ابن عباس: أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][٣].

وروى الحافظ أبو يعلى: حدثنا [أبو هشام][٤]، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في أرض واحد أعبدك»[٥].

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت، سبحانك لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك[٦].

وقال شعيب الجبائي: كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة[٧]، فالله أعلم.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى.

وقال سعيد بن جبير - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقي إبراهيم، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت[٨].

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذٍ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه[٩].

---

(١) أي: حفرة.

(٢) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (ح٤٥٦٣).

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف: «ابن هشام».

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٣٤٩)، وأبو نعيم (الحلية ١/ ١٩) كلاهما من طريق أبي هشام الرفاعي به، وسنده ضعيف لضعف عاصم، وهو ابن عمر بن حفص العمري (التقريب ص٢٨٦)، ومتنه يخالف ما تقدم في الصحيح.

(٦) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، ومتنه يخالف ما تقدم في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود، وهو ضعيف.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير بدون ذكر ابن عباس، والخبر من الإسرائيليات.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف كالذي قبل سابقه.

وقال [الثوري][(١)]، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ قال: بردت عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: «وسلاماً» قال: لا تضريه[(٢)].

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله ﷻ قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذى إبراهيم بردها[(٣)].

وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قالوا: صنعوا له حظيرة من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها الله، قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يصبه منها شيء غير ذلك[(٤)].

وقال السدي: كان معه فيها ملك [الظل][(٥)][(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مهران، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المنهال بن عمرو قال: أُخبرت أن إبراهيم ألقي في النار، فقال: كان فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها[(٧)].

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار: وجده يرشح جبينه، قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم[(٨)].

وقال قتادة: لم يأت يومئذٍ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ[(٩)].

وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله، وسماه فويسقاً[(١٠)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثني عمي، حدثنا جرير بن حازم أن نافعاً حدثه قال: حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحاً، فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم» فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[(١١)]. وقوله: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «الهروي».
(٢) أخرجه الثوري، ومن طريق أخرجه الطبري به، وسنده ضعيف لجهالة الراوي عن علي ﷺ، ومعناه صحيح.
(٣) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.
(٤) سنده ضعيف لضعف جويبر.
(٥) زيادة من (ح) و(حم).
(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، والخبر من الإسرائيليات.
(٧) الخبر من الإسرائيليات. (٨) الخبر من الإسرائيليات.
(٩) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وهو مرسل.
(١٠) سنده مرسل ويتقوىٰ بالحديث الآتي لكن بدون سماه: «فويسقاً».
(١١) أخرجه ابن ماجه (السنن، الصيد، باب قتل الوزغ ح٣٢٣١)، وابن حبان (الإحسان ١٢/ ٤٤٧ ح٥٦٣١) كلاهما من طريق سائبة مولاة الفاكه به، قال البوصيري: إسناد حديث عائشة صحيح ورجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٦١٦).

وقال عطية العوفي: لما ألقي إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفة(١).

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها. كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ قال: الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة(٢)، وكذا قال أبو العالية أيضاً.

وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنجاه الله إلى الشام، وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرضي زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال(٣).

وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾: إلى حران.

وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على أن لا يغيرها(٤)، رواه ابن جرير، وهو غريب، والمشهور: أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده.

وقال العوفي، عن ابن عباس: إلى مكة، ألا تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران](٥).

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ﴾ قال عطاء ومجاهد: عطية(٦).

وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عُتيبة: النافلة: ولد الولد(٧)؛ يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس به.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٦) قول عطاء أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن جريج، وقول مجاهد أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.
(٧) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

[الصافات] فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة(١).

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به، ثم عطف بذكر لوط، وهو لوط بن هاران بن آزر. كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قصّ خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح] ولهذا قال ههنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه، وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد، كما دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قال أبو إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرماً قد تدلّت عناقيده(٢)، وكذا

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري والحاكم من طريق أشعث عن أبي إسحاق به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٥٨٨).

قال شُريح[١].

وقال ابن عباس: النفش: الرعي[٢].

وقال شريح والزهري وقتادة: النفش لا يكون إلا بالليل، زاد قتادة: والهمل بالنهار[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم، قالا: حدثنا المحاربي، عن أشعث، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله: قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[٤]، وكذا روى العوفي عن ابن عباس[٥].

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد: حدثني خليفة، عن ابن عباس قال: قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضي بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خديج، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن مسروق قال: الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، إنما كان كرماً نفشت فيه الغنم فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم[٧]، وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد[٨].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق مسروق عن شُريح، وهو مرسل ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني، ويتقوى بما تقدم وتأخر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق من قول مسروق (المصنف رقم ١٨٤٣٣)، والطبري من طريق مسروق عنه، وقول الزهري وقتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنهما.

(٤) تقدم تخريجه قبل ثلاث روايات.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بسابقه.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف الحسين وعلي بن زيد وهو ابن جدعان، ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٧) سنده مرسل ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٨) قول شريح تقدم تخريجه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول ابن زيد أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر قال: جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ . . .﴾ الآية[1]، وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، عن الزهري، عن حرام بن محيصة، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها[2].

وقد عُلِّل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام، وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حُميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قصَّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم قال ـ يعني الحسن ـ: إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً: لا يشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١][3].

قلت: أما الأنبياء عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر»[4].

فهذا الحديث يردُّ نصّاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق إسماعيل به (المصنف ٩/ ٤٣٦)، وأخرجه عبد الرزاق من طريق الشعبي به (المصنف رقم ١٨٤٣٩)، وسنده صحيح.

(٢) المسند، وقال محققوه: إسناده مرسل صحيح (٣٩/ ٩٧ ح٢٣٦٩١)، وسنن أبي داود، البيوع، باب المواشي تفسد زرع القوم ح٣٥٦٩)، وسنن ابن ماجه، التجارات، باب الحكم فيما أفسدت المواشي (ح٢٣٣٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح١٨٨٨)، وأخرجه الحاكم من طريق الأوزاعي عن الزهري به، وصححه ووافقه الذهبي وذكر خلافاً في الإسناد (المستدرك ٢/ ٤٨) وقال ابن عبد البر: هذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحدث به الثقات واستعمله فقهاء الحجاز وتلقَّوه بالقبول (التمهيد ١١/ ٨٢).

(٣) سنده حسن.

(٤) صحيح البخاري، الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (ح٧٣٥٢).

وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار، رجل عَلِم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل عَلِم الحق وقضى خلافه فهو في النار»[(١)].

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا علي بن حفص، أخبرنا ورقاء، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى»[(٢)]. وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[(٣)]، وبوّب عليه النسائي في كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق).

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان، عن [صفوان][(٤)] بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، فذكر قصة مطولة، ملخصها: أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم، فسأل أولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود، فعزله واستدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر، وقال الآخر: أغبش، وقال الآخر: أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكي ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم[(٥)].

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ . . .﴾ الآية، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وتردُّ عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً، فوقف

---

(١) أخرجه أصحاب السنن الأربعة كلهم من حديث بريدة رضي الله عنه (سنن أبي داود، الأقضية، باب في القاضي يخطئ ح٣٥٧٣)، وسنن الترمذي، الأحكام باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (ح١٣٢٢)، والسنن الكبرى للنسائي، القضاء، باب ذكر ما أعد الله تعالى للحاكم الجاهل (ح٥٩٢٢)، وسنن ابن ماجه، الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق (ح٢٣١٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١٨٧٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ١٤/ ٣٣ ح٨٢٨٠).

(٣) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ . . .﴾ [ص: ٣٠] (ح٣٤٢٧)، وصحيح مسلم، الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين (ح١٧٢٠).

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «بيان».

(٥) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٣٢، وسنده ضعيف؛ لضعف سعيد بن بشير.

واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً[(١)].

وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه، ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود».

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: صنعة الدروع.

قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ]، أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: في القتال ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي: نِعَم الله عليكم لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن سفيان بن عيينة، عن أبي سنان، عن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمره الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ. قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه ما يلتفت يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله ﷻ، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله ﷻ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه[(٣)].

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص].

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء؛ بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه؛ بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم بدون الجملة الأخيرة (الصحيح، صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ح٧٩٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) سنده ضعيف لتعليقه وإرساله، وهو من أخبار أهل الكتاب.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[١].

وفي الحديث الآخر: «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»[٢].

وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق شيء له أحسن من الذكر، ثم قال: أحمدك ربَّ الأرباب، الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، ولو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني. قال: فلقي إبليس من ذلك منكراً. قال: وقال أيوب عليه السلام: يا ربِّ إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي: يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك[٣]. رواه ابن أبي حاتم.

وقد روي عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول[٤]، وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة.

ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلي أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهراً، ملقى على كناسة بني إسرائيل، تختلف الدوابُّ في جسده، ففرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن عليه الثناء[٥].

وقال وهب بن منبه: مكث في البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص[٦].

وقال السدي: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب لو دعوت ربك يفرج عنك،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وحسّنه محققوه (المسند ٣/ ٧٨ ح١٤٨١).
(٢) هذا الحديث هو تتمه لسابقه عن سعد رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أبو نعيم (الحلية ٥/ ٢٣٩، ٢٤٠)، والخبر من الإسرائيليات.
(٤) أخرجه الطبري مطولاً، وهو من الإسرائيليات.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص٤١، ٤٢، وأخرجه الطبري من طرق يقوي بعضها بعضاً عن الحسن، والخبر من الإسرائيليات التي تخالف مقام نبي الله أيوب، في ذكر الكناسة والدواب.
(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن وهب بن منبه.

فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة، فجزعت من ذلك، فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين، كانا صديقين له وأخوين، فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه، واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برئ، فأتياه فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقال: نحن فلان وفلان، فرحب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفوني عند البلاء، فقالا: يا أيوب لعلك كنت تسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال: هو يعلم، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره، ولكن ربي ابتلاني لينظر أصبر أم أجزع. فقالا له: يا أيوب اشرب من خمرنا، فإنك إن شربت منه برأت. قال: فغضب، وقال: جاءكما الخبيث فأمركما بهذا؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما عليَّ حرام، فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس، فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصاً[(١)]، وكان ابنهم نائماً، فكرهوا أن يوقظوه فوهبوه لها، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر، قال: فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله، فانطلقي به إليه، فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء، فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي على أهله لا يقبل منهم شيئاً غيره، فقالت: رحمه الله؛ ـ يعني: أيوب ـ، فدفعت إليه القرص ورجعت، ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بني فلان، فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك، فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث، لله عليّ إن برأت أن أجلدك مائة جلدة، فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً، فأتت به إلى أيوب، فلما رآه أنكره وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعموني، فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد، فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها أيضاً من ذلك الطعام، فأتت به أيوب فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا الله ﷻ، فقال: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٢)].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوف البكالي: أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له: مبسوط، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: ادع الله فيشفيك، فجعل لا يدعو حتى مرَّ به نفر من بني إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(٣)]. وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب عليه السلام أخوان، فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه

---

(١) أي: رغيفاً من الخبز. (٢) خبر السدي من الإسرائيليات.

(٣) سنده مرسل، ونوف مشهور بالرواية عن أهل الكتاب.

من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال: اللَّهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع، فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللَّهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عارٍ، فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللَّهم بعزتك، ثم خر ساجداً، فقال: اللَّهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه[(١)].

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا، فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصِّ إخوانه له، كان يغدوان إليه ويروحان»، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر له، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق، قال: وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾[(٢)] [ص]. رفع هذا الحديث غريب جداً.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: وألبسه الله حُلَّة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ فجعلت تكلمه ساعة. فقال: ويحك أنا أيوب. قالت: أتسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك أنا أيوب قد ردَّ الله علي جسدي. وبه قال ابن عبّاس: وردَّ عليه ماله وولده عياناً ومثلهم معهم[(٣)].

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك، ومثلهم معهم؛ فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك[(٤)]. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) سنده مرسل، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان ٧/١٥٧، ١٥٨ ح٢٨٩٨)، والبزار (المسند ٣/١٠٧ ح٢٣٥٧)، والحاكم كلهم من طريق نافع بن يزيد به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٥٨١)، وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/٢١١)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٧).

(٣) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، والشطر الأخير عن ابن عباس له شواهد تأتي بعد ثلاث روايات.

(٤) أخرجه الطبري، وهو من الإسرائيليات.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نَهيك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا ربِّ ومن يشبع من رحمتك»[١] أصله في الصحيحين، وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردُّوا عليه بأعيانهم[٢]، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً[٣]، وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة[٤].

وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب وصحَّ ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب.

وقد سماها ابن عساكر في تاريخه رحمه الله تعالى: قال: ويقال اسمها: ليا بنت مِنَشّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض البثنية[٥].

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم؟ قال: لا بل اتركهم لي في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا[٦].

وقال حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: أوتي أجرهم في الآخرة وأعطي مثلهم في الدنيا. قال: فحدثت به مطرفاً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم، وكذا روي عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف[٧]، والله أعلم.

قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله [الحكمة][٨] في ذلك.

---

(١) أصله في صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة. . (ح٢٧٩).

(٢) تقدم قبل ثلاث روايات وتبين أنه ضعيف ولكن يتقوىٰ بالآثار التالية.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) قول ابن مسعود أخرجه الطبري والطبري والطبراني (المعجم الكبير ٩/ ٢٥٤) كلاهما من طريق الضحاك عن ابن مسعود، وسنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يسمع من ابن مسعود، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول قتادة والحسن، أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنهما.

(٥) هي قرية بين دمشق وأذرعات كان يسكنها أيوب عليه الصلاة والسلام، كما في مراصد الاطلاع.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف مختصراً، وفي سنده ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، وليث هو ابن أبي سُليم، وكلاهما فيهما مقال.

(٧) هذا القول يخالف قول مجاهد والحسن وقتادة المتقدم من الإيتاء في الدنيا وليس في الآخرة.

(٨) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «الحمد».

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم[1]، وكذا إدريس عليه السلام، وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. قال ابن جريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي: ذا الكفل؛ وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً.

وروى ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يفعل، فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاث أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب؟ قال: فقام رجل تزدريه[2] الأعين، فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان فأعياهم ذلك، فقال: دعوني وإياه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة[3]، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة، فدقَّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم، قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقصُّ عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا بي وفعلوا بي، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح[4] وذهبت القائلة، فقال: إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك، فانطلق وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدقَّ الباب فقال: من هذا؟ قال: الشيخ الكبير المظلوم، ففتح له فقال: ألم أقل لك: إذا قعدت فأتني؟ قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني، قال: فانطلق، فإذا رحت فأتني، قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدع أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق عليّ النوم، فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل: وراءك، وراءك، قال: إني قد أتيته أمس وذكرت له أمري، فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه، فلما أعياه نظر [فرأى][5] كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدقُّ الباب من داخل، قال: واستيقظ الرجل، فقال: يا فلان ألم آمرك؟ قال: أما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت، قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه. وإذا الرجل معه في البيت فعرفه، فقال:

---

(١) في الآيات ٥٤ ـ ٥٧.
(٢) أي: تستصغره.
(٣) أي: نصف النهار.
(٤) أي: آخر النهار.
(٥) زيادة من (ح) و(حم).

أعدوَ الله؟ قال: نعم، أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك، فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به[١]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد بمثله[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم قال: قال ابن عباس: كان قاضٍ في بني إسرائيل فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على أن لا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل، قال: فكان ليله جميعاً يصلي، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس، قال: وله ساعة يقيلها، قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين له على رجل حق، وقد غلبني عليه، قالوا: كما أنت حتى يستيقظ، قال: وهو فوق نائم، قال: فجعل يصيح عمداً حتى يوقظه، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين له على رجل حق، قال: فاذهب فقل له يعطيك، قال: قد أبى، قال: اذهب أنت إليه، قال: فذهب ثم جاء من الغد فقال: مالك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، فذهب ثم جاء من الغد حين قال[٣]، قال: فقال له أصحابه: اخرج فعل الله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام، قال: فجعل يصيح من أجل أني إنسان مسكين لو كنت غنياً، قال: فسمع أيضاً فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربني، قال: امش حتى أجيء معك، قال: فهو ممسك بيده فلما رآه ذهب معه نثر يده منه ففرّ[٤]. وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وأبي حجيرة الأكبر، وغيرهم من السلف نحو هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبي كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفَّل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل[٥]، وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال أبو موسى الأشعري... فذكره منقطعاً، والله أعلم[٦].

وقد روى الإمام أحمد [حديثاً][٧] غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها،

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وهو مرسل ومن الإسرائيليات.
(٢) كسابقه. (٣) أي: في وقت القائلة.
(٤) في سنده أبو بكر بن عياش، فيه مقال، والخبر من الإسرائيليات.
(٥) سنده ضعيف لضعف سعيد بن بشير.
(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف؛ لأن قتادة لم يسمع من أبي موسىٰ ﷺ.
(٧) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «ثنا».

فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك أكرهتك؟ قالت: لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل فقال: اذهبي بالدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: غفر الله للكفل»[1]، هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة، والله أعلم، وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث: إن كان الكفل، ولم يقل: ذو الكفل، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات[2] وفي سورة «ن»[3]، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها[4]، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات] أي: وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً.

وقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني: الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ قال الضحاك لقومه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نضيق عليه في بطن الحوت، يروى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٨/ ٣٦٩ ح٤٧٤٧) وضعفه محققوه، وأخرجه الترمذي من طريق أسباط بن محمد به وحسّنه (السنن، صفة القيامة باب رقم ٤٨ ح٢٤٩٦)، وأخرجه الحاكم من طريق الأعمش به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢٥٤)، وإن صح سنده فقد وجه الحافظ متنه بأن المقصود غير ذي الكفل.

(٢) الآيات ١٣٩ - ١٤٨.

(٣) الآيات ٤٨ - ٥٠.

(٤) جمع حمل، وهو: الخروف.

نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم[١]، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عطية العوفي: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نقضي عليه[٢]. كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدر وقدّر بمعنى واحد، وقال الشاعر:

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضىٰ   تباركت ما تقدَرَ يَكُن فلَكَ الأمر[٣]

ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] أي: قدر. ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل[٤]، وكذا روي عن ابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة[٥].

وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر[٦].

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٦].

وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس[٧].

وقال سعيد بن أبي الحسن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً[٨]. رواهما ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسندين يقوّي أحدهما الآخر، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بسابقه.

(٣) استشهد به القرطبي (الجامع ١١/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١١/ ٥٤١)، والبستي بسند صحيح من طريق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، وأخرجه الحاكم من الطريق نفسه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٨٣).

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، وفيه عنعنة ابن إسحاق، ويتقوىٰ بسابقه، وبقية أقوال التابعين كلها مراسيل يقوّي بعضها بعضاً، وتتقوىٰ بقول ابن مسعود.

(٦) قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما غالباً ما يرويه الطبري بسند السدي الذي خلط بين طرق هذا الإسناد فترك.

(٧) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح من طريق عوف عن سعيد بن أبي الحسن البصري (العقوبات ص١٧٨).

البحر، قال: وسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]» رواه ابن جرير[(١)]، ورواه البزار في مسنده من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد[(٢)].

وروىٰ ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي مرفوعاً: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى، سبح لله في الظلمات»[(٣)]، وقد روي هذا الحديث بدون هذه الزيادة من حديث ابن عباس وابن مسعود وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدها في سورة «ن»[(٤)].

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثني أبو صخر، أن يزيد الرقاشي قال: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبي ﷺ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللَّهم لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا ربِّ، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة، قال: نعم قالوا: يا ربِّ أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء[(٥)].

وقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سعد هو: - ابن أبي وقاص - رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء، مرتين قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق.

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٢٥٤)، وسنده ضعيف أيضاً لعنعنة ابن إسحاق وإسقاط شيخه.

(٣) في سنده عبد الله بن سلمة: صدوق تغير حفظه (التقريب ص٣٠٦)، ولعل الزيادة منه لأنه ثبت في الصحيح من حديث ابن عباس بدون قوله: «سبح لله في الظلمات» (صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ ...﴾ [طه] ح٣٣٩٥).

(٤) في الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

(٥) سنده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي.

ثم لم يرد عليّ السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت، قال سعد: قلت: بلى، حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا، أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فمه» قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»[١].

ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه عن سعد به[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب، قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب ـ يعني: ابن سعد ـ، عن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعاء بدعاء يونس استجيب له» قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك ـ وهو: ابن أبي وقاص ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى» قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس بن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ﷻ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به»[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي شريج، حدثنا داود بن المحبر بن قحذم المقدسي، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن فقلت: يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابن أخي أما تقرأ القرآن، قول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسّن سنده محققوه (المسند ٣/ ٦٥ ح١٤٦٢)، وأخرجه الحاكم من طريق إبراهيم بن محمد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥٠٥).

(٢) سنن الترمذي، الدعوات، باب ٨٢ (ح٣٥٠٥)، والسنن الكبرىٰ للنسائي، عمل اليوم والليلة، باب ذكر دعوة ذي النون (ح١٠٤٩١).

(٣) أخرجه الحاكم من طريق أبي خالد الأحمر به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٨٤)، ويشهد له سابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، ويتقوىٰ بسابقيه.

ﵟذَّهَبَ مُغَٰضِبٗاﵞ إلى قوله: ﵟٱلۡمُؤۡمِنِينَﵞ ابن أخي، هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى(١).

ﵟوَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ﵞ.

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً، وههنا أخصر منها ﵟإِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥﵞ أي: خفية عن قومه ﵟرَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗاﵞ أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﵟوَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَﵞ دعاء وثناء مناسب للمسألة، قال الله تعالى: ﵟفَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓﵞ أي: امرأته.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت(٢).

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان في لسانها طول، فأصلحها الله(٣). وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله، وهكذا قال محمد بن كعب والسدي(٤)، والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﵟإِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِﵞ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات.

ﵟوَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖﵞ قال الثوري: ﵟرَغَبٗاﵞ فيما عندنا ﵟوَرَهَبٗاۖﵞ مما عندنا ﵟوَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَﵞ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله(٥).

وقال مجاهد: مؤمنين حقاً(٥).

وقال أبو العالية: خائفين(٥).

وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً(٥). وعن مجاهد أيضاً: ﵟخَٰشِعِينَﵞ؛ أي متواضعين.

وقال الحسن وقتادة والضحاك: ﵟخَٰشِعِينَﵞ؛ أي متذللين لله ﷻ(٥)، وكل هذه الأقوال متقاربة.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن عبد الله القرشي، عن [عبد الله بن حكيم](٦) قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه. ثم قال: أما بعد؛ فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا

(١) سنده ضعيف جداً؛ لأن داود بن المحبر متروك (التقريب ص٢٠٠).

(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عمار، وهو الدهني.

(٣) أخرجه الحاكم من طريق أبي نعيم عن طلحة بن عمرو به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: طلحة: واهٍ (المستدرك ٢/ ٣٨٣).

(٤) قول محمد بن كعب أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق ١٩/ ٥٣). وجعله الحافظ ابن كثير مرجوحاً.

(٥) هذه الأقوال تقدم تخريجها في تفسير سورة البقرة آية ٤٥.

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «عبيد الله بن حكيم».

الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[١].

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن شعيب - يعني: ابن بشر -، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين الجن والإنس[٢].

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: يقول: دينكم دين واحد[٣].

وقال الحسن البصري في هذه الآية: يبين لهم ما يتقون وما يأتون.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: سنتكم سنة واحدة، فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ إن واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق محمد بن فضيل به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: عبد الرحمن بن إسحاق كوفي ضعيف (المستدرك ٢/ ٣٨٣).

(٢) سنده حسن.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن جريج لم يسمع من مجاهد، وقول قتادة عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

[المؤمنون: ٥١، ٥٢] وقال رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»[(١)]، يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل بحسب عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مصدق وعمل صالحاً ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أي: لا يكفر سعيه وهو عمله؛ بل [يشكر فلا][(٢)] يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: وجب[(٣)]؛ يعني: قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد[(٤)]. وفي رواية عن ابن عباس: أنهم لا يرجعون؛ أي لا يتوبون[(٥)]، والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام؛ بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث؛ أي أبي الترك، والترك شرذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: يسرعون في المشي إلى الفساد، والحدب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم[(٦)]، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبيد الله بن

---

(١) تقدم تخريجه في سورة الأنعام آية ١٥٩. (٢) زيادة من (ح) و(حم).

(٣) هذا التفسير على قراءة «حِرم» وهي قراءة متواترة، وهذا التفسير أخرجه ابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس (ينظر: فتح الباري ١١/٥٠٣).

(٤) ما ورد عن أبي جعفر الباقر هو سؤال جابر الجعفي عن الرجعة، فأجابه بقراءة هذه الآية، وسنده ضعيف لضعف جابر الجعفي وتشيعه.

(٥) أخرجه الثوري والطبري بسند حسن من طريق داود بن أبي هند.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج[(١)].

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾» فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمرّ بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً، حتى أن مَن بعدهم ليمرّ بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء، قال: ثم يهزُ أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ﷻ دوداً في أعناقهم كنغف[(٢)] الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: «يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله ﷻ قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عنهم كأحس ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط»[(٣)]، ورواه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير، عن ابن إسحاق [به][(٤)(٥)].

(الحديث الثاني): قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي، عن أبيه: أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل؟ فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم. فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه شاب جعد قطط عينه طافية[(٦)]، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وشمالاً يا عباد الله اثبتوا، قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٢) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم (النهاية ٥/ ٨٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسّن سنده محققوه (المسند ١٨/ ٢٥٦ ـ ٢٥٨ ح١١٧٣١).

(٤) زيادة من (ح) و(حم).

(٥) سنن ابن ماجه، الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها (ح٤٠٧٩)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣٠٧).

(٦) أي: مرتفعة عن محلها.

كسنة، ويوم كشهر، يوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله فما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث اشتد به الريح، قال: فيمر بالحيّ فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم[١] وهي أطول ما كانت ذرى[٢]، أمده خواصر، وأسبغه ضروعاً، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين[٣] ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[٤]، قال: ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين[٥] رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل إليه، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ﷻ المسيح عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[٦] واضعاً يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لُد الشرقي، قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله ﷻ إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادي إلى الطور، فيبعث الله ﷻ يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله ﷻ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم[٧] ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله ﷻ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتطرحهم بالمهبل[٨].

قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد وأين المهبل؟ قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة؛ ويقال للأرض: أنبتي ثمرك ودرِّي بركتك، قال: فيومئذٍ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ﷻ ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ـ أو قال: كل مؤمن ـ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة»[٩].

انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به. وقال الترمذي: حسن صحيح[١٠].

---

(١) أي: ماشيتهم. (٢) جمع ذروة، وهي: أعلى سنام البعير.

(٣) أي: مجدبين.

(٤) جمع يعسوب، وهو: أمير النحل؛ أي تظهر له وتجتمع عنده كما تجتمع النحل على يعاسيبها.

(٥) أي: قطعتين.

(٦) أي: بين حُلّتين شبيهتين بالمصبوغ بالهرد، والهرد: عرق، وقيل: الثوب المهرود الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران.

(٧) أي: دسمهم. (٨) أي: الهوة الذاهبة في الأرض.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ٢٩/ ١٧٢ ـ ١٧٥).

(١٠) صحيح مسلم، الفتن، باب ذكر الدجال وصفته (ح٢١٣٧)، وسنن الترمذي، الفتن (ح٢٢٤٠).

(الحديث الثالث): قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، [عن][١] ابن حرملة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب، فقال: «إنكم تقولون لا عدو لكم، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج: عراض الوجوه، صغار العيون، صهب الشعاف[٢]، من كل حدب ينسلون؛ كأن وجوههم المجان المطرقة»[٣].

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي، عن خالة له، عن النبي ﷺ... فذكره مثله سواء[٤].

(الحديث الرابع): قد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد عن هشيم، عن العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام قال: فتذاكروا أمر الساعة فردُّوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردُّوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها، فردُّوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إليَّ ربي أن الدجال خارج ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون بلادهم، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرُّون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليَّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً»[٥].

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به نحوه، وزاد: قال العوام: ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾، ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلة به[٦].

والأحاديث في هذا كثيرة جداً والآثار عن السلف كذلك. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الضيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غداً فنخرج، فيعيده الله كما كان، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل

---

(١) كذا في (ح) و(حم) المسند، وفي الأصل صحفت إلى: «بن».
(٢) أي: شُقر الشعور.
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ٣٧/ ١٩ ح٢٢٣٣١).
(٤) سنده ضعيف كسابقه.
(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٨٧.
(٦) تقدم تخريجه كسابقه.

ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غداً فنخرج إن شاء الله، فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا، فتمرُّ الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها، ثم تمرُّ الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمرُّ الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان ههنا مرة ماء، فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء، ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مخضبة بالدماء، فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقول: اللّهم لا طاقة ولا يد لنا بهم، فاكفناهم بما شئت، فيسلط الله عليهم دوداً يقال له: النغف، فيفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله عيناً يقال لها: الحياة، يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن، وقيل: وما السكن يا كعب؟ قال: أهل البيت، قال: فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين يريده، قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائة حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج الناس، فيتسافدون كما تتسافد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع، قال كعب: فمن قال بعد قولي هذا شيئاً أو بعد علمي هذا شيئاً فهو المتكلف(١)، وهذا من أحسن سياقات كعب الأحبار لما شهد له من صحيح الأخبار.

وقد ثبت في الحديث: أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»(٢). انفرد بإخراجه البخاري(٣).

وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت، قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يقولون: يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي الضيف به، وأخرجه الطبري من طريق معمر عن غير واحد عن أبي الضيف به، وفي الحالتين الخبر من الإسرائيليات ولبعضه شواهد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٧)، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري من طريق قتادة به (الصحيح، الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ...﴾ بسورة المائدة ٩٧ ـ ح١٥٩٣).

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي: وقودها[(١)]. يعني: كقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال ابن عباس أيضاً: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني: شجر جهنم[(٢)]، وفي رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني: حطب جهنم بالزنجية[(٣)].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها[(٤)]، وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما[(٥)].

وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي ما يرمى به فيها[(٦)]، وكذا قال غيره، والجميع قريب.

وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: داخلون ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابدون ومبعوداتهم كلهم فيها خالدون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦] والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبد الرحمن - يعني: المسعودي -، عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[(٧)]. ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن خبّاب، عن ابن مسعود... فذكره[(٨)].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال عكرمة: الرحمة[(٩)].

وقال غيره: السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن] فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم، ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس ويتقوىٰ بما يليه.
(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه البستي بسند صحيح من طريق عبد الملك بن أبجر الكوفي عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
(٥) ذكره الطبري تعليقاً، وذكره الفراء (معاني القرآن ٢/ ٢١٢).
(٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
(٧) سنده حسن.
(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده منقطع لأن يونس لم يسمع ابن مسعود، ويتقوىٰ بسابقه.
(٩) لم أجد من أخرجه، ومعناه صحيح فصيح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريري، عن أبي عثمان ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حسَ حَس[(١)].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سريج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن ليث بن أبي سُليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال: وسمر مع علي ذات ليلة، فقرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم، أو قال: سعد منهم، قال: أقيمت الصلاة، فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[(٢)].

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن يوسف المكي، عن محمد بن حاطب قال: سمعت علياً يقول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال: عثمان وأصحابه، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد، وليس بابن ماهك، عن محمد بن حاطب، عن علي... فذكره ولفظه: عثمان منهم[(٣)]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾: فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً[(٤)]. فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله ﷻ[(٥)]، وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج[(٦)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال: نزلت في عيسى ابن مريم وعزير عليهما السلام[(٧)]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن عيسى بن

---

(١) سنده مرسل.

(٢) في سنده ليث فيه مقال، ومتنه فيه غرابة؛ لأنه يستبعد أن يقول الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنه: أنا منهم.

(٣) أخرجه الطبري من طريق أبي بشر عن يوسف بن سعد به، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق أبي بشر عن يوسف بن سعد به، وسنده صحيح.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) سنده حسن بما يليه، وقوله: «هم الملائكة وعيسى» له شاهد، أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) قول عكرمة والحسن أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف.

(٧) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

ميسرة، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ، عن علي في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ قال: كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف[١].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة[٢]. وقال الضحاك: عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر، وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد[٣].

وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جداً، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرخامي، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبي سُليم عن مغيث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة[٤].

وذكر بعضهم قصة ابن الزبعري ومناظرة المشركين، قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم ـ يعني: ابن أبان ـ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ فقال ابن الزبعري: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف] ثم نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١﴾[٥]. رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الأحاديث المختارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان ـ يعني: الثوري ـ، عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ قال المشركون: فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله، فنزلت ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ الآلهة التي يعبدون ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٦].

---

(١) بل ضعيف جداً؛ لأن سعد بن طريف متروك (التقريب ص٢٣١).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.

(٣) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق جعفر بن أبي المغيرة، وقول أبي صالح أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إسماعيل بن سيف، وهو ضعيف، ويتقوى بسابقيه.

(٤) سنده ضعيف لضعف سعيد بن مسلمة بن عبد الملك (التقريب ص٢٤١).

(٥) أخرجه ابن مردويه بسنده ومتنه كما نقله الحافظ ابن حجر وحسنه (موافقة الخُبر الخَبر ٢/ ١٧٢)، وأخرجه الحاكم من طريق الحسين بن واقد النحوي عن عكرمة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٦) سنده ضعيف لجهالة أصحاب الأعمش، ويتقوى بسابقه ولاحقه.

وروي عن أبي كدينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مثل ذلك وقال: فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1].

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب السيرة: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس معهم، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعري: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً كل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، وأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء]، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف] أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١][2].

وهذا الذي قاله ابن الزبعري خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فكيف يورد على هذا المسيح وعزير ونحوهما ممن له عمل

---

(١) أخرجه الطبري من طريق الحسن بن الحسين الأشقر عن أبي كدينة به، وفي سنده عطاء بن السائب: صدوق اختلط (التقريب ص٣٩٠)، ويتقوىٰ إذ توبع في رواية ابن مردويه.

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٥٨)، وسنده ضعيف معضل، ويشهد لبعضه ما تقدم في رواية ابن مردويه.

صالح ولم يرضَ بعبادة من عبده، وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن ﴿مَا﴾ لما لا يعقل عند العرب، وقد أسلم عبد الله بن الزبعري بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين، وقد كان يهاجي المسلمين أولاً ثم قال معتذراً:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبور[1]

وقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك: الموت، رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة، عن عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصور، قاله العوفي عن ابن عباس[2]، وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره، وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري[3]، وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير وابن جريج[4]، وقيل: حين يذبح الموت بين الجنة والنار، قاله أبو بكر الهذلي[5] فيما رواه ابن أبي حاتم عنه، وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: فأملوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

يقول تعالى: هذا [كائن][6] يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

وقد قال البخاري: حدثنا مقدم بن محمد، حدثني عمي: القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه» انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله[7].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي الواصل، عن أبي المليح الأزدي، عن أبي الجوزاء الأزدي، عن ابن عباس قال: يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي

---

(١) استشهد به ابن هشام (السيرة النبوية ٢/٤١٩).
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن رجل مبهم عن الحسن.
(٤) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.
(٥) أخرجه البستي بسند صحيح من طريق سفيان بن عيينة عن أبي بكر الهذلي.
(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحفت إلى: «كان».
(٧) أخرجه البخاري بسنده بنحوه (الصحيح، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] ح٧٤١٢).

ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يديه بمنزلة خردلة[١].

وقوله: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قيل: المراد بالسجل: الكتاب[٢]، وقيل: المراد بالسجل ههنا: ملك من الملائكة[٣]، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا [يحيى بن يمان][٤]، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: أكتبها نوراً، وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن ابن يمان، به[٥].

قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: أن السجل ملك[٦].

وقال السدي في هذه الآية: السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة[٧].

وقيل: المراد به اسم رجل صحابي كان يكتب للنبي ﷺ الوحي، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل هو الرجل: قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب ـ هو العوذي ـ، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل: كاتب للنبي ﷺ[٨]. وهكذا رواه أبو داود والنسائي، كلاهما عن قتيبة بن سعيد، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: السجل كاتب للنبي ﷺ[٩]، ورواه ابن جرير، عن نصر بن علي الجهضمي، كما تقدم[١٠]، ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النكري، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل، وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: كما يطوى السجل الكتاب كذلك تطوى السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ[١١].

---

(١) يشهد له رواية البخاري السابقة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الثوري عن السدي، ومن طريق الثوري أخرجه الطبري، والثوري لم يسمع من السدي، وأخرجه البخاري (التاريخ الكبير ١/ ٤٣٣) من طريق ابن السدي عن السدي، وكذا أخرجه البستي وابن السدي هو إسماعيل: مجهول، كما في التقريب.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «يحيىٰ بن أبان».

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً؛ لأن أبا الوفاء الأشجعي، واسمه جعفر بن ميسرة، وهو منكر الحديث (لسان الميزان ٢/ ١٢٩).

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر.

(٧) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والطبري، والذي في الطبري مختصر كما تقدم قبل ثلاث روايات.

(٨) الشطر الأول سنده حسن، وأما الشطر الثاني في سنده يزيد بن كعب العوذي: مجهول (التقريب ص٦٠٤).

(٩) سنن أبي داود، الخراج والأمارة، باب في اتخاذ الكاتب (ح٢٩٣٥)، والسنن الكبرىٰ (ح١١٣٣٥)، وسنده ضعيف كسابقه.

(١٠) أخرجه الطبري بسنده ومتنه كما تقدم تحسينه في رواية ابن أبي حاتم.

(١١) أخرجه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٠٥)، وسنده ضعيف لضعف يحيىٰ بن عمرو بن مالك ويقال: إن حماد بن زيد كذبه (التقريب ص٥٩٤).

وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البرقاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي أن حمدان بن سعيد، حدثهم عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر قال: السجل: كاتب للنبي ﷺ[١]، وهذا منكر جداً من حديث نافع، عن ابن عمر لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج ـ المزي فسح الله في عمره ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله ـ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حده، ولله الحمد.

وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، وردَّه أتمَّ رد، وقال: لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتّاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث، وأما من ذكره في أسماء الصحابة، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره، والله أعلم، والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة[٢]، والعوفي عنه[٣]، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد[٤]، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب؛ أي على الكتاب بمعنى: المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ [الصافات] أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ يعني: هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر وعفان المعني قالوا: حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ: فقال: «إنكم محشورون إلى الله ﷻ حفاة عراةً غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا، إنا كنا فاعلين...» وذكر تمام الحديث[٥]، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة، ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه[٦].

وقد روى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك[٧]، وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة[٨].

---

(١) تاريخ بغداد ٨/ ١٧٥.
(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بسابقه.
(٤) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٣٥)، وسنده صحيح.
(٦) صحيح البخاري، التفسير باب ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] (ح٤٦٢٥)، وصحيح مسلم، كتاب الجنة مصنفة نعيمها، باب فناء الدنيا (ح٢٨٦٠).
(٧) أخرجه الطبري من طريق ليث، وليث فيه مقال، ومجاهد لم يسمع من عائشة، ويشهد لبعضه ما تقدم في الصحيحين.
(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بما تقدم في الصحيحين.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ...﴾ الآية [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

[قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾][(١)] فقال: الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن[(٢)].

وقال مجاهد: الزبور: الكتاب[(٣)].

وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر: التوراة[(٤)].

وعن ابن عباس: الزبور: القرآن[(٥)].

وقال سعيد بن جبير: الذكر الذي في السماء[(٦)].

وقال مجاهد: الزبور: الكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله[(٧)]، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول[(٨)].

وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر: أمّ الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك[(٩)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أخبر الله تعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).
(٢) أخرجه الثوري عن الأعمش به، وسنده صحيح.
(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) قول الشعبي أخرجه الطبري والحاكم من طريق داود بن أبي هند عنه، وسكت عنه الحاكم والذهبي (المستدرك ٢/٥٨٧) وسنده حسن، وقول قتادة عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.
(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.
(٦) أخرجه الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير، وسنده صحيح.
(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه بمعناه.
(٩) أخرجه الطبري كسابقه.

الصالحون[١].

وقال مجاهد، عن ابن عباس ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة[٢]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري[٣].

وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون[٤].

وقال السدي: هم المؤمنون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعةً وكفايةً لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين؛ أي أرسله رحمةً لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردَّها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم] وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعّاناً، وإنما بعثت رحمة» انفرد بإخراجه مسلم[٥].

وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة» رواه عبد الله بن أبي عرابة وغيره، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي: وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر أبا هريرة[٦]. وكذا قال البخاري وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلاً.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الطبري من طريق أبي يحيىٰ القتات عن مجاهد به، وفي سنده أبي يحيىٰ: لين الحديث (التقريب ص٦٨٦)، ويشهد له الآثار التالية.

(٣) قول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٤) أخرجه البخاري من طريق ميسرة مولى فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء (التاريخ الكبير ٧/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦) هكذا ذكر معلقاً.

(٥) صحيح مسلم، البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب (ح٢٥٩٩).

(٦) أخرجه أبو الحسن السكري من طريق عبد الله بن أبي عرابة به، في الفوائد المنتقاة كما ذكر الألباني وصححه (السلسلة الصحيحة ح٤٩٠)، وأخرجه البيهقي من طريق وكيع به بدون ذكر أبي هريرة (دلائل النبوة ١/ ١٥٧)، ونسبه الهيثمي إلى البزار وقال: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣٤٨.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن سُعير بن [الخِمس][(١)]، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرئ وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أُسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[(٢)]. ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة مهداة، بعثت برفع قوم وخفض آخرين»[(٣)].

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، [عن ابن شهاب][(٤)]، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة: يا معشر قريش إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم[(٥)]، واللهِ إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة - يعني: الأوس والخزرج -، فهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدي: يا أبا الحكم والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً، ولا أصدق موعداً من أخيكم الذي طردتم، وإذ فعلتم الذي فعلتم، فكونوا أكفَّ الناس عنه، قال [أبو سفيان][(٦)] بن الحارث: كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة، وإن أطعتموني ألجأتموهم حير كنانة أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم، فيكون وحيداً مطروداً، وأما [ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك[(٧)]][(٨)] في المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم، وقال:

سأمنح جانباً مني غليظاً ... على ما كان من قرب وبعد
رجال الخزرجية أهل ذل ... إذا ما كان هزل بعد جد

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي،

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «الحميص».
(٢) أخرجه البيهقي من طريق مالك بن سُعير الخِمس به (دلائل النبوة ١/ ١٥٨)، وأخرجه الحاكم من الطريق نفسه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٥).
(٣) تاريخ دمشق ٥٧/ ٣٤١، وهذا الحديث الأخير ضعيف لجهالة الراوي عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.
(٥) القردان واحدة قُراد، وهو: دويبة تعض الإبل والمناسم جمع منسم، وهو: طرف خفِّ البعير.
(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.
(٧) دهلك: هي جزيرة جنوب البحر الأحمر، تقع بين اليمن والحبشة.
(٨) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض، ثم: «وأهل وأهل لك».

وأنا العاقب» وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثني عمرو بن قيس، عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول ويرضى فيقول، لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أُمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون، إنما بعثني الله رحمة للعالمين فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة»[(٢)].

ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة[(٣)].

فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودي، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[(٤)]، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... فذكره بنحوه[(٥)]، والله أعلم، وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرملي، عن أيوب بن سويد، عن المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ قال: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف[(٦)].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله صلواته وسلامه عليه أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٢/١٢٣ ح١٥٣٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني من طريق أحمد بن صالح وجادة، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: إسناده صحيح إن صحَّ سماع عمرو بن أبي قرة من سلمان (المسند ٣٩/ ١١٠ ح٢٣٧٠٦).

(٣) سنن أبي داود، السنة، باب النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (ح٤٦٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٨٩٤).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف سعيد، وهو ابن المرزبان البقال، وقد توبع كما سيأتي فيرتقي إلى الحسن لغيره.

(٥) سنده كسابقه.

(٦) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١٢/ ٢٣ ح١٢٣٥٨)، وأخرجه الضياء المقدسي من طريق المسعودي عن أبي سنان، وهو ضرار بن مرة، عن سعيد بن جبير به (المختارة ١٠/ ٣٩٧)، وسنده حسن.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين.

قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى[(١)]، وحكاه عون، عن ابن عباس، فالله أعلم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق.

قال قتادة: كانت الأنبياء ﷺ يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك[(٢)].

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً قال: «﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[(٣)]».

وقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

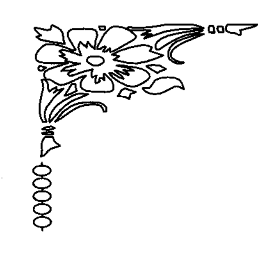
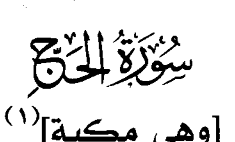
والحمد لله وحده.

---

(١) ذكره الطبري بنحوه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) سنده معضل.

سُورَةُ الحَجِّ

[وهي مكية][(١)]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازها وأحوالها، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة.. في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال: قبل الساعة[(٢)]، ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة فذكره[(٣)]، قال: وروي عن الشعبي وإبراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك. وقال أبو كُدينة، عن عطاء عن عامر الشعبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة[(٤)].

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور من رواية إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السمٰوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر» قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور؟ قال: «قرن». قال: فكيف هو؟ قال:

---

(١) زيادة من (حم). (٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٣) سنده كسابقه.
(٤) أخرجه الطبري من طريق محمد بن الصلت عن أبي كُدينة به، ويشهد له سابقه.

«قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى؛ فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السمٰوات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [ص] فيُسيِّر الله الجبال فتكون سراباً، وترجّ الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النازعات] فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب في وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [غافر] فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به. ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها ثم كشطت عنهم، قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك».

قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٨٧] قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شرَّ ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾»[١].

وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغير واحد مطولاً جداً[٢]، والغرض منه أنه دلَّ على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

(الأول): قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن محمد بن كعب، وقال فيه الطبري: في إسناده نظر.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي[١]، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشبوا[٢] حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم ابعث بعثك إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة[٣]، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسُرِّي عنهم، ثم قال: «[اعملوا وأبشروا][٤]، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة»[٥].

وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما عن محمد بن بشار، عن يحيى - وهو: القطان -، عن هشام - وهو: الدستوائي -، عن قتادة، به بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح[٦].

(طريق آخر): لهذا الحديث: قال الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين: أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمّت، وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة[٧] في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير» ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبروا ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبروا ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: ولا أدري قال: الثلثين أم لا؟[٨].

وكذا رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة به[٩]. ثم قال الترمذي أيضاً: هذا حديث حسن صحيح. [وقد روي من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين][١٠].

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن

---

(١) أي: الدواب. (٢) أي: تدانوا وتضامُّوا.

(٣) بضاحكة واحدة الضواحك وهي أربعة، وسُميت ضواحك لأنها تظهر عند الضحك.

(٤) كذا في (حم) والمسند، وفي الأصل: «أبشروا واعملوا».

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ٣٣/ ١٣٤، ١٣٥ ح١٩٩٠١).

(٦) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج (ح٣١٦٩)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب سورة الحج (ح١١٣٤٠).

(٧) الرقمة: الهنَة الناتئة في ذراع الدابة من داخل (النهاية ٢/ ٢٥٤).

(٨) المصدر السابق (ح٣١٦٨). (٩) المسند ٤/ ٤٣٢.

(١٠) كذا في (حم)، وفي الأصل: «وقد روي عن عروبة عن الحسن عن عمران بن الحصين».

زياد العدوي، عن عمران بن الحصين.. فذكره، وهكذا روى ابن جرير، عن بندار، عن غندر، عن عوف، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفلَ من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ...﴾[1] وذكر الحديث، فذكر نحو سياق ابن جدعان، والله أعلم.

(**الحديث الثاني**): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن الطباع، حدثنا أبو سفيان المعمري، عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر؛ يعني: نحو سياق الحسن، عن عمران غير أنه قال: ومن هلك من كثرة الجن والإنس. ورواه ابن جرير بطوله من حديث معمر[2].

(**الحديث الثالث**): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سلمان، حدثنا عباد ـ يعني: ابن العوام ـ، حدثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية... فذكر نحوه، وقال فيه: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء»[3].

(**الحديث الرابع**): قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ: تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذٍ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم». قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا ثم قال: «ثلث أهل الجنة»، فكبّرنا ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا[4]، وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم والنسائي في تفسيره من طرق عن الأعمش به[5].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل ويتقوىٰ بسابقه.

(٢) أخرجه الطبري من طريق معمر به، وكذلك الحاكم من هذا الطريق وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٢٩).

(٣) في سنده هلال بن خباب: صدوق تغير بأخرة (التقريب ص٥٧٥)، ويتقوىٰ برواية عمران بن الحصين رضي الله عنه السابقة، وبرواية أبي سعيد الخدري اللاحقة، وأخرجه البزار من طريق هلال به (كشف الأستار ح٣٤٩٧)، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب، وهو ثقة (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٤).

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ (ح٤٧٤١).

(٥) صحيح البخاري، الرقاق، باب قوله ﷻ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] (ح٦٥٣٠)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب قوله: «يقول الله: يا آدم أخرج بعث النار...» (ح٣٧٩)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] (ح١١٣٣٩).

(**الحديث الخامس**): قال الإمام أحمد: حدثنا عمارة بن محمد ابن أخت سفيان الثوري وعبيدة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يا ربِّ من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعون» فقال رجل من القوم: من هذا الناجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: «هل تدرون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير»[١]. انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

(**الحديث السادس**): قال الإمام [أحمد][٢]: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صَغيرة، حدثنا ابن أبي مليكة: أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال: «يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك»[٣]. أخرجاه في الصحيحين[٤].

(**الحديث السابع**): قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه، يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة أما عند ثلاث فلا؛ أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عنق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة؛ وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد قال: فينطوي عليهم، ويرميهم في غمرات جهنم، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب[٥] وحَسَك[٦] يأخذن من شاء الله، والناس عليه كالبرق وكالطرف[٧] وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: ربِّ سَلِّم، سلِّم؛ فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكور في النار على وجهه»[٨].

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر عظيم، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه مقطعاً إلى حديثين، وقال محققوه: صحيح لغيره (المسند ٦/١٩٩ ـ ٢٠١ ح٣٦٧٧، ٣٦٧٨).

(٢) كذا في (حم)، وفي الأصل بياض.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وفي آخره: «ذلك»، وصحح سنده محققوه (المسند ٤٠/٣٠٩ ح٢٤٢٦٥).

(٤) صحيح البخاري، الرقاق، باب الحشر (ح٦٥٢٧)، وصحيح مسلم، الجنة، باب فناء الدنيا... (ح٢٨٥٩).

(٥) جمع كلّاب، وهي: حديدة معوجة الرأس.

(٦) جمع حسكة، وهي: شوكة صلبة.

(٧) أي: كطرف العين.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ٤١/٣٠٢، ٣٠٣ ح٢٤٧٩٣).

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل: مرضع، وقال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ وقرئ سكرى[١] أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني: الشيطان[٢]؛ يعني: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المقلق المزعج.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث[٣]، وكذلك قال ابن جريج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصري، حدثنا عمر بن المحرم أبو قتادة، حدثنا [المعتمر][٤]، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خبثاء قريش أخبرنا عن ربكم من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقعت السماء قعقعة ـ والقعقعة في كلام العرب: الرعد ـ فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه[٥].

وقال ليث بن أبي سُليم، عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو، من درٍّ أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته[٦].

---

(١) وهي قراءة متواترة.
(٢) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم وسنده مرسل.
(٤) كذا في (ح) و(حم) وترجمته، وفي الأصل صُحف إلى: «العمر».
(٥) سنده مرسل.
(٦) سنده مرسل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ وهو: المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي: أصل [برئه][1] لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ أي: كما تشاهدونها.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حُسن وقُبح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد.

كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، ثم يُنفخ فيه الروح»[2].

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم، أخذها ملك بكفه فقال: يا ربِّ مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: أي ربِّ ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد، ما الأجل وما الأثر، وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله، فيقال له: اذهب إلى أمّ الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة، قال: فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها وتطأ أثرها، حتى إذا جاء

---

(١) كذا في (حم)، وفي الأصل و(ح): «تربه».
(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٣٤.

أجلها ماتت فدفنت في ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست في الخلق[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين يوماً أو خمس وأربعين، فيقول: أي: رب أشقي أم سعيد؟ فيقول الله ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص»[٢]. ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ومن طرق أُخر عن أبي الطفيل بنحو معناه[٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: يتكامل القوىٰ ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المظهر، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم].

وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري، عن أنس بن مالك، رفع الحديث قال: «المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالدته، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم أمر الملكان اللّذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمَّنه الله من البلايا الثلاث: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه، فإذا بلغ الستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكتب أمين الله وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه»[٤].

هذا حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة، ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي معاوية عن داود به.

(٢) سنده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، القدر، باب كيفية خلق الآدمي (ح٢٦٤٤).

(٤) أخرجه أبو يعلىٰ بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٣٥٢ ح٣٦٧٨)، وضعفه الحافظ ابن كثير.

مسنده موقوفاً ومرفوعاً، فقال: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العاملي[١]، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: «إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا: من الجنون، والبرص، والجذام، فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه الله عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه سيئاته وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله في أرضه وشفع في أهله» ثم قال: حدثنا [هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامري][٢]، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، مثله[٣].

رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أنس بن عياض، حدثني يوسف بن أبي ذرة الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن أُمية الضمري، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون، والبرص، والجذام...»[٤]، وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء، رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبي شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قتادة العدوي، عن ابن أخي الزهري، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعاً من البلاء: الجنون، والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة ليَّن الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في أرضه وشُفّع في أهل بيته»[٥].

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء.

وقال قتادة: غبراء متهشمة[٦].

وقال السدي: ميتة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر، ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾؛ أي تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها، ﴿وَرَبَتۡ﴾؛ أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي المسند في الرواية التي تليها: «العامري».

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «هشام، ثنا الروح».

(٣) المسند ٢/ ٨٩، وضعفه الحافظ ابن كثير في سابقه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً (المسند ٢١/ ١٢ ح١٣٢٧٩)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٧٩).

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٣٥٨٨)، وسنده ضعيف لضعف عبد الله بن شبيب (لسان الميزان ٣/ ٢٩٩). وأبو شيبة متروك كما في التقريب.

(٦) عزاه السيوطي إلى عبد الرزاق والطبري وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، ولم أجده في تفسيري عبد الرزاق والطبري.

النبات في اختلاف ألوانها وطعومه وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾ [يس]، والآيات في هذه كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن عمه أبي رزين العقيلي، واسمه: لَقيط بن عامر: أنه قال: يا رسول الله أكلُّنا يرى ربه ﷿ يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟» قلنا: بلى، قال: «فالله أعظم» قال: قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك محلاً؟» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟» قال: بلى. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه»[1]. ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به[2].

ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسىٰ، عن أبي رزين العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا برسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة، ثم مررت بها مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»[3]، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا [عبيس بن مرحوم، حدثنا بكير بن أبي السمط][4]، عن قتادة، عن أبي الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، دخل الجنة[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: حديث حسن لغيره (المسند ٢٦/ ١٠٠ ح١٦١٨٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح١٥٠).

(٢) سنن أبي داود، السنة، باب في الرؤيا (ح٤٧٣١)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح١٨٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه مطولاً، وقال محققوه: حديث حسن لغيره (المسند ٢٦/ ١١٣ ـ ١١٥ ح١٦١٩٤).

(٤) كذا في الجرح والتعديل (٧/ ٣٤) إذ قال ابن أبي حاتم: روىٰ عن بكير بن أبي السمط.. روىٰ عنه أبي وسئل عنه فقال: ثقة، وفي الأصل: «عنبس بن مرحوم عن بكير بن السميط».

(٥) في سنده أبو الحجاج، ولم يصرح قتادة باسمه، وهو مدلس من مدلسي المرتبة الثالثة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ⑨ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ⑩﴾.

لمّا ذكر تعالى حال الضلّال الجهّال المقلدين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ③﴾ [الحج] ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ⑧﴾ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح؛ بل بمجرد الرأي والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبر عن الحق إذا دعي إليه[١].

وقال مجاهد وقتادة ومالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: لاوي عنقه وهي رقبته[٢]؛ يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق، ويثني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ㊳ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ㊴﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ㊶﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ⑤﴾ [المنافقون]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾ [لقمان].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل؛ ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله، ثم قال تعالى: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ⑨ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ㊼ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ㊽ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ㊾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ㊿﴾ [الدخان].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة[٣].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑪ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ⑫ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ⑬﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحو، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٣) سنده مرسل.

الجبل؛ أي طرفه؛ أي: دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر[١].

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله على نبيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة، فإن صحَّ بها جسمه، ونتجت فرسه مهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً رضي به، واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ والفتنة: البلاء؛ أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة[٤]. وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية[٥]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر[٦].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ أي: ارتد كافراً[٧].

وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة.

---

(١) قول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: ١١] (ح٤٧٤٢).

(٣) في سنده جعفر بن أبي المغيرة فيه مقال، ويتقوىٰ شطره الأول برواية الصحيح المتقدمة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ برواية الصحيح المتقدمة.

(٥) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، لكنه مرسل ويتقوىٰ بسابقه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه لكنه معضل ويتقوىٰ بما سبق، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف معضل.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

(٧) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

وقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ قال مجاهد: يعني: الوثن[١]؛ يعني: بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى؛ يعني: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضان الجنات، ولما [ذكر][٢] تعالى أنه أضلَّ أولئك وهدى هؤلاء قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب؛ أي بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به[٣]، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم[٤].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك[٥].

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحفت إلى: «وتر».

(٣) أخرجه البستي والطبري والحاكم كلهم من طريق سفيان عن أبي إسحاق السبيعي عن التيمي، وهو أربدة، عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الطبري (المستدرك ٢/٣٨٦).

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) نسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر]، ولهذا قال: ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السدي: يعني: من شأن محمد ﷺ.

وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء] أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١٧﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين، وقد قدمنا في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم، والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه، فإنه تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكنّ ضمائرهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ۝١٨﴾.

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ۝٤٨﴾ [النحل] وقال ههنا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت]، وفي الصحيحين عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث

جئت»[١]. وفي المسند وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه في حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ﷻ إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له»[٢].

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه[٣].

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل.

وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللَّهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه[٤].

وقوله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أي: الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ، نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرُبَّ مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها[٥].

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبّداً بذلك ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له علي: يا عبد الله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف[٦].

---

(١) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (ح٣١٩٩)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (ح١٥٩).

(٢) المسند ٤/ ٢٦٧، وسنن أبي داود، الصلاة، باب صلاة الكسوف (ح١١٧٧)، وسنن النسائي، الكسوف ٣/ ١٤١، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ما جاء في صلاة الكسوف (ح١٢٦٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح١٠٤٤).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف، وهو الأعرابي، عن أبي العالية.

(٤) سنن الترمذي، الصلاة، باب ما يقول في سجود القرآن (ح٥٧٩)، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب سجود القرآن (ح١٠٥٢)، والإحسان ٦/ ٤٧٣ ح٢٧٦٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٨٦٥).

(٥) أخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ بن أنس عن أبيه ﷺ (المسند ٣/ ٤٣٩)، وسنده ضعيف لضعف زبان، وكذلك ابن لهيعة فيه مقال.

(٦) سنده ضعيف للانقطاع بين والد جعفر، وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فإنه لم يسمع من علي ﷺ.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار» رواه مسلم(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لهيعة، قال: حدثنا مشرح بن هاعان، أبو مصعب المعافري، قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما»(٢)، ورواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن لهيعة به. وقال الترمذي: ليس بقوي، وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح «فيه» بالسماع، وأكثر ما نقموا عليه تدليسه(٣).

وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أنبأنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن [عامر بن جَشيب](٤)، عن خالد بن معدان رَحِمَهُ اللَّهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين» ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا؛ يعني: من غير هذا الوجه ولا يصح(٥).

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثني ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثني نافع قال: حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين(٦). وروى أبو داود وابن ماجه من حديث الحارث بن سعيد العتقي، عن عبد الله بن مُنين، عن عمرو بن العاص أن رسول ﷺ، أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان، فهذه شواهد يشدُّ بعضها بعضاً(٧).

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي ذرٍّ: أنه كان يقسم

---

(١) صحيح مسلم، الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (ح٨١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥١)، وفي سنده ابن لهيعة فيه مقال ولشطره الأول شواهد كما يليه. وأخرجه الحاكم من طريق ابن لهيعة، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٢٢١).

(٣) سنن أبي داود، الصلاة، باب تفريع أبواب السجود (ح١٤٠٢)، وسنن الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في السجدة في الحج (ح٥٧٨)، وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وتعقبه الأستاذ أحمد شاكر بقوله: بل هو حديث صحيح.

(٤) كذا في ترجمته (التقريب ص٢٨٧)، وفي الأصل صُحف: «عامر بن حسيب»، وفي (ح) و(حم): «عامر بن حبيب».

(٥) المراسيل رقم ٧٨، ويشهد له سابقه.

(٦) يشهد له ما سبق عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٧) سنن أبي داود، الصلاة، باب تفريع أبواب السجود (ح١٤٠١)، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب عدد سجود القرآن (ح١٠٥٧)، وله شاهد يقويه كسابقه.

قسماً أن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر، لفظ البخاري عند تفسيرها[١]، ثم قال البخاري: حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز، عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري[٢].

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم، فأفلج[٣] الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[٤]. وكذا روى العوفي عن ابن عباس[٥].

وقال شعبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: مصدق ومكذب[٦].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث[٧].

وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون[٨].

وقال عكرمة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة[٩].

وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ﷻ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فُصِّلت لهم مقطعات من النار.

قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ أي: إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب[١٠]، أذاب ما في بطونهم من

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، باب قتل أبي جهل (ح٣٩٦٦)، وصحيح مسلم، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ (ح٣٠٣٣).

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] (ح٤٧٤٤).

(٣) أي: أظفر والفلج الظفر والفوز.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم وعبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به. (٦) يشهد له سابقه ولاحقه.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، ويشهد له ما سبق.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف كسابقه.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

الشحم والأمعاء، قاله ابن عباس[١] ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم، وكذلك تذوب جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط[٢].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثني إبراهيم أبو إسحاق الطالقاني، حدثنا ابن المبارك، عن سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن ابن حُجيرة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو [الصَّهْر][٣]، ثم يعاد كما كان»[٤]، ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك وقال: حسن صحيح[٥]، وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي نعيم، عن ابن المبارك به[٦]. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت عبد الله بن السري قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾[٧].

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقلّوه[٨] من الأرض»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت، ثم عاد كما كان، ولو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[١٠].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور[١١].

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا

---

(١) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن سعيد بن جبير، كسابقه.
(٣) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صحفت إلى: «الضير».
(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه أيضاً من طريق يعمر بن بشر عن عبد الله بن المبارك به، وفي كليهما أبو السمح وهو دراج بن سمعان القرشي، وهو ضعيف، وأخرجه الحاكم من طريق ابن المبارك به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٨٧).
(٥) السنن، صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (ح٢٥٨٢).
(٦) سنده ضعيف كسابقه.
(٧) سنده ضعيف؛ لأنه معضل.
(٨) أي: ما رفعوه.
(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ١٧/ ٣٣٤ ح١١٢٣٣).
(١٠) المسند ٣/ ٨٣، وسنده كسابقه.
(١١) أخرجه الطبري عن سعيد بن جبير، وليس عن ابن عباس، وفيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف، وكذلك عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد عن سعيد بن جبير.

﴿مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[١].

وقال زيد بن أسلم في هذه الآية ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون[٢].

وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردُّهم مقامعها[٣].

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذاً بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال وما أعدَّ لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة ـ نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ـ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٤].

وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قلب منها ـ أي: سوار منها ـ لردَّ شعاع الشمس كما تردَّ الشمس نور القمر[٥].

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان].

وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة[٦]، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وسنده مرسل، وقد أخرجه الحاكم من طريق الأعمش به عن سلمان، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٨٧).

(٢) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وسنده مرسل. (٣) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وسنده معضل.

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ (الصحيح، الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء ح٢٥٠).

(٥) سنده مرسل.

(٦) أخرجهما البخاري بدون ذكر الآية ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] (الصحيح، اللباس، باب لبس الحرير للرجال... ح٥٨٣٢ و٥٨٣٣).

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥] لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به، يقال لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النّفس»[١].

وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: القرآن.

وقيل: لا إله إلا الله[٢]. وقيل: الأذكار المشروعة ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدِّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم أنهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد] أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رِباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام[٣].

---

(١) تقدم تخريجه وصححه في تفسير سورة يونس آية ١٠.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

وقال مجاهد: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل[١]، وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٢].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله[٣].

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن رِباع مكة تُملَّك وتورثَّ وتؤجَّر، واحتج بحديث الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رِباع؟» ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»، وهذا الحديث مخرَّج في الصحيحين[٤]، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجناً، بأربعة آلاف درهم[٥]، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار[٦]، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونصَّ عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعي رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن[٧].

وقال عبد الرزاق، عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها[٨].

وقال أيضاً، عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري، قال: فذلك إذاً[٩].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بمعناه.

(٢) قول أبو صالح أخرجه الطبري بسند فيه مجهول عن أبي صالح، ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه، وقول عبد الرحمن بن سابط أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عنه، ولكنه مرسل ويتقوىٰ برواية ابن عباس ومجاهد، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه لكنه معضل ويتقوىٰ كسابقه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن معمر به، وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، المغازي، باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح؟ (ح٤٢٨٢) وصحيح مسلم، الفرائض (ح١٦١٤).

(٥) أخرجه عبد الرزاق من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار... فذكر القصة (المصنف ٥/١٤٧، ١٤٨ رقم ٩٢١٣)، وقد ثبت ذلك كما قرره الحافظ ابن كثير.

(٦) تقدم أثر عمرو بن دينار، كما في سابقه.

(٧) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه (السنن، المناسك، باب أجر بيوت مكة ح٣١٠٧)، وفي سنده علقمة بن نضلة: مقبول، كما في التقريب.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه (المصنف ٥/١٤٨ رقم ٩٢١٤) وسنده ضعيف لضعف ابن مجاهد وهو عبد الوهاب.

(٩) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه (المصنف ٥/١٤٦، ١٤٧ رقم ٩٢١٠) وسنده صحيح.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء، [قال: وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ قال: ينزلون حيث شاؤوا[1]، وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً»[2]][3]، وتوسط الإمام أحمد فقال: تُملَّك وتورَّث ولا تؤجَّر جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي: تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ﴾ تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا بين المراجل[4] والصريح الأجرد[5]

وقال الآخر:

بواد يمان ينبت الشَّثُّ[6] صدره وأسفله بالمرخ[7] [والشبهان][8][9]

والأجود أنه ضمّن الفعل ههنا معنى يهم، ولهذا عدّاه بالباء فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ﴾ أي: يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج، عن ابن عباس هو: التعمد[10].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾ بشرك[11].

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله[12]، وكذا قال قتادة وغير واحد[13].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾ هو أن تستحل من الحرم ما حرَّم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم[14]، وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾ يعمل فيه عملاً سيئاً[15]، وهذا من خصوصية الحرم أنه

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه (المصدر السابق رقم ٩٢١١)، وسنده ضعيف لأن مجاهداً لم يسمع من عمر بن الخطاب.
(٢) بياض في الأصل، واستدرك من (ح) و(حم) ومصنف عبد الرزاق.
(٣) أخرجه الدارقطني من طريق ابن أبي نجيح به (السنن ٢/ ٢٩٩)، وسنده ضعيف لأن ابن أبي نجيح لم يسمع من عبد الله بن عمر ﷺ.
(٤) المراجل: جمع مرجل، وهو القدر.
(٥) ديوان الأعشى ٥٧.
(٦) الشّث: شجر طيب الريح مُرّ الطعم.
(٧) المرخ: شجر ليس له ورق ولا شوك سريع الاشتعال.
(٨) الشبهان: نبات طيب من الرياحين.
(٩) كذا في تفسير الطبري فقد استشهد به، وفي الأصل صُحفت إلى: «شبهات».
(١٠) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.
(١١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(١٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف ويشهد له سابقه.
(١٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(١٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(١٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

يعاقب البادي فيه الشرَّ إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره، حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السدي أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله ـ يعني: ابن مسعود ـ في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم ـ وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم[١]، قال شعبة: هو رفعه لنا وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه[٢].

ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به[٣].

قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود، وكذلك رواه أسباط وسفيان الثوري، عن السدي، عن مُرَّة، عن ابن مسعود موقوفاً، والله أعلم.

وقال الثوري، عن السدي، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلاً بعدن أبين همّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم[٤]، وكذا قال الضحاك بن مزاحم[٥]، وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد: إلحاد فيه لا والله وبلى والله[٦]، وروي عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو مثله[٧]، وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه[٨]، وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه[٩]. وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد[١٠].

وقال حبيب بن أبي ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكِر بمكة[١١]، وكذا قال غير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية: أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»[١٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ

---

(١) سنده حسن، وأخرجه الحاكم من طريق زبيد عن مُرَّة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه الطبري من طريق يزيد بن هارون به، وسنده حسن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون به، وحسّن سنده محققوه (المسند ٧/ ١٥٥ ح٤٠٧١).

(٤) سنده حسن.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق فضيل عن الضحاك.

(٦) سنده صحيح.

(٧) أخرجه الطبري من طريق منصور عن مجاهد به.

(٨) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٩) في سنده عبد الله بن عطاء: صدوق يخطئ ويدلس.

(١٠) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(١١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أشعث عن حبيب بن أبي ثابت.

(١٢) سنده ضعيف؛ لأن موسى بن باذان مجهول (التقريب ص٥٥٠)، وأخرجه أبو داود عن جعفر بن يحيىٰ به (السنن، المناسك، باب تحريم حرم مكة ح٢٠٢٠)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ح٤٤٠).

﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أُنيس: أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين: أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أُنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتدَّ عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[1]؛ يعني: من لجأ إلى الحرم بإلحاد؛ يعني: بميل عن الإسلام، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعمُّ من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لمّا همَّ أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل] أي: دمرهم وجعلهم عبرةً ونكالاً لكل من أراده بسوء، ولذلك ثبت في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...» الحديث[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كناسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير فقال: يا ابن الزبير إياكَ والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت» فانظر لا تكن هو[3].

وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد، حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو عبدَ الله بن الزبير وهو جالس في الحِجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلُّها ويحلُّ به رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها» قال: فانظر لا تكن هو[4]، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت؛ أي أرشده إليه وسلَّمه

---

(١) في سنده عبد الله بن لهيعة فيه مقال.

(٢) أخرجه البخاري من حديث عائشة ﵂ (الصحيح، البيوع، باب ما ذكر في الأسواق ح٢١١٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده بلفظ: «لا تكونه» (المسند ٢/١٣٦)، وهذا الحديث حقه أن يكون في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، كما هو في الحديث الذي يليه، وقد يكون محمد بن كناسة هو الذي أخطأ في ذلك؛ لأن أبا حاتم الرازي قال فيه: صاحب أخبار يكتب حديثه ولا يحتج به، وله أخطاء أخرى ذكرها ابن معين والدارقطني. (ينظر: تهذيب التهذيب ٩/٢٥٩، ٢٦٠)، ويؤكد هذا أن الحاكم أخرجه من طريق محمد بن كناسة به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: ابن كناسة لا يحتج به (المستدرك ٢/٣٨٨)، ثم كذلك في رفعه نظر، كما سيأتي في الحديث الآتي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده بدون: «فانظر لا تكن هو»، وبدون ذكر عبد الله بن الزبير، وهو جالس بالحجر. (المسند ١١/٤٣٥ ح٦٨٤٧)، وفي رفعه نظر، كما قرر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٨/٣٤٥).

له وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يُبنَ قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذرّ، قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا[٢]، وقال تعالى ههنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك[٣].

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخصُّ العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب وكيف أُبلِّغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: نادِ وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس[٤]، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة، لبيك اللهم لبيك، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس[٥] ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير[٦] وغير واحد من السلف، والله أعلم، أوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ...﴾ الآية، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من

---

(١) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، الباب العاشر (ح٣٣٦٦).

(٢) ينظر: سورة البقرة آية ١٢٥.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر في سورة البقرة آية ١٢٥ (التفسير ٢/ ٥٣٣)، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) وهو الجبل المجاور للكعبة المشرفة.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١١/ ٥١٨)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٣٨٨) كلاهما من طريق جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس مختصراً، وصححه ووافقه الذهبي، ولكن قابوس لين الحديث كما في التقريب (ص٤٤٩)، ويتقوىٰ بالآثار التالية.

(٦) قول مجاهد أخرجه عبد الرزاق (المصنف رقم ٩١٠٠)، والطبري والبيهقي (الجامع لشعب الإيمان رقم ٣٩٩٩، ٤٠٠٠) من ثلاثة طرق يقوي بعضها بعضاً، وقول عكرمة هو ابن خالد المخزومي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عنه.

العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدلَّ على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، [وقال وكيع: عن أبي العُميس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: ما أسى علي شيء إلا أخي وددت أني كنت حججت ماشياً؛ لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾][1][2].

والذي عليه الأكثرون: أن الحج راكباً أفضل، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعني: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد، قاله مجاهد وعطاء والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان والثوري وغير واحد[3]، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحنّ إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن، والذبائح والتجارات[4]، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة[5]، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ﴾.

قال شعبة وهشيم، عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأيام المعلومات: أيام العشر[6]، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به[7]. وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي[8]، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل.

---

(١) زياد من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي من طريق الحسن بن قتيبة عن موسىٰ بن عبيدة عن محمد بن كعب، ثم قال: الحسن بن قتيبة: متروك الحديث (تاريخ بغداد ٧/ ٤٠٤، ٤٠٥)، وموسىٰ بن عبيدة: ضعيف. وأما السند الذي أورده الحافظ ابن كثير، فإن أبا حلحلة لم أجد له ترجمة.

(٣) قول مجاهد عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه البستي والطبري بسند صحيح من طريق سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه ابن مردويه بسند صحيح من طريق أبي بشر عن سعيد به (ينظر: فتح الباري ٢/ ٤٥٨).

(٧) صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق قبل حديث (رقم ٩٦٩).

(٨) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف =

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عرعرة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء»[(١)]، رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بنحوه. وقال الترمذي: حديث حسن، غريب، صحيح. وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر[(٢)].

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»[(٣)]. وروي من وجه آخر عن مجاهد، عن ابن عمر بنحوه.

وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى [السوق][(٤)] في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[(٥)].

وقد روى أحمد، عن جابر مرفوعاً: أن هذا هو العشر الذي أقسم به في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر][(٦)]. وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر[(٧)].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم، عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ، عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفّر به السنة الماضية والآتية»[(٨)]. ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل

= لإبهام شيخ الطبري، ويشهد له ما سبق.

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق ح٩٦٩).

(٢) المسند ١/ ٢٢٤ وسنن أبي داود، الصوم، باب في صوم العشر (ح١٤٣٨)، وسنن الترمذي، الصوم، باب صيام العشر (ح٧٥٧)، وسنن ابن ماجه، الصيام، باب صيام العشر (ح١٧٢٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٧٥)، وسنده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد كما في التقريب، ويشهد له سابقه.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

(٥) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم عنهما (الصحيح، العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بلفظ: «إن العشر عشر الأضحى» (المسند ٢/ ٣٢٧)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢٢٠)، وذكر الهيثمي أن رجاله رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة (مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧).

(٧) سنن أبي داود، الصوم، باب صوم العشر (ح٢٤٣٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢١٢٩).

(٨) صحيح مسلم، الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة من كل شهر. . . (ح١١٦٢).

الأيام عند الله[١]، وبالجملة فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، وفضّله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

(قول ثانٍ): في الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده[٢]، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

(قول ثالث): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المديني، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عجلان، حدثني نافع: أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده، والأيام المعدودات: ثلاثة أيام بعد يوم النحر[٣]، هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني: ذكر الله عند ذبحها.

(قول رابع): أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وهو مذهب أبي حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثني ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات: يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق[٤].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب.

والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها وحسا من مرقها.

قال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك.

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل[٥]، وروي عن مجاهد وعطاء

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، المناسك، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ (ح١٧٦٥)، والإمام أحمد (المسند ٤/ ٣٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١٥٥٢.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وهو يخالف الرواية الصحيحة السابقة.

(٣) صحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٤) سنده ضعيف لضعف ابن زيد، وهو: عبد الرحمن.

(٥) سنده صحيح وأخرجه الطبري من طريق مغيرة عن إبراهيم.

نحو ذلك[(١)].

قال هشيم، عن حصين، عن مجاهد في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠][(٢)]. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق فيها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فجزّأها نصفين: نصف للمضحي ونصف للفقراء، والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وسيأتي الكلام عليها عندها ـ إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس، والفقير المتعفف[(٣)].

وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال قتادة: هو الزمن[(٤)]، وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وهو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك[(٥)]، وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه[(٦)]، وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي.

وقال عكرمة، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك[(٧)].

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني نحر ما نذر من أمر البدن[(٨)].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج[(٩)]. وقال إبراهيم بن ميسرة، عن مجاهد ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: حجهم[(١٠)]. [وكذا روى الإمام ابن أبي حاتم:

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حصين عنه، وقول عطاء أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حجاج عنه.
(٢) أخرجه الطبري عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم به، وسنده حسن.
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.
(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد بنحوه.
(٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٩) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(١٠) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.

حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: نذور الحج][1][2]، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمي الجمار على ما أمروا به، وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر[3]، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق[4].

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[5].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة، ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجير، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ طاف رسول الله ﷺ من ورائه[6].

وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: لأنه أول بيت وضع للناس[7]، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[8].

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح[9].

وقال خصيف: إنما سمي بالبيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبي نجيح وليث، عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه[10]، وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك[11].

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).
(٢) سنده صحيح.
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه مسلم من طريق طاوس عن ابن عباس بنحوه (الصحيح، الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض ح١٣٢٨).
(٥) أخرجه مسلم كما في الرواية السابقة.
(٦) سنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٧) يشهد له ما يليه.
(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.
(٩) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.
(١٠) أخرجه عبد بن حميد (ينظر: تغليق التعليق ٨٧/٣)، والطبري كلاهما بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(١١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبيد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة[١]، وقال الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار». وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل البخاري، عن عبد الله بن صالح به، وقال: إن كان صحيحاً، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلاً[٢].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما لفاعلها من الثواب الجزيل ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يجتنب معاصيه، ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير، وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات، قال ابن جريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها[٣]، وكذا قال ابن زيد[٤].

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم ﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ . . .﴾ الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ من ههنا لبيان الجنس؛ أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]، ومنه شهادة الزور.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، ورجاله ثقات، لكن الزهري لم يسمع من عبد الله بن الزبير.

(٢) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج (ح٣١٧٠)، وتفسير الطبري وكلاهما من طريق عبد الله بن صالح، وهو كاتب الليث: صدوق كثير الغلط (التقريب ص٣٠٨)، ولعله هو الذي رفعه، فإن الأصح وقفه على عبد الله بن الزبير.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به ويتقوى من الطريق آخر، فقد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

وفي الصحيحين عن أبي بَكرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، أنبأنا سفيان بن زياد، عن [فَاتك بن فَضَالة][(٢)]، عن أيمن بن خُريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً، فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثلاثاً، ثم قرأ ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[(٣)]. وهكذا رواه الترمذي، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية به، ثم قال: غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد، وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ[(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العصفري، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان الأسدي، عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ﷻ»، ثم تلا هذه الآية ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[(٥)].

وقال سفيان الثوري، عن عاصم بن أبي النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور الإشراك بالله، ثم قرأ هذه الآية[(٦)].

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور في الهواء ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء؛ فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحاً من هناك، ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطرقه[(٧)].

---

(١) صحيح البخاري، الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (ح٢٦٥٤)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (ح٨٧).

(٢) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل صُحف إلى: «وامل بن فضالة».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لجهالة فاتِك بن فَضَالة (المسند ٢٩/ ١٤٥ ح١٧٦٠٣).

(٤) سنن الترمذي، الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور (ح٢٢٩٩).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لجهالة والد سفيان العصفري، واسمه: زياد (المسند ٣١/ ١٩٤ ح١٨٨٩٨).

(٦) أخرجه البستي والطبراني (المعجم الكبير ٩/ ١١٤) كلاهما من طريق سفيان به، وفي سنده وائل بن ربيعة ذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ٤٩٥)، وسكت عنه البخاري (التاريخ الكبير ٨/ ١٧٦) وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٩/ ٤٣)، وحسن سنده الهيثمي (مجمع الزوائد ٤/ ٢٠٠) ولكن نكارة متنه لا تسعفه في تحسينه، وتوثيق ابن حبان لا يكفي لتفرده في ذلك.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة إبراهيم مطلع تفسير آية ٢٧.

وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٧١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبُدن، كما قال الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس: تعظيمها استسمانها واستحسانها[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ليلى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام[2].

وقال أبو أُمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون، رواه البخاري[3].

وعن أبي هُريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراء أحبُّ إلى الله من دم سوداوين» رواه أحمد[4] وابن ماجه، قالوا: والعفراء: هي البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري، عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين[5].

وعن أبي سعيد: أن رسول الله ضحّى بكبش أقرن كحيل، يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد، رواه أهل السنن وصححه الترمذي[6]؛ أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن.

وفي سنن ابن ماجه، عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ ضحّى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين[7]. قيل: هما الخَصِيان، وقيل: اللّذان رُضَّ خُصياهما ولم يقطعهما، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق محمد ابن أبي ليلى عن الحكم به، ويشهد له ما يليه.
(٢) سنده حسن ويشهد له ما يليه.
(٣) أخرجه البخاري تعليقاً الصحيح، الأضاحي، باب أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين، ووصله أبو عوانة في مسنده الصحيح، كما قاله الحافظ ابن حجر وصحح سنده (تغليق التعليق ٥/ ٤).
(٤) (المسند ١٥/ ٢٣٥ ح٩٤٠٤)، وضعف سنده محققه، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ١٨٦١).
(٥) صحيح البخاري، الأضاحي، باب أضحية النبي ﷺ (ح٥٥٥٣).
(٦) سنن أبي داود، الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا (ح٢٧٩٦)، وسنن الترمذي، الأضاحي، باب ما يستحب من الأضاحي (ح١٤٩٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حفص بن غياث، وسنن النسائي، الضحايا، الكبش ٧/ ٢٢١، وسنن ابن ماجه، الأضاحي، باب ما يستحب من الأضاحي (ح٣١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٥٣٤).
(٧) أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة وأبي هريرة ﭫ (السنن، الأضاحي، باب أضاحي رسول الله ﷺ ح٣١٢٢) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٥٣١).

وكذا روى أبو داود وابن ماجه، عن جابر: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين[١].

وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف[٢] العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء، رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي[٣].

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعضب القرن والأذن، وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصف فأكثر[٤].

وقال بعض أهل اللغة: إن كسر قرنها الأعلى فهي قصماء، فأما العضب فهو كسر الأسفل، وعضب الأذن: قطع بعضها.

وعند الشافعي أن الأضحية بذلك مُجزئة لكن تكره.

وقال أحمد: لا تُجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث.

وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة من مؤخر أذنها، والشرقاء هي التي قطعت أذنها طولاً، قاله الشافعي، وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مدوراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البيّن مرضها، والعرجاء البين ظَلعَها، والكسيرة التي لا تنقى[٥]» رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي[٦].

وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث.

واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً على قولين.

وروى أبو داود، عن عتبة بن عبد السلمي: أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة والمستأصلة: والبخقاء والمشيعة والكسراء[٧]. فالمصفرة قيل: الهزيلة، وقيل: المستأصلة الأذن، والمستأصلة مكسورة القرن، والبخقاء هي العوراء، والمشيعة هي التي لا تزال تشيع

---

(١) سنن أبي داود، الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا (ح٣١٤٢)، ويشهد له سابقه.

(٢) أي: نبحث ونتأمل حالهما للتأكد من السلامة من العيوب.

(٣) المسند ١/ ٨٠، وسنن أبي داود، باب ما يكره من الضحايا (ح٢٨٠٤)، وسنن ابن ماجه، الأضاحي، باب ما يكره أن يضحىٰ به (ح٣١٤٣) مختصراً، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ح٢٥٤٤).

(٤) سنن الترمذي، الأضاحي، باب في الضحية بعضباء القرن والأُذن (ح١٥٠٤)، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أي: المنكسرة الرجل لا مخ لها لضعفها وهزالها.

(٦) المسند ٤/ ٢٨٤، وسنن أبي داود، الأضاحي، باب ما يكره من الضحايا (ح٢٨٠٢)، وسنن الترمذي، الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي (ح١٤٩٧)، وقال: حسن صحيح، وسنن النسائي، الأضاحي، باب العرجاء ٧/ ٢١٥، وسنن ابن ماجه، الأضاحي، باب ما يكره من الأضاحي (ح٣١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٥٤٥)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٤٦٧)، وقال الإمام أحمد: ما أحسنه من حديث (ينظر: خلاصة البدر المنير ٢/ ٣٧٩).

(٧) أخرجه أبو داود من طريق عتبة به (السنن، الأضاحي، باب ما يكره من الضحايا ح٢٨٠٣ وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود).

خلف الغنم ولا تتبع لضعفها، والكسراء العرجاء، فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء.

فأما إن طرأ العيب][(١)] بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة، وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد قال: اشتريت كبشاً أضحي به، فعدا الذئب فأخذ الألية، فسألت النبي ﷺ فقال: «ضحِّ به»[(٢)].

ولهذا جاء في الحديث: أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن[(٣)]؛ أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدى عمر نجيباً فأعطي بها ثلثمائة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أهديت نجيباً فأعطيت بها ثلثمائة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بدناً؟ قال: «لا، انحرها إياها»[(٤)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله[(٥)].

وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله[(٦)].

وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت[(٧)].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال مقسم، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم تسم بُدْناً[(٨)].

وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله[(٩)]، وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم[(١٠)].

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة. قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة[(١١)].

---

(١) استدرك من (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (المسند ١٧/ ٣٧٤ ح١١٢٧٤)، وضعف سنده محققوه لضعف جابر الجعفي.

(٣) تقدم تخريجه قبل أربع روايات.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (المسند ١٠/ ٤٠٣ ح٦٣٢٥)، وضعفه محققوه لجهالة رجل فيه اسمه: جهم بن الجارود.

(٥) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلق ابن عباس، ومعناه صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٤/ ٢٩٤)، والطبري بسند حسن من طريق داود بن أبي هند عن محمد بن أبي موسىٰ.

(٧) لم أجد تخريجه ومعناه صحيح.

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق محمد بن أبي ليلىٰ عن الحكم بن عتيبة عن مقسم به.

(٩) أخرجه سفيان الثوري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(١٠) قول عطاء أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حجاج عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(١١) صحيح البخاري، الحج، باب ركوب البُدن (ح١٦٩٠)، وصحيح مسلم، الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (ح١٣٢٣).

وفي رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها»[(١)] وقال شعبة: عن زهير بن أبي ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حَذف، عن علي: أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها[(٢)].

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريباً[(٣)]، ولله الحمد.

وقال ابن جريج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كلٌّ من طاف بالبيت فقد حلَّ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[(٤)].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل.

وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً[(٥)]. وقال عكرمة: ذبحاً[(٦)]. وقال زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها. وقوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمى وكَبَّر ووضع رجله على صفاحهما[(٧)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سلام بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعي، عن أبي داود ـ وهو [نفيع][(٨)] بن الحارث ـ، عن زيد بن أرقم قال: قلت ـ أو قالوا: ـ يا رسول الله ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قال: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»[(٩)]. وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه من حديث سلام بن مسكين به[(١٠)].

---

(١) صحيح مسلم، الباب السابق (ح١٣٢٤).

(٢) المغيرة بن حذف: لم أجد له ترجمة، ومتنه غريب في ذبح ولد البدنة.

(٣) آية ٢٩.

(٤) أخرجه مسلم بنحوه من طريق ابن جريج به (الصحيح، الحج، باب تقليد الهدي وإشعاره عند الإحرام ح١٢٤٥).

(٥) و(٦) عزاهما السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٧) صحيح البخاري، الأضاحي، باب من ذبح الأضاحي بيده (ح٥٥٥٨)، وصحيح مسلم، الأضاحي، باب استحباب الضحية (ح١٩٦٦).

(٨) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل صُحف إلى: «منيع».

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً (المسند ٣٢/ ٣٤ ح١٩٢٨٣).

(١٠) السنن، الأضاحي، باب ثواب الأضحية (ح٣١٢٧).

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، ولهذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

قال مجاهد: المطمئنين[1].

وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين[2].

وقال السدي: الوجلين[3]. وقال عمرو بن أوس: المخبتين الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا[4].

وقال الثوري: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين، الراضين بقضاء الله المستسلمين له[5].

وأحسن ما يفسر بما بعده، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت منه قلوبهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: من المصائب.

قال الحسن البصري: والله لنصبرنَّ أو لنهلكنَّ.

﴿والمقيمي الصلاة﴾ قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضاً، وقرأ ابن السميفع «والمقيمين الصلاة» بالنصب[6].

وقال الحسن البصري: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢] وإنما حذفت النون ههنا تخفيفاً، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، وقيل: على سبيل [التخفيف][7]، فنصبت؛ أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة براءة[8].

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى مُمتناً على عباده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها

---

(١) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه ابن أبي شيبة بسند ضعيف من طريق جويبر عنه (المصنف ١٣/٥٧٨).

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/٥٧٨)، والطبري بسند جيد من طريق عثمان بن عبد الله بن أوس عن عمرو بن أوس.

(٥) أخرجه البستي بسند صحيح من طريق ابن أبي عمر عن الثوري.

(٦) وهي قراءة شاذة.

(٧) في الأصل بياض واستدرك من (ح) و(حم).

(٨) آية ٦٣.

تهدى إلى بيته الحرام؛ بل هي أفضل ما يهدى إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ . . .﴾ الآية [المائدة: ٢]، قال ابن جريج: قال عطاء في قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ قال: البقرة والبعير[(١)]، وكذا روي عن ابن عمر[(٢)]، وسعيد بن المسيب[(٣)]، والحسن البصري[(٤)].

وقال مجاهد: وإنما البدن من الإبل[(٥)].

قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً، كما صحَّ الحديث.

ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[(٦)].

وقال إسحاق بن راهويه وغيره: بل تجزئ البقرة والبعير عن عشرة، وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما[(٧)]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: ثواب في الدار الآخرة، وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله من إهراق دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً» رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه[(٨)].

وقال سفيان الثوري: كان [أبو حازم][(٩)] يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول لكم: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «ما أُنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم

---

(١) أخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق ابن جريج به.

(٢) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر. (٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم بلفظ: «البدن من البقر».

(٥) أخرجه البُستي بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) صحيح مسلم، الحج، باب حجة النبي ﷺ (ح١٢١٨).

(٧) أخرجه الإمام أحمد (المسند ١/٢٧٥)، والنسائي (السنن، الضحايا، باب ما تجزي عنه البدنة في الضحايا ٧/٢٢٢) كلاهما من طريق حسين بن واقد عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فحضر النحر فذبحنا البقرة عن سبعة والبعير عن عشرة. قال البيهقي: حديث عكرمة يتفرد به الحسين بن واقد عن علباء بن أحمر، وحديث جابر أصح منه (ينظر: الإكمال للحسيني ١٩٥)، وحسين بن واقد ثقة لكن له أوهام (التقريب ص١٦٩).

(٨) أخرجه الترمذي (السنن، الأضاحي، باب ما جاء في فضل الأضحية ح١٤٩٣)، وابن ماجه (السنن، الأضاحي، باب ثواب الأضحية ح٣١٢٦) كلاهما من طريق أبي المثنى، وهو سليمان بن يزيد الكعبي، به، وسنده ضعيف لضعف سليمان بن يزيد (التقريب ٦٧٠).

(٩) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «أبو حاتم».

عيد» رواه الدارقطني في سننه[(١)].

قال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع[(٢)].

وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها[(٣)].

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: صلَّيت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللَّهم هذا عني وعمَّن لم يضحِّ من أمتي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي[(٤)].

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللَّهم منك ولك عن محمد وأمته»، ثم سمَّى الله وكبّر وذبح[(٥)].

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع: أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس، أتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه، فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: «اللَّهم هذا عن أمتي جميعها: من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً للمساكين [ويأكل][(٦)] هو وأهله منهما. رواه أحمد وابن ماجه[(٧)].

وقال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللَّهم منك ولك[(٨)]. وكذلك روي عن مجاهد وعلي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس

---

(١) أخرجه الدارقطني (السنن ٤/ ٢٨٢) في سنده إبراهيم بن يزيد، وهو الخوزي: متروك (تهذيب التهذيب ١/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر عن إبراهيم النخعي.

(٤) (المسند ٢٣/ ١٣٣، ١٣٤ ح١٤٨٣٧)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه أبو داود (السنن، الضحايا، باب في الشاة يضحىٰ بها عن الجماعة ح٢٨١٠)، والترمذي (السنن، الأضاحي، باب رقم ٢٢ ح١٥٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح٢٤٣٦).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٦٢.

(٦) في الأصل بياض، واستدرك من (ح) و(حم).

(٧) أخرجه الإمام أحمد من طريق شريك عن عبد الله بن محمد عن علي بن حسين به بنحوه، وقال محققوه: إسناده ضعيف لضعف شريك، وهو ابن عبد الله النخعي (المسند ٣٩/ ٢٨٥، ٢٨٦ ح٢٣٨٦٠)، وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ٤/ ٢١).

(٨) أخرجه الطبري والبيهقي (السنن الكبرىٰ ٥/ ٢٣٧)، كلاهما من طريق الأعمش به، ولكن الطبري من طريق جابر بن نوح عن الأعمش، وجابر بن نوح: ضعيف، كما في التقريب، ولكنه توبع في رواية البيهقي، فقد =

نحو هذا[١].

وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقلتْ رجلها اليسرى قامت على ثلاث[٢]، وروى ابن أبي نجيح عنه نحوه[٣].

وقال الضحاك: تعقل رجل واحدة فتكون على ثلاث[٤].

وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة، سنة أبي القاسم ﷺ[٥].

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها، رواه أبو داود[٦].

وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار: أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قف من شقها الأيمن، وانحر من شقها الأيسر[٧].

وفي صحيح مسلم عن جابر في صفة حجة الوداع قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة جعل يطعنها بحربة في يده[٨].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود «صوافن» أي: معقلة قياماً[٩].

وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد من قرأها «صوافن» قال: معقولة، ومن قرأها ﴿صَوَآفَّ﴾ قال: تصف بين يديها[١٠].

وقال طاوس والحسن وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافيَ» يعني: خالصة لله ﷻ[١١]، وكذا رواه مالك، عن الزهري.

= أخرجه من طريق وكيع عن الأعمش، وأخرجه البستي من طريق شعبة عن الأعمش به، وفيه متابعة شعبة لجابر بن نوح.

(١) قول مجاهد أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول ابن عباس أخرجه والطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، ومن طريق العوفي عنه، وطريق العوفي يتقوىٰ بسابقه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن من طريق ليث به (المصنف ٤/ ٨٢).

(٣) تقدم في الرواية قبل السابقة.

(٤) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عُبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب كيف تنحر الإبل مقيدة؟ (ح١٧٦٧)، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب نحر البُدن قياماً مقيدة (ح١٣٢٠).

(٦) السنن، المناسك، باب كيف تنحر الإبل؟ (ح١٧٦٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٥٥٣).

(٧) سنده حسن.

(٨) صحيح مسلم، الحج، باب حجة النبي ﷺ (ح١٢١٨).

(٩) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وإسناده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من ابن مسعود.

(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح عن سفيان به.

(١١) قول طاوس أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أيمن بن نابل عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن. والقراءة شاذة تفسيرية.

وقال عبد الرحمن بن زيد: صوافيَ ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم[١].

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض[٢]، وهو رواية عن ابن عباس[٣]، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال العوفي، عن ابن عباس: فإذا وجبت جنوبها؛ يعني: نحرت[٤]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ يعني: ماتت[٥]، وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها.

وقد جاء في حديث مرفوع: «لا تعجلوا النفوس أن تزهق»[٦]. وقد رواه الثوري في جامعه عن أيوب، عن يحيى بن أبي كثير، عن قرافصة الحنفي، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك[٧]، ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[٨].

وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه[٩].

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة. وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره: يجب، وهو وجه لبعض الشافعية.

واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر؛ فقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿الْقَانِعَ﴾: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل[١٠]، وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي[١١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف، والمعتر: السائل[١٢]، وهذا قول

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بنحوه.
(٢) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.
(٣) عزاه الحافظ ابن حجر إلىٰ ابن أبي حاتم من طريق مِقسم عن ابن عباس (فتح الباري ٣/ ٥٣٧).
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بسابقه.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.
(٦) أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً بسند فيه سعيد بن سلام العطار (السنن ٤/ ٢٨٣)، وسنده ضعيف لضعف سعيد، والوقف أشبه كما يلي.
(٧) أخرجه البيهقي من طريق الثوري به (السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٧٨)، ويشهد له ما يلي.
(٨) صحيح مسلم، الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل (ح١٩٥٥).
(٩) (المسند ٣٦/ ٢٣٣ ح٢١٩٠٣)، وحسنه محققوه، وسنن أبي داود، الصيد، باب في صيد قطع فيه قطعة (ح٢٨٥٨)، وسنن الترمذي، الأطعمة، باب ما قطع من الحي فهو ميت (ح١٤٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٤٨٥).
(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بما يليه.
(١١) قول مجاهد أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن ابن أبي نجيح عنه، وقول القرظي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي صخر عنه.
(١٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه[١]. وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم وابن الكلبي والحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: هو الذي يقنع إليك ويسألك، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك، وهذا لفظ الحسن[٢].

وقال سعيد بن جبير: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: هو السائل، قال: أما سمعت قول الشماخ[٣]:

لمالُ المرءِ يصلحه فيُغني مفاقِره أعفُّ من القنوع[٤]

قال: يغني من السؤال، وبه قال ابن زيد[٥].

وقال زيد بن أسلم: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: المسكين الذي يطوف، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الصديق والضعيف الذي يزور[٦]، وهو رواية عن ابنه [عبد الرحمن بن زيد][٧] أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الذي يعتريك من الناس[٨]، وعنه: أن ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ هو الطامع، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: هو الذي يعتر بالبدن من غني أو فقير[٩]، وعن عكرمة نحوه[١٠]، وعنه: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ أهل مكة[١١].

واختار ابن جرير: أن ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: من الاعتراء، وهو الذي يتعرض لأكل اللحم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»[١٢]. وفي رواية: «فكلوا وادخروا

---

(١) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول مجاهد وإبراهيم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عنهما.

(٢) قول ابن عباس عزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الله بن عياش عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق يونس عنه.

(٣) ديوان الشماخ ص٢٢١.

(٤) أخرجه الطبري بسند فيه شريك عن فرات القزاز عن سعيد بن جبير، وأخرجه الثوري وابن أبي شيبة (المصنف ١٠/ ٤٧٥)، من طريق شريك به دون الاستشهاد بالشعر.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه بمعناه.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي هلال عن زيد بن أسلم، وابن أبي هلال هو سعيد الليثي فيه مقال (ينظر: التقريب ص٢٤٢).

(٧) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف: «عبد الله بن زيد».

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ليث، وهو ابن أبي سليم وفيه مقال، عن مجاهد.

(٩) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق فيه الحسين، وهو ابن داود ضعيف.

(١١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(١٢) أخرجه مسلم من حديث بريدة ﷺ (الصحيح، الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه ح٩٧٧).

وتصدقوا»[١]. وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»[٢].

والقول الثاني: أن المضحِّي يأكل النصف ويتصدق بالنصف؛ لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله في الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا» فإن أكل الكل، فقيل: لا يضمن شيئاً، وبه قال ابن سريج من الشافعية.

وقال بعضهم: يضمنها كلَّها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها، وهو المشهور من مذهب الشافعي. وأما الجلود ففي مسند أحمد، عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها»[٣].

ومن العلماء من رخَّص في بيعها، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

(مسألة): عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس هو من النسك في شيء» أخرجاه[٤]، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم: «وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام»[٥].

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع بالذبح إلا يوم النحر وحده.

وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير.

وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع.

وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد.

وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق كلها ذبح» رواه أحمد وابن حبان[٦].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵂ (الصحيح، الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي.. ح١٩٧١) وينظر: تحفة الأشراف (١٢/٤٠٩ ـ ٤١٠ ح١٧٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري عن سلمة بن الأكوع بلفظ: «كلوا وأطعموا وادخروا»، (صحيح البخاري، الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي ح٥٥٦٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد وضعف سنده محققوه (المسند ٢٦/١٤٧، ١٤٨ ح١٦٢١٠).

(٤) صحيح البخاري، الأضاحي، باب سنة الأضحية (ح٥٥٤٥)، وصحيح مسلم، الأضاحي، باب وقتها (ح١٩٦١/٧).

(٥) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﵁ بلفظ: «فأمر النبي ﷺ من كان نحر قبله أن يعيد بنحر آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبي ﷺ» (ح١٩٦٤).

(٦) أخرجه الإمام أحمد، وقال محققوه: حديث صحيح لغيره (المسند ٢٧/٣١٦ ح١٦٧٥١)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ح٣٨٥٤)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد وغيره ثقات (مجمع الزوائد ٤/٢٨).

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة، وبه قال إبراهيم النخعي وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وهو قول غريب.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ يقول تعالى من أجل هذا ﴿سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ أي ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جُريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾[1] أي: يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وجاء في الحديث: «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم في الحديث، رواه ابن ماجه والترمذي، وحسنه عن عائشة مرفوعاً[3]، فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم.

وقال وكيع، [عن يحيى بن مسلم أبي الضحاك][4]: سألت عامراً الشعبي، عن جلود الأضاحي، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق[5].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ﴾ أي: من أجل ذلك سخر لكم البُدن ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

---

(١) سنده معضل؛ لأن ابن جُريج تابع تابعي.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة في آخر الآية ٢٧٥.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ١٠٤.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «عن ابن مسلم بن الضحاك».

(٥) سنده جيد.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه ﷺ.

(مسألة): وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من مَلَكَ نصاباً، وزاد أبو حنيفة: اشتراط الإقامة أيضاً، واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعاً: «من وجد سَعة فلم يضحِّ، فلا يقربنَّ مصلانا»[(١)] على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل، وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي، رواه الترمذي[(٢)].

وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأُضحية؛ بل هي مستحبة لما جاء في الحديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة»[(٣)]، وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته، فأسقط ذلك وجوبها عنهم. وقال أبو سريحة: كنت جاراً لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما.

وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت، سقطت عن الباقين؛ لأن المقصود إظهار الشعار.

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي عن مِحنف بن سُليم: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعتيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هي التي تدعونها: الرجبية[(٤)]»[(٥)]، وقد تُكلم في إسناده. وقال [أبو][(٦)] أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس، فصار كما ترى. رواه الترمذي وصححه وابن ماجه[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (السنن، الأضاحي، باب الأضاحي واجبة هي أم لا؟ ح٣١٢٣)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٣٨٩) كلاهما من طريق زيد بن الحباب عن عبد الله بن عياش عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الله بن عياش به، وضعفه محققوه (المسند ١٤/ ٢٤ ح٨٢٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٥٣٢)، وقد ذكر بعض النقاد أنه موقوف (ينظر: نصب الراية ٤/ ٢٠٧) وقال الطحاوي: الموقوف أشبه بالصواب (ينظر: فتح الباري ١٠/ ٣)، وهو الصواب.

(٢) السنن، الأضاحي، باب الدليل على أن الأضحية سنة (ح١٥٠٧)، وحسنه الترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث فاطمة بنت قيس ﵄ (السنن، الزكاة، باب ما أدىٰ زكاته ليس بكنز ح١٧٨٩)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه.

(٤) الرجبية: نسبة إلىٰ رجب، وهي ذبيحة كان أهل الجاهلية يذبحونها في رجب (ينظر: مشكل الآثار ٣/ ٨٢، ٨٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد وقال محققوه: حسن لغيره (المسند ٢٩/ ٤١٩ ح١٧٨٨٩)، وأخرجه أبو داود، السنن، الضحايا، باب ما جاء في إيجاب الأضاحي (ح٢٧٨٨)، والترمذي (السنن، الأضاحي، باب العتيرة ح١٥١٨)، والنسائي (السنن، الضحايا، باب الفرع والعتيرة ٧/ ١٦٧)، وابن ماجه (السنن، الأضاحي، باب الأضاحي واجبة هي أم لا؟ ح٣١٢٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٥٣٣).

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «ابن».

(٧) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (السنن، الأضاحي، باب ما جاء أن الشاة الواحدة تجزي عن أهل =

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله، رواه البخاري.

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مسنة، إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن»[1]، ومن ههنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزئ، وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزئ من كل جنس، وهما غريبان.

والذي عليه الجمهور إنما يجزئ الثني من الإبل والبقر والمعز، أو الجذع من الضأن، فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة، ومن البقر ما له سنتان ودخل في الثالثة.

وقيل: ما له ثلاث ودخل في الرابعة، ومن المعز ما له سنتان.

وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سنه، وما دونه فهو حمل، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انفرق صدغين[2]، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال، والكفر الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة[3].

وقاله مجاهد والضحاك[4]، وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد[5]، واستدل بهذا الآية بعضهم على أن السورة مدنية.

= بيت ح١٥٠٥)، وأخرجه ابن ماجه، السنن، الأضاحي، باب من ضحىٰ بشاة عن أهله (ح٣١٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٥٤٦).

(١) صحيح مسلم، الأضاحي، باب سن الأضحية (ح١٩٦٣).

(٢) أي: الذي أتىٰ له من وقت الولادة سبعة أيام (ينظر: النهاية ٣/ ١٧).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي ويتقوىٰ برواية ابن عباس التالية.

(٤) قول مجاهد أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وكلاهما يقوي أحدهما الآخر، ولهما شاهد في الرواية التالية عن ابن عباس.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم ـ هو: البطين ـ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال[1].

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق به، وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف، زاد الترمذي ووكيع كلاهما عن سفيان الثوري به. وقال الترمذي: حديث حسن، وقد رواه غير واحد عن الثوري، وليس فيه ابن عباس[2].

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [التوبة] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد]، والآيات في هذا كثيرة.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فعل[3]، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمين وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي؛ يعنون أهل منى، ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر بهذا»[4]، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهمُّوا بقتله، وشرَّدوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن كما يلي.

(٢) المسند ١/٢١٦، وسنن الترمذي، التفسير، باب سورة الحج (ح٣١٧١)، وسنن النسائي، الجهاد، باب وجوب الجهاد ٦/٢، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وأحمد شاكر في تعليقه على المسند (ح١٨٦٥)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١١/٨ ح٤٧١٠)، والحاكم كلاهما من طريق إسحاق بن يوسف الأزرق به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٦٦).

(٣) هذا الأثر تتمة لرواية العوفي عن ابن عباس المتقدمة في بداية تفسير هذه الآية.

(٤) أخرجه الإمام أحمد مطولاً من حديث كعب بن مالك ﵁، وقال محققوه: حديث قوي، وهذا إسناد حسن (المسند ٢٥/٨٩ ـ ٩٥ ح١٥٧٩٨).

إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمداً وأصحابه[1].

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا إنهم وحّدوا الله وعبدوه لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر؛ وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج]، ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون:

اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بَغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا[2]

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا:

إذا أرادوا فتنة أبينا

يقول: «أبينا» يمد بها صوته[3].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكفُّ شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله [ابن عباس][4] ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم[5].

وقال قتادة: هي معابد الصابئين[6]، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق.

---

(١) الأثر تتمه لما قبل الحديث السابق.
(٢) هذه الأبيات رواها مسلم عن عامر بن الأكوع ﷺ في غزوة خيبر (الصحيح، الجهاد والسير، باب غزوة خيبر ح١٨٠٣).
(٣) أخرجه البخاري من حديث البراء ﷺ (الصحيح، المغازي، باب غزوة الخندق ح٤١٠٤).
(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.
(٥) قول ابن عباس عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم، وقول مجاهد، أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول أبي العالية وهو رُفيع، أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.
(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

﴿وَبِيَعٌ﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخُصيف[(١)] وغيرهم.

وحكى ابن جرير، عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود، وحكى السدي عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس[(٢)]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس[(٣)]، وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صلوتاً[(٤)].

وحكى السدي عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى[(٥)].

وقال أبو العالية وغيره: الصلوات: معابد الصابئين[(٦)].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق[(٧)]، وأما المساجد فهي للمسلمين.

وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً[(٨)].

وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب.

وقال بعض العلماء: هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عماراً وأكثر عباداً، وهم [ذوو القصد][(٩)] الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ [محمد].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب؛ بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي

---

(١) قول أبي العالية وقتادة والضحاك تخريجه كقبل سابقه.

(٢) قول مجاهد أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول ابن عباس ضعيف؛ لأن الراوي عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بما يليه.

(٤) قول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) سنده ضعيف؛ لأن السدي يرويه عن مجهول.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود عن رفيع وهو أبو العالية.

(٧) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٩) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «دور الفصل».

العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع [الزهراني][(١)]، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا: ربنا الله، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي[(٢)].

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ[(٣)].

وقال الصباح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها علانيتها[(٤)].

وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا[(٥)].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «المرهداني».
(٢) سنده ضعيف؛ لأن محمد ـ وهو ابن سيرين ـ لم يسمع من عثمان ﷺ، ومعناه صحيح.
(٣) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.
(٤) معناه صحيح، وله شواهد من القرآن والسنة.
(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟! وذكر بعض السلف: أنه كان بين قول فرعون لقومه: أنا ربكم الأعلى، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود][1].

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتها؟ ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مكذبة لرسلها ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

قال الضحاك: سقوفها[2]؛ أي: قد خربت وتعطلت حواضرها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: لا يستقى منها، ولا يردها أحد بعد كثرة ورديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال عكرمة: يعني المبيض بالجص[3]، وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك[4]. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع[5]. وقال آخرون: المشيد: المنيع الحصين[6]، وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كافٍ كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن: يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِح في الأرض، ثم اطلب الآثار والعبر، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا[7].

وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحيِّ قلبك بالمواعظ، ونوّره بالتفكر، وموّته بالزهد، وقوّه باليقين، وذلّله بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر

---

(١) الحديث تقدم تخريجه في تفسيرها.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك، ومعناه صحيح.

(٣) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) قول مجاهد أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه وقول عطاء أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن جريج عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق هلال بن خباب عنه.

(٥) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٧) سنده مرسل.

وفحش تقلب الأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسيره في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا وأين حلُّوا وعمَّ انقلبوا؛ أي: فانظروا ما حلَّ بالأمم المكذبة من النقم والنكال.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر، وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسي الشنتريني، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

يا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد ... نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترى ... في رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك ... الأعلى ولا النّيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرها ... فراقها الثاويان البدو والحضر

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه. قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاءه عمرو بن عُبيد فقال: يا أبا عمرو، هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً، وعن الإيعاد كرماً، أما سمعت قول الشاعر[1]:

ليرهب ابن العم والجار سطوتي ... ولا أنثني عن سطوة المتهدد
فإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملى، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل

---

(١) هو عامر بن الطفيل، وهذا الشعر في ديوانه ص٥٨.

فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام»، ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري، عن محمد بن عمرو به، وقال الترمذي: حسن صحيح[١]. وقد رواه ابن جرير، عن أبي هريرة موقوفاً فقال: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن سمير بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال: أو ما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢].

وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شريح بن عبيد، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السمٰوات والأرض[٤]. ورواه ابن جرير[٥]، عن ابن بشار، عن ابن مهدي، وبه قال مجاهد وعكرمة[٦]، ونصَّ عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية.

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة][٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم محمد بن الفضل، حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عتيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. فقد مضت الستة الأيام وأنتم في اليوم السابع، فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها ففي أية لحظة ولدت كان تماماً[٨].

---

(١) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في فضل الفقر (ح٢٣٥٤)، والسنن الكبرىٰ للنسائي (ح١١٣٤٨)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه في سننه، الزهد، باب منزله الفقراء (ح٤١٢٢)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٩٦).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الإمام أحمد من طريق شعبة عن سعيد الجريري به، وصححه محققوه بالشواهد (المسند ١٦/ ٤٢٥ ح١٠٧٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الملاحم، باب قيام الساعة ح٤٣٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٦٥٦).

(٤) سنده حسن.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٦) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن جريج لم يسمع من مجاهد، ويشهد له سابقه.

(٧) أخرجه الطبري كسابقه. (٨) سنده مرسل.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم.

قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة[(١)].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ[(٢)]، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين[(٣)].

وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين[(٤)].

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾ [النحل].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)﴾ [النجم] قال: فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتجى، قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فأنزل الله ﷻ هذه الآية

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، ومعناه صحيح.

(٢) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، ويشهد له سابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن عباس بلفظ: مشاقين وفي سنده عثمان بن عطاء وهو ضعيف.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾[١].

رواه ابن جرير، عن بُندار، عن غُندر، عن شعبة به بنحوه[٢]، وهو مرسل، وقد رواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد، عن أُمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث: أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة النجم حتى انتهى إلى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾... وذكر بقيته، ثم قال البزار: لا نعلمه يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أُمية بن خالد، وهو ثقة مشهور[٣]، وإنما يُروى هذا من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، ثم رواه ابن أبي حاتم، عن أبي العالية، وعن السدي مرسلاً، وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس مرسلاً أيضاً[٤].

وقال قتادة: كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نعس، فألقى الشيطان على لسانه وإن شفاعتها لترتجي، وإنها لمع الغرانيق العلى، فحفظها المشركون وأجرى الشيطان أن النبي ﷺ قد قرأها، فزلت بها ألسنتهم، فأنزل الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ الآية، فدحر الله الشيطان[٥].

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم، فكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾

---

(١) أخرجه البُستي من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به، وسنده مرسل، ويتقوىٰ بالروايات التالية، والمراد بقوله: «فألقىٰ الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العُلى وأن شفاعتهن ترتجىٰ» أي: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ. وهذا ما قرره الإمام البغوي والقاضي عياض كما سيأتي، وعبر الحافظ ابن كثير: أن هذا القول من ألطفها؛ أي من ألطف الأقوال التي قيلت في هذه القصة، وإلىٰ هذا القول ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٥/ ١٩١)، وذكر الحافظ ابن حجر أن للقصة أصلاً (فتح الباري ٨/ ٤٣٩)، وعليه فإن هذه القصة حقيقية، ولا تؤثر علىٰ الوحي؛ لأن المؤمنين لم يسمعوا بذلك، وإنما سمع ذلك المشركون الذين يوسوس فيهم الشيطان فذلك من تلك الوسوسة التي تأثر بها المشركون ولم يتأثر بها المؤمنون.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ويتقوىٰ بما يليه.

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٢٦٣)، وسنده حسن، وأخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مختصراً، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ١١٥)، وأخرجه الضياء المقدسي (المحتارة ١٠/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه الطبري بأسانيد مرسلة عن محمد بن كعب وأبي العالية وسعيد بن جبير والزهري، وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً وتتقوىٰ برواية ابن عباس ﷺ، وصححه السيوطي في الدر المنثور، وأما طريق الكلبي فضعيف وقد عزاه السيوطي إلىٰ ابن مردويه.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وهو مرسل يتقوىٰ بما سبق، وذكره البغوي (معالم التنزيل ٣/ ٢٩٤).

ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: وإنهن لهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجي، وكان ذلك من [سجع] الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع على كفه تراباً فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الآية الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين، فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أُمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم، ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلَّوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة، فأقبلوا سراعاً، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من الفرية، وقال الله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ فلما بيّن الله قضاءه، وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم[١]، وهذا أيضاً مرسل.

وفي تفسير ابن جرير، عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه[٢]، وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة»، فلم يجز به موسى بن عقبة ساقه من مغازيه بنحوه، قال: وقد روينا عن أبي إسحاق هذه القصة.

(قلت): وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات[٣]، والله أعلم.

وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل ههنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر؛ بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ[٤]، والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته.

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وسنده مرسل يتقوىٰ بما سق.
(٢) أخرجه الطبري من طريق الزهري به مختصراً. (٣) لكنها تتقوىٰ بما سبق.
(٤) معالم التنزيل ٣/٢٩٣، ٢٩٤.

وقد تعرّض القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الشفاء لهذا[(١)]، وأجاب بما حاصله أنها كذلك لثبوتها.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؛ أي لا يهيدنك ذلك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[(٢)]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه[(٣)]. وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: إذا قال[(٤)]، ويقال: أمنيته قراءته «إلا أماني» يقولون ولا يكتبون.

قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا وقرأ كتاب الله ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر[(٥)]

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إذا تلا[(٦)]. قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فيبطل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما ألقى الشيطان[(٧)].

وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته[(٨)].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق؛ كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان.

قال ابن جريج: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون[(٩)].

وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد؛ أي من الحق والصواب، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن

---

(١) الشفا ٢/ ٧٥٠.
(٢) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم (الصحيح، تفسير سورة الحج باب ٢٢)، وقال الحافظ ابن حجر: وصله الطبري من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس مقطعاً (فتح الباري ٨/ ٤٣٨).
(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٤) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) معالم التنزيل ٣/ ٢٩٣.
(٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٨) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف مقطعاً، وفيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به وغيره بل هو كتاب حكيم ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: إنهم لا يزالون في مرية[1]؛ أي في شك من هذا القرآن، قاله ابن جريج واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير وابن زيد ﴿مِّنْهُ﴾[2]؛ أي مما ألقى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قال مجاهد: فجأة.

وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾ بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال مجاهد: قال أُبي بن كعب: هو يوم بدر[3]، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير[4]. قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما: هو يوم القيامة، لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري[5]، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ [الفرقان].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزوال ولا يبيد.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن أبي وحشية عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق قتادة عن أُبي، وسنده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من أُبي، وأخرجه الضياء المقدسي عن ابن عباس (المختارة ١٠/٨٩، ٩٠).

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري من طريقين يقوي أحدهما الآخر، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مجهول عن الضحاك.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفرت قلوبهم بالحق وجحدوا به، وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلّان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾؛ أي في الجهاد، ﴿أَوْ مَاتُوا﴾؛ أي حتف أنفهم؛ أي من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ أي: الجنة كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال ههنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه.

فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران] والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا المسيب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن ابن الحارث ـ يعني: عبد الكريم ـ، عن ابن عقبة ـ يعني: أبا عبيدة بن عقبة ـ قال: قال حدثنا شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمرَّ بي سلمان ـ يعني: الفارسي ﷺ ـ، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأَمِن من الفتّانين، واقرأوا إن شئتم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾»[1].

---

(١) أخرجه مسلم من طريق عبد الرحمن بن شريح به بدون ذكر الآية، ومن طريق مكحول عن شرحبيل بن السمط به، بلفظ: وأَمِنَ الفتَّان، وبدون ذكر الآية (الصحيح، الإمارة، باب فضل الرباط) (ح١٩١٣).

وقال أيضاً: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرني همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان: كنا برودس[١]، ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، فمر بجنازتين إحداهما قتيل، والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت؟ اسمعوا كتاب الله ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ حتى بلغ آخر الآية[٢].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبيدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لهيعة، [حدثنا][٣] سلامان بن عامر الشيباني أن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني، حدثه أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين أحدهما أصيب بمنجنيق، والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا...﴾ الآيتين، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه، ورزقت رزقاً حسناً؟ والله أما أبالي من أي حفرتيهما بعثت.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن بن شريح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرباع، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتيل والآخر متوفى... فذكر نحو ما تقدم[٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ...﴾ الآية، ذكر مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[٥].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

(١) رودس: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط شمال الإسكندرية، غزاها المسلمون زمن معاوية رضي الله عنه (معجم البلدان ٢/ ١٣٢).
(٢) أخرجه الطبري من طريق سلامان بن عامر عن فضالة بنحوه، وكذا أخرجه ابن أبي حاتم، كما سيأتي بالرواية التالية، وهذان الطريقان يقوي أحدهما الآخر.
(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «سقط».
(٤) تقدم تخريجه في سابقه.
(٥) قول مقاتل بن حيان عزاه السيوطي في الدر المنثور ولباب النقول إلى ابن أبي حاتم، وسنده معضل؛ لأن مقاتل بن حيان تابع تابعي، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، وابن جريج أيضاً تابع تابعي.

ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران]، ومعنى: إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ولما بيّن أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه ﷻ عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء فحلة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء ههنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل شيئين أربعين يوماً[1]، ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا ههنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: خضراء بعد يباسها ومحولها. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، ولا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان]، وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) تقدم تخريجه في تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ...﴾ الآية [يونس: ٦١]، ولهذا قال أُمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته:

وقولا له من ينبت الحب في الثرى؟ فيصبح منه البقل يهتز رابياً
ويخرج منه حبة في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعياً[1]

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: من حيوان وجماد وزروع وثمار، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣] أي: من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بتسخيره وتسييره؛ أي في البحر العجاج وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ كقوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]. وقوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ أي: جحود.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، قال ابن جرير: يعني لكل أمة نبي منسكاً، قال: وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر، قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتراداد الناس[2] إليها وعكوفهم عليها، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أي: هؤلاء

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٢٨. (٢) ذكره الطبري بنحوه.

المشركين، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكاً جعلاً قدرياً كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، ولهذا قال ههنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق؛ أي هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾؛ كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد؛ كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]، ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السمٰوات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(١)].

وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا ابن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب، فقال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم، القدر، باب حِجاج آدم وموسىٰ (ح٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود، السنن، السنة، باب القدر (ح٤٧٠٠)، والترمذي، تفسير القرآن، باب سورة الحج، (ح٣٣١٩) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٩٣٣).

(٣) سنده حسن بالشواهد المتقدمة.

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدّرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون]، ولهذا قال ههنا: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقّوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوّل لهم الشيطان وزيّنه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿قُلۡ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي

هريرة رفع الحديث قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة»[١]. وأخرجه صاحبا الصحيح من طريق عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة؛ فليخلقوا شعيرة»[٢].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد؛ بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب[٣]، واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم[٤].

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاته﴾ [الأنعام: ١٢٤][٥].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ أي: يعلم ما يفعل رسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ . . .﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣٩١) وسنده حسن، ويشهد له ما يليه.

(٢) صحيح البخاري، اللباس، باب نقض الصور (ح٥٩٥٣)، وصحيح مسلم، اللباس والزينة، باب تحريم الصور (ح٢١١١).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٥) كذا بقراءة «رسالاته» وهي قراءة متواترة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

اختلف الأئمة ـ رحمهم الله ـ في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها، أم لا؟ على قولين، وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ: «فضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[1].

وقوله: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصَّكم بأكرم رسول وأكمل شرع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث[2]، وتصلى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»[3].

وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن «بشّرا ولا تنفّرا ويسّرا ولا تعسّرا»[4]، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق[5].

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق؛ بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: ألزموا ملة أبيكم إبراهيم[6].

(قلت): وهذا المعني في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ...﴾ الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا﴾ وفي هذا قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال: الله ﷻ[7]،

---

(١) تقدم تخريجه في الآية ١٨ من هذه السورة.
(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ١٠٢.
(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٨٥.
(٤) تقدم تخريجه كسابقه.
(٥) أخرجه الطبري بثلاثة أسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٦) ذكره الطبري بنحوه.
(٧) سنده صحيح، لأن عطاء هو ابن أبي رباح، كما صرح الطبري إذ أخرجه من طريق ابن جريج عن عطاء ابن أبي رباح به، وأخرجه الطبري أيضاً بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: إبراهيم، وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨](٢)، قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾(٣)، قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر(٤)، ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ يعني: القرآن، وكذا قال غيره.

(قلت): وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بأنه مِلَّة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر مِنِّتَه تعالى على هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِى هَٰذَا﴾.

وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره، قال: أخبرني الحارث الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم» قال رجل: يا رسول الله ﷺ وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى» فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»، وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ من سورة البقرة(٥)، ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذٍ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته(٦).

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة

---

(١) قول مجاهد أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف لم يصرح الطبري باسم شيخه، ويشهد له ما سبق.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٣) ذكره الطبري بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «القرآن»، وأخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد بلفظه، وابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٥) تقدم تخريجه في سورة البقرة آية ٢١.

(٦) تقدم تخريجه في الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة[١].

وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ يعني: نِعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.

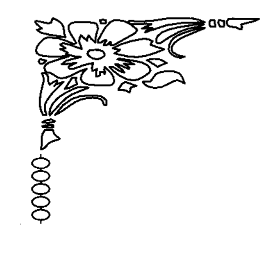
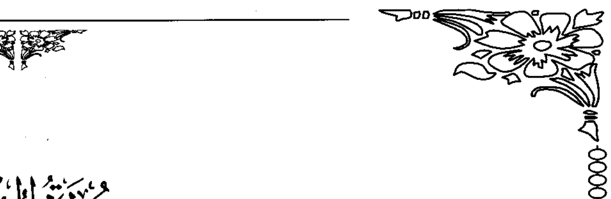
قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم اذكرني إذا غضبت، أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم، والله أعلم[٢].

آخر تفسير سورة الحج، ولله الحمد والمنّة، والثناء الحسن، وأسأله التوفيق والعصمة في سائر الأفعال والأقوال، وصلى الله على سيدنا محمد وسلّم.

---

(١) في الآية رقم ٦٠.

(٢) سنده معضل.

سُورَةُ المُؤمِنُونَ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سُليم قال: أملىٰ عليَّ يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري؟ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه، وقال: «اللَّهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزل عليَّ عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ حتى ختم العشر[1]. وكذا رواه الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به، وقال الترمذي: منكر لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه[2].

وقال النسائي في تفسيره: أنبأنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران، عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ حتى انتهت إلى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ[3].

---

(١) أخرجه الإمام بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١ ح٢٢٣) لجهالة يونس بن سُليم، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الرزاق به، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا فقال: أظنه لا شيء (المستدرك ٢/ ٣٩٢).

(٢) سنن الترمذي، التفسير، سورة المؤمنون (ح٣٧٢١)، والسنن الكبرى للنسائي، الوتر، باب رفع اليدين في الدعاء (ح١٤٣٩).

(٣) أخرجه النسائي بسنده ومتنه (السنن الكبرى، التفسير ح١١٣٥٠)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح٣٠٨)، وقال الألباني: صحيح لغيره (صحيح الأدب المفرد ح٢٣٤)، وأخرجه البستي والحاكم كلاهما من طريق قتيبة بن سعيد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٢).

وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم: لمّا خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ قال كعب الأحبار: لما أعد لهم من الكرامة فيها[١]. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه[٢].

وقد روي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وهيب، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها وقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فدخلتها الملائكة، فقالت: طوبى لك منزل الملوك[٣].

ثم قال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله [العمري][٤]، حدثنا عدي بن الفضل، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك ـ قال البزار: ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث ـ حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك» ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل وليس هو بالحافظ[٥]. وهو شيخ متقدم الموت.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾» بقية عن الحجازيين ضعيف[٦].

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا حماد بن عيسى العبسي، عن إسماعيل السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس يرفعه: «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودلى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ قال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»[٧].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البزار، حدثنا محمد بن زياد الكلبي،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند رجاله ثقات عن كعب، لكنه مرسل ويتقوىٰ بما يليه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وهو مرسل أيضاً ويتقوىٰ بما يليه.

(٢) أخرجه الطبري وهو أيضاً مرسل ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق حماد بن سلمة عن الجريري به (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٤٨٠ ح٢٢٥٣)، قال الهيثمي: ورجال الموقوف رجال الصحيح، وأبو سعيد لا يقول هذا إلا بتوقيف (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٧).

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «العبير».

(٥) أخرجه البزار بسنده ومتنه وتعليقه (المصدر السابق ح٢٢٥٤)، وسنده ضعيف؛ لأن عدي بن الفضل متروك الحديث، كما قال ابن معين وأبي حاتم، نقله الذهبي في ميزان الاعتدال.

(٦) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١١/ ١٨٤ ح١١٤٣٩)، وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٧) أخرجه الطبراني (المعجم الأوسط ٥/ ٣٤٩ ح٥٥١٨)، وسنده ضعيف لضعف أبي صالح، وهو باذام مولى أُم هانئ.

حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده: لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء؛ ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي، قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١] [الحشر: ٩].

فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾ خائفون: ساكنون[٢]، وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري[٣].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ: الخشوع خشوع القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي[٤].

وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح[٥].

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مصلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[٦]. ثم روى ابن جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذٍ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبب إليّ: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومتنه (صفة الجنة ح٢٠)، وسنده ضعيف لضعف محمد بن زياد الكلبي كما في ميزان الاعتدال، وأخرجه الحاكم وصححه، وضعفه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) قول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عنه.

(٤) قول علي ﷺ أخرجه عبد الله بن المبارك (الزهد برقم ١١٤٨)، والطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عنه، وأخرجه الحاكم من طريق صرح باسم الرجل المبهم، وهو عبيد الله بن أبي رافع عن علي ﷺ وصححه، ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٣)، وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، ويشهد له سابقه.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن شوذ، وهو عبد الله، عن الحسن البصري.

(٦) أخرجه البستي والطبري بسند رجاله ثقات عن محمد بن سيرين، لكنه مرسل.

(٧) (المسند ١٩/ ٣٠٥ ح١٢٢٩٣)، وحسنه محققوه، وسنن النسائي ٧/ ٦١.

عن رجل من أسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[(١)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد؛ أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار، فحضرت الصلاة، فقال: يا جارية ائتني بوضوء لعلي أصلي فأستريح، فرآنا أنكرنا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»[(٢)].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا: زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت] على أحد القولين في تفسيرهما، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة: أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت: تأوّلت آية من كتاب الله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فأُتي بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ: تأوّلت آية من كتاب الله عز وجل على غير

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: رجاله ثقات (المسند ٣٨/١٧٨، ١٧٩ ح٢٣٠٨٨)، ولم يجزموا بصحته، وقد أخرجه أبو داود من طريق مسعر به (السنن، الأدب، باب في صلاة العتمة ح٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤١٧١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه كقولهم في سابقه، وأخرجه أبو داود من طريق إسرائيل به (المصدر السابق ح٤٩٨٦)، وصححه أيضاً الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤١٧٢).

وجهها، قال: فغرَّب العبد وجزَّ رأسه، وقال: أنتِ بعده حرام على كل مسلم[١]. هذا أثر غريب منقطع، ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة، وهو ههنا أليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝﴾، وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجزري، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين، ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا، ومن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره» هذا حديث غريب، وإسناده فيه مَن لا يعرف لجهالته[٢]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝﴾ أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا؛ بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذي قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾ أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». أخرجاه في الصحيحين[٤]. وفي مستدرك الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها»[٥].

وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾: يعني في مواقيت الصلاة[٦]، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة[٧].

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها[٨].

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة فدلَّ على أفضليتها كما

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه في سورة المائدة آية (٥) ٩/٥٨٦ رقم ١١٢٧٧، وسنده ضعيف بسبب الانقطاع الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير، وذلك أن قتادة لم يسمع من عمر رضي الله عنه.

(٢) وهو مسلمة بن جعفر وحسان بن حميد، كما صرح الذهبي في ميزان الاعتدال، فسنده ضعيف.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٧٧.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٨٣.

(٥) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/١٨٨).

(٦) قول ابن مسعود عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وقول مسروق أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي الضحىٰ، وهو مسلم بن صُبيح، عن ابن مسعود.

(٧) قول أبي الضحىٰ أخرجه الطبري بسند صحيح عن الأعمش عنه.

(٨) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[١].

ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾.

وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾»[٣].

وقال ابن جريج، عن ليث، عن مجاهد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ويبني بيته الذي في النار[٤]. وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك[٥]، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ؛ بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بُردة عن أبي موسى عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى»[٦].

وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فكاكك من النار» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال: فحلف له[٧].

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣﴾ [مريم]، وكقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف]، وقد قال مجاهد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث ثوبان ﷺ، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، (المسند ٣٧/ ٦٠ ح٢٢٣٧٨).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ١٣٣.

(٣) سنده صحيح، وأخرجه ابن ماجه من طريق أحمد بن سنان به (السنن، الزهد، باب صفة الجنة ح٤٣٤١)، وصححه البوصيري والحافظ ابن حجر (فتح الباري ١١/ ٤٤٢)، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه في آخر حديث من السنن.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به ويشهد له سابقه.

(٥) يشهد له حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم (الصحيح، التوبة، باب قبول توبة القاتل ح٢٧٦٧/ ٤٩).

(٧) المصدر السابق (٢٧٦٧/ ٥٠).

وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس[١].

وقال بعض السلف: لا يسمى البستان: الفردوس، إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإٍ مسنون.

وقال الأعمش: عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: من صفوة الماء[٢].

وقال مجاهد: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي: من مني آدم[٣].

وقال ابن جرير: إنما سمّي آدم طيناً؛ لأنه مخلوق منه[٤].

وقال قتادة: استلَّ آدم من الطين[٥].

وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإِ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»[٦]، وقد رواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به نحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح[٧].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة] أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ يعني: الرحم معد لذلك مهيأ له ﴿إِلَىٰ

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن جريج لم يسمع من مجاهد، وأخرجه البستي بسند صحيح عن ابن جريج بدون ذكر مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، عن أبي معاوية عن الأعمش به. وسنده ضعيف، وأخرجه البستي بسند صحيح من طريق المنهال عن أبي يحيىٰ، بدون ذكر ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) ذكره الطبري بنحوه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وزيادة: والسهل والحزن، وصحح سنده محققوه (المسند ٣٢/ ٣٥٣ ح١٩٥٨٢).

(٧) سنن أبي داود، السنة، باب في القدر (ح٤٦٩٣)، وسنن الترمذي، التفسير، سورة البقرة (ح٢٩٥٥)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٦١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٩٢٦).

قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات] أي: مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثم صيرنا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة، وهي عظام صدرها، ما بين الترقوة إلى السرة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة.

قال عكرمة: وهي: دم[١]. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللّحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾[٢]. قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفي الصحيح من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب»[٣].

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار خلقاً آخر، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعني: ابن كثير مولى بني هاشم ـ، حدثنا زيد بن علي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذا نمت النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[٤] يعني: نفخنا فيه الروح، وروي عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح، قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني: فنفخنا فيه الروح[٥]، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد[٦]، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني: ننقله من حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرماً[٧]. وعن قتادة

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) وهي قراءة متواترة.

(٣) صحيح البخاري، التفسير سورة المرسلات، باب قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المرسلات] (ح٤٩٣٥).

(٤) سنده ضعيف لضعف النضر بن كثير (التقريب ص٥٦٢).

(٥) أخرجه البستي والطبري من طريق الحجاج بن أرطأة عن عطاء عن ابن عباس، وفيه الحجاج كثير الخطأ والتدليس، ويتقوى بما يليه.

(٦) قول عكرمة أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن الأصبهاني عنه، ولم أقف على ترجمة عبد الرحمن وبقية رجاله ثقات، وقد روي من طرق صحيحة فأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي، وأخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بمعناه.

والضحاك نحو ذلك[(١)]، ولا منافاة فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال، والله أعلم.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها» أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خيثمة قال: قال عبد الله ـ يعني: ابن مسعود ـ: إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تعود في الرحم فتكون علقة[(٣)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا [أبو كدينة][(٤)]، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، ممّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» [فقال: هكذا كان يقول من قبلك][(٥)][(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي الطفيل، عن حُذيفة بن أُسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب ماذا؟ أشقي أم سعيد، أذكر أم أُنثى؟ فيقول الله، فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص»[(٧)]. وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو ـ هو: ابن دينار ـ به نحوه، ومن طريق أخرى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أُسيد أبي سريحة الغفاري بنحوه[(٨)]، والله أعلم.

---

(١) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٣٤.

(٣) سنده صحيح ويشهد له سابقه.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «أبو لدينة».

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل سقط.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه (المسند ٧/ ٤٣٧ ح٤٤٣٨).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٦)، وسنده صحيح.

(٨) صحيح مسلم، القدر، باب كيفية الخلق الآدمي... (ح٢٦٤٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله خلقها قال: أي رب، ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ قال: فذلك يكتب في بطن أمه»[١]. أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به[٢].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا علي بن زيد، عن أنس قال: قال عمر ـ يعني: ابن الخطاب رضي الله عنه ـ: وافقت ربي ووافقني في أربع: نزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، قلت أنا: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٣].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملى علي رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: «بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين»[٤]، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعني: النشأة الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفّى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السمٰوات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السمٰوات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وهكذا في أول ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السمٰوات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

---

(١) سنده صحيح.
(٢) صحيح مسلم، القدر، باب كيفية الخلق الآدمي... (ح٢٦٤٦).
(٣) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد.
(٤) سنده ضعيف لضعف جابر الجعفي، كما قرر الحافظ ابن كثير، إذ ضعفه سنداً ومتناً.

وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قال مجاهد: يعني: السموات السبع[1]، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: و﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار؛ بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر ويقال لها: الأرض الجُرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه؛ لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار ويسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد (العظمة ١٣٨/٣ رقم ٥٦٠)، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي بساتين ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] أي: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ يعني: الزيتونة، والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده؛ أي يده، وأما على قول من يضمِّن الفعل، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أي: أدم، قاله قتادة[(١)]: ﴿لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبي أُسيد واسمه: مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادَّهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»[(٢)].

وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادَّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»[(٣)]، ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق. قال الترمذي: ولا يعرف إلا من حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر، وربما لم يذكره[(٤)].

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة، عن أبيه، عن جده قال: ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ[(٥)].

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٤٩٧)، وأخرجه الحاكم من طريق عطاء الشامي به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٧، ٣٩٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٣٧٩).

(٣) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومتنه (المنتخب رقم ١٣)، وسنده صحيح.

(٤) سنن الترمذي، الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت (١٨٥١)، وسنن ابن ماجه، الأطعمة، باب الزيت (ح٣٣١٩)، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ح٢٦٨٢).

(٥) وفي سنده الصعب وأبوه مقبول، وشريك: مستور، كما في تراجمهم في التقريب.

وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثِّقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا﴾ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون يترفع عليكم، ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾؛ أي ببعثة البشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر]، وقال ههنا: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين؛ أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك

رأفة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]. وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إن في هذا الصنيع، وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: بعيد بعيد ذلك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: صرعى هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

[الزخرف] أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أمماً وخلائق ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني: بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أُمة بعد أُمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾.

قال ابن عباس: يعني: يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: أهلكناهم كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ﴾ أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ﴾ [سبأ: ١٩].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين، كما أنكرت الأُمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة؛ بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص].

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس؛ أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أُم، وخلق حواء من ذكر بلا أُنثى، وخلق عيسى من أُنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأُنثى. وقوله:

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات[١]، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة[٢].

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماء ظاهراً[٣].

وقال مجاهد: ﴿رَبْوَةٍ﴾ مستوية[٤].

وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ استوى الماء فيها.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري[٥].

ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة: من أي أرض هي؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر، والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى[٦]، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا[٧]، وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي دمشق[٨]. قال: وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك[٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق[١٠].

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر، وسنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يسمع من ابن عباس، ومعناه صحيح.

(٢) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سالم الأفطس عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) هذا الأثر تتمة لسابقه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) تقدم نحوه قبل الرواية السابقة.

(٦) أخرجه الطبري عن سعيد بن المسيب وليس عن عبد الرحمن وعزاه السيوطي إلى الطبري، وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فلعله سقط من تفسير الطبري.

(٧) أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق ١/ ٢١٢).

(٨) سنده صحيح، أخرجه البستي من طريق ابن أبي عمر العدني عن سفيان به.

(٩) قول عبد الله بن سلام ذكر ابن أبي حاتم أنه سأل أباه عن حديث رواه عبد الوهاب الثقفي، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن سلام في قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال: دمشق، قال أبي: لم يتابع عبد الوهاب على رواية هذا الحديث، رواه ليث بن أبي سليم والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك والدراوردي وسليمان بن بلال كلهم عن يحيىٰ بن سعيد عن سعيد بن المسيب.. قلت لأبي: أيهما أصح؟ قال: أولئك أحفظ، والله أعلم أيهما أصح، ويحتمل أن يكون سمي لعبد الوهاب: عبد الله بن سلام، ولم يسم لهم (علل الحديث ٢/ ٦٦).

(١٠) سنده حسن.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قال: عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها[١].

وقال عبد الرزاق: عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله بن عمِّ أبي هريرة قال: سمعت أبا هريرة يقول في قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي الرملة من فلسطين[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف [الفريابي][٣]، حدثنا رواد بن الجراح، حدثنا عبد الله بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا الشيباني، عن ابن وعلة، عن كريب السحولي، عن مرة البهزي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لرجل: «إنك تموت بالربوة، فمات بالرملة»[٤]، وهذا حديث غريب جداً، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤][٥]. وكذا قال الضحاك[٦] وقتادة ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ وهو بيت المقدس[٧]، فهذا - والله أعلم - هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير والضحاك: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: الحلال[٨].

---

(١) يشهد له ما سبق.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وأخرجه البخاري من طريق بشر بن رافع به (التاريخ الكبير ٤٩/٩)، ومن الطريق نفسه أخرجه الطبري وابن عساكر (تاريخ دمشق ٢١٢/١)، وسنده ضعيف لضعف بشر بن رافع (التقريب ص١٢٣).

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «القرماني».

(٤) في رفعه نظر، ولهذا استغربه ابن كثير جداً، وقد أخرجه الطبري من طريق عباد أبي عتبة الخواص به، وعباد هذا أظنه هو الذي ورد باسم عبد الله بن عباد الخواص، فإن كان هو فقد قال عنه الحافظ ابن حجر: صدوق يهم، وقد أفحش ابن حبان فقال: يستحق الترك (التقريب ص٢٩٠).

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به.

(٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٨) لم أجد تخريجه ومعناه صحيح.

وقال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه[(١)].

وفي الصحيح: «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[(٢)].

وفي الصحيح: «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده»[(٣)].

وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب: أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس قال: بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسول الله بعثت إليك بلبن، مرثية[(٥)] لك من طول النهار، وشدة الحر، فرددت إليَّ الرسول فيه، فقال لها: «بذلك أمرت الرسل: أن لا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً»[(٦)].

وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له، من حديث فضيل بن مرزوق، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، فأنى يستحاب لذلك»، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق[(٧)].

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وقد تقدم

---

(١) أخرجه البستي والطبري كلاهما من طريق عبيد بن إسحاق الضبي عن حفص بن عمر الفزاري عن أبي إسحاق السبيعي به، وسنده ضعيف لضعف عبيد بن إسحاق، وهو مرسل أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط ح٢٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ح٢٠٧٣).

(٤) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (صحيح البخاري، التهجد، باب من نام عند السحر ح١١٣١، وصحيح مسلم، الصيام، باب النهي عن صوم الدهر.. ح١١٥٩).

(٥) أي: توجعاً لك وإشفاقاً عليك (ينظر: النهاية ٢/١٩٦).

(٦) أخرجه الحاكم من طريق أبي بكر بن أبي مريم به وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: وابن أبي مريم: واهٍ. (المستدرك ٤/ ١٢٥)، وهو كما قال، فقد ضعفه الحافظ ابن حجر (التقريب ص٦٢٣).

(٧) صحيح مسلم، الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (ح١٠١٥)، وسنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة (ح٢٩٨٩)، والمسند ٦/ ١٥٩.

الكلام على ذلك في سورة الأنبياء وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلَّا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم؛ بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]، وقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ]، والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح[١].

وقال الأمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مُرَّة الهمداني، حدثنا عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه؛ ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٢].

---

(١) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه لضعف الصباح بن محمد (المسند ٦/ ١٨٩ ح٣٦٧٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢] أي: أيقنت أن ما كان، إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فممّا يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو ممّا يكرهه ويأباه، وإن كان خبراً فهو حق، كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ أي: لا يعبدون معه غيره؛ بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»[٢].

وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول بنحوه، وقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾» وقال الترمذي: وروي هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو هذا[٣]، وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية[٤].

وقد قرأ آخرون هذه الآية «والذين يأتون ما[٥] آتوا وقلوبهم وجلة» أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق يونس عن الحسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه؛ لأن عبد الرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة (المسند ٤٢/١٥٦ ح٢٥٢٦٣)، وأخرجه ابن ماجه من طريق مالك بن مغول به (السنن، الزهد، باب التوقي على العمل ح٤١٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/٤٠٩، وأخرجه الحاكم من طريق مالك بن مغول به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٩٣)، وهذا التحسين والتصحيح هو بالشواهد كما سيأتي.

(٣) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (ح٣١٧٥).

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(٥) وهي قراءة شاذة تفسيرية، قرأ بها عائشة وابن عباس وقتادة والأعمش والحسن البصري وإبراهيم النخعي (ينظر: البحر المحيط ٦/٤١٠).

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جويرية، حدثنا إسماعيل المكي، حدثنا أبو خلف مولى بني جمح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا؟ فقال: أخشى أن أملّك، فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل: كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أية آية؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أو «والذين يأتون ما أتوا» فقالت: أيتهما أحب إليك؟ فقلت: والذي نفسي بيده لإحداهما أحب إلي من الدنيا جميعاً، أو الدنيا وما فيها. قالت: وما هي؟ فقلت: «والذين يأتون ما أتوا» فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف[1]. فيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف، والمعنى على القراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ فجعلهم من السابقين؛ ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها؛ أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قال الحكم بن أبان: عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ أي: سيئة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قال: لا بدّ أن يعملوها[2]، كذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد[3].

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بدّ أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٩٥)، وأخرجه أبو عمر الدوري من طريق إسماعيل المكي به (قراءات النبي ﷺ ص١٣٠)، وسنده ضعيف فيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف، كما قرر الحافظ ابن كثير، وفيه أيضاً أبو خلف مولى بني جمح: مجهول الحال (تعجيل المنفعة ص٤٨١).

(٢) في سنده الحكم بن أبان: صدوق له أوهام (التقريب ص١٧٤).

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بعدة طرق يقوي بعضها بعضاً، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حُميد عنه.

وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[١]، وهو ظاهر قوي حسن.

وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[٢].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يعني: حتى إذا جاء مترفيهم، وهم المنعمون في الدنيا، عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل]، وقال تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾﴾ [ص].

وقوله: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر].

وقوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ في تفسيره قولان:

(أحدهما): أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكباراً عليه، واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال:

(أحدها): أنه الحرم؛ أي: مكة، ذُمُّوا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام.

(والثاني): أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

(والثالث): أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل؛ بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال [النسائي][٣] من التفسير في سننه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله سامراً قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه[٤]. وقد أطنب ابن أبي حاتم ههنا بما هذا حاصله.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب ـ وهو عبد الله ـ عن عبد الرحمن بن زيد.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٣٢.

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «النسئي».

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ، التفسير (ح١١٣٥١)، وأخرجه الحاكم من طريق إسرائيل به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٤).

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ۝ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ۝ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ إذ والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهلكوا عند ذلك. ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝﴾ أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم؛ أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن؛ أي افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية؛ أي في حالة كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذُكرَ لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك، وكبُر عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت تتبعه؟» قال: نعم. قال: «فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه»، وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت لو كان فتيكَ أحدهما إذا حدثك صدقك، وإذا ائتمنته أدّى إليك، أهو أحب إليك أم فتاك الذي إذا حدثك كذلك وإذا ائتمنته خانك؟» قال: بل فتاي الذي

إذا حدثني صدقني وإذا ائتمنته أدّى إلي، فقال نبي الله ﷺ: «كذاكم [أنتم][١] عند ربكم»[٢].

وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو: الله ﷻ[٣]، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾؛ أي لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء]، ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ قال الحسن: أجراً[٤].

وقال قتادة: جعلاً[٥] ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى؛ بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حِلّة حَبِرة[٦]، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً رِواء[٧] تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم، رياضاً معشبة وحياضاً رِواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «سقط».

(٢) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم، وسنده ضعيف؛ لأن قتادة أرسله وهو لم يسمع إلا من أنس بن مالك ﷺ.

(٣) قول أبي صالح أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل ابن أبي خالد، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق شعبة عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن الحسن.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أي: ثوب مخطط. (٧) أي: كثير الماء أو عذب الماء.

ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه(١).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار، وتغلبونني تقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون علي معاً وأشتاتاً أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أي ربِّ قومي، أي رب أمتي، فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغت، ولأعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحمة فينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت»(٢). وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري [القمي](٣).

(قلت): بل قد روى عنه أيضاً أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح، ووثقه النسائي وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضرّ وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام]، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، ولو كان كيف يكون.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه، لضعف علي بن زيد بن جدعان (المسند ٤/ ٢٢٧، ٢٢٨ ح٢٤٠٢).

(٢) عزاه الهيثمي إلى أبي يعلىٰ في المسند الكبير وإلى البزار وقال: ورجال الجميع ثقات (مجمع الزوائد ٣/ ٨٥).

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «العمر».

قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبداً[١].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: فما ردَّهم ذلك عمَّا كانوا فيه من الكفر والمخالفة؛ بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي: ما خشعوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزي، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبي، عن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني: الوبر والدم -، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[٢]، وكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه به[٣]، وأصله في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا، فقال: «اللَّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عمر بن كيسان، حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ قال: وصام وهب ثلاثاً متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدث لنا فأحدثنا، يعني: أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة[٥].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتةً، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يدركون بها الأشياء ويعتبرون بما

---

(١) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلق ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه ابن حبان من طريق علي بن الحسين بن واقد عن أبيه به (الإحسان ٣/ ٢٧٤ ح٩٦٧)، ومن الطريق نفسه أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٤)، وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٦/ ٥١٠).

(٣) السنن الكبرىٰ، التفسير (ح١١٣٥٢).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة يوسف آية ٩٩.

(٥) سنده حسن.

في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، وعزَّ كل شيء وخضع له كل شيء؟

ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين؟ ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يعنون: الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء؛ بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ أي: من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا

تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم؛ يعني: الذي هو سقف المخلوقات، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة[١].

وفي الحديث الآخر: «ما السمٰوات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة»[٢]، ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة.

وقال الضحاك عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه[٣].

وقال الأعمش، عن كعب الأحبار: إن السمٰوات والأرض في العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض[٤].

وقال مجاهد: ما السمٰوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن عمار الدّهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر قدره أحد[٦]، وفي رواية: إلا الله ﷻ، وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء[٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الكبير.

وقال في آخر السورة: ﴿وَرَبُّ العَرشِ الكريم﴾ أي: الحسن البهي، فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر، ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه ربُّ السمٰوات وربُّ العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبيد الله بن جعفر، أخبرني عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنماً، فقال لها ابنها: يا أمه من خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبي؟ قالت: الله. قال:

---

(١) أخرجه أبو داود (السنن، السنة، باب في الجهمية ح٤٧٢٦)، وفي سنده محمد بن إسحاق ولم يصرح بالسماع.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٣) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) سنده مرسل، ويشهد له الحديث السابق. (٥) سنده مرسل، وله شاهد كسابقه.

(٦) أخرجه الحاكم من طريق سفيان به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٨٢).

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة يونس آية ٣.

فمن خلقني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السمٰوات؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإني أسمع لله شأناً ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع. قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث، قال عبد الله بن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث[1]، قلت: في إسناده عبد الله بن جعفر المديني، والد الإمام علي بن المديني، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: بيده الملك ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] أي: متصرف فيها، وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا والذي نفسي بيده»[2]، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا ومقلب القلوب»[3]، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء] أي: لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وحكمته وعدله، فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم

(١) سنده ضعيف لضعف عبد الله بن جعفر المديني (التقريب ص٢٩٨).
(٢) تقدم تخريجه في سورة المائدة آية رقم ٧٩.
(٣) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (الصحيح، القدر، باب يحول بين المرء وقلبه ح٦٦١٧).

متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى، وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عمّا يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدّس وتنزّه وتعالى ﷻ عمّا يقول الظالمون والجاحدون.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفّني إليك غير مفتون»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت] أي: وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم القبيح ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وضعف سنده محققوه (المسند ٣٦/ ٤٢٢، ٤٢٣ ح٢٢١٠٩)، وأخرجه الترمذي وصححه (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة صٓ ح٣٢٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٥٨٢).

(٢) تقدم في بداية التفسير.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت»[١].

وقال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه[٢]. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحاق. وقال الترمذي: حسن غريب[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي اليسر رضي الله عنه (السنن، الصلاة، باب في الاستعاذة ح١٥٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٣٧٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: حديث محتمل للتحسين (المسند ١١/ ٢٩٥، ٢٩٦ ح٦٦٩٦)، ويؤكد ما يلي.

(٣) أخرجه أبو داود (السنن، الطب، باب في الرقي ح٣٨٩٣)، والنسائي (في السنن الكبرى ح١٠٦٠١)، وحسنه الألباني دون قوله: «فكان عبد الله..» (صحيح سنن أبي داود ح٣٢٩٤).

كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات العذاب في الجحيم.

وقوله ههنا: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ﴿كَلَّآۚ﴾ حرف ردع وزجر؛ أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لا بدّ أن يقولها[1]، لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: كلّا؛ أي لأنها كلمة؛ أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[2].

وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة: إذا قال الكافر: ربِّ ارجعون لعلي أعمل صالحاً، يقول الله تعالى: كلا، كذبت.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى أنا يرجع إلى الأهل ولا إلى عشرية ولكن تعنى بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله، وعن محمد بن كعب القرظي نحوه.

وقال [أبو][3] محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل ـ يعني: ابن عياض ـ عن ليث، عن طلحة بن مصرف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: إذا وضع ـ يعني: الكافر ـ في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول: ربِّ ارجعون أتوب وأعمل صالحاً، قال: فيقال: قد عَمَّرتَ ما كنت مُعمراً، قال: فيضيق عليه قبره ويلتئم، فهو كالمنهوش ينام ويفزع، تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها[4].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثني سلمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم، حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب ـ وهو عبد الله ـ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب ذكر ابن رجب في شرح العلل عن ابن معين أن ما رواه أبو معشر عن محمد بن كعب في التفسير فهو حسنٌ. انظر: شرح العلل ٢/٦٥٨، تحقيق نور الدين عتر ويقصد بالحسن: حسن المتن.

(٣) زيادة يقتضيها السياق، فإن هذه الرواية عزاها السيوطي إلى ابن أبي حاتم صاحب التفسير الشهير، وكنيته أبو محمد.

(٤) سنده حسن، وله شواهد صحيحة.

وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ يعني: أمامهم.

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة[٢].

وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم[٣].

وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذباً فيها»[٥]؛ أي في الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا نفح في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا تنفع الأنساب يومئذٍ ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج] أي: لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعزّ الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى منادٍ: ألا مَن كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقَّه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[٦]. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أُم بكر

---

(١) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) يشهد له سابقه. (٤) يشهد له سابقه.

(٥) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ وحسنه (السنن، الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر ح١٠٧١)، قال الألباني: وسنده جيد (السلسلة الصحيحة ح١٣٩١).

(٦) أخرجه المروزي في زوائده على ابن المبارك في الزهد رقم ١٤١٦، والطبري وأبو نعيم (الحلية ٤/ ٢٠١)، كلهم بسند حسن من طريق زاذان عن ابن مسعود.

بنت المسور بن مخرمة، عن عبد الله بن أبي رافع، عن المسور ـ هو: ابن مخرمة ـ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني، يغيظني ما يغيظها، وينشطني ما ينشطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري»(١). وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، يريبني ما يريبها، ويؤذيني ما آذاها»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإنّي أيها الناس فرط لكم إذا جئتم» قال رجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان، وقال أخوه: أنا فلان بن فلان فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى»(٣).

وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه ﷺ أنه لما تزوج أُم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ﷺ قال: أما والله ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» رواه الطبراني والبزار والهيثم بن كليب والبيهقي، والحافظ الضياء في المختارة، وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظاماً وإكراماً ﷺ(٤).

فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبي القاسم البغوي: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد بن عباد بن جعفر: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»(٥)، وروىٰ فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألت ربي ﷻ أن لا أتزوج إلى أحد من أُمتي، ولا يتزوج إلي أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك». ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله بن [عمرو](٦)(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه، دون قوله: «وإن الأنساب يوم القيامة...» فهو حسن بشواهد (المسند ٣١/ ٢٠٧ ح١٨٩٠٧).

(٢) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ (ح٣٧١٤)، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (ح٢٤٤٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: صحيح لغيره (المسند ١٧/ ٢١٩، ٢٢١ ح١١١٣٨).

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٤٥، ومسند البزار كما في كشف الأستار (ح٢٤٤٥)، والمختارة (ح٢٨١)، ويشهد له ما تقدم.

(٥) أخرجه ابن عساكر بسنده ومتنه (تاريخ دمشق ٦٧/ ٢١)، ويشهد له ما سبق.

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

(٧) أخرجه الطبراني من طريق عمار بن سيف به (المعجم الأوسط ح٣٩٦١)، وسنده ضعيف (التقريب ص٤٠٧).

وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا[(١)].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا صالح المري، عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: إن لله ملكاً موكلاً بالميزان، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً. إسناده ضعيف فإن داود بن المحبر: ضعيف متروك[(٢)]، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي [المغراء][(٣)]، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضرار بن مرة، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سيق لها أهلها تلقاهم لهبها، ثم تلفحهم لفحة[(٤)] فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب»[(٥)].

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القطان، حدثنا سعد بن سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال: «تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم»[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسون[(٧)].

وقال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال: ألم ترَ إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه[(٨)].

وقال الإمام أحمد: أخبرنا علي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو: ابن المبارك رحمه الله ـ،

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٥.

(٢) سنده ضعيف جداً؛ لأن داود بن المحبر: متروك، كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «الغرا».

(٤) لفح النار: حرها ووهجها (النهاية ٤/ ٢٦٠).

(٥) أخرجه الطبراني من طريق محمد بن سليمان الأصبهاني به (المعجم الأوسط ح٢٨٠)، وقال الهيثمي: فيه محمد بن سليمان الأصبهاني، وهو ضعيف (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٣).

(٦) سنده ضعيف؛ لأن سعد بن سعيد المقبري: لين الحديث (التقريب ص٢٣١).

(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٨) أخرجه الطبري والحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٥).

أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته»[(١)]، ورواه الترمذي عن سويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك به، وقال: حسن غريب[(٢)].

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ردّنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر]، أي: لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحّده المؤمنون.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار. يقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٨/ ٣٥٠ ح١١٨٣٦)، وضعف سنده محققوه، ويتقوىٰ بسابقه، وأخرجه الحاكم من طريق ابن المبارك به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب (السنن، صفة جهنم، باب ما جاء في طعام أهل النار ح٢٥٨٧)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، ويشهد له ما تقدم موقوفاً وثابتاً عن ابن مسعود.

كلامهم منه(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عبدة بن سليمان المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يردُّ عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت دعوتهم واللهِ على مالك وربِّ مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون] قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: فواللهِ ما [نبس](٢) القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق(٣).

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، حدثنا أبو الزعراء قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً - يعني من جهنم -، غير وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول: يا رب، فيقول الله: من عرف أحداً فليخرجه، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً، فيناديه الرجل: يا فلان أنا فلان، فيقول: ما أعرفك، قال: فعند ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد(٤).

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليّ ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين] أي: يلمزونهم استهزاء: ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياؤه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار. عياذاً بالله تعالى منها.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «يبس».

(٣) أخرجه الحاكم من طريق سعيد بن أبي عروبة به، بدون قوله: «فوالله ما نبست. . .» آخره، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٥).

(٤) أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن مهدي به، وسنده صحيح.

وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: الحاسبين ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن [الوزير][1]، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أيفع بن عبدٍ الكلاعي أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النارِ النارَ، قال: يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي أمكثوا فيها خالدين مخلدين، ثم قال: يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، فيقول: بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين»[2].

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟ وقيل: للعبث؛ أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله ﷻ: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] يعني: هملاً.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم؛ أي حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ، أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته، وحرم جنة عرضها السمٰوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بباقٍ وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ﷻ، قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم؛ فاتقوا الله قبل

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «الدرير».

(٢) سنده مرسل؛ لأن أيفع بن عبد تابعي.

انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن نصير الخولاني، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي هبيرة، عن [حسن][٢] بن عبد الله: أن رجلاً مصاباً مرَّ به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ حتى ختم السورة فبرأ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال»[٣].

وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا[٤].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام، حدثنا بكر بن خُبيش، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]»[٥].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له؛ أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي: الله يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك؟» قال: الله ﷻ، قال: «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟» قال: الله ﷻ، قال: «فما يحملك على أن تعبد

---

(١) سنده ضعيف لجهالة شيخ شعيب بن صفوان.

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «حبيس».

(٣) في سنده ابن لهيعة لم يتابع عليه؛ بل قد سئل الإمام أحمد عن هذا الحديث فقال: هذا موضوع من حديث الكذابين، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمة سلام بن رزين (لسان الميزان ٣/ ٥٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة ح٧٢٦)، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى ابن منده وقال: إسناده لا بأس به (الإصابة ١/ ١٥)، وفي سنده خالد بن نزار: صدوق يخطئ (التقريب ص١٩١).

(٥) سنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلقَ ابن عباس ﷺ، وفيه أيضاً نهشل بن سعيد، وهو متروك (مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٢).

هؤلاء معه، أم حسبت أن تغلب عليه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون» فقال الرجل بعدما أسلم: لقيت رجلاً خصمني(١). هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، نحو ذلك(٢).

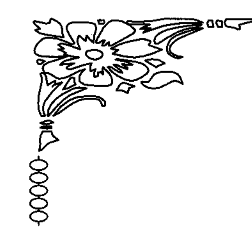
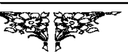
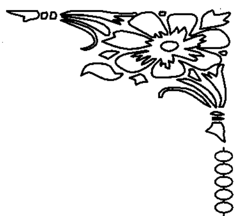
وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون.

---

(١) سنده ضعيف؛ لأن قتادة أرسله.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق الحسن البصري عن عمران بن الحصين بنحوه (السنن، الدعوات، باب رقم ٧٠ ح٣٤٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

سُورَةُ النُّورِ

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها «وفرَّضناها».

قال مجاهد وقتادة: أي بيَّنا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود(١).

وقال البخاري: ومن قرأ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾(٢)، يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم(٣).

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مفسرات واضحات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج، فإن حدَّه مائة جلدة كما في الآية، ويُزاد على ذلك أن يُغرَّب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام: إن شاء غرَّب وإن شاء لم يغرِّب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللّذين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً ـ يعني: أجيراً ـ على هذا، فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى، الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أُنيس ـ لرجل من أسلم ـ إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها»، «فغدا عليها فاعترفت فرجمها»(٤)،

---

(١) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٢) القراءتان متواترتان.

(٣) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور.

(٤) صحيح البخاري، الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (ح٢٦٩٦)، وصحيح مسلم، الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (ح١٦٩٨).

ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج.

فأما إذا كان محصناً، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فإنه يرجم، كما قال الإمام مالك: حدثني محمد بن شهاب، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أن ابن عباس أخبره: أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد؛ أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف. أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً[(١)]، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا.

وروى الإمام أحمد: عن هشيم، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ حدثني عبد الرحمن بن عوف: أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول: ألا وإن أناساً يقولون: ما بال الرجم في كتاب الله الجلد؟ وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم: إن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه؛ لأثبتها كما نزلت به[(٢)]. وأخرجه النسائي من حديث عبيد الله بن عبد الله به[(٣)]، وقد روى الإمام أحمد أيضاً، عن هشيم، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر الرجم، فقال: لا تُخدعُنَّ عنه فإنه حدٌّ من حدود الله تعالى، ألا وإن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده، ولولا أن يقول قائلون: زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت في ناحية من المصحف، وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده، ألا إنه سيكون من بعدكم قومٌ يكذبون بالرجم، وبالدجال وبالشفاعة، وبعذاب القبر، وبقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا[(٤)].

وروى أحمد أيضاً، عن يحيى القطان، عن يحيى الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب: «إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم»[(٥)]، الحديث رواه الترمذي من حديث سعيد، عن عمر، وقال: صحيح[(٦)]، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن عون ـ عن محمد هو: ابن سيرين ـ، قال: نبئت عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد، فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ «الشيخ والشيخة إذا

---

(١) صحيح البخاري، الحدود، باب الاعتراف بالزنا (ح٦٨٢٩)، وصحيح مسلم، الحدود، باب رجم الثيب في الزنا (ح١٦٩١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ١/ ٣٢٧ ح١٩٧)، وصحح سنده محققوه.

(٣) السنن الكبرىٰ (ح٧١٥٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٩٦ ح١٥٦)، وضعف سنده محققوه لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٣٦٢ ح٢٤٩)، وصحح سنده محققوه.

(٦) سنن الترمذي، الحدود، باب ما جاء في تحقيق الرجم (ح١٤٣١).

زنيا فارجموهما البتة»، قال مروان: ألا كتبتها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال: قلنا: فكيف؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا وذكر الرجم، فقال: يا رسول اكتب لي آية الرجم، قال: «لا أستطيع الآن» هذا أو نحو ذلك[١].

وقد رواه النسائي من حديث محمد بن المثنى، عن غُندر، عن شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت به[٢]، وهذه طرق كلها متعددة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به، والله أعلم.

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية، وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي ـ رحمهم الله ـ، وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسُّنة.

كما رُويَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما أتى بشراحة، وكانت قد زنت وهي محصنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، فقال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ[٣]. وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة، عن الحسن، عن حطّان بن عبد الله الرقاشي، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله؛ أي لا ترحموهما [وترأفوا بهما][٥] في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على إقامة الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز ذلك.

قال مجاهد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل[٦]، وكذا روي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح.

---

(١) سنده ضعيف لإبهام شيخ محمد بن سيرين. (٢) السنن الكبرىٰ (ح٧١٤٥).

(٣) أخرجه البخاري بلفظ: «حين رجم المرأة يوم الجمعة»، وقال: رجمتها بسُّنة رسول الله ﷺ. دون ذكر الجلد (الصحيح، الحدود، باب رجم المحصن ح٦٨١٢)، وأخرجه البستي من طريق عمرو بن علي، وسنده ضعيف؛ لأن عمرو لم يسمع من علي (المراسيل لابن أبي حاتم ص١٢٢).

(٤) المسند ٥/٣١٧، وصحيح مسلم، الحدود، باب حد الزنا (ح١٦٩٠)، وسنن أبي داود، الحدود، باب الرجم (ح٤٤١٥)، وسنن الترمذي، الحدود، باب ما جاء في الرجم على الثيب (ح١٤٣٤)، والسنن الكبرىٰ للنسائي، الرجم (ح٧١٤٢)، وسنن ابن ماجه، الحدود، باب حد الزنا (ح٢٥٥٠).

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «وترثوا لهما».

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «الحدُّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»[(٢)].

وقيل: المراد ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فلا تقيموا الحدَّ كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح.

قال عامر الشعبي: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: رحمة في شدة الضرب[(٣)].

وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح[(٤)].

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن حماد بن أبي سليمان: يجلد القاذف وعليه ثيابه والزاني تخلع ثيابه، ثم تلا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فقلت: هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم، والجلد، يعني: في إقامة الحد وفي شدة الضرب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن نافع، عن ابن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها[(٥)]، قال نافع: أراه قال: وظهرها، قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: «ولك في ذلك أجر»[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً.

قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يعني علانية[(٨)].

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ (السنن، الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان ح٤٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٦٨٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﵁ (المسند ١٤/ ٣٥١ ح٨٧٣٨)، وضعف سنده محققوه، وكذا أخرجه ابن ماجه (السنن، الحدود، باب إقامة الحدود ح٢٥٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٠٥٧)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٢٤٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عن الشعبي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق حجاج بن أرطأة عن عطاء بن أبي رباح.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق شعبة عن حماد.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وأخرجه عبد الرزاق من طريق ابن أبي مليكة به، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه الإمام أحمد من حديث قرَّة المزني ﵁ (المسند ٣٣/ ٤٧٢ ح٢٠٣٦٣)، وصحح سنده محققوه، وأخرجه البخاري بنحوه في الأدب المفرد (ح٣٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٢٨٧).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن الحسن (المصنف ١٠/ ٦٠).

ثم قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الطائفة: الرجل فما فوقه[١].

وقال مجاهد: الطائفة رجل إلى ألف[٢]، وكذا قال عكرمة[٣]، ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد.

وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان[٤]، وبه قال إسحاق بن راهويه، وكذا قال سعيد بن جبير ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: يعني: رجلين فصاعداً[٥].

وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً[٦].

وقال عبد الرزاق: حدثني ابن وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: الطائفة أربعة نفر فصاعداً[٧]، لأنه لا يكفي شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً، وبه قال الشافعي[٨].

وقال ربيعة: خمسة.

وقال الحسن البصري: عشرة.

وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين؛ أي نفر من المسلمين[٩] ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا بقية قال: سمعت نصر بن علقمة يقول في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة[١٠].

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة؛ أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه.

قال سفيان الثوري: عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي طلحة به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن إياس، عن مجاهد.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه حفص بن عمر، وهو ضعيف، ويتقوىٰ بما سبق.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن عطاء.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عنه.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يونس بن يزيد وابن أبي ذئب عن الزهري.
(٧) أخرجه الشافعي بسند صحيح من طريق عبد الرزاق به (الأم ٦/١٢٢، ١٢٣).
(٨) الأم ٦/١٢٢.
(٩) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك[1]. وهذا إسناد صحيح عنه، وقد روي عنه من غير وجه أيضاً. وقد روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والضحاك ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك[2].

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطيه والتزوج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالرجال الفجار.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا قيس، عن أبي حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حرَّم الله الزنا على المؤمنين[3].

وقال قتادة ومقاتل بن حيان: حرَّم الله على المؤمنين نكاح البغايا[4]، وتقدم ذلك فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ . . .﴾ الآية [المائدة: ٥]، ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر بن سليمان، قال أبي: حدثنا الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها: أم مهزول، كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه، قال: فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال: فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾[5].

وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق خالد بن الحارث عن حبيب بن أبي عمرة به، وسنده صحيح، وقد صححه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم عن هؤلاء بأسانيد ثابتة.

(٣) سنده حسن.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري معلقاً، وقول مقاتل بن حيان أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١١/١٦ ح٦٤٨٠)، وضعف سنده محققوه لجهالة الحضرمي. قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ٧/٧٣)، وأخرجه الحاكم من طريق هشيم عن سليمان التيمي عن القاسم بن محمد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٩٦). ولعل الحضرمي خلط بين الصحابيين فرواه تارة عن ابن عمر وتارة عن ابن عمرو.

زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[(١)].

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا روح بن عبادة، عن عبيد الله بن الأخنس، أخبرني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وإنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق، فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط، فلما انتهت إلي عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة، قال: فقلت: يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلت الخندمة فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فيه فجاؤوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا: فظل بولهم على رأسي، فأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً أنكح عناقاً ـ مرتين؟ ـ، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد، ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فلا تنكحها». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[(٢)]، وقد رواه أبو داود والنسائي في كتاب النكاح من سننهما من حديث عبيد الله بن الأخنس به[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسدد أبو الحسن، حدثنا عبد الوارث، عن حبيب المعلم، حدثني عمرو بن شعيب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»[(٤)]. وهكذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر، عن عبد الله بن عمر كلاهما عن عبد الوارث، به[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عمر بن محمد، عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر، قال: أشهد لسمعت سالماً يقول: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالديه، والمرأة المترجّلة المتشبهة بالرجال، والديوث، وثلاث لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالديه، ومدمن الخمر، والمنّان بما أعطى»[(٦)]. ورواه النسائي عن عمرو بن

---

(١) أخرجه الحاكم كما في سابقه.

(٢) السنن، التفسير، سورة النور (ح٣١٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٣٥٣٨)، وأخرجه الحاكم من طريق عبيد الله بن الأخنس به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/١٦٦).

(٣) سنن أبي داود، النكاح، باب قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] (ح٢٠٥١) وسنن النسائي، النكاح، باب تزويج الزانية ٦/٦٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٥) سنن أبي داود، النكاح، باب قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ (ح٢٠٥٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٠/٣٢١، ٣٢٢ ح٦١٨٠)، وحسّن سنده محققوه، وصححه =

علي الفلاس، عن يزيد بن زريع، عن عمر بن محمد العمري، عن عبد الله بن يسار، به[١].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا الوليد بن كثير، عن قطن بن وهب، عن عويمر بن الأجدع، عمّن حدثه، عن سالم بن عبد الله بن عمر؛ قال: حدثني عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حرّم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاقّ لوالديه، والديوث الذي يقرّ في أهله الخبث»[٢].

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثني شعبة، حدثني رجل من آل سهل بن حنيف، عن محمد بن عمار، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ديوث»[٣]. يستشهد به لما قبله من الأحاديث.

وقال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سلام بن سوار، حدثنا كثير بن سليم، عن الضحاك بن مزاحم: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهر، فليتزوج الحرائر»[٤]، في إسناده ضعف.

وقال الإمام أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح في اللغة: الديوث القُنذع، وهو: الذي لا غيرة له[٥].

فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سننه: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن علية، عن يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة وغيره، عن هارون بن رئاب، عن عبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الكريم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن ابن عباس. ـ عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس وهارون لم يرفعه ـ، قالا: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندي امرأة هي من أحب الناس إلي، وهي لا تمنع يد لامس؟ قال: «طلقها» قال: لا صبر لي عنها. قال: «استمتع بها». ثم قال النسائي: هذا الحديث غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبت منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم[٦].

قلت: وهو: ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث، وقد خالفه هارون بن رئاب وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي، لكن قد رواه النسائي في كتاب الطلاق، عن إسحاق بن راهويه، عن النضر بن شميل، عن حماد بن سلمة، عن هارون بن رئاب، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن ابن عباس مسنداً، فذكره بهذا الإسناد،

= أحمد شاكر برقم ٦١٨٠، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٤/ ١٤٦).

(١) سنن النسائي، الزكاة، باب المنان بما أعطىٰ ٨/ ٨٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٦٩)، وسنده ضعيف لإبهام شيخ عويمر الأجدع، ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ح٦٤٢)، وسنده ضعيف لإبهام شيخ شعبة، ويشهد له حديث عبد الله بن عمر قبل السابق.

(٤) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه (السنن، النكاح، باب تزويج الحرائر والولود ح١٨٦٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه.

(٥) الصحاح للجوهري ١/ ٢٨٢.

(٦) سنن النسائي، النكاح، باب تزويج الزانية ٦/ ٦٧، وقد أخرجه من طرق أخرىٰ تقويه كما يليه.

فرجاله على شرط مسلم إلا أن النسائي بعد روايته له قال: هذا خطأ والصواب مرسل[١]، ورواه غير النضر على الصواب.

وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حريث، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسين بن واقد، عن عمارة بن أبي حفصة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ... فذكره[٢]، وهذا الإسناد جيد. وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مضعّف له كما تقدم عن النسائي، ومنكر كما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر، وقال ابن قتيبة: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً[٣]، وحكاه النسائي في سننه عن بعضهم فقال: وقيل: سخية تعطي، ورد هذا بأن لو كان المراد لقال: لا تَرُدّ يد ملتمس، وقيل: المراد أن سجيتها لا تردّ يد لامس لا أن المراد أن هذا واقع منها وأنها تفعل الفاحشة، فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثاً، وقد تقدم الوعيد على ذلك، ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد، أمره رسول الله ﷺ بفراقها، فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها؛ لأن محبته لها محققة ووقوع الفاحشة منها متوهم، فلا يصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قالوا: فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب قال: سمعت شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال: إني كنت ألُمُّ بامرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل عليّ، فرزقني الله عز وجل من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، أنكحها فما كان من إثم فعليّ[٤]، وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال: كان يقال: نسختها التي بعدها ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] قال: كان يقال: الأيامى من المسلمين[٥]، وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ[٦] له عن سعيد بن المسيب، ونصَّ على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي[٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان

---

(١) المصدر السابق ٦/ ١٧٠. (٢) المصدر السابق ٦/ ١٦٩.

(٣) وهذا هو اللائق بمقام الصحابية رضي الله عنها.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح لكنه مرسل.

(٦) الناسخ والمنسوخ ص١٠٠ رقم ١٧. (٧) الأم للشافعي ٥/ ١٢.

المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فأوجب على القاذف، إذا لم يقم البينة على صحة ما قال: ثلاثة أحكام:

(أحدها): أن يجلد ثمانين جلدة.

(الثاني): أنه ترد شهادته أبداً.

(الثالث): أن يكون فاسقاً ليس بعدل، لا عند الله، ولا عند الناس.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ الآية. واختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب؟ أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟

أما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف، فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونصَّ عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين[(١)]، وجماعة من السلف أيضاً.

وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً، وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر[(٢)].

وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته، وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذٍ تقبل شهادته[(٣)]، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله ﷻ، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيحلّفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء: إنه لمن الصادقين؛ أي فيما رماها به من الزنا ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها ويتوجب عليها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق قتادة عن سعيد بن المسيب.

(٢) قول إبراهيم النخعي أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الأعمش عنه.

(٣) قول الشعبي أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق داود بن أبي هند عنه، وقول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

حد الزنا، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله: ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما رماها به ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: الحد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ فخصَّها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقِّها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أي: على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، وفيمن نزلت فيه من الصحابة.

فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا عباد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤] قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار ﷺ: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته. فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً[١] قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته ـ قال: فما لبثوا إلا يسيراً ـ حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن، يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً. وقال هلال: يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق. فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه؛ إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي.

وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد[٢] وجهه؛ يعني: فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية، فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً» فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي ﷻ، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها» فأرسلوا إليها

---

(١) أي: حمقاء. (٢) أي: تغير لون وجهه.

فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما» فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أن يفترقا من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أصيهب[(١)] أريسح[(٢)] حمس الساقين[(٣)]، فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين، فهو الذي رميت به» فجاءت به أورق[(٤)] جعداً[(٥)] جمالياً[(٦)] خدلج الساقين[(٧)] سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن».

قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب[(٨)]. ورواه أبو داود، عن الحسن بن علي، عن يزيد بن هارون به نحوه مختصراً[(٩)].

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة، فمنها ما قال البخاري: حدثني محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، حدثني عكرمة، عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أوحد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك» فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ

---

(١) أي: أشقر.
(٢) أي: أي: لا عجز له.
(٣) أي: دقيق الساقين.
(٤) أي: أسمر.
(٥) أي: جعد الشعر.
(٦) أي: ضخم الأعضاء.
(٧) أي: عظيم الساقين.
(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٤/ ٣٦ ح٢١٣١)، وحسنه محققوه، وله شواهد ستأتي.
(٩) سنن أبي داود، الطلاق، باب في اللعان (ح٢٢٥٦).

الأليتين خدلج الساقين، فهو لشريك ابن سحماء» فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[(١)]، انفرد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح ـ وهو: ابن عمر ـ، حدثنا عاصم ـ يعني: ابن كليب ـ، عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فرمى امرأته برجل، فكره ذلك رسول الله ﷺ، فلم يزل يردده حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ فقرأ حتى فرغ من الآيتين، فأرسل إليهما فدعاهما فقال: «إن الله تعالى قد أنزل فيكما» فدعا الرجل فقرأ عليه، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه، فقال له: «كل شيء أهون عليه من لعنة الله» ثم أرسله فقال: «لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» ثم دعاها فقرأ عليها، فشهدت أربع شهادات بالله إنه من الكاذبين، ثم أمر فأمسك على فيها فوعظها وقال: «ويحك كل شيء أهون من غضب الله» ثم أرسلها فقالت: غضب الله عليها إن كان من الصادقين. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأقضين بينكما قضاء فصلاً» قال: فولدت فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر غاشيةً منه، فقال: «إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا»، فجاءت به يشبه الذي قذفت به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال: سمعت سعيد بن جبير قال: سُئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في إمارة ابن الزبير؟ فما دريت ما أقول، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت: يا أبا عبد الرحمن، المتلاعنان أيفرق بينهما؟ فقال: سبحان الله، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان، فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك، فسكت فلم يجبه.

فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتليت به، فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ حتى بلغ ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فبدأ بالرجل فوعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال: والذي بعثك بالحق ما كذبتك، ثم ثنّى بالمرأة فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. فقالت المرأة: والذي بعثك بالحق إنه لكاذب، قال: فبدأ بالرجل، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ثنى بالمرأة، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فرق بينهما. رواه النسائي في التفسير من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به، وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور، باب ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ [النور: ٨] (ح٢٦٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٣) (المسند ٢/ ١٩)، والسنن الكبر للنسائي (ح١٣٥٧)، وصحيح البخاري، الطلاق، باب إن أحدكما كاذب (ح٥٣١٢)، وصحيح مسلم، اللعان (ح١٤٩٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، والله لئن أصبحت صالحاً لأسألنّ رسول الله ﷺ، قال: فسأله، فقال: يا رسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، اللّهم احكم. قال: فأنزلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به. انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش، به[(١)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي[(٢)] فقال له: سل رسول الله ﷺ: أرأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله أيقتل به، أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله ﷺ المسائل، قال: فلقيه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت إنك لم تأتني بخير، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه. فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما، قال: فدعا بهما فلاعن بينهما. قال عويمر: لئن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها. قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنّة المتلاعنين، وقال رسول الله ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين، عظيم الأليتين، فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة، فلا أراه إلا كاذباً» فجاءت به على النعت المكروه. أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي من طرق عن الزهري، به[(٣)].

ورواه البخاري أيضاً من طرق عن الزهري به، فقال: حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله ﷺ: «قد قضي فيك وفي امرأتك» قال: فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ مفارقها، فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنَين وكانت حاملاً فأنكر حملها وكان ابنها يدعىٰ إليها. ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لها[(٤)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أُبيه، عن زيد بن يُثيع، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لو رأيت مع أُم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به؟» قال: كنت والله فاعلاً به شراً، قال: «فأنت يا عمر؟» قال: كنت والله فاعلاً، كنت أقول: لعن الله الأعجز فإنه خبيث. قال: فنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾. ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده إلا النضر بن شميل، عن يونس بن أبي

---

(١) (المسند ١/ ٤٢١)، وصحيح مسلم، اللعان (ح١٤٩٥).

(٢) في هذه الرواية ورد ذكر عويمر في القصة، وفي الرواية السابقة هلال بن أمية، وقد جمع الحافظ ابن حجر بأن يكون هلال سأل أولاً ثم سأل عويمر، فنزلت الآية في شأنهما معاً (فتح الباري ٩/ ٤٥٠).

(٣) (المسند ٥/ ٣٣٤)، وصحيح البخاري، التفسير، سورة النور، باب ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ...﴾ [النور: ٦] (ح٤٧٤٥) وصحيح مسلم، اللعان (ح١٤٩٢).

(٤) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور (ح٤٧٤٦).

إسحاق، ثم رواه من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع، مرسلاً[١]، فالله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي، حدثنا مخلد بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أنس بن مالك ﷺ قال: لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أربعة شهود، وإلا فحد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إن الله يعلم إني لصادق، ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهري من الجلد، فأنزل الله آية اللعان ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ . . .﴾ إلى آخر الآية، قال: فدعاه النبي ﷺ فقال: «اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا» فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له في الخامسة: «ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا» ففعل، ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا» فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا» قال: فلما كانت الرابعة أو الخامسة، سكت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «انظروا فإن جاءت به جعداً حمش الساقين، فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به أبيض سبطاً قضيء العينين[٢]، فهو لهلال بن أُمية» فجاءت به آدم جعداً حمش الساقين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١﴾.

هذه العشر آيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين ﷺ حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله ﷻ لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله تعالى، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت لها اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحدٍ

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٢٣٧)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ٧٤)، وفي سنده يونس بن أبي إسحاق، وهو السبيعي: صدوق يهم قليلاً (التقريب ص٦١٣) وأبوه مدلس ولم يصرح بالسماع، وتارة يرويه مرسلاً، وتارة موصولاً.

(٢) أي: أقمر العينين.

(٣) أخرجه أبو يعلى بسنده بنحوه (المسند ٥/ ٢٠٧ ح٢٨٢٤) وصححه محققه، وأخرجه مسلم من طريق هشام به (الصحيح، اللعان ح١٤٩٦).

منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً، ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوة وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار(١) قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يُهَلَّبهن(٢) ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة(٣) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين(٤) في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أُبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت(٥)، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه(٦) في البرية، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأُم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أُم مسطح في مرطها(٧)، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت: تسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أتيقن الخبر من

---

(١) أي: خرز وظفار مدينة في اليمن.
(٢) أي: لم يكثر عليهن.
(٣) أي: الشيء اليسير.
(٤) أي: وقد توسط الشمس السماء.
(٥) أي: برأت وأفقت من المرض.
(٦) أي: التباعد؛ أي: مكان بعيد عن السكن لقضاء الحاجة.
(٧) المرط: الكساء.

قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أُبوي فقلت لأُمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت سبحان الله أوقد تحدث الناس بها، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لـي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أُسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أُسامة: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه[١] عليها أكثر من جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[٢] فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أُبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قال: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبٍ ثم تاب، تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص[٣] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أحفظ كثيراً من القرآن: والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقني، وإني والله ما أجد لي ولكم

---

(١) أي: أعيبها به، وأطعن به عليها.

(٢) أي: الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.

(٣) أي: ذهب الدمع.

مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة أما الله ﷻ فقد برأك»، قالت: فقالت لي أُمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ﷻ هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . .﴾ العشر آيات كلها، فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر ﵁ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري[١]. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري، كذلك قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة ﵂، وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم[٢]، والله أعلم.

ثم قال البخاري: وقال أبو أُسامة، عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي، عن عائشة ﵂ قالت: لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به، قام رسول الله ﷺ فيّ خطيباً، فتشهّد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد؛ أشيروا عليّ في أناس أبنوا[٣] أهلي، وايمُ الله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وما علمت على أهلي من سوء، وأبنوهم[٤] بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله ﷺ، ائذن لنا أن نضرب أعناقهم، فقام رجل من

---

(١) (المسند ٦/ ١٩٤ ـ ١٩٧)، وصحيح البخاري، الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً (ح٢٦٦١)، وصحيح مسلم، التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (ح٢٧٧٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٧ ـ ٣٠٧.

(٣) أي: اتهموا أهلي.

(٤) أي: اتهموهم.

الخزرج وكانت أُم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل، فقال: كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح، فعثرت فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أي أم تسبين ابنك؟ فسكتت، ثم عثرت الثانية فقالت: تعسَ مسطح فقلت لها: أي أم تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة فقالت: تعس مسطح فانتهرتُها، فقالت: والله ما أسبه إلا فيك، فقلت: في أي شأني؟ قالت: فبقرت[1] لي الحديث، فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله، فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً، ووعكت وقلت لرسول الله ﷺ: أرسلني إلى بيت أبي، فأرسل معي الغلام، فدخلت الدار فوجدت أم رومان في السفل، وأبا بكر فوق البيت يقرأ، فقالت أُم رومان: ما جاء بك بنية، فأخبرتها وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني، فقالت: يا بنية خففي عليك الشأن، فإنه واللهِ لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها، وقيل فيها، فقلت: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسول الله ﷺ؟ قالت: نعـم ورسول الله ﷺ، فاستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأُمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه رضي الله عنه وقال: أقسمت عليك - أي بنية - إلا رجعت إلى بيتك؛ فرجعت، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي فقالت: لا والله ما علمت عليها عيباً إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، وانتهرها بعض أصحابه فقال: اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به. فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ عن تبر الذهب الأحمر، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط.

قالت عائشة رضي الله عنها: فقتل شهيداً في سبيل الله، وقالت: وأصبح أبواي عندي فلم يزالا حتى دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، ثم دخل وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ يا عائشة إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده» قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب فقلت: ألا تستحيي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً؟ فوعظ رسول الله ﷺ فالتفت إلى أبي فقلت له: أجبه قال: فماذا أقول؟ فالتفت إلى أمي فقلت: أجيبيه قالت: ماذا أقول؟ فلما لم يجيباه تشهّدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد فوالله إن قلت لكم: إني لم أفعل والله عز وجل يشهد أني لصادقة ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم، وإن قلت لكم: إني قد فعلت، والله يعلم أني لم أفعل، لتقولن: قد باءت به على نفسها، وإنني والله ما أجد لي ولكم مثلاً، والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته، فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك» قالت: وكنت أشد ما كنت غضباً فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم

(١) أي: كشفت الحديث.

إليه ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه.

وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك، وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت، وأما المنافق عبد الله بن أُبي بن سلول، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة، قالت: وحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً، بنافعة أبداً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ يعني: أبا بكر ﴿وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ يعني: مسطحاً إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد له بما كان يصنع[١]. هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقاً بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد بن أُسامة أحد الأئمة الثقات. وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع، عن أبي أُسامة به مطولاً مثله أو نحوه. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أُسامة ببعضه[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: لما نزل عذري من السماء جاءني النبي ﷺ فأخبرني بذلك، فقلت: نحمد الله لا نحمدك[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثني ابن أبي عدي، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة أيضاً، عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أَمَرَ برجلين وامرأة فضربوا حدَّهم[٤]، وأخرجه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش[٥]، فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة ﵂ في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها.

وقد روي من حديث أُمها أُم رومان ﵂، فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أخبرنا حصين، عن أبي وائل، عن مسروق، عن أُم رومان، قالت: بينا أنا عند عائشة؛ إذ دخلت علينا امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة: ولم؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث، قالت: وأي الحديث؟ قالت: كذا وكذا، قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وبلغ أبا بكر؟ قالت: نعم، فخرّت عائشة ﵂ مغشياً عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض، فقمت فدثرتها، قالت: فجاء النبي ﷺ قال: «فما شأن هذه؟» فقلت: يا رسول الله

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور، (ح٤٧٥٧).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بهذين السندين بنحوه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٠/ ١٣ ح٢٤٠١٣)، وقال محققوه: حديث صحيح، دون قوله: «جاءني النبي ﷺ فأخبرني بذلك».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٠/ ٧٦، ٧٧ ح٢٤٠٦٦) وحسنه محققوه.

(٥) سنن أبي داود، الحدود، باب حد القذف (ح٤٤٧٤)، وسنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة النور (ح٣١٨١)، والسنن الكبرىٰ للنسائي، التعزيرات، باب حدد القذف (ح٧٣٥١)، وسنن ابن ماجه، الحدود، باب حد القذف (ح٢٥٦٧)، وحسنه الألباني أيضاً صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٠٨١).

أخذتها حُمَّى بنافض، قال: «فلعله في حديث تحدث به» قالت: فاستوت له عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله عذرها، فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، فدخل فقال: يا عائشة «إن الله تعالى قد أنزل عذرك» فقالت: بحمد الله لا بحمدك، فقال لها أبو بكر: تقولين هذا لرسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قالت: فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر فحلف أن لا يصله، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ...﴾ إلى آخر الآية [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: بلى فوصله. تفرد به البخاري دون مسلم من طريق حصين(١).

وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل، عن أبي عوانة، وعن محمد بن سلام، عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به، وفي لفظ أبي عوانة: حدثتني أُم رومان(٢)، وهذا صريح في سماع مسروق منها، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفّاظ منهم الخطيب البغدادي، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمن النبي ﷺ، قال الخطيب: وقد كان مسروق يرسله فيقول: سئلت أم رومان، ويسوقه فلعل بعضهم كتب (سئلت) بألف اعتقد الراوي أنها (سألت) فظنه متصلاً، قال الخطيب: وقد رواه البخاري كذلك ولم تظهر له علته، كذا قال(٣)، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي: بالكذب والبهت والافتراء ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة منكم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ أي: يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين ﵂، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء(٤).

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثني محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا جعفر بن عون، عن

---

(١) (المسند ٦/ ٣٦٧، ٣٦٨)، وصحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف] (ح٣٣٨٣).

(٢) صحيح البخاري، المغازي، باب حديث الإفك (ح٤١٤٣).

(٣) وقد أجاب الحافظ ابن حجر على ما ذكره الحافظ الخطيب البغدادي، فقال الحافظ ابن حجر: والذي ظهر لي بعد التأمل أن الصواب مع البخاري؛ لأن عمدة الخطيب ومن تبعه في دعوىٰ الوهم: الاعتماد على قول من قال: إن أم رومان ماتت في حياة النبي ﷺ سنة أربع، وقيل: سنة خمس، وقيل: ست، وهو شيء ذكره الواقدي، ولا يتعقب الأسانيد الصحيحة بما يأتي عن الواقدي، وقد أشار البخاري إلى ردِّ ذلك في تاريخه الأوسط والصغير، فقال: بعد أن ذكر أم رومان في فصل من مات في خلافة عثمان: روىٰ علي بن يزيد عن القاسم قال: ماتت أم رومان في زمن النبي ﷺ سنة ست، قال البخاري: وفيه نظر وحديث مسروق أسند، أي: أقوى إسناداً وأبين اتصالاً (فتح الباري ٨/ ٤٣٨).

(٤) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور، باب ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ...﴾ [النور: ١٥] (ح٤٧٥٣).

المعلى بن [عرفان][١]، عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة ما قلت: حين ركبتيها؟ قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، قالت: قلت: كلمة المؤمنين[٢].

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ قيل: ابتدأ به، وقيل: الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أُبي ابن سلول ـ قبحه الله تعالى ولعنه ـ وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد[٣]، وقيل: المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك، لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذبُّ عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وجبريل معك»[٤].

وقال الأعمش: عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت فألقي له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني: يدخل عليك، وفي رواية: قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قالت: وأي عذاب أشد من العمى، وكان قد ذهب بصره، لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ، وفي رواية: أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به، فقال[٥]:

حصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتصبح غَرثى من لحوم الغوافل[٦]

فقالت: أما أنت فلست كذلك. وفي رواية: لكنك لست كذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن قزعة، حدثنا سلمة بن علقمة[٧]، حدثنا داود، عن عامر، عن عائشة أنها قالت: ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

هجوت محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

---

(١) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صحف إلى: «عرفات».

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً؛ لأن المعلىٰ بن عرفان: متروك الحديث (ينظر: لسان الميزان ٦/ ٦٤).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف، والأثر مرسل.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٨٧.

(٥) ديوان حسان رضي الله عنه ص١٨٨.

(٦) أخرجه البخاري من طريق شعبة عن الأعمش به (الصحيح، المغازي، باب حديث الإفك ح٤١٤٦).

(٧) قال الحافظ ابن حجر: سلمة بن علقمة عن داود بن أبي هند، صوابه: مسلمة (التقريب ص٢٤٨).

أتشتمه ولست له بكفء؟ فشركما لخيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء[(١)]

فقيل: يا أم المؤمنين أليس هذا لغواً؟ قالت: لا إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم؟ أليس قد ذهب بصره، وكنع[(٢)] بالسيف[(٣)]؟ تعني: الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمي حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك، فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيء، وما ذكر من شأن الإفك فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ﴾ يعني: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رُميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار: عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار: إن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أُم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، قال: فلما نزل القرآن ذكر عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ . . .﴾ الآية؛ أي كما قال أبو أيوب وصاحبته[(٤)].

وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني ابن أبي حبيب، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان، عن الأفلح مولى أبي أيوب: أن أم أيوب قالت لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله. قال: فعائشة والله خير منك، فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك قال الله عز وجل: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ يعني: أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال[(٥)].

ويقال: إنما قالها أُبيّ بن كعب[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ . . .﴾ إلخ؛ أي هلّا ظنوا الخير فإن أُم المؤمنين أهله وأولى به.

---

(١) الأبيات وردت في ديوان حسان ص٩. (٢) كنعه بالسيف: أي أيبس جلده خوفاً وهلعاً.
(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وداود هو ابن أبي هند، وعامر هو الشعبي، وسنده حسن.
(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٢/ ٣٠٢)، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي أيوب رضي الله عنه.
(٥) أخرجه الواقدي بسنده ومتنه (المغازي ٢/ ٤٢٤)، وسنده ضعيف لضعف الواقدي.
(٦) ذكره الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/ ٤٧٠).

هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: بألسنتهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب ظاهر على أُم المؤمنين ﵂، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أُم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا لو قدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة، قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قَبِل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير؛ أي يرويه بعضكم عن بعض[(١)]، يقول: هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقرأ آخرون «إذ تَلِقونه بألسنتكم»[(٢)]، وفي صحيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تقرؤها كذلك[(٣)]، وتقول: هو من ولق اللسان؛ يعني: الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: ولق فلان في السير؛ إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن نافع، عن ابن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة أنها كانت تقرأ «إذ تَلِقونه» وتقول: إنما هو ولق القول، والولق: الكذب. قال ابن أبي مليكة: هي أعلم به من غيرها[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون، ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أُم المؤمنين وتحسبون

---

(١) أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) وهي قراءة شاذة تفسيرية.
(٣) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور، باب ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ...﴾ [النور: ١٥] (ح٤٧٥٢).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأُمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! فإن الله ﷻ يغار لهذا، وهو ﷻ لا يقدّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلّا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾. وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض». وفي رواية: «لا يلقي لها بالاً»[1].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير؛ أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عمّا حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» أخرجاه في الصحيحين[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أن نتفوّه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله.

ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً؛ أي فيما يستقبل، فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك حكم آخر، ثم قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكم القدرية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب الأليم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فردُّوا الأمور إليه ترشدوا.

---

(١) أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، صحيح البخاري، الرقاق، باب حفظ اللسان (ح٦٤٧٨)، وصحيح مسلم، الزهد، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (ح٢٩٨٨).

(٢) أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الطلاق ح٥٢٦٩)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس (ح١٢٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا [ميمون أبو محمد المرئي][(١)]، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته»[(٢)].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطَهُر من طَهُر منهم بالحدِّ الذي أقيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ عمله[(٣)].

وقال عكرمة: نزغاته[(٤)].

وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان[(٥)].

وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان[(٦)].

وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كفّر عن يمينك وكُلْ[(٧)].

وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشاً[(٨)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا السري بن يحيى، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع قال: غضبت عليّ امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أُم سلمة[(٩)] وهي يومئذٍ أفقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك[(١٠)].

---

(١) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل صحف إلى: «ميمون بن أبي محمد المراي».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٧/ ٨٨ ح٢٢٤٠٢)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه حفص بن عمر، وهو ضعف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق القاسم بن الوليد الهمداني عن قتادة.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سليمان التيمي عن أبي مجلز.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣١٣).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق خالد بن داود عن الشعبي.

(٩) زينب بنت أم سلمة بن عبد الأسد بن هلال ماتت سنة ثلاث وسبعين (الإصابة ٤/ ٣١٧).

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها، وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الألية وهي الحلف؛ أي لا يحلف ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الطّوْل والصدقة والإحسان ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي: الجدة ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم.

وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث(١)، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنّة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولق(٢) ولقةً تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ . . .﴾ الآية، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب، يا ربنا أن تغفر لنا ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان؛ قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً. فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه [وعن بنته](٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ـ خُرِّج مخرج الغالب ـ

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير الآية ١١ من هذه السورة الكريمة.

(٢) أي: كذب.

(٣) زيادة من (ح) و(حم).

فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، وقد أجمع العلماء ـ رحمهم الله ـ قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان؛ أصحهما أنهنَّ كهي، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب]، وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن خراش، عن العوام، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال: نزلت في عائشة خاصة[1]، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان.

وقد ذكره ابن جرير، عن عائشة فقال: حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أوحي إليه، قالت: وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالساً يمسح وجهه، وقال: «يا عائشة أبشري» قال: فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾حتى قرأ ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦][2]، هكذا أورده وليس فيه أن الحكم خاص بها، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم. وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نبيط: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء[3].

وقال العوفي، عن ابن عباس في الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباءوا بسخط من الله فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ، ثم نزل بعد ذلك ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤، ٥] فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تُقبل والشهادة تُردُّ[4].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هشيم، أخبرنا العوام بن حوشب، عن شيخ من بني أسد، عن ابن عباس قال: فسر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، قال: في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده عبد الله بن خراش وهو ضعيف كما في التقريب، وقد توبع فأخرجه الحاكم من طريق يزيد بن هارون عن العوام به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ١٠).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ويشهد له حديث قصة الإفك المتفق عليه، وقد مضىٰ في تفسير آية ١١ من هذه السورة الكريمة.

(٣) قول الضحاك أخرجه الطبراني من طريق محمد بن يوسف الفريابي عن سفيان عن سلمة بن نبيط عنه (المعجم الكبير ٢٣/ ١٥٢ رقم ٢٢٩) وسنده صحيح، وقول أبي الجوزاء أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عمرو بن مالك النكري عنه، وقول سلمة بن نبيط أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي أسامة ـ وهو حماد بن أسامة ـ عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويشهد له ما تقدم.

مبهمة وليست لهم توبة، ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ . . .﴾ الآية [النور: ٥]، قال: فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبّل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور[١].

فقوله: وهي مبهمة؛ أي عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات، فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت إمام ذلك[٢].

وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي بن وهب، حدثني عمي، حدثنا سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به[٣].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحراني، حدثني أبي، وحدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب، حدثني موسى بن أعين، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صِلة بن زُفر، عن حُذيفة، عن النبي ﷺ قال: «قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة»[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو ابن أبي قيس، عن مِطرف، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنهم - يعني: المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجحد فيجحدون، فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً[٥].

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن درَّاج، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف، وأخرجه الطبراني من طريق هشيم به (المعجم الكبير ٢٣/١٥٤ رقم ٢٣٤)، ويشهد له الآثار السابقة.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وهو صحيح متفق عليه (صحيح البخاري، الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] ح٢٧٦٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أكبر الكبائر (ح٨٩).

(٤) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٣/١٨٧ رقم ٣٠٢٣)، وفي سنده ليث، وهو ابن أبي سُليم، فيه مقال.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

كذبوا، فيقال: أهلك وعشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا؛ فيحلفون، ثم يصمتهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يدخلهم النار»[١].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأسدي، حدثنا سفيان بن عبيد المكتب، عن فضيل بن عمرو الفقيمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد لربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي؛ فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لكنَّ وسُحقاً فعنكنَّ كنت أناضل[٢]»[٣]. وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبيه، عن عبيد الله الأشجعي، عن سفيان الثوري به، ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي، وهو حديث غريب[٤]، والله أعلم، هكذا قال.

وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة في بدنك، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت، وهو بالله حسن الظن فليفعل، ولا قوة إلا بالله[٥].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: حسابهم وكل ما في القرآن: دينهم؛ أي حسابهم، وكذا قال غير واحد، ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة[٦]، وقرأها بعض السلف في مصحف أُبيّ بن كعب: «يومئذٍ يوفيهم الله الحق دينهم»[٧].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بالسند والمتن، وسنده ضعيف؛ لأن رواية دراج عن أبي الهيثم فيها مقال.
(٢) أناضل: أي أُجادل وأُدافع.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٤) صحيح مسلم، الزهد والرقائق (ح٢٩٦٩)، وسنن النسائي ٦/٧٦، والنكت الظراف ١/٢٤٩.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٦) القراءتان متواترتان.
(٧) أخرجه الطبري بسند منقطع من طريق جرير بن حازم عن أُبي بن كعب، وجرير لم يدرك أُبي بن كعب، والقراءة شاذة تفسير به.

القول والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك[١]، وهكذا روي عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك[٢]، واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[٣].

وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم؛ أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ أي: هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمٰن، عن الحكم، عن يحيى بن الجزار قال: جاء أسير بن جابر إلى عبد الله، فقال: لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل[٤] في صدره ما يستقر حتى يلفظها، فيسمعها الرجل عنده يُتلّها فيضمها إليه، وأن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه. ثم قرأ عبد الله: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾[٥]، ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً: «مثل هذا الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشرّ ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال: اجزرني شاة، فقال: اذهب فخذ بأذن أيها شئت، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم»[٦].

وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذها»[٧].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويتقوىٰ بالآثار التي تليه.

(٢) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وأخرج الطبري آثارهم بأسانيد ثابتة إلا قول الحسن البصري لم يخرجه وقد عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب ـ وهو عبد الله ـ عن عبد الرحمن.

(٤) أي: تتردد وتتحرك، والجلجلة: حركة مع صوت (النهاية ١/ ٢٨٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٦) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ (المسند ١٤/ ٢٨٤ ح٨٦٣٩)، وضعفه محققوه؛ لأن فيه علي بن زيد، وهو ابن جدعان: ضعيف، ولجهالة أوس بن خالد.

(٧) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث غريب (السنن، أبواب العلم، باب في فضل الفقه على العبادة ح٢٦٨٧)، وابن ماجه (السنن، الزهد، باب الحكمة ح٤١٦٩)، وضعفه السخاوي (المقاصد الحسنة ص١٩١، ١٩٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه آداب شرعية، أدّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا؛ أي يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف» فقال عمر: لتأتيني على هذا ببيِّنة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملإٍ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال: ألهاني عنه الصفق(١) بالأسواق(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس أو غيره: أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلّم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيباً فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار، وصلّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون»(٣).

وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أبي عمرو الأوزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمٰن بن سعد بن زرارة، عن قيس بن سعد ـ هو: ابن عبادة ـ قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فردَّ سعد ردّاً خفياً، قال قيس: فقلت ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: دعه يكثر علينا من السلام، فقال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله» فردَّ سعد رداً خفياً ثم قال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله» ثم رجع رسول الله ﷺ، واتبعه سعد فقال: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأردُّ عليك ردّاً خفياً لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس، فاشتمل بها ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة». قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من

---

(١) أي: شغلني عن ذلك الحديث أمر التجارة في الأسواق.

(٢) صحيح البخاري، الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً (ح٦٢٤٥)، وصحيح مسلم، الآداب، باب الاستئذان (ح٢١٥٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١٣٨)، وسنده صحيح.

الطعام، فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حماراً قد وطئ[(١)] عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ فقال سعد: يا قيس اصحب رسول الله ﷺ، قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب» فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف» قال: فانصرفت[(٢)]، وقد روي هذا من وجوه أخر، فهو حديث جيد قوي، والله أعلم.

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، لما رواه أبو داود: حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني في آخرين قالوا: حدثنا بَقية، حدثنا محمد بن عبد الرحمٰن، عن عبد الله بن بُسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذٍ ستور[(٣)]، تفرد به أبو داود.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير (ح)، قال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن طلحة، عن هزيل قال: جاء رجل، قال عثمان: سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب قال عثمان: مستقبل الباب، فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك، أو هكذا، فإنما الاستئذان من النظر»[(٤)]. وقد رواه أبو داود الطيالسي عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن طلحة بن مصرف، عن رجل، عن سعد، عن النبي ﷺ؛ رواه أبو داود من حديثه[(٥)].

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فخذفته[(٦)] بحصاة ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح»[(٧)].

وأخرج الجماعة من حديث شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققت الباب، فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، قال: «أنا أنا» كأنه كرهه[(٨)]، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية.

وقال العوفي، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان، وكذا قال غير واحد[(٩)].

---

(١) أي: جعل عليه فراشاً وطيئاً.

(٢) سنن أبي داود، الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان (ح٥١٨٥)، وقال عنه الحافظ ابن كثير: جيد قوي.

(٣) المصدر السابق (ح٥١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣١٨).

(٤) سنن أبي داود، الأدب، باب في الاستئذان (ح٥١٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣١٠).

(٥) المصدر السابق (ح٥١٧٥).

(٦) أي: فرميته.

(٧) صحيح البخاري، الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه (ح٦٩٠٢)، وصحيح مسلم، الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره (ح٢١٥٨).

(٨) صحيح البخاري، الاستئذان، باب إذا قال: أنا... (ح٦٢٥٠)، وصحيح مسلم، الأدب، باب كراهة قول المستأذن: أنا... (ح٢١٥٥).

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به، ومعناه صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شبعة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ قال: إنما هي خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا[١]. وهكذا رواه هشيم عن أبي بشر ـ وهو جعفر بن إياس ـ به وروى معاذ بن سليمان عن جعفر بن إياس عن سعيد، عن ابن عباس بمثله، وزاد: كان ابن عباس يقرأ «حتى تستأذنوا وتسلموا» وكان يقرأ على قراءة أُبيّ بن كعب رضي الله عنه[٢]، وهذا غريب جداً عن ابن عباس.

وقال هشيم: أخبرنا مغيرة عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا»[٣]، وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيار ابن جرير.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني عمرو بن أبي سفيان، أن عمرو بن عبد الله بن صفوان أخبره، أن كِلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أُمية بعثه في الفتح بلبأ[٤] وجَدَاية[٥] وضغابيس[٦]، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل؟» وذلك بعدما أسلم صفوان[٧]. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه[٨].

وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن رِبعي قال: أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل[٩]. وقال هشيم: أخبرنا منصور، عن ابن سيرين، وأخبرنا يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد الثقفي: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج أو أنلج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها: روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول: السلام عليكم أأدخل؟» فسمعها الرجل فقالها، فقال: «ادخل»[١٠].

وقال الترمذي: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا سعيد بن زكريا، عن عنبسة بن عبد الرحمٰن، عن محمد بن زاذان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح، ولعل قول ابن عباس هذا مستند على قراءة منسوخة قرأ بها أُبي بن كعب كما سيأتي في الرواية التالية.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الحسين عن هشيم به، والحسين هو ابن داود: ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري من الطريق السابق، وفيه أيضاً إبراهيم وهو النخعي لم يسمع من ابن مسعود.

(٤) اللبا: هو أول ما يحلب عند الولادة.

(٥) الجَداية من أولاد الظباء ما بلغ ستة أشهر أو سبعة. (٦) الضغابيس: جمع ضغبوس، وهي صغار القثاء.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٤/ ١٥٢ ح١٥٤٢٥)، وصحح سنده محققوه.

(٨) سنن أبي داود، الأدب، باب كيف الاستئذان (ح٥١٧٦)، وسنن الترمذي، الاستئذان؟ باب ما جاء في التسليم قبل الاستئذان (ح٢٧١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣١١).

(٩) المصدر السابق (ح٥١٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣١٢).

(١٠) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ويشهد له ما سبق.

«السلام قبل الكلام» ثم قال الترمذي: عنبسة: ضعيف الحديث ذاهب، ومحمد بن زاذان: منكر الحديث[١].

وقال هشيم: قال مغيرة: قال مجاهد: جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء، فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال: السلام عليكم أأدخل؟ قالت: ادخل بسلام، فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه، قال: قولي: ادخل. قالت: ادخل؛ فدخل[٢].

ولابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم الأحول، حدثني خالد بن إياس، حدثتني جدتي أُم إياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة، فقلت: ندخل؟ فقالت: لا، قلن لصاحبتكن تستأذن، فقالت: السلام عليكم أندخل؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ . . .﴾ الآية[٣].

وقال هشيم: أخبرنا أشعث بن سوار، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم، قال أشعث، عن عدي بن ثابت: إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، قال: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا. . .﴾ الآية[٤].

وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ثلاث آيات جحدهن الناس. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً، قال: والأذن كله قد جحده الناس، قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم، فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن قال: فراجعته أيضاً. فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم، قال: فاستأذن.

قال ابن جريج: وأخبرني ابن طاوس، عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عورتها من ذات محرم، قال: وكان يشدد في ذلك.

وقال ابن جريج، عن الزهري: سمعت هزيل بن شرحبيل الأودي الأعمى أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أُمهاتكم.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته قال: لا[٥]. وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

---

(١) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه ونقده (السنن، أبواب الاستئذان، باب السلام قبل الكلام ح٢٦٩٩).

(٢) أخرجه الطبري من طريق الحسين عن هشيم به، والحسين هو ابن داود: ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً؛ لأن خالد بن إياس متروك، كما في التقريب.

(٤) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده ضعيف لضعف أشعث بن سوار.

(٥) أخرجه بطوله وطرقه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف؛ لأنه مروي من طريق الحسين، وهو ابن داود ويُلقب بسُنيد وهو ضعيف، وأخرجه سنيد به كما في التمهيد لابن عبد البر ١٦/٢٣٢.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن خازم، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخي زينب ـ امرأة عبد الله بن مسعود ـ عن زينب رضي الله عنها، قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه[١]، إسناده صحيح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن [أبي عبيدة][٢]. قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس وتكلم ورفع صوته[٣].

وقال مجاهد: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾، قال: تنحنحوا وتنخموا[٤].

وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ: أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً[٥]. وفي رواية: ليلاً يتخونهم[٦].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً، فأناخ بظاهرها، وقال: «انتظروا حتى ندخل عشاء ـ يعني: آخر النهار ـ حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة»[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الرحمٰن بن سليمان، عن واصل بن السائب، حدثني أبو سورة بن أخي أبي أيوب، عن أبي أيوب قال: قلت: يا رسول الله هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت»[٨]، هذا حديث غريب.

وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردوا، ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر[٩].

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول: حُيّيت صباحاً وحُيّيت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده الحافظ ابن كثير.
(٢) كذا في (ح) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحف إلى: «أبي هبيرة».
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده منقطع؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر عن مجاهد.
(٥) صحيح البخاري، النكاح، باب لا يطرق أهله ليلاً... (ح٥٢٤٣).
(٦) صحيح مسلم، الإمارة، باب كراهية الطروق... (ح٧١٥/ ١٨٤).
(٧) صحيح البخاري، النكاح، باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثه (ح٥٢٤٧).
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف واصل وأبي سورة، كما في التقريب. وضعف سنده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١١/ ٨).
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق محمد بن يسار عن قتادة.

يقتحم ويقول: قد دخلت، ونحو ذلك، فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله، فغير الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ . . .﴾ الآية[١].

وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يعني: الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾.

وقال قتادة: قال بعض المهاجرين؛ لقد طلبت عمري كله هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[٢].

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ أي: لا تقفوا على أبواب الناس[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن، كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى.

قال ابن جريج، قال ابن عباس: «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم» ثم نسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾[٤]. وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري[٥].

وقال آخرون: هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار[٦]، وبيوت مكة وغير ذلك، واختار ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة، والأول أظهر، والله أعلم.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشعر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان لكنه معضل؛ لأن مقاتل بن حيان تابع تابعي.

(٢) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به وسنده ضعيف؛ لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس، وأخرجه ابن الجوزي موصولاً بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس (نواسخ القرآن ص٤٠٧).

(٥) قول عكرمة أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، ولكنه توبع كما في رواية ابن الجوزي السابقة، وقول الحسن ذكره النحاس بغير سند (الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٤٥).

(٦) أخرجه النحاس بسند جيد عن محمد بن علي بن الحنفية (المصدر السابق ٢/ ٥٤٨).

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد، عن عمرو بن سعيد، عن أبي زُرعة بن عمرو بن جرير، عن جده جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري[(١)]. وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم، عن يونس بن عبيد به. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضاً[(٢)].

وقال الترمذي: حسن صحيح، وفي رواية لبعضهم فقال: «أطرق بصرك» يعني: انظر إلى الأرض، والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري، حدثنا شريك، عن أبي ربيعة الإيادي، عن عبد الله بن بُريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الأخرة» ورواه الترمذي من حديث شريك وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه[(٣)].

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ فقال: «غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[(٤)].

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فضل بن جبير[(٥)]، سمعت أبا أُمامة، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي ستاً أكفل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم»[(٦)].

وفي صحيح البخاري: «من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أكفل له الجنة»[(٧)].

---

(١) صحيح مسلم، الآداب، باب نظر الفجأة (ح٢١٥٩).

(٢) (المسند ٤/ ٣٦١)، وسنن أبي داود، النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر (ح٢١٤٨)، وسنن الترمذي، الأدب، ما جاء في نظرة المفاجأة (ح٢٧٧٦)، والسنن الكبرىٰ للنسائي (ح٩٢٣٣).

(٣) سنن أبي داود، النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر (ح٢١٤٩)، وسنن الترمذي، الأدب، باب ما جاء في نظرة المفاجأة (ح٢٧٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٨٨١).

(٤) صحيح البخاري، المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها (ح٢٤٦٥).

(٥) «فضل بن جبير» كذا في الأصل، وفي (ح) و(حم): «فضيل بن جبير».

(٦) أخرجه الخطيب البغدادي من طريق أبي القاسم البغوي به (تاريخ بغداد ٧/ ٣٩٢)، وأخرجه ابن حبان من طريق فضال بن جبير به، وقال: فضال بن جبير لا يحتج به (المجروحين ٢/ ٢٠٤)، ولبعضه شواهد كما في الحديث التالي.

(٧) صحيح البخاري، الرقاق، باب حفظ اللسان (ح٦٤٧٤).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة قال: كل ما عصي الله به فهو كبيرة[(١)]، وقد ذكر الطرفين فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظر سهم سم إلى القلب، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المعارج]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته، ويروى: في قلبه.

وروى الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة - (أول مرة) - ثم يغضُّ بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها»[(٣)]، وروي هذا مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة[(٤)] وعائشة ﷺ، ولكن في إسنادها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه.

وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن [زحر][(٥)]، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة مرفوعاً: «لتغضنّ أبصاركم، ولتحفظنُّ فروجكم، ولتقيمنّ وجوهكم، أو لتكسفن وجوهكم»[(٦)].

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير [التستري][(٧)] قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير، المقري، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان، عن عبد الرحمٰن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمٰن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[(٨)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

---

(١) سنده صحيح.
(٢) المسند ٥/ ٣، ٤، وسنن أبي داود، الحمام، باب ما جاء في التعري (ح٤٠١٧)، وسنن ابن ماجه، النكاح، باب التستر عند الجماع (ح١٩٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٣٩١)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ١٧٩)، وصححه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١/ ٣٨٥).
(٣) (المسند ٥/ ٢٦٤)، وسنده ضعيف لضعف علي بن يزيد، وهو الألهاني.
(٤) أخرجه الحاكم وضعفه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣١٤).
(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل خطأ بلفظ: «يزيد».
(٦) (المعجم الكبير ٨/ ٢٤٦)، وسنده ضعيف كرواية المسند المتقدمة.
(٧) في الأصل بدون نقط.
(٨) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١٠/ ٢١٤)، وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق، وهو الواسطي (مجمع الزوائد ٨/ ٦٣).

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنَى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» رواه البخاري تعليقاً، ومسلم مسنداً من وجه آخر بنحو ما تقدم[1].

وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد، وقد شدّد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن [صهبان][2]، عن صفوان بن سليم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله ﷻ»[3].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركين، وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرشدة كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدوا ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن[4] فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ...﴾ الآية[5]، فقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ أي: عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً.

واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري عن نبهان مولى أم سلمة: أنه

---

(١) صحيح البخاري، الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج (ح٦٣٤٣)، وأخرجه مسلم موصولاً بنحوه (الصحيح، القدر، باب ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء] ح٢٦٥٧).

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: ههيان.

(٣) أخرجه أبو نعيم من طريق عمر بن محمد بن صهبان به (الحلية ٣/ ١٦٣)، وسنده ضعيف لضعف عمر بن محمد بن صهبان (التقريب ص٤١٤).

(٤) أي: شعورهن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام شيخ مقاتل بن حيان.

حدث أن أُم سلمة حدثته أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أُم مكتوم، فدخل عليه وذلك بعدما أُمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ عمياوان أنتما؟ أولستما تبصرانه؟» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[1].

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أُم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملَّت ورجعت[2].

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش[3].

وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن[4].

وقال مقاتل: عن الزنا[5].

وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج، فهو من الزنا إلا هذه الآية[6]. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أن لا يراها أحد[7].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب[8]. يعني: على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب. فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره في زين النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي[9] وغيرهم.

وقال الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم[10]. وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي

---

(١) سنن أبي داود، اللباس، باب قول الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ﴾ [النور: ٣١] (ح١١٣)، وسنن الترمذي، الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال (ح٧٧٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١٢/ ٣٨٧ ح٥٥٧٥)، وقواه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٩/ ٣٣٧).

(٢) صحيح البخاري، الصلاة، باب أصحاب الحراب في المسجد (ح٤٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.

(٤) قول سفيان أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الله بن المبارك عنه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل.

(٦) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.

(٨) أخرجه البُستي والطبري وابن أبي حاتم والحاكم من طرق عن ابن مسعود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٧)، وأخرجه الطبراني وقال الهيثمي: ورجال أحدها رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٨٢).

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق علقمة عن إبراهيم.

(١٠) هذا الطريق لم أجدهُ ولم يسم الحافظ ابن كثير الراوي عن الأعمش، وفرضاً لو صح فإنه مقيد في هذا التفسير في بيتها، فقد أخرج الطبري بسنده الثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فهذه تظهر في بيتها لمن دخل من الناس عليها، وقد وضحه الزهري كما سيأتي بعد روايتين، علماً أن الطبري أخرجه بلفظ: «الكحل والخاتم» وفيه مسلم بن كيسان الملائي، وهو ضعيف (التقريب ص٥٣٠).

الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك[١]، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة: القرط والدملج والخلخال والقلادة[٢]. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان؛ فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب[٣].

وقال الزهري: لا يبدين لهؤلاء الذين سمى الله من لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر، وأما عامة الناس فلا يبدين منها إلا الخواتم[٤].

وقال مالك، عن الزهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الخاتم والخلخال[٥].

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه: حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي ومؤمل بن الفضل الحراني قالا: حدثنا الوليد، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دريك، عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه[٦]، لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي: هذا مرسل، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: المقانع يعمل لها صيفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فإنهن لم يكن يفعلن ذلك؛ بل كانت المرأة منهن تمرُّ بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن

---

(١) قول ابن عمر لم أجده مسنداً، وقول عطاء أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الأوزاعي عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه البستي والطبري بسند ضعيف من طريق عبد الله بن مسلم بن هرمز عن سعيد، وعبد الله بن مسلم بن هرمز ضعيف، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول إبراهيم غير هذا فهو بلفظ «الثياب» كقول ابن مسعود، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق علقمة عن إبراهيم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه حجاج بن أرطأة، وهو صدوق كثير الخطأ.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه حجاج بن أرطأ وهو صدوق كثير الخطأ، ويشهد لأخره ما تقدم عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يزيد بن أبي حبيب عن الزهري.

(٥) سنده صحيح وتقدم نحوه وزيادة في سابقه.

(٦) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها ح٤١٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤٥٨)، والحق أنه ضعيف لثلاث علل: أولاً: ضعف سعيد بن بشير، ثانياً: تدليس قتادة. ثالثاً: خالد بن دريك لم يسمع من عائشة، كما نقل الحافظ ابن كثير، من أجل ذلك قول الحافظ ابن كثير أن هذا الحديث يستأنس به، فيه نظر.

﴿يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به؛ أي يغطى به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: على النحر والصدر فلا يرى منه شيء.

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن شبيب، حدثنا أبي، عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة ﵂ قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة؛ أن عائشة ﵂ كانت تقول لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا الزنجي بن خالد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة ﵂: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحنَّ وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[٣]. ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب: أن [قرة][٥] بن عبد الرحمٰن أخبره عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها، ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج.

وقد روى ابن المنذر: حدثنا موسى - يعني: ابن هارون -، حدثنا أبو بكر - يعني: ابن أبي

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة النور، باب قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] (ح٤٧٥٨).
(٢) المصدر السابق (ح٤٧٥٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وأخرجه البخاري كما في الحديثين السابقين.
(٤) السنن، اللباس، باب قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] (ح٤١٠١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤٥٦).
(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «قرقرة».
(٦) أخرجه الطبري وأبو داود، المصدر السابق (ح٤١٠٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤٥٧).

شيبة ـ، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا داود، عن الشعبي، وعكرمة في هذه الآية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حتى فرغ منها وقال: لم يذكر العمَّ ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره[١].

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن. وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها» أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود[٢].

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغار، عن عبادة بن نسي، عن أبيه، عن الحارث بن قيس قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد؛ فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها[٣].

وقال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال: نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة[٤]، وروى عبدٌ[٥] في تفسيره عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال: هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو: النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم[٦].

وروى سعيد، حدثنا جرير عن ليث، عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فليست من نسائهن[٧].

وعن مكحول وعبادة بن نسي أنهما كرها أن تقبل[٨] النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة[٩].

فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمير، حدثنا ضمرة قال: قال ابن عطاء، عن أبيه قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهن

---

(١) سنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، النكاح، باب لا تباشر المرأة، المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها (ح٥٢٤١).

(٣) أخرجه البيهقي من طريق سعيد بن منصور به (السنن الكبرىٰ ٧/ ٩٥)، وسنده ضعيف؛ لأن نسي والد عبادة: مجهول، وأخرجه الطبري من طريق عبادة بدون ذكر عن أبيه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده فيه ليث، وهو ابن أبي سُليم، وفيه مقال.

(٥) أي: عبد بن حميد الكشي، صاحب التفسير المشهور.

(٦) سنده ضعيف جداً لضعف الكلبي، وتصريحه بأن كل ما روى عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب، كما في تهذيب التهذيب في ترجمه محمد بن السائب الكلبي.

(٧) في سنده أيضاً ليث، وهو ابن أبي سُليم، وفيه مقال.

(٨) أي: تولد، بدليل ما يليه.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن عبادة بن نسيّ، وذلك لضعف الحسين، وهو ابن داود.

اليهوديات والنصرانيات[١]، فهذا إن صحَّ فمحمول على حال الضرورة أو أن ذلك من باب الامتهان، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها[٢] وإن كانت مشركة لأنها أمتها، وإليه ذهب سعيد بن المسيب[٣]، وقال الأكثرون: بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس: أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى، قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»[٤].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة خديج الحمصي مولى معاوية: أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة، فربته ثم أعتقته، ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاوية أيام صفين، وكان من أشد الناس على عليّ بن أبي طالب ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن نبهان، عن أُم سلمة، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»[٥]. ورواه أبو داود عن مسدد، عن سفيان به[٦].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يعني: كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله وخَوَث، ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له[٧].

وقال مجاهد: هو الأبله[٨].

وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره[٩]، وكذلك قال غير واحد من السلف.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن عطاء؛ وهو عثمان وأبوه: صدوق يهم كثيراً.

(٢) ذكره الطبري بنحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن المسيب بلفظ: «إنما يعني ذلك: الإماء».

(٤) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، اللباس، باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته ح٤١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤٦٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/ ٧٣ ح٢٦٤٧٣) وضعّف سنده محققوه، وأخرجه الترمذي من طريق سفيان بن عيينة به،وقال: حسن صحيح، (السنن، البيوع، باب ما جاء في المكاتب إذا كان عنده ما يؤدي ح١٢٦١).

(٦) السنن، العتق، باب في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت (ح٣٩٢٨).

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٨) أخرجه البستي والطبري وابن أبي حاتم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضيف فيه حفص بن عمر العدني،وهو ضعيف.

وفي الصحيح من حديث الزهري عن عروة، عن عائشة، أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم» فأخرجه، فكان بالبيداء[١] يدخل كل يوم جمعة ليستطعم[٢].

وروى الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها عبد الله بن أبي أُمية، والمخنث يقول: يا عبد الله بن أبي أُمية، إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأُم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك»[٣]. أخرجاه في الصحيحين من حديث هشام بن عروة[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة ﵂ قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة، فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم هذا» فحجبوه[٥]، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق عبد الرزاق به[٦].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً، أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على النساء» قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو[٧] الموت»[٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ . . .﴾ الآية، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته، ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه،

---

(١) تعرف الآن بالعزيزية تقع في الشمال الغربي من المدينة المنورة.

(٢) أخرجه مسلم من طريق معمر عن الزهري به مختصراً (صحيح مسلم، السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب، ح٢١٨١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٢٩٠)، وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت (ح٥٨٨٧)، وصحيح مسلم، السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب (ح٢١٨٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ١٥٢)، وسنده صحيح.

(٦) وصحيح مسلم، الحديث السابق، وسنن أبي داود، اللباس، باب في قوله: ﴿غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ [النور: ٣١] (ح٤١٠٨)، والسنن الكبرىٰ للنسائي، عشرة النساء (ح٩٢٤٦).

(٧) أي: أقارب الزوج.

(٨) صحيح البخاري، النكاح، باب لا يخلون رجل بمرأة إلا ذو محرم (ح٥٢٣٢)، وصحيح مسلم، السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (ح٢١٧٢).

فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ . . .﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتمَّ الرجال طيبها، فقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، عن ثابت بن عمارة الحنفي، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني: زانية، قال: وفي الباب عن أبي هريرة: وهذا حسن صحيح[١]، رواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به[٢].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبي رُهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ولذيلها إعصار، فقال: يا أَمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»[٣]. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان ـ هو ابن عيينة ـ، به[٤].

وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها»[٥]، ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج.

قال أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز ـ يعني: ابن محمد ـ، عن أبي اليمان، عن شداد بن أبي عمرو بن حمَّاس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أُسيد الأنصاري، عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «استأخرن، فإنه ليس لكنَّ أن تحتضنّ الطريق، عليكن بحافات الطريق» فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه، والله تعالى هو المستعان.

---

(١) سنن الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة (ح٢٧٨٦).

(٢) سنن أبي داود، الترجل، باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج (ح٤١٧٣)، وسنن النسائي، الزينة، باب ما يكره للنساء من الطيب ٨/١٥٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٥١٦).

(٣) المصدر السابق (ح٤١٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٥١٧).

(٤) السنن، الفتن، باب فتنة النساء (ح٤٠٠٢).

(٥) السنن، الرضاع، باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة (ح١١٦٧)، وسنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة، ويشهد له سابقه.

(٦) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق ح٥٢٧٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣٩٢).

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ...﴾ إلى آخره، هذا أمر بالتزويج.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه. واحتجوا بظاهر قوله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»، أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود[(١)].

وقد جاء في السنن من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»[(٢)]. وفي رواية: «حتى بالسقط»، الأيامى جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة[(٣)]، يقال: رجل أيم، وامرأة أيم.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ...﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرق، حدثنا عمر بن عبد الواحد، عن سعيد ـ يعني: ابن عبد العزيز ـ قال: بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[(٥)].

وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ رواه ابن جرير[(٦)]، وذكر البغوي عن عمر بنحوه[(٧)].

---

(١) صحيح البخاري، النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم (ح٥٠٦٦)، وصحيح مسلم، النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه (ح١٤٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (السنن، النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ح٢٠٥٠)، والنسائي (السنن، النكاح، باب كراهية تزوج العقيم ٦/ ٦٥)، وأحمد (المسند ٣/ ١٥٨)، وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٨)، وابن حبان (الإحسان ٩/ ٣٣٨ ح٤٠٢٨)، وصححه محققه والضياء المقدسي (المختارة ٥/ ٢٦٠ ح١٨٨٨)، وحسنه محققه، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٦٢)، وصححه العراقي (تخريج إحياء علوم الدين ٢/ ٩٧٠)، وصححه الألباني بشواهده (الإرواء ٦/ ١٩٥ ح١٧٨٤).

(٣) الصحاح ٥/ ١٨٦٨.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكن سنده منقطع؛ لأن سعيد بن عبد العزيز رواه بلاغاً عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق القاسم بن الوليد عن ابن مسعود، وهو لم يسمع منه.

(٧) أخرجه البغوي معلقاً بغير سند (التفسير ٣/ ٣٤٢)، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عمر قال: =

وعن الليث، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله» رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه(١).

وقد زوَّج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن(٢). والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث: «تزوجوا فقراء يغنكم الله»(٣)، فلا أصل له ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن، وفي القرآن غنية عنه، وكذا هذه الأحاديث التي أوردناها، ولله الحمد والمنّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» الحديث(٤)، وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] أي: صبركم عن تزوج الإماء خير لكم؛ لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عكرمة في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السمٰوات والأرض حتى يغنيه الله(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هذا أمر

= عجبت لرجل لا يطلب الغنىٰ بالباءة (ينظر: المقاصد الحسنة ص٨٣)، وسنده منقطع لأن قتادة لم يسمع من عمر ﷺ، وأخرجه عبد الرزاق بهذا السند والمتن، وكذلك أخرجه من طريق هشام بن حسان عن الحسن عن عمر، ومن طريق هشام بن عروة عن عمر (المصنف ٦/ ١٧٠ ـ ١٧٣)، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، وأخرجه البستي من طريق محمد بن عجلان عن عمر بلفظ: «ابتغوا الغنىٰ في النكاح»، ومحمد بن عجلان لم يسمع من عمر، ولكن يتقوىٰ بما سبق من الطرق.

(١) المسند ١٣/ ٤٩، وصحح سنده أحمد شاكر، وسنن الترمذي، وحسنه، كتاب، فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب. . . (ح١٦٥٥)، وسنن النسائي، الجهاد، باب فضل الروحه في سبيل الله ٦/ ١٥، وسنن ابن ماجه، العتق، باب المكاتب (ح٢٥١٨)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ٩/ ٣٣٩ ح٤٠٣٠)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٦٠)، وحسنه البغوي (شرح السنة ٩/ ٧)، وصححه السيوطي (الجامع الصغير مع شرح فيض القدير ٣/ ٣١٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح١٣٥٢).

(٢) صحيح البخاري، فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب (ح٥٠٣٠).

(٣) أخرجه البزار والدارقطني في العلل، والحاكم وابن مردويه والديلمي كلهم من رواية سلم بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً: «تزوجوا النساء، فإنهن يأتين بالمال»، قال الحاكم: تفرد به سُلم وهو ثقة، وقال البزار والدارقطني: سلم يرويه مرسلاً (ينظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ص٨٢).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير الآية نفسها.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه حفص بن عمر العدني، وهو ضعيف.

من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب؛ بل السيد مخيّر إذا طلب منه عبده الكتابة، إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه، قال الثوري عن جابر، عن الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه(١).

وكذا قال ابن وهب، عن إسماعيل بن عياش، عن رجل، عن عطاء بن أبي رباح: إن يشأ يكاتبه وإن يشأ لم يكاتبه(٢).

وكذا قال مقاتل بن حيان(٣) والحسن البصري.

وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب، منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر.

وقال البخاري: وقال روح، عن ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه، قال: ما أراه إلا واجباً.

وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى فضربه بالدرة، ويتلو عمر رضي الله عنه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه. هكذا ذكره البخاري تعليقاً(٤)، ورواه عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: أواجب عليّ إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً وقال عمرو بن دينار، قال: قلت لعطاء: أتأثره من أحد؟ قال: لا(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكأ عليه فقال له عمر: لتكاتبنه(٦). إسناد صحيح.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم بن جويبر، عن الضحاك قال: هي عزمة(٧)، وهذا القول القديم من قولي الشافعي، وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه»(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وفي سنده جابر، وهو الجعفي: ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب به، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن عطاء بن أبي رباح، وسيأتي بسند صحيح عن عطاء.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان.

(٤) صحيح البخاري، العتق، باب في المكاتب ونجومه في كل سنة نجم، قبل حديث رقم ٢٥٦٠، ووصله إسماعيل بن إسحاق القاضي في «أحكام القرآن» عن علي بن المديني عن روح به (ينظر: فتح الباري ٥/ ١٨٦)، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه (المصنف ٨/ ٣٧١)، وسنده صحيح، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده الحافظ ابن كثير، وهو كما قال.

(٧) سنده ضعيف لضعف جويبر.

(٨) أخرجه الإمام أحمد من حديث عمّ أبي حرَّة الرقاشي مطولاً (المسند ٣٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠١ ح٢٠٦٩٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره مقطعاً.

وقال ابن وهب: قال مالك: الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده. قال مالك: وإنما ذلك أمر من الله تعالى وإذن منه للناس وليس بواجب[١]. وكذا قال الثوري وأبو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم[٢]، واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانة[٣].

وقال بعضهم: صدقاً[٤].

وقال بعضهم: مالاً[٥]. وقال بعضهم: حيلة وكسباً[٦].

وروى أبو داود في كتاب المراسيل، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً» قال: «إن علمتم فيهم حرفة، ولا ترسلوهم كلا على الناس»[٧].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلف المفسرون فيه:

فقال بعضهم: معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع[٨]، وقيل: الثلث، وقيل: النصف[٩]، وقيل: جزء من الكتابة من غير حد.

وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة، وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان[١٠]، واختاره ابن جرير.

وقال إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: حثَّ الناس عليه مولاه وغيره[١١]، وكذا قال بُريدة بن الحصيب الأسلمي[١٢] وقتادة، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب. وقد تقدم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة حق على الله عونهم...» فذكر منهم المكاتب يريد الأداء، والقول الأول أشهر.

---

(١) الموطأ ٢/٧٨٨، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن الإمام مالك بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، وهو عبد الله، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس بسند حسن من طريق مبارك عن الحسن.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح عن الحسن، وإبراهيم النخعي.
(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة بنحوه.
(٧) سنده معضل؛ لأن يحيىٰ ابن أبي كثير تابع تابعي.
(٨) أخرجه البستي بسند حسن من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه.
(٩) أخرجه البستي بسند ضعيف من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن عمر رضي الله عنه، والقاسم لم يسمع من عمر.
(١٠) قول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق يونس عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه، وقول مقاتل بن سليمان أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عنه.
(١١) أخرجه عبد الرزاق بسند ضعيف من طريق مغيرة عن إبراهيم (المصنف ٨/٣٧٦)، ورواية مغيرة عن إبراهيم فيها مقال.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أُمية، فجاء بنجمه حين حلّ فقال: يا أبا أُمية اذهب فاستعن به في مكاتبتك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال عكرمة: فكان أول نجم[١] أُدّي في الإسلام[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون بن المغيرة، عن عنبسة، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحبّ[٣].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: يعني ضعوا عنهم في مكاتبتهم[٤]. وكذلك قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبي بزة وعبد الكريم بن مالك الجزري والسدي[٥].

وقال محمد بن سيرين في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته[٦]، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان المقري، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جريج، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن جندُب أخبره عن علي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ربع الكتابة»[٧]. وهذا حديث غريب ورفعه منكر، والأشبه أنه موقوف على علي ﷺ، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله[٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة، فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يُكرههنّ على البغاء طلباً لخراجهنّ، ورغبة في أولادهنّ، ورياسة منه فيما يزعم.

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله في مسنده: حدثنا أحمد بن داود الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللخمي ـ يعني: محمد بن الحجاج ـ، حدثنا محمد بن إسحاق،

---

(١) هو القدر المعين الذي يؤديه المكاتب في وقت معين (النهاية ٥/ ٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرج بعضها الطبري وابن أبي حاتم، وتتقوىٰ بسابقها.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن سيرين (المصنف ٦/ ٣٧١).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف فيه جندب: مستور، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط، والصواب وقفه كما تقدم.

(٨) تقدم تخريجه وثبوته عن علي ﷺ موقوفاً في تفسير الآية نفسها.

عن الزهري قال: كانت جارية لعبد الله بن أُبيّ بن سلول، يقال لها: معاذة يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ . . .﴾ الآية[١].

وقال الأعمش: عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أُبيّ بن سلول يقال لها: مُسيكة، كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]. وروى النسائي من حديث ابن جريج: عن أبي الزبير، عن جابر نحوه[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا علي بن سعيد، حدثنا الأعمش، حدثني أبو سفيان، عن جابر قال: كان لعبد الله بن أُبيّ بن سلول، جارية يقال لها: مُسيكة، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ صرح الأعمش بالسماع من أبي سفيان طلحة بن نافع، فدل على بطلان قول من قال: لم يسمع منه إنما هو صحيفة. حكاه البزار[٤].

وقال أبو داود الطيالسي، عن سليمان بن معاذ، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن جارية لعبد الله بن أُبي كانت تزني في الجاهلية فولدت أولاداً من الزنا، فقال لها ما لك: لا تزنين، قالت: والله لا أزني؛ فضربها، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾[٥].

وروى البزار أيضاً: حدثنا أحمد بن داود الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللخمي - يعني: محمد بن الحجاج -، حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: كانت جارية لعبد الله بن أُبي، يُقال لها: معاذة، يكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري: أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبيّ أسيراً، وكانت لعبد الله بن أُبيّ جارية يقال لها: معاذة وكان القرشي الأسير يريدها على نفسها، وكانت مسلمة وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أُبيّ يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[٧].

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٢٤٠)، قال الهيثمي: فيه محمد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب (مجمع الزوائد ٧/٨٣)، وفيه محمد بن إسحاق ولم يصرح بالسماع، والزهري أرسله، وكل ذلك لا يضر؛ لأنه في صحيح مسلم كما في الرواية التالية.

(٢) أخرجه مسلم من طريق الأعمش به (صحيح مسلم، التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النور: ٣٣] ح٣٠٢٩).

(٣) السنن الكبرىٰ، التفسير (ح١١٣٦٥)، وأبو الزبير توبع بواسطة أبي سفيان في رواية مسلم السابقة.

(٤) رواية مسلم السابقة تدل على سماع الأعمش من أبي سفيان طلحة بن نافع، ويبدو أن الحافظ ابن كثير لم يطلع على رواية مسلم؛ لأن من منهجه إذا كانت الرواية في الصحيح عزاها إلى الصحيح.

(٥) سنده ضعيف فيه سماك وفي روايته عن عكرمة فيها اضطراب.

(٦) في سنده علتان تقدم ذكرهما في الرواية السابقة، وأصله في صحيح مسلم.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده مرسل ويتقوىٰ بما سبق.

وقال السدي: أُنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى: مُعاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له. فأقبلت الجارية إلى أبي بكر ﷺ فشكت إليه، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أُبيّ من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا، فأنزل الله فيهم هذا[1]، وقال مقاتل بن حيان: بلغني ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما إحداهما اسمها مسيكة وكانت للأنصار، وكانت أُميمة أُم مسيكة لعبد الله بن أُبيّ وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة، فأتت مسيكة وأُمها النبي ﷺ فذكرتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ يعني: الزنا[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن[3]، وفي رواية: «مهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لهن كما تقدم في الحديث عن جابر.

وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم، وإثمهن على من أكرههن[5]، وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة[6].

وقال أبو عبيد: حدثني إسحاق الأزرق، عن عوف، عن الحسن في هذه الآية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال لهنَّ: والله لهنَّ والله[7].

وعن الزهري قال: غفور لهن ما أكرهن عليه.

وعن زيد بن أسلم قال: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمكرهات[8]، حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند مرسل عن السدي ويتقوىٰ كسابقه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل لكنه معضل، ولبعضه شواهد يتقوىٰ بها.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث عقبة بن عمرو ﷺ (صحيح البخاري، البيوع، باب ثمن الكلب ح٢٢٣٧)، وصحيح مسلم، المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب (ح١٥٦٧).

(٤) أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج ﷺ (السنن، البيوع، باب في كسب الحجام ح٣٤٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٩١٩).

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٦) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عطاء الخراساني أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه، وعثمان: ضعيف، وقول الأعمش أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن نمير عن الأعمش، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة.

(٧) سنده صحيح.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جبير قال: في قراءة عبد الله بن مسعود «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم» وإثمهن على من أكرههن[١]، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٢].

ولما فصَّل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خبراً عن الأمم الماضية وما حلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخافه.

قال علي بن أبي طالب ﷺ في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله[٣].

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السمٰوات والأرض[٤].

قال ابن جريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي، حدثنا وهب بن راشد، عن فرقد، عن أنس بن مالك قال: إن الله يقول: نوري هداي[٦]. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيّ بن كعب في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به، قال: فكان أُبيّ بن كعب يقرؤها «مثل نور من آمن به»[٧]، فهو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف؛ لأن سعيد بن جبير لم يسمع من ابن مسعود، والقراءة شاذة تفسيرية.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٥٧.

(٣) تقدم تخريجه في مقدمة التفسير.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به وسنده ضعيف؛ لأن ابن جريج لم يسمع من مجاهد وابن عباس ﷺ.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف وهب بن راشد (لسان الميزان ٦/ ٢٣٠، ٢٣١)، ويشهد له الرواية قبل السابقة.

(٧) وهي قراءة شاذة تفسيرية.

المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره[١]. وهكذا قال سعيد بن جبير وقيس بن سعد، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك: «مثل نور من آمن بالله»[٢]، وقرأ بعضهم «الله نور السمٰوات والأرض»، وعن الضحاك «الله نوّرَ السمٰوات والأرض»[٣].

وقال السدي في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: فبنوره أضاءت السمٰوات والأرض[٤].

وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٥].

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللّهم لك الحمد، أنت قَيّم السمٰوات والأرض، ولك الحمد ومن فيهنَّ، أنت نور السمٰوات والأرض ومن فيهن...» الحديث[٦].

وعن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في هذا الضمير قولان:

(أحدهما): أنه عائد إلى الله ﷻ؛ أي مثل هداه في قلب المؤمن. قاله ابن عباس[٧] ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾.

(والثاني): أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ [هود: ١٧] فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف، فقوله: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل[٨] هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ وهو الذبالة التي تضيء.

وقال العوفي، عن ابن عباس: قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم مقطعاً بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٣) قراءة شاذة تفسيرية.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.
(٥) رواه ابن إسحاق بلاغاً (ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٢٠)، وسنده ضعيف.
(٦) صحيح البخاري، الجمعة، باب التهجد بالليل (ح١١٢٠)، وصحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل (ح٧٦٩).
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٨) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كسابقه، وقول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول محمد بن كعب أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عاصم بن محمد العمري عنه.

لنوره فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ والمشكاة كوة في البيت، قال: وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى[١].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هن الكوة بلغة الحبشة[٢].

وزاد بعضهم فقال: المشكاة: الكوة التي لا منفذ لها[٣].

وعن مجاهد: المشكاة: الحدائد التي يعلق بها القنديل[٤]، والقول الأول أولى، وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل، ولهذا قال: ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ وهو النور الذي في الذُبالة.

قال أُبيّ بن كعب: المصباح: النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره[٥].

وقال السدي: هو السراج ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية.

وقال أُبيّ بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن[٦] ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ قرأ بعضهم: بضم الدال من غير همزة من الدُر؛ أي كأنها كوكب من دُرّ، وقرأ آخرون: دِريء ودُريء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء[٧] وهو الدفع، وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري، قال أُبيّ بن كعب: كوكب مضيء[٨].

وقال قتادة: مضيء مبين ضخم[٩] ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب؛ بل هي في مكان وسط تقرعه الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد، أخبرنا عمرو بن أبي قيس، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها[١٠].

وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حُدير، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: هي بصحراء وذلك أصفى لزيتها[١١].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حصين بن عبد الرحمن عن أبي مالك غزوان.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق داود ابن أبي هند عن مجاهد.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي العالية عن أُبي رضي الله عنه.
(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كسابقه. (٧) كلها قراءات متواترة.
(٨) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كسابقه.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده جيد.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق مسدد وعن يحيىٰ به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمرو بن فروخ، عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: تلك بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فإذا غربت غربت عليها، فذلك أصفى ما يكون من الزيت[١].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ليست بشرقية لا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت[٢].

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ قال: هو أجود الزيت، قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية[٣].

وقال السدي قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يقول: ليست بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأس جبل أو في صحراء تصيبها الشمس النهار كله[٤].

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيّ بن كعب في قول الله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت، قال: فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن وقد ابتلي بها، فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال، إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات[٥].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً[٦].

وقال عطية العوفي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا عمرو بن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق خُصيف عن مجاهد.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.
(٥) أخرجه الطبري وأبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر به.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه عن عطية العوفي.

أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية غربية[١].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي القِبلية[٢][٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: الشام[٤].

وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره[٥].

وقال الضحاك: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قال رجل صالح ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني[٦]، وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح بادٍ ظاهر ضاحٍ للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف، كما قال غير واحد ممن تقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لضوء إشراف الزيت[٧].

وقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك: إيمان العبد وعمله[٨].

وقال مجاهد والسدي: يعني: نور النار ونور الزيت[٩]، وقال أُبيّ بن كعب: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة[١٠].

وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء[١١].

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال: نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده جيد. (٢) أي: نحو القبلة جنوباً.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يزيد بن أبي حبيب عن محمد بن كعب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أُسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه، وأُسامة ضعيف من قِبل حفظه، كما في التقريب والتهذيب.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن الحسن.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي هشام بن حوشب عن أبي سنان عن الضحاك، وأبو هشام لم أجد له ترجمة، ومتنه غريب.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٩) قول مجاهد أخرجه آدم ابن أبي إياس والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «النار على الزيت»، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عنه بلفظ ما ذكره الحافظ ابن كثير.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي العالية عن أُبي.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم مقطعاً بسند حسن من طريق شمر به

إلا بصاحبه[١].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن زيد، عن عبد الله [الديلمي][٢]، عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذٍ، فمن أصاب من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأ ضلّ، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله ﷻ»[٣].

(طريق أخرى عنه): قال البزار: حدثنا أيوب، عن سويد، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم نوراً من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ» ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية، يعني شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البُختري، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرَفَ ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح؛ فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[٥]. إسناده جيد ولم يخرجوه.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(٢) كذا في (ح) و(حم) والمسند وترجمته، وفي الأصل صُحف إلىٰ: «الديلي».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، (المسند ١١/ ٢١٩ ح٦٦٤٤)، وصحح سنده محققوه.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢١٤٥)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الله الديلمي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، كما في الحديث السابق، الصحيح السند.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٧/ ٢٠٨ ح١١١٢٩)، وضعف سنده محققوه، وجود الحافظ ابن كثير سنده، والحق أنه ضعيف لانقطاعه بين أبي البُختري وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحبّ البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يُعبد فيها ويُوحّد فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي: أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها[١]، وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين[٢].

وقال قتادة: هي هذه المساجد أمر الله ﷻ ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها. وقد ذُكر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمته، وحقٌّ على المزور كرامة الزائر. رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره[٣].

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها وذلك له محل مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، ولله الحمد والمنّة، ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفاً من ذلك، إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان؛ فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»، أخرجاه في الصحيحين[٤].

وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة»[٥]، وللنسائي عن عمرو بن عنبسة مثله[٦]، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وعن عائشة ﷺ قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي[٧]، ولأحمد وأبي داود عن سَمُرة بن جندب نحوه[٨].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي وزيادة: و«هي المساجد تُكرم. . .».

(٢) ذكرهم كلهم ابن أبي حاتم بحذف السند.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأما الشطر الآخر عن كعب الأحبار ففيه انقطاع لأن قتادة لم يسمع من كعب.

(٤) صحيح البخاري، الصلاة، باب من بنىٰ مسجداً (ح٤٥٠)، وصحيح مسلم، المساجد، باب فضل بناء المساجد والحث عليها (ح٥٣٣).

(٥) سنن ابن ماجه، المساجد، باب من بنىٰ مسجداً (ح٧٣٥)، وسنن النسائي، المساجد، باب الفضل في بناء المساجد ٢/ ٣١، وسند ابن ماجه منقطع؛ لأنه رواه من طريق عثمان بن عبد الله عن عمر، وعثمان لم يسمع من عمر (ينظر: مصباح الزجاجة ١/ ٢٦٠)، ويشهد له حديث عمرو بن عنبسة والحديث السابق.

(٦) سنن النسائي، المساجد، باب الفضل في بناء المساجد ٢/ ٣١.

(٧) (المسند ٤٣/ ٣٩٧ ح٢٦٣٨٦)، وصححه محققوه بشواهده، وسنن أبي داود، الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور (ح٤٥٥)، وسنن الترمذي، أبواب السفر، باب ما ذكر في تطييب المساجد (ح٥٩٤) وسنن ابن ماجه، المساجد، باب تطهير المساجد وتطييبها (ح٧٥٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣٦).

(٨) (المسند ٥/ ١٧)، وسنن أبي داود، الباب السابق (ح٤٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣٧).

وقال البخاري: قال عمر: ابنِ للناس ما يكنُّهم، وإياكَ أن تحمِّر أو تصفِّر فتفتن الناس[(١)].

وروى ابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم» وفي إسناده ضعف[(٢)].

وروى أبو داود، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أمرت بتشييد المساجد» قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[(٣)].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي[(٤)].

وعن بُريدة: أن رجلاً أنشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر، فقال النبي ﷺ: «لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له» رواه مسلم[(٥)].

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع وعن تناشد الأشعار في المساجد. رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذي: حسن[(٦)].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالَّة في المسجد فقولوا: لا ردَّ الله عليك». رواه الترمذي وقال: حسن غريب[(٧)].

وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعاً قال: خصال لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقاً، ولا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض[(٨)] فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل، ولا يمر فيه بلحم نيء، ولا يضرب فيه حدّ، ولا يقتص فيه أحد، ولا يتخذ سوقاً[(٩)].

---

(١) صحيح البخاري، الصلاة، باب بنيان المسجد بعد حديث ٤٤٥.

(٢) سنن ابن ماجه، المساجد، باب تشييد المساجد (ح٧٤١)، وسنده موضوع؛ لأن فيه جبارة بن المغلس وهو كذاب.

(٣) سنن أبي داود، الصلاة، باب في بناء المساجد (ح٤٤٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣١).

(٤) (المسند ٣/ ١٣٤)، وسنن أبي داود، الصلاة، باب ما جاء في المساجد (ح٤٤٩)، وسنن النسائي، المساجد، باب المباهاة في المساجد ٢/ ٣٢، وسنن ابن ماجه، المساجد، باب تشييد المساجد (ح٧٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣٢).

(٥) صحيح مسلم، المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد (ح٥٦٩).

(٦) المسند ٢/ ١٧٩، وسنن أبي داود، الصلاة، باب التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة (ح١٠٧٩)، وسنن الترمذي، الصلاة، باب ما جاء في كراهية البيع والشراء... (ح٣٢٢)، وسنن النسائي، المساجد، باب النهي عن البيع والشراء في المسجد ٢/ ٤٧، وسنن ابن ماجه، المساجد والجماعات (ح٧٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٩٥٦).

(٧) سنن الترمذي، أبواب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد (ح١٣٢١)، ويشهد له حديث بريدة ﷺ المتقدم في صحيح مسلم.

(٨) أي: لا يشد فيه.

(٩) سنن ابن ماجه، المساجد والجماعات، باب ما يكره في المساجد (ح٧٤٨)، وسنده ضعيف فيه زيد بن جبيرة وهو ضعيف كما في التقريب.

وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ قال: «جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم، ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم، وسلَّ سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجمع»[(١)] ورواه ابن ماجه أيضاً وفي إسنادهما ضعف.

أما أنه لا يتخذ طريقاً فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه، وفي الأثر: إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه. وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مرّ أحد بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحداً، كما ثبت ذلك في الصحيح[(٢)]، وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث، وأما أنه لا يضرب فيه حدّ أو يقتص فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع، وأما أنه لا يتخذ سوقاً، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه، كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبنَ لهذا، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها» ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله[(٣)].

وفي الحديث الثاني: «جنّبوا مساجدكم صبيانكم» وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم، وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدُّرَّة، وكان يعسُّ[(٤)] المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً.

«ومجانينكم» يعني: لأجل ضعف عقولهم وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد، ونحو ذلك.

«وبيعكم وشراءكم» كما تقدم «وخصوماتكم» يعني: التحاكم والحكم فيه، ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد؛ بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر العياط[(٥)] التي لا يُناسبه، ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا [الجعيد بن عبد الرحمن قال: حدثني يزيد بن حصيفة][(٦)]، عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟[(٧)].

وقال النسائي: حدثنا سويد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن سعد بن

---

(١) سنن ابن ماجه، المساجد، باب ما يكره في المساجد (ح٧٤٨)، قال البوصيري: فيه زيد بن جبيرة، قال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ضعيف (مصباح الزجاجة ١/ ٢٦٤).
(٢) صحيح مسلم، البر والصلة (ح٢٦١٥).
(٣) ينظر: صحيح البخاري، الوضوء، باب صبّ الماء على البول في المسجد (ح٢٢٠).
(٤) أي: يطوف بالليل ساهراً.
(٥) أي: الصراخ والصياح.
(٦) كذا في (ح) و(حم) وصحيح البخاري، وفي الأصل صُحفت إلى: «عبد الرحمن بن يزيد بن خصيف».
(٧) صحيح البخاري، الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد (ح٤٧٠).

إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟[١]. وهذا أيضاً صحيح.

وقوله: «إقامة حدودكم وسلّ سيوفكم» تقدما.

وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر» يعني: المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضؤون وغير ذلك.

وقوله: «وجمروها في الجمع» يعني: بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذٍ.

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة[٢]. إسناده حسن لا بأس به، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تَزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللَّهم صلِّ عليه، اللَّهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»[٣].

وعند الدارقطني مرفوعاً: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[٤].

وفي السنن: «بشر المشّائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة»[٥].

ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول، كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: «فإذا قال ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم»[٦].

---

(١) ينظر: تحفة الأشراف ٨/ ٤، وصححه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ١/ ١٧٠ ح١٩٠)، وضعفه محققه لضعف عبد الله بن عمر العمري، ونقل عن الهيثمي أنه مختلف فيه (مجمع الزوائد ٢/ ١١)، وحسنه الحافظ ابن كثير.

(٣) صحيح البخاري، الأذان، باب فضل صلاة الجماعة (ح٦٤٧)، وصحيح مسلم، المساجد، باب فضل صلاة الجماعة (ح٦٤٩).

(٤) أخرجه الدراقطني بسند فيه سليمان بن داود اليمامي (السنن، الصلاة، باب الحث لجار المسجد على الصلاة فيه إلا من عذر ١/ ٤٢٠)، وسنده ضعيف لضعف سليمان (ينظر: العلل المتناهية لابن الجوزي ح٦٩٣)، وأخرجه الحاكم من طريق سليمان بن داود به (المستدرك ١/ ٢٤٦)، وأخرجه الدارقطني من حديث جابر رضي الله عنه وفي سنده محمد بن مسكين (المصدر السابق)، وقال الذهبي: محمد بن مسكين لا يعرف وخبره منكر (ميزان الاعتدال ٣/ ٥٦٧).

(٥) سنن أبي داود، الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم (ح٥٦١)، وسنن الترمذي، الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة (ح٢٢٣)، وسنن ابن ماجه، المساجد، باب المشي إلى الصلاة (ح٧٧٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٦٣٢).

(٦) أخرجه أبو داود وليس البخاري (السنن، الصلاة، باب ما يقول الرجل عند دخوله المسجد ح٤٦٦)، =

وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أُسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللَّهم افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليقل: اللَّهم إني أسألك فضلك»[١]، ورواه النسائي عنهما عن النبي ﷺ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ، وليقل: اللَّهم افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللَّهم اعصمني من الشيطان الرجيم». ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما[٢].

وقال الإمـام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن حسين، عن أُمه فاطمة بنت حسين، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد ﷺ صلى على محمد وسلّم ثم قال: «اللَّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك» وإذا خرج صلى على محمد وسلّم ثم قال: «اللَّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»[٣]. ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي، هذا حديث حسن، وإسناده ليس بمتصل؛ لأن فاطمة بنت حسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى[٤]، فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك كله لحال الطول، داخل في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: اسم الله، كقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]، [وقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾][٥] قال ابن عباس: يعني فيها يتلى كتابه[٦].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: في البكرات والعشيات. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة[٧].

= وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٤١).

(١) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب ما يقول إذا دخل المسجد (ح٧١٣).

(٢) سنن النسائي، المساجد، باب القول عند دخول المسجد ٢/ ٥٣، وسنن ابن ماجه، المساجد، باب الدعاء عند دخول المسجد (ح٧٧٢)، وصحيح ابن خزيمة (ح٤٥٢)، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (ح٢٠٤٨)، وصححه البوصيري (مصباح الزجاجه ١/ ٩٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٦٢٧)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/ ١٣ ح٢٦٤١٦)، وقال محققوه: صحيح لغيره، دون قوله: «اللهم اغفر لي ذنوبي» فحسن.

(٤) سنن الترمذي، الصلاة، باب ما جاء ما يقول عند دخوله المسجد (ح٣١٤)، وسنن ابن ماجه، المساجد، باب الدعاء عند دخول المسجد (ح٧٧١)، وحسنه الحافظ ابن حجر (نتائج الأفكار ١/ ٢٨٤)، ويشهد له حديث مسلم عن أبي أُسيد أو أبي حميد المتقدم.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل سقط.

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الفريابي من طريق عمار الدهني عن سعيد بن جبير به (ينظر: تغليق التعليق ٤/ ٢٣٩)، وسنده حسن، وأخرجه الطبري من طريق عمار به.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بالغدوّ: صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده[١]. وكذا قال الحسن والضحاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني: الصلاة، ومن قرأ من القراء ﴿يُسبَح لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالأَصَالِ﴾ بفتح الباء[٢] من «يسبح»[٣] على أنه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله: ﴿وَالْآصَالِ﴾ وقفاً تاماً وابتدأ بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف، كما قال الشاعر:

لِيُبْكَ يزيد ضارع[٤] لخصومة ومختبطٌ مما تطيح الطوائح[٥]

كأنه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه، وكأنه قيل: من يسبح له فيها؟ قال: رجال. وأما على قراءة من قرأ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء فجعله فعلاً وفاعله ﴿رِجَالٌ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل؛ لأنه تمام الكلام فقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمّاراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها[٦]، وصلاتها في مخدعها[٧] أفضل من صلاتها في بيتها»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو، عن أبي السمح، عن السائب مولى أُم سلمة، عن أُم سلمة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن»[٩].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا هارون، أخبرني عبد الله بن وهب، حدثنا داود بن قيس، عن عبد الله بن سويد الأنصاري، عن عمته أُم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك. قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي» قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها وأظلمه فكانت واللهِ

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٢) قول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن، وقول الضحاك أخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.
(٣) قراءة متواترة. (٤) أي: ذليل.
(٥) ذكره ابن هشام في مغني اللبيب ٢/٦٤٨.
(٦) أي: صحن الدار الذي تكون أبواب البيوت إليها.
(٧) أي: البيت الصغير الذي يكون داخل البيت يحفظ فيه الأمتعة النفيسة.
(٨) سنن أبي داود، الصلاة، باب التشديد في ذلك (ح٥٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٥٣٣).
(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/ ١٦٤ ح٢٦٥٤٢)، وحسن سنده محققوه بالشواهد.

تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى[١]. لم يخرجوه.

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» رواه البخاري ومسلم[٢]، ولأحمد وأبي داود: «وبيوتهن خير لهن»[٣]. وفي رواية: «وليخرجن وهن تفلات»[٤]؛ أي: لا ريح لهن.

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً»[٥].

وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس[٦].

وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد، كما منعت نساء بني إسرائيل[٧].

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة] يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باقٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.

قال هشيم: عن سيار قال: حُدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله بن مسعود: هؤلاء من الذين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/ ٣٧ ح٢٧٠٩٠)، وحسن سنده محققوه، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن سويد الأنصاري وثقه ابن حبان (مجمع الزوائد ٢/ ٣٣، ٣٤)، وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٢/ ٣٥٠).

(٢) صحيح البخاري، الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان؟ (ح٩٠٠)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد. . . (ح٤٤٢).

(٣) المسند ٢/ ٧٦، وسنن أبي داود، الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (ح٥٦٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٥٣٠).

(٤) المصدر السابق (ح٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٥٢٩).

(٥) صحيح مسلم، الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد (ح٤٤٣).

(٦) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر (ح٥٧٨)، وصحيح مسلم، المساجد، باب استحباب التبكير بالصبح (ح٦٤٥).

(٧) صحيح البخاري، الأذان، باب انتظار الناس قيام الإمام (ح٨٦٩)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد (ح٤٤٥).

ذكر الله في كتابه ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ . . .﴾[(١)] الآية، وهكذا روى عمرو بن دينار القهرماني، عن سالم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عبد الله بن بكير الصنعاني، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن بجير، حدثنا أبو عبد رب قال: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول: إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحبُّ أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

وقال عمرو بن دينار الأعور: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد، فتلا سالم هذه الآية ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: هم هؤلاء[(٤)]، وكذا قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها[(٥)].

وقال مطر الورّاق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة[(٦)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة[(٧)]، وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس[(٨)].

وقال السدي: عن الصلاة في جماعة[(٩)].

وقال مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها[(١٠)].

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار؛ أي من شدّة الفزع وعظمة الأهوال، كقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والطبري وابن أبي حاتم كلهم من طريق عمرو بن دينار به، وسنده ضعيف لضعف عمرو بن دينار، كما في التقريب.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده جيد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم وفي سنده أيضاً عمرو بن دينار، وهو ضعيف.

(٥) قول سعيد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق شعبة وعوف الأعرابي عنه، وقول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عنه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق عبد الله بن شوذب عن مطر.

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٨) ذكرهما ابن أبي حاتم بحذف السند.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان]. وقوله تعالى ههنا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقال ههنا: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً، فكلهم لم يشربه؛ لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً، ثم تلا قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، رواه النسائي وابن أبي حاتم من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة عنه[1].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق»[2].

وروى الطبراني من حديث بقية، عن إسماعيل بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال: «﴿أُجُورَهُمْ﴾ [فاطر: ٣٠] يدخلهم الجنة، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الشفاعة، لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا»[3].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾.

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين: مائياً ونارياً،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الأعمش به، وأخرجه الحاكم من طريق الأعمش به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده عبد الرحمن بن إسحاق وهو ضعيف، وشهر بن حوشب فيه مقال، وقد روي من طرق أخرى تقويه فقد أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر الجهني وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٩٩).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ١٧٣.

وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنّة.

فأما الأول من هذين المثلين، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام، والقيعة: جمع قاع كجار وجيرة، والقاع أيضاً واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الآل فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]، وقال ههنا: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهكذا روي عن أُبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد[1].

وفي الصحيحين: أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهافتون فيها[2].

وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ قال قتادة: ﴿لُّجِّىٍّ﴾ هو العميق[3]. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ﴾ أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط، المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

وقال العوفي: عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ ...﴾ الآية: يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ ...﴾ الآية [البقرة: ٧]، وكقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ...﴾ الآية [الجاثية: ٢٣][4]. وقال أُبيّ بن كعب في قوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ

---

(١) قول أُبي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي العالية عنه، وقول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، سورة النساء (ح٤٥٨١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (ح١٨٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

بَعْضٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار(١)، وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضاً(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل، حائل، بائر، كافر، كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السمٰوات والأرض؛ أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن له ملك السمٰوات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالق المالك، ألا له الحكم في الدنيا والأخرى، وله الحمد في الأولى والأخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: يجمعه بعد تفرقه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً، أي: يركب بعضه بعضاً ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من خلله، وكذا قرأها ابن عباس والضحاك(٣).

قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي العالية به.

(٢) قول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عنه، وقول الربيع بن أنس أخرجه أبي حاتم بسند جيد من طريق سليمان بن عامر عنه.

(٣) هذه القراءة شاذة تفسير، وما نسب عن ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف عن طريق رجل مجهول عن ابن عباس، وقراءة الضحاك أخرجها الطبري بسند حسن من طريق قتادة عنه.

السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(١) رحمهما الله.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قال بعض النحاة: ﴿مِنَ﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد.

وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب، فإن ﴿مِنَ﴾ الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً، لكنها بدل من الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمة لهم ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ رحمة بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته.

وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً؛ والله هو التصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: لدليلاً على عظمته تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، وما بعدها من الآيات الكريمات.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾.

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾.

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِكَم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عبيد بن عمير.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ . . .﴾ الآية؛ أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدىَ فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء].

وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء، عن أبي ميمونة، عن أبيه، عن الحسن، عن سَمُرة مرفوعاً: «من دعي إلى سلطان فلم يجب، فهو ظالم لا حق له»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثم فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق؛ بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ . . .﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هذه الصفات.

وقول تعالى: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا مبارك، حدثنا الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق، أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض وقال: انطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء فدعي إلى حكم من أحكام المسلمين فأبى أن يجيب، فهو ظالم لا حق له»[(٢)] وهذا حديث غريب، وهو مرسل.

---

(١) أخرجه الطبراني من طريق روح به (المعجم الكبير ٧/ ٢٢٥ ح٦٩٣٩)، وفي سنده روح بن عطاء: ضعيف (مجمع الزوائد ٤/ ١٩٨)، وفيه عنعنة الحسن البصري عن سَمُرة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرساله.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ أي: سمعاً وطاعة. ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال قتادة في هذه الآية: ﴿يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ ذُكر لنا أن عبادة بن الصامت، وكان عقبياً بدرياً أحد نقباء الأنصار، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أُمية: ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، قال: وقد ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولّاه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم[1]، والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله، كثيرة جداً أكثر من أن تحصر في هذا المكان.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فيما أمراه به، وترك ما نهياه عنه، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ: لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ﴾ أي: لا تحلفوا. وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ قيل: معناه: طاعتكم طاعة معروفة؛ أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون]، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق قتادة به، وسنده ضعيف؛ لأن قتادة لم يسمع من الصحابة المذكورين ﷺ.

قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ [الحشر].

وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: ليكن أمركم طاعة معروفة؛ أي بالمعروف من غير حلف ولا أقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راجَ على المخلوق، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس؛ بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . .﴾ الآية [الشورى: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: شعياء: أن قُم في بني إسرائيل، فإني سأطلق لسانك بوحي، فقام فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض انصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأناً ويدبر أمراً هو منفذه، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة، والآجام[1] في الغيطان[2]، والأنهار في الصحارى، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، ويريد أن يبعث أمياً من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه بشيراً ونذيراً، لا يقول الخنا[3]، أفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُلفاً، وأسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خُلُق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلّم به من الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة[4]، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء مشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيماً من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحّدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به رسلي. رواه ابن أبي حاتم[5].

---

(١) أي: الشجر الكثيف الملتف (النهاية ١/٢٦).

(٢) أي: الأرض المنبتة (الصحاح للجوهري ٣/١١٣٧).

(٣) أي: الفحش من القول (النهاية ٢/٨٦). (٤) أي: الخفاء.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد عن وهب، والخبر عليه أمارات الإسرائيليات.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض؛ أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنّة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمّ شعث ما وهى بعد موته ﷺ، وأطّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومخالفيهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة.

ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله. وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس. وكَسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحذر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتمّ سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، ويبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»[1]، فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنّا.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه مطولاً (الصحيح، الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح٢٨٨٩).

قال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سَمُرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ فقال: قال: «كلهم من قريش»[١]. ورواه البخاري من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير به[٢]، وفي رواية لمسلم: أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك، وذكر معه أحاديث أُخر[٣]، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين؛ بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنه، ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم من شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى. ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث سعيد بن جهمان، عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً»[٤].

وقال الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ ...﴾ الآية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغيروا بذلك من شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة» وأنزل الله هذه الآية[٥]، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا

---

(١) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (الصحيح، الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح١٨٢١/ ٦).

(٢) صحيح البخاري، الأحكام (ح٧٢٢٢).

(٣) المصدر قبل السابق (ح١٨٢٢).

(٤) أخرجه المذكورون بدون لفظ: «عضوضاً» (المسند ٣٦/ ٢٤٨ ح٢١٩١٩)، وحسنه محققوه، وسنن أبي داود، السنة، باب في الخلفاء (ح٤٦٤٦)، وسنن الترمذي، الفتن، باب ما جاء في الخلافة (ح٢٢٢٦)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٢٤ ح٦٦٥٧)، وحسنه محققه، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٧١)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر والألباني (ينظر: السلسلة الصحيحة ح٤٦٠).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع به، وسنده مرسل، ويشهد له ما أخرجه الحاكم من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٠١)، وأخرجه الضياء المقدسي وحسنه محققه (المختارة ٣/ ٣٥٣ ح١١٤٥).

فيه، فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم، وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد[١]، وهذه الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ . . .﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمَّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هُرمُز، قال: «نعم كسرى بن هُرمُز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبي سلمة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا[٣] والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أن رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: «يا معاذ». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم. . قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً». قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن البراء رضي الله عنه، ويشهد له ما سبق.

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (الصحيح، المناقب، باب علامات النبوة ح٣٥٩٥).

(٣) أي: بارتفاع المنزلة والقدر.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ١٤٤ ح٢١٢٢٠)، وقال محققوه: إسناده قوي، وأخرجه الحاكم من طريق سفيان به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣١١)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٠). وما نقله ابن حجر عن المسند من طريق عبد الرزاق عن معمر عن سفيان به (إتحاف المهرة ١/ ١٨٨).

«فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم»[١]، أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه، وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابة ﷺ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة»، وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»، وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجال»، وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون»[٣]، وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ؛ أي سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعلَّ الله يرحمهم بذلك، ولا شكَّ أن من فعل هذا، أن الله سيرحمه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أي: [لا تظن يا محمد أن][٤] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: خالفوك وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله؛ بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل مآل الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٢٤٢)، وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل (ح٥٩٦٧)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (ح٣٠).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٨١.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «يا محمد»، وبعدها بياض قدر كلمة.

السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال:

(الأول): من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم.

ـ ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾[1] أي: في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله.

ـ ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾[2] لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم طوافون عليكم؛ أي: في الخدمة وغير ذلك. ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم، ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبي ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجسة، إنها من الطوافين عليكم أو والطوافات»[3].

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ . . .﴾ إلى آخر الآية، والآية التي في سورة النساء ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، والآية في الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣][4].

وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم ـ وهو ضعيف ـ، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إلى آخر الآية[5].

وروى أبو داود: حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة وهذا حديثه: أخبرنا سفيان عن

---

(١) وهو الحال الثاني. (٢) وهو الحال الثالث.

(٣) الموطأ، الطهارة، باب الطهور للوضوء (ح١٣)، (ومسند أحمد ٣٧/ ٢١١ ح٢٢٥٢٨)، وصححه محققوه، وسنن أبي داود، الطهارة، باب في سؤر الهرة (ح٧٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٦٨)، وسنن الترمذي، الطهارة، باب ما جاء في سؤر الهرة (ح٩٢) وقال: حسن صحيح، وسنن النسائي، الطهارة، باب سؤر الهرة ١/ ٥٥، وسنن ابن ماجه، الطهارة، باب الوضوء بسؤر الهرة والرخصة في ذلك (ح٣٦٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه وسنده، وسنده جيد، ويشهد له الأخبار التالية.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن مسلم به، ويشهد له سابقه ولاحقه.

عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول: لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن علي. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس: يأمر به[١].

وقال الثوري، عن موسى بن أبي عائشة: سألت الشعبي: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؟ قال: لم تنسخ. قلت: فإن الناس لا يعملون بها. فقال: الله المستعان[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله ستير يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله. ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به[٣]. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود عن القعنبي، عن الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، به[٤].

وقال السدي: كان أناس من الصحابة ﷺ يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن[٥]، وقال مقاتل بن حيان: بلغنا ـ والله أعلم ـ أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي ﷺ طعاماً فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أقبح هذا، إنه ليدخل على المرأة وزوجها ـ وهما في ثوب واحد ـ غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَئْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ . . .﴾ الآية[٦].

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَئْذِنُواْ كَمَا ٱسْتَئْذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: عن يحيى بن أبي كثير: إذا كان الغلام رباعياً[٧]، فإنه يستأذن في العورات

---

(١) سنن أبي داود، الأدب، باب الاستئذان في العورات الثلاث (ح٥١٩١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٣٢٣).

(٢) أخرجه الطبري بسندين صحيحين من طريق الثوري به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وصحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٤) سنن أبي داود، الأدب، باب الاستئذان في العورات الثلاث (ح٥١٩٢)، وحسنه الألباني (ح٤٣٢٢).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل، وسنده حسن لكنه معضل؛ لأن مقاتل بن حيان تابع تابعي.

(٧) أي: طوله أربعة أشبار (النهاية ٢/ ١١٨).

الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال[(١)]. وهكذا قال سعيد بن جبير[(٢)]. وقال في قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه[(٣)].

وقوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد[(٤)]. ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يبق لهن تشوُّق إلى التزوج ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء.

قال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ . . .﴾ الآية [النور: ٣١]، فنسخ واستثنى من ذلك ﴿الْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية[(٥)].

قال ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: الجلباب أو الرداء[(٦)]. وكذلك روي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والزهري والأوزاعي وغيرهم[(٧)].

وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع[(٨)] والخمار[(٩)].

وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود: «أن يضعن من ثيابهن» وهو الجلباب من فوق الخمار، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق[(١٠)].

وقال سعيد بن جبير في الآية: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة[(١١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبد الله، حدثنا ابن المبارك، حدثني سوار بن ميمون، حدثتنا طلحة بنتُ عاصم، عن أُم الضياء أنها قالت: دخلت على عائشة ﵂، فقلت: يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء قصتكن كلها واحدة، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات؛ أي لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً[(١٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الأوزاعي به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد.
(٤) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند.
(٥) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، اللباس، باب في قول الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] ح٤١١١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤٦٤).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بعدة طرق صحاح عن ابن مسعود ﵁.
(٧) ذكرهم كلهم ابن أبي حاتم بحذف السند. (٨) أي: القميص.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق عمران بن سليمان المرادي عن أبي صالح، وهو باذام مولى أم هانئ.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير به، وسنده ضعيف، لأن سعيداً لم يسمع من ابن مسعود.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وطلحة بنت عاصم لم أجد لها ترجمة ومعناه صحيح.

وقال السدي: كان شريك لي يقال له: مسلم، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان، فجاء يوماً إلى السوق وأثر الحناء في يده، فسألته عن ذلك فأخبرني أنه خضب رأس مولاته وهي امرأة حذيفة، فأنكرت ذلك، فقال: إن شئت أدخلتك عليها؟ فقلت: نعم، فأدخلني عليها فإذا هي امرأة جليلة، فقلت لها: إن مسلماً حدثني أنه خضب لك رأسك؟ فقالت: نعم يا بُني إني من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً، وقد قال الله تعالى في ذلك ما سمعت[١].

وقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي لأجله رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنها: نزلت في الجهاد[٢]، وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة؛ أي إنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة]، وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية، رخصة في ذلك، وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم.

وقال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعززاً، ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده من طريق أسباط عن السدي، والسدي في هذا المتن يُنبه على تشيعه، فالإسناد ضعيف.

(٢) قول عطاء الخراساني أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عثمان بن عطاء عنه، وعثمان ضعيف، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه لكنه معضل؛ لأن عبد الرحمن تابع تابعي.

(٣) أخرجه البستي وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك وهو مرسل، ويتقوىٰ بما يليه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ . . .﴾ الآية، قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم[١].

وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن ربَّ البيت ليس ثَمَّ، فقال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليستأذنه به ما بعده في الحكم، وتضمن هذا بيوت الأبناء؛ لأنه لم ينصّ عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنتَ ومالُك لأبيك»[٣].

وقوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ هذا ظاهر.

وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما.

وأما قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان[٤]، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف[٥].

وقال الزهري، عن عروة عن عائشة ﵂ قالت: كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحلّ لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[٦].

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي لكنه مرسل، ويتقوىٰ بما سبق.

(٣) أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ﵄، (المسند ١١/ ٢٦١ ح٦٦٧٨)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه أبو داود (السنن، الإجارة، باب في الرجل يأكل من مال ولده ح٣٥٣٠)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح٣٠١٥)، وابن ماجه (السنن، البيوع، ح٢٢٩٢).

(٤) القهرمان: القائم بأمور الرجل باللغة الفارسية (ينظر: النهاية ٤/ ١٢٩).

(٥) قول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عنه، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عنه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق صالح بن كيسان عن الزهري به.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه[١].

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخَّص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[٢].

وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[٣]. فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرَك وأفضل.

كما رواه الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وحشي بن حرب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «لعلكم تأكلون متفرقين؟ اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»[٤]. ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث الوليد بن مسلم به[٥].

وقد روى ابن ماجه أيضاً من حديث عمرو بن دينار القهرماني، عن سالم، عن أبيه، عن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلوا جميعاً ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة»[٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري: يعني فليسلم بعضكم على بعض[٧].

وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، سمعت جابر بن عبد الله يقول: إذا دخلت على أهلك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/ ٤٨٥ ح١٦٠٧٨)، وقال محققوه: حسن بشواهده، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٠٣)، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة ح٦٦٤).
(٥) سنن ابن ماجه، الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام (ح٣٢٨٦)، وسنن أبي داود، الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام (ح٣٧٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٦٥٧).
(٦) أخرجه ابن ماجه، الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام (ح٣٢٨٧)، وضعفه البوصيري (مصباح الزجاجة ٣/ ٧٧)، وذكر الألباني أنه ضعيف جداً. . . والجملة الأولىٰ ثابتة، (السلسلة الصحيحة ح٢٦٩١).
(٧) قول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عنه، وقول الحسن البصري أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد ابن أبي عروبة عنه.

فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، قال: ما رأيته إلا يوجبه[١].

قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاوس: أنه كان يقول: إذا دخل أحدكم بيته فليسلم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا آثر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي وما أدعه إلا ناسياً[٢].

وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلِّم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[٣].

وروى الثوري عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد، إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله والحمد لله، السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[٤].

وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يُؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة تردُّ عليه[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عويد بن أبي عمران الجوني، عن أبيه، عن أنس قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال: «يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلِّم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأوّابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة»[٦].

وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال محمد بن إسحاق: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقول: ما أخذت التشهد، إلا من كتاب الله سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ فالتشهد في الصلاة، التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، السلام عليك أيُّها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ثم يدعو لنفسه ويسلم. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن إسحاق[٧]. والذي في صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ يخالف هذا[٨]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري من طريق ابن جريج به (الأدب المفرد ح١٠٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٨٣٣).

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به لكن في سنده الحسين، وهو ابن داود، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عبد الكريم الجزري عن مجاهد.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق الثوري به (المصنف ٨/٦٤٩).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل.

(٦) سنده ضعيف جداً؛ لأن عويد بن أبي عمران الجوني: متروك، وروىٰ عن أبيه أحاديث منكرة (ينظر: لسان الميزان ٤/٣٨٦، ٣٨٧).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق به، وسنده حسن.

(٨) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» (الصحيح، الصلاة، باب التشهّد في الصلاة ح٤٠٣).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لمَّا ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبّه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً؛ ليتدبّروها ويتعقّلوها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ...﴾ الآية.

وقد قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا: حدثنا بشر هو: ابن المفضل، عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلِّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»[(١)]، وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حديث حسن[(٢)].

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ، قال: فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله[(٣)]، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير[(٤)].

وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيه ﷺ، وأن يُبجّل وأن يُعظّم وأن يُسوّد[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس ح٥٢٠٨)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح٤٣٤٠)، وحسنه السيوطي (الجامع الصغير مع شرح فيض القدير ١/ ٣٠٥ ح٤٩٧).

(٢) سنن الترمذي، الاستئذان، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود (ح٢٧٠٦)، والسنن الكبرىٰ (ح١٠٢٠١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك به، وسنده ضعيف؛ لأن الضحاك لم يلق ابن عباس، ويتقوىٰ بالمراسيل التالية.

(٤) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سالم الأفطس عنه، وهذان المرسلان يقوي أحدهما الآخر.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وهو مرسل ويتقوىٰ بالمراسيل السابقة.

وقال مقاتل في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله[١].

وقال مالك: عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: أمرهم الله أن يشرفوه[٢]، هذا قول، وهو الظاهر من السياق، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٥]، فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته.

والقول الثاني في ذلك: أن المعنى في ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا، حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي، والله أعلم[٣].

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حيان: هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، ويعني بالحديث: الخطبة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته[٤].

وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيّبوا عنه فلا يراهم[٥].

وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾: [يعني: لواذاً عن نبي الله وعن كتابه[٦]. وقال سفيان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال: من الصف[٧]، وقال مجاهد في الآية: ﴿لِوَاذًا﴾][٨] خلافاً[٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل، وسنده معضل ويتقوىٰ بما سبق.
(٢) سنده صحيح وهو مرسل، ويشهد له ما سبق.
(٣) قول ابن عباس وعطية أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عطية العوفي به عن ابن عباس، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عاصم عن الحسن البصري.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل لكنه معضل لأن مقاتلاً؛ تابع تابعي.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق مهران، وهو ابن أبي عمر العطار.
(٨) زيادة من (ح) و(حم).
(٩) أخرجه البستي والطبري وابن أبي حاتم كلهم من طريق ابن جريج عن مجاهد، وهو لم يسمع من مجاهد، ويتقوىٰ بما سبق.

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1]؛ أي فليحذر وليخشَ من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا بقتل أو حدّ أو حبس أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ،فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه ويقتحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلّم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها». أخراجه من حديث عبد الرزاق[2].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

يخبر تعالى أن مالك السمٰوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ﴾ [النور: ٦٣] وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة]، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد، كقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة.

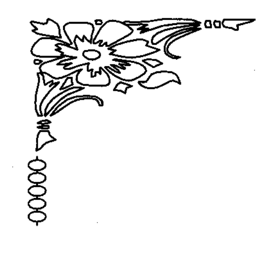
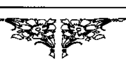
فقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ [الرعد: ٣٣]؛ أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ . . .﴾ الآية [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٣١.
(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الرعد آية ١٧.

رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم ترجع الخلائق إلى الله، وهو يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزَّله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف] وقال ههنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة [الثابتة الدائمة] ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزَّل فعل من التكرر والتكثر كقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان] ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغي والرشاد والحلال والحرام.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن] وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصَّه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت] الذي جعله فرقاناً عظيماً إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود» وقال: «أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» فذكر منهن أنه «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[(١)] كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ١٥١.

﴿نَذِيرًا﴾ أي: الذي أرسلني هو مالك السمٰوات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال ههنا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ونزه نفسه عن الولد، وعن الشريك.

ثم أخبر أنه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت [قهره][1] وتدبيره وتسخيره وتقديره.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء، المالك لأزمّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله ﷻ الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر] وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ ... ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات] ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس] فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد ولا والد له ولا عديل ولا نديد، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعنون: النبي ﷺ: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل؛ أي استنسخها ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: في أول النهار وآخره.

وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «قدره».

أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبرّه وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمّونه في صغره وإلى أن بعث «الأمين»، لما يعلمون من صدقه وبرّه، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج] قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة[١].

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما [تعللوا][٢] بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلّا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، وهذا كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) لم أجد من أخرجه.

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: «تقللوا».

[الزخرف] وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: علم كنز ينفق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟﴾ أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن طريق الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى، فإنه ضالّ حيثما توجه، لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً.

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمّون كل بيت من حجارة قصراً كبيراً كان أو صغيراً[١].

قال سفيان الثوري: عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيثمة: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله، فقال: «اجمعوها لي في الآخرة» فأنزل الله ﷻ في ذلك ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾[٢].

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم.

قال الثوري: عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير ﴿سَعِيرًا﴾ وادٍ من قيح جهنم.

وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: جهنم ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني في مقام المحشر[٣].

قال السدي: من مسيرة مائة عام[٤] ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨] أي: يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنف الواسطي، أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله: «من يقل عليّ ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه،

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١١/٥٠٩)، والطبري كلاهما من طريق سفيان به، وسنده مرسل لأن خيثمة تابعي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سفيان به، وسنده مرسل.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أسباط عن السدي، وسنده مرسل.

أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار ـ وفي رواية ـ فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله وهل لها من عينين؟ قال: «أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾» الآية[١]؟ ورواه ابن جرير، عن محمد بن خداش، عن محمد بن يزيد الواسطي به[٢].

وقال أيضاً: حدثنا أبي[٣]، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سليم، عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خُثَيم، فمروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خُثَيم إليها، فتمايل الربيع ليسقط، فمرَّ عبد الله على أتون[٤] على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ فصعق، يعني: الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يفق رضي الله عنه[٥].

وحدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن العبد ليجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف، هكذا رواه ابن أبي حاتم بإسناده مختصراً[٦].

وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا ربِّ ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف[٧]، وهذا إسناد صحيح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن منصور، عن مجاهد، عن عُبيد بن عُمير في قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرّ لوجهه ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: ربِّ لا أسألك اليوم إلا نفسي[٨].

وقوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال قتادة: عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكن خالد بن دريك معروف بالإرسال ولم يصرح باسم الصحابي حتى نعلم هل أدرك ذلك الصحابي، أما إبهام الصحابي فلا يضر لأنهم كلهم عدول، وللحديث شواهد في الصحيحين إلا السؤال الأخير وجوابه.

(٢) أخرجه بسنده ومتنه، وحكمه كسابقه. (٣) أي: والد ابن أبي حاتم.

(٤) أي: مكان موقد النار.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده أبو يحيىٰ وهو القتات لين الحديث كما في التقريب.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وحكمه كسابقه، وقد صحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده رجاله ثقات لكنه مرسل.

قال: مثل الزج[(١)] في الرمح؛ أي من ضيقه[(٢)].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أُسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، أنه سُئل عن قول الله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال: «والذي نفسي بيده، إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط»[(٣)].

وقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين[(٤)].

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ الآية.

روى الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يُكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده، وهو ينادي يا ثبوراه، وينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار، فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم، فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً»[(٥)] لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن عفان به، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به[(٦)].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً[(٧)].

وقال الضحاك: الثبور الهلاك[(٨)]، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: هالكاً.

وقال عبد الله بن الزبعري:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغـ ـي ومن مال ميله مثبورا[(٩)]

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون

---

(١) الزج: أي الحديدة التي تركب في أسفل الرمح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به، وأبو أيوب هو: المراغي الأزدي، اسمه يحيىٰ ويقال: حبيب بن مالك، كما في التقريب.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن وهب به وسنده منقطع.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، (المسند ٣/ ١٥٢)، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري كلاهما بسند ضعيف من طريق علي بن زيد بن جدعان.
(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ برواية الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.
(٨) أخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
(٩) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٢/ ٤١٩).

حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده؟ التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: لا بدّ أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: وعداً واجباً(١).

وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم - أو قال وعدناكم - ننجز وعدهم وتنجزوه(٢).

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨](٣).

وقال أبو حازم إذا كان يوم القيامة، قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة الصافات حل أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال مجاهد: هو عيسى والعزير والملائكة(٤). ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية؛ أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من

---

(١) ذكره الطبري، ومعناه أنه هو سبحانه أوجبه على نفسه، وهذا من رحمته الواسعة.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء، وهو الخراساني كما صرح الطبري به، وسنده ضعيف لأن عطاء لم يسمع من ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن أبي هلال عن محمد بن كعب القرظي.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ الآية [المائدة: ١١٦، ١١٧]، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ]، وقال آخرون: «ما كان ينبغي لنا نتخذ[(١)] من دونك من أولياء» أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك، وهي قريبة المعنى من الأولى ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر؛ أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ قال ابن عباس: أي هلكى[(٢)].

وقال الحسن البصري ومالك، عن الزهري: أي لا خير فيهم[(٣)].

وقال ابن الزبعري حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتقٌ ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن الغـ ... ـي ومن مال ميله مثبور

وقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم

---

(١) والقراءتان بالفتح والرفع متواترتان.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) قول الحسن البصري أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة الظاهرة، ما يستدل به كل ذي لبٍّ سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمن يستحق أن يوحي إليه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك.

وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم[(١)]. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلٍ بك»[(٢)]. وفي المسند عن رسول الله ﷺ: «لو شئت لأجرىٰ الله معي جبال الذهب والفضة»[(٣)]. وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خُيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً[(٤)].

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فنراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان، ولهذا قالوا: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ٣٩).

(٢) أخرجه مسلم بلفظ: «إنما بعثتُك لأبتليك وأبتلي بك»، مطولاً الصحيح، الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً (المسند ٨/ ٣١٨ ح٤٩٢٠)، وضعف سنده محققه لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن، ويشهد له الحديث التالي، ولهذا حسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ٩/ ١٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (المسند ١٢/ ٧٦ ح٧١٦٠) وصحح سنده محققه.

إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذٍ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه، اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه[١]، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان. وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾ يعني: يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك[٢] وغيرهما، ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين: يوم الممات ويوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذٍ للمجرمين ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم.

وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام، لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاف من ورائه[٣]، ومنه يقال للعقل حجر، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة إبرهيم آية ٢٧.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) ذكره الطبري بنحوه.

واختاره ابن جرير[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا موسى يعني ابن قيس، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري في الآية ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال: حراماً محرماً أن يبشر بما يبشر به المتقون[(٢)]. وقد حكى ابن جُرير عن ابن جُريج أنه قال ذلك من كلام المشركين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾؛ أي: يتعوذون من الملائكة[(٣)]، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد لا سيما وقد نصَّ الجمهور على خلافه، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: عوذاً معاذاً[(٤)]. فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج، ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عوذاً معاذاً الملائكة تقول ذلك، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ الآية، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ قال مجاهد والثوري ﴿وَقَدِمْنَا﴾؛ أي: عمدنا[(٥)]، وكذا قال السدي: وبعضهم يقول: أتينا عليه[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة[(٧)]، وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم[(٨)]، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع[(٩)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال: هو الماء المهراق[(١٠)].

---

(١) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق فطر الحناط عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول عطية العوفي أخرجه ابن أبي حاتم ضمن الرواية التالية.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف عطية العوفي.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وهو لم يسمع من مجاهد.

(٤) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.

(٥) قول مجاهد تخريجه كسابقه، وقول الثوري ذكره ابن أبي حاتم محذوف السند.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وسنده ضعيف لضعف الحارث وهو الأعور الهمداني كما في التقريب، وقد تابعه عقيل الجزري في رواية ابن أبي حاتم أيضاً. ومعناه صحيح، لأن الهباء يظهر في شعاع الشمس من الفتحة الضيقة، ويشهد له الآثار التالية.

(٨) ذكرهم ابن أبي حاتم كلهم بحذف السند، وقول ابن عباس أخرجه البستي بسند جيد من طريق أربدة التميمي عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند جيد من طريق سماك عنه.

(٩) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي رجاء عن الحسن.

(١٠) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال أبو الأحوص: عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: الهباء رهج[(١)] الدواب[(٢)]، وروي مثله عن ابن عباس أيضاً والضحاك، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[(٣)].

وقال قتادة في قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق[(٤)].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عاصم بن حكيم، عن أبي سريع الطائي، عن [عُبيد بن يعلى][(٥)] قال: وإن الهباء الرماد[(٦)]. إذا ذرته الريح، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً إذا إنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وتقدم الكلام على تفسير ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر]، وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان]، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان]؛ أي: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أي: غبار الدواب (النهاية ٢/ ٢٨١).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي الأحوص، وفيه أيضاً الحارث وهو الأعور الهمداني وهو ضعيف.
(٣) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق خالد بن قيس عن قتادة، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بنحوه.
(٥) كذا في تفسير ابن أبي حاتم وترجمته وفي النسخ الخطية بلفظ: «عُبيد بن يعلى».
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب به، لكنه معلقاً عن ابن وهب، فسنده ضعيف.

قال الضحاك، عن ابن عباس: إنما هي ضحوة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين المقرنين[١].

وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[٢].

وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[٣].

وقال سفيان، عن ميسرة: عن المنهال، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾[٤] [الصافات].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ قال: قالوا في الغرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾[٥] [الانشقاق].

وقال قتادة: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مأوى ومنزلاً[٦].

وقال قتادة: وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكاً في الدنيا إلى الحمرة والبياض، فيحاسب فإذا عبد لم يعمل خيراً قط فيؤمر به إلى النار، والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول: يا ربِّ ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به، فيقول الله: صدق عبدي فأرسلوه فيؤمر به إلى الجنة، ثم يتركان ما شاء الله، ثم يدعى صاحب النار فإذا هو مثل الحممة[٧] السوداء، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: شرّ مقيل، فيقال له: عد، ثم يدعى بصاحب الجنة فإذا هو مثل القمر ليلة البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول: ربِّ خير مقيل، فيقال له: عُدّ. رواها ابن أبي حاتم كلها[٨].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصواف

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك به، وسنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق رجل مجهول عن عكرمة.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سفيان به، وأخرجه الحاكم من طريق سفيان به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٠٢).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٧) أي: الفحمة السوداء، وجمعها حِمم (الصحاح ٥/ ١٩٠٤).
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السمٰوات يومئذٍ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾[2] [البقرة].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد: الجنّ والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق، فتنشق السماء الدنيا، فينزل أهلها وهم أكثر من الجنّ والإنس ومن جميع الخلق، فيحيطون بالجنّ والإنس وجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجنّ والإنس وجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجنّ والإنس وجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجنّ والإنس وجميع الخلق، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف، حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السمٰوات ومن الجنّ والإنس ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السمٰوات وبالجنّ والإنس وجميع الخلق كلهم، وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون[3] وهم أكثر من أهل السمٰوات السبع ومن الجنّ والإنس وجميع الخلق، لهم قرون كأكعب القنا[4]، وهم تحت العرش لهم زجل[5] بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عز وجل، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، وما بين

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن الصواف رواه بلاغاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وهو لم يسمع من مجاهد.

(٣) أي: سادة الملائكة (ينظر: النهاية ٤/ ١٦١).

(٤) أكعب القنا: جمع قناة وهي الرمح (النهاية ٤/ ١٦١).

(٥) أي: الصوت المرتفع (ينظر: النهاية ٢/ ٢٩٧).

كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ركبته إلى أرنبته[١] مسيرة خمسمائة عام، وما بين أرنبته إلى ترقوته[٢] مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام وجهنم مجنبته، وهكذا رواه ابن حاتم بهذا السياق[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، أنه سمع ابن عباس يقول: إن هذه السماء إذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الإنس والجنّ، وهو يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، فيقول أهل الأرض: جاء ربنا؟ فيقولون: لم يجئ وهو آت، ثم تنشق السماء الثانية، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة، فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السمٰوات ومن الجن والإنس. قال: فتنزل الملائكة الكروبيون، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة. قال: وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييّه، يقول: سبحان الملك القدوس، وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القباء، والعرش فوق ذلك، ثم وقف[٤]. فمداره على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف وفي سياقاته غالباً، وفيها نكارة شديدة، وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا، والله أعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ [الحاقة]، قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ورواه ابن جرير[٥] عنه.

وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورجفت كِلاهم في أجوافهم، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم[٦].

قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن عبد الجليل، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عمرو قال: يهبط الله ﷻ حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور والظلمة فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب[٧]، وهذا

---

(١) الأرنبة: طرف الأنف (النهاية ١/ ٤١).

(٢) الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق (النهاية ١/ ١٨٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده كسابقه.

(٥) أخرجه الطبري، وسنده ضعيف لإرسال شهر بن حوشب، وقوله: «حملة العرش ثمانية يشهد له القرآن الكريم» كما في الآية السابقة.

(٦) أخرجه الطبري من طريق الحسين عن حجاج عن أبي بكر بن عبد الله، وسنده ضعيف لضعف الحسين وهو ابن داود، وكذلك إرسال أبي بكر، ومعناه صحيح.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف الحسين كما في سابقه.

موقوف على عبد الله بن عمرو من كلامه، ولعله من الزاملتين[١]، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي الصحيح أن الله تعالى يطوي السمٰوات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك أنا الديَّان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون، أين المتكبرون[٢]؟

وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ أي: شديداً صعباً، لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر]، فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

وروى الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعضَّ على يديه حسرة وأسفاً.

وسواء كان سبب نزولها في عُقبة بن أبي مُعَيط[٤] أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلاً: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني: من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما، ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾؛ أي: بعد بلوغه إليّ، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾؛ أي: يخذله عن الحق ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.

---

(١) أي: الزاملتين التي حصل عليهما عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في غزوة اليرموك وفيها كتب من أهل الكتاب.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (الصحيح، صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار ح٢٧٨٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٨/٢٤٦ ح١١٧١٧) وضعف سنده محققوه.

(٤) وردت في هذا السبب مراسيل صحيحة يقوي بعضها بعضاً أخرجها ابن أبي حاتم عن مجاهد وقتادة وعمرو بن ميمون.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: «يا ربِّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً» وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾؛ أي: لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي هلّا أُنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به، كقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قال قتادة: بيناه تبييناً[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً[1].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية؛ أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى[2] بجوابهم.

ثم في هذا اعتناء كبير لشرف الرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحاً ومساء، وليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، وكلّ مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجلُّ وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث.

وقال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[3] [الإسراء].

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾. وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[4] وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالفهم، ومحذرهم من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير به.
(٣) أخرجه النسائي بسنده ومتنه (السنن الكبرى، التفسير، ح١١٣٧٢) وسنده صحيح.
(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٩٧.

عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً؛ أي: نبياً مؤازراً ومؤيداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، ويحذرهم نقمه ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠] ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗ﴾؛ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة]؛ أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة.

وأما أصحاب الرس، فقال ابن جريج عن ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود(١).

وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرسّ بفلج، وهم أصحاب يس(٢).

وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قال: بئر بأذربيجان(٤).

وقال الثوري عن أبي بُكير، عن عكرمة: الرسّ: بئر رسوا فيها نبيهم؛ أي: دفنوه بها(٥).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم، قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة، ويعينه الله تعالى عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت، قال: فكان ذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به، وهو لم يسمع من ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة بلفظ: «أهل فلج وآبار كانوا عليها، وما ذكره الحافظ ابن كثير أقرب للواقع بأنها الرس المعروفة في القصيم بالمملكة العربية السعودية».
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٥) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الثوري عن أبي بكير عن عكرمة.

وجد سنة، فاضطجع فنام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هبَّ فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه هبَّ واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشرابا كما كان يصنع، ثم إنه ذهب إلى الحفيرة موضعها الذي كانت فيه، فالتمسه فلم يجده، وكان قد بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه، قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل، فيقولون له: لا ندري، حتى قبض الله النبي، هبَّ الأسود من نومته بعد ذلك» فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة». وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن محمد بن كعب مرسلاً[١]، وفيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً، والله أعلم. وقال ابن جرير: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرسّ الذين ذكروا في القرآن، لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم، والله أعلم.

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج[٢]، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونَا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾؛ أي: وأمماً أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾؛ أي: بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: وأزحنا الأعذار عنهم[٣] ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾؛ أي: أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المؤمنون] وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائة. وقيل: بثمانين، وقيل: أربعين، وقيل: غير ذلك، والأظهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهم قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٤] الحديث ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني: قرية قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]، ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾؛ أي: فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله

---

(١) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وسنده ضعيف للإرسال وعنعنة محمد بن إسحاق، وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً.

(٢) ليس هذا باختيار الطبري وإنما قال: «ولا أعلم قوماً كانت لهم قصة بسبب حفرة ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين» بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ [الفرقان: ٣٨] فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبراً إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رسّوا نبيهم في حفرة إلا ما حدثنا... ثم ذكر رواية ابن إسحاق المذكورة أعلاه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح عن معمر عن قتادة بلفظ: «كل قد أعذر الله إليه، ثم انتقم منه».

(٤) الذي في الصحيح هو بلفظ: «خير الناس قرني»، وصح عنه بلفظ: «خير أُمتي قرني» (السلسلة الصحيحة ح١٨٤١).

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً؛ أي: معاداً يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، يعنون بالعيب والنقص. وقال ههنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؛ أي: على سبيل التنقيص والازدراء فقبحهم الله، كما قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ثم قال تعالى لنبيه منبهاً أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؛ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول[١].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

من ههنا شرع ﷻ في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾.

قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس[(١)].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ الآيات [القصص: ٧١ ـ ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضدَّ لا يعرف إلا بضدِّه.

وقال قتادة والسدي: دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: الظل. وقيل: الشمس ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً.

قال ابن عباس: سريعاً[(٣)].

وقال مجاهد: خفياً[(٤)].

وقال السدي: قبضاً خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه[(٥)].

وقال أيوب بن موسى في الآية ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: قليلاً قليلاً[(٦)].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أي: يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل]، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾؛ أي: قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكلُّ من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾؛ أي: ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات؛ أي:

---

(١) قول ابن عباس أخرجه البخاري تعليقاً (الصحيح، التفسير، سورة الفرقان قبل حديث رقم ٤٧٦٠)، ووصله الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبقية المذكورين من الصحابة والتابعين ذكرهم ابن أبي حاتم كلهم بحذف السند.

(٢) قول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عنه.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عبد العزيز بن رفيع عن مجاهد.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق مسلم بن خالد الزنجي عن أيوب بن موسىٰ.

بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يقم الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾؛ أي: آلة يتطهر بها كالسحور والوقود وما جرى مجراهما، فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال إنه فعول بمعنى فاعل، أو إنه مبني للمبالغة والتعدي، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدثني حميد الطويل، عن ثابت البناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطرق البصرة قذرة، فصلى فقلت له، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ قال: طهره ماء السماء(١).

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وهيب، عن داود، عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال: أنزله الله طهوراً لا ينجسه شيء(٢).

وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر يلقى فيها النتن ولحوم الكلاب؟ فقال: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء» رواه الشافعي وأحمد وصححه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي(٣).

وروىٰ ابن أبي حاتم بإسناده: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعث حدثنا معتمر، سمعت أبي يحدث عن سيار، عن خالد بن يزيد قال: كان عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه يسقيه الغيم من البحر فيغذ به الرعد والبرق، فأما ما كان من البحر فلا يكون له نبات، فأما النبات فمما كان من السماء(٤).

وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة(٥).

وقال غيره: في البَرّ بُرّ وفي البحر دُرّ.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده أبو جعفر الرازي وهو صدوق سيء الحفظ ويشهد له ما يليه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٣) الأم للشافعي ١/ ٩، والمسند ١٨/ ١٩٠ (ح١١١١٩)، وصححه محققوه بطرقه وشواهده، وسنن أبي داود، الطهارة، باب ما جاء في بئر بضاعة (ح٦٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٥٩)، وسنن الترمذي، الطهارة، باب ما جاء في أن الماء لا ينجسه شيء (ح٦٦)، وسنن النسائي، المياه، باب ذكر بئر بضاعة ١/ ١٧٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الرحمن بن عبد الله الأصبهاني عن عكرمة.

مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام، وأناسيّ محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورىٰ]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾؛ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها وبتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

قال ابن عباس وابن مسعود ﷺ: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾[١]؛ أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقال عمر مولى غُفرة: كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز[٢]، فقال له النبي ﷺ: «يا جبريل إني أُحب أن أعلم أمر السحاب» قال: فقال له جبريل: يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله، فقال: تأتينا صكاك[٣] مختمة، اسقِ بلاد كذا وكذا، وكذا وكذا قطرة. رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال عكرمة: يعني الذين يقولون مُطرنا بنوء[٥] كذا وكذا[٦]، وهذا الذي قاله عكرمة كما صحَّ في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال ولأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكواكب»[٧].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عنه، وأخرجه الحاكم من الطريق نفسه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٤٠٣)، وقول ابن مسعود أخرجه الطبري البيهقي من طريقين وصححه البيهقي (السنن الكبرىٰ ٣/٣٦٣).

(٢) موضع الجنائز: هو مكان معروف في المسجد النبوي الشريف تجاه المنبر توضع فيه الجنائز للصلاة عليها (ينظر: فتح الباري ٣/١٩٩).

(٣) صكاك: جمع صك وهو الكتاب (النهاية ٣/٤٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف لضعف عمر مولى غُفرة كما في التقريب، ولإرساله.

(٥) النوء: منزلة من ثمان وعشرين منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها، وسمي نوءاً لأنه إذا سقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ينوء نوءاً أي: نهض وطلع (ينظر: النهاية ٥/١٢١، ١٢٢).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق النضر بن عربي عن عكرمة.

(٧) أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني (الصحيح، الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء ح٧١).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم القرآن ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[١]، وفيهما: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[٢] ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ يعني القرآن، قاله ابن عباس[٣]، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: خلق الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال، قاله ابن جريج[٤]، واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات، والله ﷻ إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: مالح مر زعاق لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق، وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم، وبحر الخزر، وما شاكلها وما شابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مدٌّ وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مدٌّ وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهلَّ الهلال من الشهر الآخر شرعت في المدِّ إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله ﷻ وهو ذو القدرة التامة العادة بذلك، فكلُّ هذه البحار الساكنة، خلقها الله ﷻ مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها مالحاً، كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة، ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته»[٥] رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد.

---

(١)(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٠.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن ابن عباس وهو لم يلق ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حجاج بن محمد عن ابن جريج.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٣.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾؛ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾؛ أي: حاجزاً وهو اليبس من الأرض، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ الآية؛ أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك له ضراً ولا نفعاً، بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدَّتهم إليه بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾؛ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس]؛ أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويذبُّون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه(١).

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يقول: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك(٢).

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قال: موالياً(٣).

ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: بشيراً

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ليث بن أبي سُليم عن مجاهد، وليث فيه مقال.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق محمد بن أبان عن زيد بن أسلم، ومحمد بن أبان ضعيف (المجروحين ٢/ ٢٦٠).

للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم ورب كل شيء ومليكه اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل قال: قرأت على معقل يعني: ابن عبيد الله، عن عبد الله بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمان النبيَّ ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحيّ الذي لا يموت»[١] وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾؛ أي: أقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»[٢]؛ أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الملك: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ أي: بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية؛ أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق قدرته السموٰات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾؛ أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب ردّ نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال شهر بن حوشب، وفي شهر مقال أيضاً.

(٢) تقدم تخريجه في الاستعاذة قبل سورة الفاتحة.

[الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

قال مجاهد: في قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك[١]. وكذا قال ابن جريج[٢].

وقال شمر بن عطية في قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ هذا القرآن خبير به[٣].

ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذي يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللَّهم، ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤] [الإسراء: ١١٠]؛ أي: هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: لا نعرفه ولا نقر به ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ أي: لمجرد قولك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية، ويسجدون له، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج، وهي الكواكب العظام في قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة[٥].

وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد بن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً[٦]، والقول الأول أظهر. اللَّهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال

---

(١) أخرجه البستي وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين بن داود وهو ضعيف ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبيد بن حميد عن شمر، وعبيد لم أجد له ترجمة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مغفل المُزني ﷺ (المسند ٢٧/ ٣٥٤ ح١٦٨٠٠)، وصحح سنده محققوه، وصحح سنده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٥/ ٣٥١).

(٥) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول أبي صالح فقد أخرجه بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٦) ذكرهم ابن أبي حاتم كلهم بحذف السند إلا قول علي ابن أبي طالب أخرجه بسند ضعيف جداً من طريق سعد بن طريق عن أصبغ بن نباتة عنه، وسعد وأصبغ وكلاهما متروك. كما أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن عن عطية العوفي.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ].

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾؛ أي: مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح]، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

وقوله تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له ﷻ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[(١)].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا [أبو حرة][(٢)]، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: إنه بقي عليَّ من وردي شيء، فأحببت أن أتمَّه، أو قال أقضيه، وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾[(٣)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: يقول من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل[(٤)]، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن[(٥)].

وقال مجاهد وقتادة: خلفة؛ أي: مختلفين؛ أي: هذا بسواده وهذا بضيائه[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، (الصحيح، التوبة، باب غيرة الله تعالى ح٢٧٥٩).

(٢) كذا في تفسير ابن أبي حاتم ومن ترجمته لأن أبا حرة معروف بالتدليس عن الحسن البصري (تهذيب التهذيب ١١/ ١٠٤)، وفي النسخ الخطية صُحف إلى: (أبو حمزة).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي داود الطيالسي به، وسنده ضعيف لأن أبا حُرة يدلس عن الحسن، والحسن لم يسمع من عمر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) قول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف لضعف حفص بن عمر العدني، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عنه، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن معمر عنه.

(٦) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بنحوه وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عمر بن قيس بن ماهر عن مجاهد بنحوه.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ أي: بسكينة ووقار من غير جبرية[1] ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشِر ولا بِطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة.

وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا»[2].

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية، قال: إن المؤمنين قوم ذلل، ذلَّت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم والله أصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، ولكن أبكاهم الخوف من النار، إنه من لم يتعز بعزاء الله، تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله نعمةً إلا في مطعم أو مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾؛ أي: إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]. وروى الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ، وسبَّ رجل رجلاً عنده، فجعل قال: المسبوب يقول: عليك السلام، الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكاً بينكما يذبُّ عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنتَ وأنتَ أحق به، وإذا قلت له: وعليك السلام، قال: لا بل عليك وأنت أحق به»[4]. إسناده حسن، ولم يخرجوه.

---

(١) الجبرية: بفتح الباء وإسكانها: التكبُّر.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، (صحيح البخاري، الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة ٦٣٥، وصحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة ح٦٠٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن المبارك، وفي سنده يحيىٰ بن المختار وهو مستور كما في التقريب.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ١٥٤ ح٢٣٧٤٥)، وقال محققوه: حسن لغيره، وقال الهيثمي: =

وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعني: قالوا سداداً[١].

وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول[٢].

وقال الحسن البصري: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ حلماء لا يجهلون إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل[٣]، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية [الزمر: ٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾؛ أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر:

إن يعذب يكن غراماً ... وإن يُعط جزيلاً، فإنه لا يبالي[٤]

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه، فليس بغرام، وإنما الغرام الملازم ما دامت السموات والأرض[٥]، وكذا قال سليمان التيمي[٦].

وقال محمد بن كعب: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نعموا في الدنيا، إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار[٧].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾؛ أي: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً.

وقال ابن أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طرح الرجل في النار هوىٰ فيها، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له: مكانك حتى تتحف، قال: فيسقى كأساً من سمِّ الأساود[٨] والعقارب، قال: فيميز[٩] الجلد على حِدة، والشعر على حِدة، والعصب على حِدة، والعروق على حِدة[١٠].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن

= رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة (مجمع الزوائد ٨/ ٧٥).

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن.

(٤) استشهد به الطبري ونسبه إلى الأعشىٰ.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند حسن من طريق جعفر بن سليمان عن سليمان التيمي.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب، وموسى ضعيف كما في التقريب.

(٨) الأساود: جمع أسود وهو أخبث الحيات وأعظمها (ينظر الصحاح ٢/ ٤٩١).

(٩) أي: يعزل (الصحاح ٣/ ٨٩٧).

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح ولكنه مرسل.

مجاهد، عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لجباباً[١] فيها حيات أمثال البُخْت[٢]، وعقارب أمثال البغال الدُلْم[٣]، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها، فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حر النار رجعت[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سلام يعني ابن مسكين، عن [أبي ظلال][٥]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنَّان يا منَّان، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأتني بعبدي هذا، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُكبِّين يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول الله عز وجل، ائتني به، فإنه في مكان كذا وكذا، فجيء به فيوقفه على ربه عز وجل، فيقول له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا ربِّ شر مكان وشر مقيل، فيقول الله عز وجل ردُّوا عبدي، فيقول: يا ربِّ ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول الله عز وجل، دَعُوا عبدي»[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية؛ أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن [ضَمِرة][٧]، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل رفقة في معيشته»[٨]. ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»[٩] لم يخرجوه.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مسلم بن حبيب، عن بلال - يعني: العبسي - عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في

---

(١) جبابا: جمع جُب وهو الواسعة (ينظر لسان العرب ١/ ٢٥٠).
(٢) البُخْت: البُخْتية هي الأنثى من الجمال البخت وهي جمال طوال الأعناق (ينظر النهاية ١/ ١٠١).
(٣) الدُلْم: جمع أدلم وهو الأسود الطويل (النهاية ٢/ ١٣١).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح لكنه مرسل.
(٥) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل صحف إلى: (أبي طلال).
(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢١/ ١٠٠ ح١٣٤١١)، وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً، أبو ظلال: واسمه هلال بن أبي هلال مجمع على ضعفه، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٦٧).
(٧) كذا في (ح) و(حم) ومسند أحمد، وفي الأصل صحف إلى: (حمزة).
(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٦/ ٢٦ ح٢١٦٩٥)، وضعفه محققوه لضعف أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم.
(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٧/ ٣٠٢ ح٤٢٦٩) وضعف سنده محققوه لضعف إبراهيم الهجري.

العبادة» ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة ﵁[١].

وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف[٢].

وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى، فهو سرف[٣].

وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله ﷻ[٤].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله هو: ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أي: قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[٥]، وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري، عن أبي معاوية به[٦]، وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش ومنصور زاد البخاري وواصل ثلاثتهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به، فالله أعلم، ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ الحديث[٧]، طريق غريب.

قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا عامر بن مدرك، حدثنا السري يعني: ابن إسماعيل، حدثنا الشعبي، عن مسروق قال: قال عبد الله، خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته، فجلس على نشز من الأرض، وقعدت أسفل منه ووجهي حيال ركبتيه، واغتنمت خلوته وقلت: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله؛ أي: الذنب أكبر؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم مه؟ قال: «أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك» قلت: ثم مه؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية[٨].

---

(١) أخرجه البزار بسنده ومتنه وتعليقه (المسند ح٣٦٠٤) قال الهيثمي: رواه البزار عن سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه، وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة (المصنف ٩/ ٩٦) بسند حسن من طريق هشام عن الحسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق جعفر بن أبي إياس عن إياس بن معاوية.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ١٠٤ ح٣٦١٢) وصحح سنده محققوه.

(٦) السنن الكبرىٰ، التفسير، (ح١١٣٦٨).

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢١.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً لأن السري بن إسماعيل: متروك (التقريب ص٢٣٠).

وقال النسائي: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يساف [عن][١] سلمة بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع» فما أنا بأشح عليهنَّ مني منذ سمعتهنَّ من رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن المديني رحمه الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا طيبة الكلاعي، سمعت المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»[٣].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بَقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي، عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»[٤].

وقال ابن جريج: أخبرني يعلى، عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية، ونزلت ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[٥] الآية [الزمر: ٥٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي فاختة قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: «إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهاك أن تزني بحليلة جارك». قال سفيان: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾ وادٍ في جهنم[٧].

وقال عكرمة ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة[٨]. وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد[٩].

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحف إلى: (بن).
(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٣١. (٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٣٦.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومتنه (الورع ح١٣٧)، وسنده ضعيف لضعف ابن أبي مريم وإرساله الهيثم.
(٥) أخرجه مسلم من طريق ابن جريج به (الصحيح، الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله ح١٩٣).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده مرسل لأن أبا فاختة تابعي، وأخرجه البستي من طريق ابن أبي عمر العدني به.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي أيوب السختياني عن عبد الله بن عمرو.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الحسين بن يزيد النحوي عن عكرمة.
(٩) ذكرهما ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

وقال قتادة ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ نكالاً، كنا نحدث أنه وادٍ في جهنم[١].

وقد ذُكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني، إياك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة[٢].

وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره عن أبي أُمامة الباهلي موقوفاً ومرفوعاً: أن غياً وآثاماً بئران في قعر جهنم[٣]، أجارنا الله منهما بمنه وكرمه.

وقال السدي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء[٤]، وهذا أشبه بظاهر الآية، و بهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي يكرر عليه ويغلظ ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾؛ أي: حقيراً ذليلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾؛ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾؛ أي: في الدنيا إلى الله ﷻ من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية [النساء: ٤٨].

قد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقرراً من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، فقبلَ الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ في معنى قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان:

(أحدهما): أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات[٥]، وروي عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية:

بُدِّلْنَ بعد حرِّهِ خريفاً ... وبعد طول النفس الوجيفا[٦][٧]

يعني تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة لكنه مرسل.
(٣) تقدم تخريجه وتضعيفه في تفسير سورة مريم آية ٥٩.
الحسين وهو ابن داود: ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق إسباط عن السدي.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٦) الوجيف هو: ضرب من سير الإبل والخيل (النهاية ٥/١٥٧).
(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جابر بن يزيد عن مجاهد به، وجابر ضعيف.

وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً[١].

وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات[٢].

وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً[٣]، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه، فإنه لايضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحَّت به الآثار المروية عن السلف ﷺ، وهذا سياق الحديث:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول نحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملتَ يوم كذا، كذا وكذا، وعملتَ يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن يُنكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لكَ بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا» قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[٤]، انفرد بإخراجه مسلم[٥].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثني هاشم بن يزيد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان: أعطني صحيفتك، فيعطيه إياها، فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات، فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة فتلك مائة»[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سلمة وعارم، قالا: حدثنا ثابت يعني: ابن يزيد أبو زيد، حدثنا عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: يعطي الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه رجل مجهول.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق يونس عن الحسن
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ١٧٠) وسنده صحيح.
(٥) صحيح مسلم، الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (ح١٩٠).
(٦) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٣/ ٢٩٦ ح٣٤٥١)، وسنده ضعيف لضعف محمد بن إسماعيل ولم يثبت سماعه من أبيه (ينظر مجمع الزوائد ١٠/ ١٢١).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود، حدثنا أبو العنبس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: ليأتين الله ﷻ بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا أبو حمزة، عن أبي الضيف ـ قلت: وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين قلت: لم سُمُّوا أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم قد عملوا الحسنات والسيئات، فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرؤوا سيئاتهم حرفاً حرفاً، وقالوا: يا ربنا هذه سيئاتنا، فأين حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩] فهم أكثر أهل الجنة[٢].

وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ قال: في الآخرة[٣].

وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسنات[٤]، رواهما ابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله[٥].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو جابر، أنه سمع مكحولاً لا يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه، فقال: يا رسول الله، رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة[٦] إلا اقتطفها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أأسلمت؟» فقال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فقال النبي: «فإن الله غافر لك ما كنت كذلك، ومبدل سيئاتك حسنات» فقال: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ فقال: «وغدراتك وفجراتك» فولّى الرجل يهللّ ويُكبر[٧].

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة، عن صفوان بن عمر، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبي فروة شطب[٨] أنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة، فهل له من توبة؟ فقال: «أسلمت؟» فقال: نعم، قال: «فافعل الخيرات واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها» قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «نعم» فما زال يُكبِّر

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن سليمان بن موسى الزهري فيه لين كما في التقريب ويشهد له ما سبق من الروايات.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وأبو الضيف لم أعرف من هو.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق علي بن زيد عن علي بن الحسين، وعلي بن زيد هو ابن جدعان ضعيف، ويشهد له ما سبق.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن عبد العزيز عن مكحول.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عطاء الخراساني عن سعيد بن المسيب، ويشهد له ما سبق.

(٦) أي: الكبيرة.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، ورجاله ثقات، والشيخ الكبير هو شطب المحدود أبو الطويل، كما سيأتي في الرواية التالية، قال الحافظ ابن حجر: هو على شرط الصحيح (الإصابة ٢/ ١٥٢).

(٨) في الأصل غير منقوط.

حتى توارى[1].

ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات، عن أبي سلمة الحمصي، عن يحيى بن جابر، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً[2].

وقال أيضاً[3]: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان، عن فُليح الشماس، عن عُبيد بن أبي عُبيد، عن أبي هريرة ﷺ قال: جاءتني امرأة فقالت: هل لي من توبة؟ إني زنيت، وولدت وقتلته، فقلت: لا، ولا نعمت العين ولا كرامة، فقامت وهي تدعو بالحسرة، ثم صلَّيت مع النبي ﷺ الصبح، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها، فقال رسول الله ﷺ: «بئسما قلت، أما تقرأ هذه الآية؟» ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾، فقرأتها عليها، فخرت ساجدة وقالت: الحمد الله الذي جعل لي مخرجاً[4]. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي رجاله من لا يعرف، والله أعلم. وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه، وعنده: فخرجت تدعو بالحسرة وتقول: يا حسرتا أخلق هذا الحسن للنار؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ، تطلّبها في جميع دور المدينة فلم يجدها، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ، فخرت ساجدة وقالت: الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت، وأعتقت جارية كانت معها وابنتها، وتابت إلى الله ﷻ[5].

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾؛ أي: فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]. أي: لمن تاب إليه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل.

---

(١) أخرجه الطبراني من طريق المغيرة به، (المعجم الكبير ٧/ ٣١٤ ح٧٢٣٥)، ويشهد له سابقه.

(٢) المعجم الكبير ٧/ ٥٣، ويشهد له ما سبق.

(٣) أي: ابن أبي حاتم القائل.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده عيسىٰ بن شعيب فيه لين، وعبيد بن أبي عبيد مقبول كما في التقريب.

(٥) أخرجه الطبري، وسنده كسابقه.

وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء[١].

وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هي أعياد المشركين[٢].

وقال عمرو بن قيس، هي مجالس السوء والخنا[٣].

وقال مالك عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر».

وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾؛ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما في الصحيحين عن أبي بَكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً، فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٤].

والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي: لايحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾؛ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنَّسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو الحسن العجلي، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مرَّ بلهو معروضاً، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً»[٥].

وحدثنا الحسين بن محمد بن سلمة النحوي، حدثنا حبان، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن مسلم، أخبرني ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مرَّ بلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً». ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثِّر فيه ولا يتغيَّر عما كان عليه بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ أي: بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثِّر فيه، فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصمُّ أعمى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه إسماعيل بن سليمان الأزرق وهو ضعيف كما في التقريب.

(٢) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند الأقوال الضحاك فقد أسنده.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق مسلمة بن جعفر البجلي عن عمرو بن قيس.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٣١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن إبراهيم بن ميسرة لم يسمع من ابن مسعود.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه وهو كسابقه.

قال مجاهد قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً[(١)].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: كم من رجل يقرؤها ويخرُّ عليها أصمٌ أعمى[(٢)].

وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ يقول: لم يصمُّوا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أُسيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حمران، حدثنا ابن عون قال سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية[(٤)]: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ يعني أنه لا يسجد معهم، لأنه لم يتدبر أمر السجود، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرِّياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له.

قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة[(٥)].

قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين[(٦)].

وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو ولد ولد أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله عز وجل[(٧)].

قال ابن جريج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر[(٨)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا [يعمر][(٩)] بن بشر، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمرَّ به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللَّتين رأتا رسول الله ﷺ لودِدنا أنا رأينا ما رأيت

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي الأشهب عن الحسن.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٥) وأخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق كثير بن زياد عن الحسن.
(٨) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.
(٩) كذا في (ح) و(حم) ومسند الإمام أحمد، وفي الأصل صُحف إلى: (معمر).

وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشدِّ حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل، وفرَّق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقرُّ عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[١] وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير[٢]. وقال غيرهم: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية»[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

لمّا ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي: الجنة.

قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي[٤]، سُمِّيت بذلك لارتفاعها ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾؛ أي: يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٢٣٠ ح٢٣٨١٠)، وصحح سنده محققوه. وكذا الحافظ ابن كثير.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه بنحوه، وبقية التابعين ذكرهم كلهم ابن أبي حاتم بحذف السند.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٨.

(٤) ذكرهم ابن أبي حاتم كلهم بحذف السند إلا قول الضحاك فأخرجه بسند ضعيف من طريق جويبر عنه.

عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي: حَسُنت منظراً وطابت مقيلاً ومنزلاً، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾؛ أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بُكرة وأصيلاً.

قال مجاهد وعمرو بن شعيب ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم. وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبَّب إليهم الإيمان كما حبَّبه إلى المؤمنين[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم[٣].

وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ أي: يوم القيامة[٤]، ولا منافاة بينهما، والله أعلم.

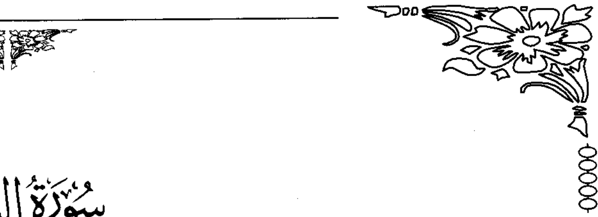
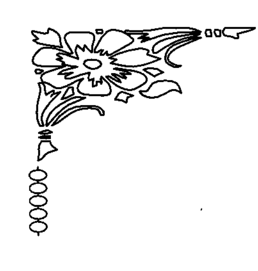
---

(١) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عمرو بن شعيب أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي يعلىٰ عنه.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) ذكرهم ابن أبي حاتم كلهم بحذف السند إلا خبر السدي أخرجه بسند حسن من طريق إسرائيل عن السدي عن أبي مالك، وأما قول ابن مسعود فقد أخرجه النسائي بسند صحيح من طريق مسروق عنه (السنن الكبرىٰ، التفسير) وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن.

سورة الشعراء

وهي مكية

ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾؛ أي: هذه آيات القرآن المبين، أي البيّن الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾؛ أي: مُهلك ﴿نَّفْسَكَ﴾؛ أي: مما تحرص وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]. قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾؛ أي: قاتل نفسك(١).

قال الشاعر:

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه   لشيء نَحَتهُ عن يديه المقادر(٢)

ثم قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾؛ أي: لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكنّا لا نفعل ذلك لأنّا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ الآية [هود: ١١٨]، فنفذ قدره،

---

(١) ذكرهم كلهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول مجاهد أخرجه بسند ضعيف من طريق أبي يحيىٰ القتات عنه، وأبو القتات فيه لين ويتقوىٰ بقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٢) استشهد به الطبري ونسبه إلىٰ ذي الرُّمة.

ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾؛ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ الآية [المؤمنون: ٤٤]، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء]، ثم نبَّه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان.

قال سفيان الثوري عن رجل عن الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم[(١)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾؛ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي عزَّ كل شيء وقهره وغلبه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن إسحاق: العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره[(٢)].

وقال سعيد بن جبير: الرحيم بمن تاب إليه وأناب[(٣)].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾.

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى:

---

(١) سنده ضعيف لإبهام شيخ الثوري.

(٢) قول أبي العالية أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول ابن إسحاق أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عنه، وقول قتادة والربيع بن أنس ذكرهما ابن أبي حاتم بحذف السند، وسند الربيع يدخل في سند أبي العالية المتقدم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ هذه أعذار سأل الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾؛ أي: بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿قَالَ كَلَّا﴾؛ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: برهاناً، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛ أي: إنني معكما بحفظي وكلائتي ونصري وتأييدي.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؛ أي: كل منا أرسل إليك ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾؛ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنَّهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء والغمص، فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا [مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾؛ أي: أما أنت الذي ربيناه][1] فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الأحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: الجاحدين قاله ابن عباس وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير: (قال فعلتها إذاً)؛ أي: في تلك الحال ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: قبل أن يوحى إلي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: الجاهلين[2].

قال ابن جريج: وهو كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾[3]؛ أي انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت، ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾؛ أي: وما أحسنت إليَّ وربّيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم، أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

---

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج عن ابن مسعود: (وأنا من الجاهلين)، وهي قراءة شاذة تفسيرية، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن مسعود.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع جلَّ وعلا، ويعتقدون أنه لا ربَّ لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]. قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه][1] ومن زعمَ من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنَّه لم يكن مقرًّا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن ربِّ العالمين ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقِفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التفتَ فرعون إلى مَن حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه. ﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًّا غيري. ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشُّبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب: ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخّرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته، عدَل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى ﷺ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ۝٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝٣٧﴾.

لمّا قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظنَّ أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾؟ أي: ببرهان قاطع واضح ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝٣٢﴾؛ أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم، وفم كبير، وشكل هائل مزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾؛ أي: تتلألأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فقال للملإ حوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾؛ أي: فاضل بارع في السحر، فروَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيَّجهم وحرضَّهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۝٣٥﴾؛ أي: [أراد][1] أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝٣٧﴾؛ أي: أخِّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت، وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾.

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقِبط في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وفي هذه السورة، وذلك أنَّ القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها وتقابلا إلّا غلبه الإيمان ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء] ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١﴾ [الإسراء]، ولهذا لما كاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك من أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً وجماً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً،

(١) زيادة من (ح) و(حم).

وقيل: تسعة عشر ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، وقيل: ثمانين ألفاً، وقيل: غير ذلك، والله أعلم بعدتهم.

قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعاً إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم، وهم: سابور، وعاذور، وحطحط، ويصفى، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ أي: إلى مجلس فرعون، وقد ضربوا له وطاقاً، وجمع خدمه وحشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يديّ فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا؛ أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي؛ فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦] وقد اختصر هذا ههنا، فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان، وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [١١٦]. وقال في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ وقال ههنا: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف] فكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجّة دامغة، وذلك أن الذي استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، غلبوا وخضعوا، وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، سجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهدّدهم ويتوعّدهم ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ﴾ [طه: ٧١] وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

تهدّدهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعّدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك إنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحقُّ بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما

فعلتم، ولا تفتاتوا علي في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم فإني أنا الحاكم المطاع ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾؛ أي: لا حرج، ولا يضرنا ذلك، ولا نبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: المرجع إلى الله ﷻ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾؛ أي: ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القِبط إلى الإيمان. فقتلهم كلَّهم.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبقَ لهم إلا العذاب والنَكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه ﷻ، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر.

وذكر مجاهد رحمه الله أنه كسف القمر تلك[1] الليلة، فالله أعلم، وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه عليه السلام، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك، إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم.

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله فقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح، حدثنا [ابن فضيل][2]، عن يونس بن أبي إسحاق، عن ابن أبي بردة، عن أبيه، أبي موسى قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: «تعاهدنا؟» فأتاه الأعرابي، فقال له رسول الله ﷺ: «ما حاجتك؟» قال: ناقة برحلها وأعنز يحتلبها أهلي، فقال: «أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟» فقال له أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: «إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضلَّ الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدثك أن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: فأيّكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل، فأرسل إليها فقال لها: دلِّيني على قبر يوسف، فقالت: والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، فقال لها: وما حكمك؟

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) كذا في (ح) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحف إلى: «ابن فضل».

قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة، فكأنه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها ـ قال ـ فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم: انضبوا هذا الماء، فلما أنضبوه قالت: احفروا، فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار»(١) وهذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف، والله أعلم.

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتدَّ غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين؛ أي: من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب، ونادى فيهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾؛ أي: لطائفة قليلة ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾؛ أي: كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾؛ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨﴾؛ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر في الدنيا ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحلِّ والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس ومنها مائة ألف على خيل دهم.

وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم(٢)، وفي ذلك نظر، والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل، والله ﷻ أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده يونس: صدوق يهم قليلاً ولعله هو الذي رفع الحديث، وأخرجه ابن حبان (موارد الظمآن ح٢٤٣٥)، والحاكم كلاهما من طريق محمد بن فضيل به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٧١)، وأخرجه أبو يعلى وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ضعيف من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب بلفظ: «على =

والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته، ألا أنهم خرجوا بأجمعهم.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾؛ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر[1]، وهو بحر القلزم[2]، فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾؛ أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو ﷻ لا يخلف الميعاد، وكان هارون ﵇ في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى ﵇ في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون، يقول لموسى ﵇: يا نبي الله ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول: نعم، فاقترب فرعون وجنوده ولم يبقَ إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى ﵇ أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق بإذن الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد، حدثنا محمد بن حمزة بن محمد بن يوسف، عن عبد الله بن سلام أن موسى ﵇ لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كلِّ شيء، والمكوّن لكلِّ شيء، والكائن بعد كلِّ شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾[3].

وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب، ولا يدري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى، قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله أين أمرك ربك ﷻ؟ قال: أمرني أن أضرب البحر، قال: فاضربه[4].

وقال محمد بن إسحاق، أوحى الله - فيما ذُكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضاً فرقاً من الله تعالى، وانتظاراً لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربه بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه، فانفلق[5]، ذكر غير واحد أنه جاء فكنّاه، فقال: انفلق عليّ [أبا خالد][6] بحول الله.

قال الله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: كالجبل الكبير، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم[7].

= سبعين ألفاً من دُهُم الخيل»، والخبر من الإسرائيليات.

(١) أي: شاطئ البحر.
(٢) أي: البحر الأحمر.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.
(٤) أخرج ابن أبي حاتم جزء منه بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، والخبر من الإسرائيليات.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم وسنده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق.
(٦) زيادة من (ح) و(حم).
(٧) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا خبر ابن عباس فقد أخرجه بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

وقال عطاء الخراساني: هو الفجّ بين الجبلين[١].

وقال ابن عباس: صار البحراثني عشر طريقاً لكل سبط طريق[٢].

وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيلة كالحيطان. وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يبساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[٣] [طه: ٧٧].

وقال في هذه القصة ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: هنالك. قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾؛ أي: قرّبنا من البحر فرعون وجنوده، وأدنيناهم إليه[٤] ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾؛ أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا شبابة، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله هو: ابن مسعود أن موسى ﷺ حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك، فأمر بشاة فذبحت، وقال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القِبط، فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له: انفرق، فقال له البحر: قد استكبرت يا موسى، وهل انفرقت لأحد من ولد آدم، فأنفرق لك؟ قال: ومع موسى رجل على حصان له، فقال له ذلك الرجل، أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، قال: والله ما كذب ولا كذبت، ثم اقتحم الثانية فسبح ثم خرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذب ولا كذبت، قال: فأوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر فضربه موسى بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر سبطاً لكل سبط طريق يتراءون، فلما خرج أصحاب موسى، وتتام أصحاب فرعون، التقى البحر عليهم فأغرقهم[٥].

وفي رواية إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله قال: فلما خرج آخر أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، انطمَّ عليهم البحر، فما رُئي سواد أكثر من يومئذٍ، وغرق فرعون[٦] لعنه الله.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾؛ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ تقدم تفسيره.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه، وعثمان ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه أبو سعد الأعول وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بلفظ: «كهيئة الطيقان».

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني عنه، وقول عطاء أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عثمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن موسىٰ عن إسرائيل به، وسنده حسن.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾؛ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾؛ أي: مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾؛ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨١]. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]، يعني: لا إله إلا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: هو الخالق الذي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾؛ أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزن، وأنزل الماء وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن]، وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾؛ أي: إذا وقعت في مرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾؛ أي: هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾؛ أي: لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعَّال لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾.

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً. قال ابن عباس: وهو العلم[1].

وقال عكرمة: هو اللّب[2][3].

وقال مجاهد: هو القرآن[4].

وقال السدي: هو النبوة[5].

وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللَّهم في الرفيق الأعلى»[6]. قالها ثلاثاً.

وفي الحديث في الدعاء: «اللَّهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين»[7].

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٨٤﴾؛ أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠﴾ [الصافات].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً فيه مطر بن ميمون وهو متروك كما في التقريب.

(٢) أي: العقل.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسماعيل بن مسلم عن عكرمة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن مجاهد.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط السدي.

(٦) أخرجه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها (صحيح البخاري، الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ح٦٥٠٩، وصحيح مسلم، السلام، باب استحباب رقية المريض ح٢١٩١).

(٧) أخرجه الإمام أحمد من حديث عبيد الزرقي رضي الله عنه (المسند ٢٤/٢٤٦، ٢٤٧ ح١٥٤٩٢)، وقال محققوه: رجاله ثقات، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح٦٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٥٣٨)، وأخرجه الحاكم وصححه واستدرك عليه الذهبي بقوله: والحديث مع نظافة إسناده منكر، أخاف أن يكون موضوعاً (المستدرك ١/٥٠٦).

قال مجاهد وقتادة: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يعني: الثناء الحسن[1].

قال مجاهد: [كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢]] وكقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] [العنكبوت: ٢٧].

وكقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].

قال ليث بن أبي سُليم: كلُّ مِلّة تحبه وتتولاه[3]، وكذا قال عكرمة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾، كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة] وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾؛ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم. قال البخاري عند هذه الآية: قال إبراهيم بن طهمان، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرة والقَتَرة»[4].

حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا ربِّ إنك وعدتني أنك لا تخزني يوم يبعثون، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين»[5] هكذا رواه عند هذه الآية. وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا ربِّ إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم انظر تحت رجلك، فينظر، فإذا هو بذيخ[6] متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[7].

وقال عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير: وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

---

(١) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الحكم بن عتيبة عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق حسين الجعفي عن ليث.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومتنه هكذا معلقاً (الصحيح، التفسير، سورة الشعراء، باب ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] ح٤٧٦٨) وقد وصله البخاري كما في الحديث التالي والذي يليه.

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (المصدر السابق ح٤٧٦٩).

(٦) الذيخ: هو ذكر الضباع (النهاية ٢/ ١٧٤).

(٧) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة، وقال له: قد نهيتك عن هذا فعصيتني، قال: لكني اليوم لا أعصيك واحدة، قال: يا رب وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد. قال: يا إبراهيم إني حرمتها على الكافرين فأخذ منه. قال: يا إبراهيم أين أبوك؟ قال: أنت أخذته مني، قال: انظر أسفل منك، فنظر، فإذا [ذيخ][1] يتمرغ في نتنه، فأخذ بقوائمه فألقي في النار» وهذا إسناد غريب، وفيه نكارة، والذيخ هو الذكر من الضباع، كأنه حول آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فيلقى في النار كذلك[2]، وقد رواه البزار بإسناده من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ[3] وفيه غرابة، ورواه أيضاً من حديث قتادة، عن جعفر بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ بنحوه[4].

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾؛ أي: ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾؛ أي: سالم من الدنس والشرك.

قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور[5].

وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ حَيِيَ أن يشهد أن لا إله إلا الله[6].

وقال مجاهد والحسن وغيرهما ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك[7].

وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب المنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾؛ أي: قرُبت وأُدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين

---

(١) كذا في (ح) و(حم) والسنن الكبرى للنسائي، وفي الأصل صُحف إلى: «بذبح».
(٢) السنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح١١٣٧٥)، ويتقوىٰ بسابقه.
(٣) يشهد له روايات البخاري السابقة. (٤) يشهد له روايات البخاري السابقة.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن محمد بن سيرين.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه يحيىٰ بن عمرو بن مالك: وهو ضعيف كما في التقريب.
(٧) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق جسر اليمامي عنه.

رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها في الدنيا ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾؛ أي: أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل: لأهلها تقريعاً وتوبيخاً ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تُغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ قال مجاهد: يعني فَدُهْوِرُوا فيها[(١)]. وقال غيره: كُبُّوا فيها، والكاف مكررة، كما يقال: صرصر، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشك ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾؛ أي: أُلقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]؟ ويقولون: وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر ربِّ العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾؛ أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ قال بعضهم: يعني: من الملائكة كما يقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾؛ أي: قريب.

قال قتادة: يعلمون واللهِ أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع[(٢)].

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردُّوا إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردّهم إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية؛ أي: لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح ﵇، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى: ونزل الله تعالى

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد وهو لم يسمع من مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري من طريق يحيىٰ بن سعيد المسمعي عن قتادة، ويحيىٰ لم أقف على ترجمة له.

تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾؛ أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الآية؛ أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدّخر ثواب ذلك عند الله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به [وائتمنني][1] عليه.

﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

يقولون: لا نؤمن لك، ولا نتبعك ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾؛ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي؟ ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص، إنما عليّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله ﷻ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾؛ أي: إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمّموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾؛ أي: لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر]، وقال ههنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأوزاج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين؛ أي: أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

---

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحفت إلى: «وايتمني»

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت، من جهة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد[1] الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾؛ أي: معلماً بناء مشهوراً ﴿تَعْبَثُونَ﴾؛ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللّهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد[2]، وفي رواية عنه: بروج الحمام[3].

وقال قتادة: هي مأخذ الماء[4].

قال قتادة: وقرأ بعض الكوفيين: «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون»[5].

وفي القراءة المشهورة ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾؛ أي: لكي تقيموا فيها أبداً وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

وروى ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عون بن عبد الله بن عتبة، أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما

---

(١) أي: الطريق الكبير الذي يجمع الطرق.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند فيه مسلم بن خالد الزنجي وهو صدوق كثير الأوهام.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة والقراءة شاذة تفسيرية.

لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين[١]؟

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾؛ أي: يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾؛ أي: اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾؛ أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: مخبراً عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق، ووضحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾؛ أي: لا نرجع عما نحن عليه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قرأ بعضهم (إن هذا إلا خَلْق الأولين) بفتح الخاء وتسكين اللام[٢]. قال ابن مسعود والعوفي عن عبد الله بن عباس وعلقمة ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين[٣]، كما قال المشركون من قريش ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٤] [النحل] وقرأ آخرون ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ بضم الخاء واللام[٥]، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ يقول: دين الأولين[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن. (٢) القراءتان متواترتان.

(٣) قول ابن مسعود أخرجه الطبري بسندين صحيحين من طريق علقمة عنه، وقول العوفي عن ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف وقد أخرجه هو والطبري بطريق آخر ثابت عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقول علقمة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عامر الشعبي عنه وقول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٤) زيادة من (ح) و(حم). (٥) وهي قراءة متواترة.

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ أي: استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية؛ أي: ريحاً شديدة الهبوب، ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر] وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۝٥٠﴾ [النجم] وهم من نسل إرم بن سام بن نوح ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ الذين كانوا يسكنون العمد، ومن زعم أن إرم مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر]؛ أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت]، وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا مقدار أنف الثور، عتت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، فسلكت فحَصَبت بلادهم، فحَصبت كل شيء لهم، كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧]؛ أي: كاملة ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: بقوا أبداناً بلا رؤوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أُم رأسه، فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعِر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٤٠﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٤٥﴾.

وهذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح ﵇، أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجْر التي بين وداي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وقد قدمنا في سورة الأعراف[(٢)] الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل ﵇. فدعاهم

---

(١) قول عكرمة ذكره ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول عطاء الخراساني أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه عثمان بن عطاء، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، ـ وهو عبد الله ـ عنه.

(٢) آية ١٣ ـ ٧٨.

نبيهم صالح إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلَّغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم، فقال.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

يقول لهم واعظاً لهم، ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبلغ، فهو هضيم[(١)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. يقول: معشبة[(٢)].

وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو ـ وقد أدرك الصحابة ـ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: إذا رطب واسترخى[(٣)]، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن أبي صالح نحو هذا[(٤)].

وقال أبو إسحاق، عن أبي العلاء ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: هو المذنب من الرطب[(٥)].

وقال مجاهد: هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر[(٦)].

وقال ابن جريج: سمعت عبد الكريم، وأبا أُمية، سمعت مجاهداً يقول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: حين يطلع تقبض عليه فتهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهشيم، تقبض عليه فتهشمه[(٧)].

وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين[(٨)].

وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً، فهو هضيم[(٩)].

وقال مُرَّة: هو الطلع حين يتفرق ويخضر.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويشهد له ما يليه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده الحارث النقال يرويه عن مردان بن معاوية عن إسماعيل به، والحارث النقال: ضعيف (الجرح والتعديل ٣/٧٦) ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.
(٤) ذكره ابن أبي حاتم بحذف السند.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق به.
(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد وهو لم يسمع منه.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن جريج به.
(٨) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من سماك عن عكرمة.
(٩) أخرجه البستي وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له[١].

وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم؟ فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم[٢].

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ۝١٤٩﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني: حاذقين[٣].

وفي رواية عنه: شرهين أشرين[٤]، وهو اختيار مجاهد وجماعة[٥]، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠﴾؛ أي: أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾.

قال مجاهد وقتادة: يعنون من المسحورين[٦].

وروى أبو صالح عن ابن عباس ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعني: من المخلوقين[٧]، واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر:

فإن تسألينا: فيم نحن؟ فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسحَّر[٨]

يعني الذين لهم سحور، والسحر هو الرئة. والأظهر في هذا القول مجاهد وقتادة أنهم

---

(١) أخرجه البستي وابن أبي حاتم من طريق عبد الرزاق عن عطاء وإسماعيل عن الحسن البصري، وسنده حسن، وعطاء هو ابن السائب، وإسماعيل هو ابن أبي خالد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق مفضل عن أبي صخر.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويتقوى بتاليه.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) قول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٧) أخرجه الطبري والخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ١٠/ ٤٢٣) كلاهما بسند ضعيف من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح هو باذام أو باذان مولى أم هانئ وهو ضعيف، ومعناه صحيح.

(٨) استشهد به الطبري ونسبه إلى لبيد رضي الله عنه.

يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك، ثم قالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني: فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر].

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملؤهم، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح. العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل الورق والمرعى - وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو لوط بن هاران بن آزار وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أُمة عظيمة في حياة إبراهيم عليه السلام، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكرك[1] والشوبك[2]، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللّاتي خلقهنَّ الله لهم، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾؛ أي: عما جئتنا به

---

(١) مدينة تقع شرق عمان في الأردن.

(٢) قلعة حصينة تقع بين عمان وإيلات.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾؛ أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف]، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم وقال: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾؛ أي: المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإنِّي بريء منكم، ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾؛ أي: كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

هؤلاء ـ يعني أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: كذَّب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أُمم.

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي ـ وهو ضعيف ـ حدثني ابن السدي عن أبيه، وزكريا بن عمر عن خُصيف، عن عكرمة، قالا: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة[(١)].

وروى أبو القاسم البغوي عن هدبة، عن همَّام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ [الفرقان: ٣٨] قوم شعيب[(٢)].

وقوله: ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ قوم شعيب.

قال إسحاق بن بشر. وقال غير جويبر[(٣)]: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد، والله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أُمتان، بعث الله

---

(١) سنده ضعيف لضعف إسحاق بن بشر.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق هدبة بن خالد به.
(٣) قول جويبر أخرجه ابن أبي حاتم وقد توبع في رواية الطبري من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

إليهما شعيباً النبي عليه السلام»[١] وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، والصحيح أنهم أُمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدلَّ ذلك على أنهما أُمة واحدة.

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

يأمرهم الله تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾؛ أي: إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تامّاً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ والقسطاس هو الميزان، وقيل: هو القبّان. قال بعضهم: هو معرب من الرومية.

قال مجاهد: القسطاس المستقيم: هو العدل بالرومية[٢].

وقال قتادة القسطاس: العدل.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾؛ أي: لا تنقصوهم أموالهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

قال ابن عباس ومجاهد والسدي وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: خلق الأولين[٣].

وقرأ ابن زيد ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢][٤].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، تشابهت قلوبهم حيث قالوا:

---

(١) ينظر مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٠/٣٠٩، وسنده ضعيف لضعف ربيعة بن سيف كما في ميزان الاعتدال.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سفيان أخرجه البستي وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عمر العدني عنه، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٤) وهي قراءة متواترة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾؛ أي: تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

قال الضحاك: جانباً من السماء[1].

وقال قتادة: قطعاً من السماء[2].

وقال السدي: عذاباً من السماء[3]. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]، وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به، وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله ﷻ جعل عقوبتهم أن أصابهم حرٌّ عظيم مدة سبعة أيام، لا يكنّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحرِّ، فلما اجتمعوا كلُّهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، قالوا: ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وههنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقَّ عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: إن الله سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها برداً

---

(١) أخرجه البستي وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

وراحة، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها فأججت عليهم ناراً[(١)]، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم[(٢)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى[(٣)].

وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعاً، ثم تلا محمد بن كعب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(٤)].

وقال محمد بن جرير: حدثني الحارث، حدثني الحسن، حدثني سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد، حدثنا حاتم بن أبي صغيرة، حدثني يزيد الباهلي، سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بعث الله عليهم [ومدةً][(٥)] وحراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذَّة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم[(٦)]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾؛ أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] الآية ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق قتادة به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ويتقوى بما يليه.

(٢) قول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ميسرة، وهو ابن عمار، عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق جعفر بن أبي المغيرة عنه، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه الوليد بن حسان البكري سكت عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل. وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، وهو عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب، وأبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن السندي وهو ضعيف كما في التقريب.

(٥) أي: الندي والرطوبة، وفي الأصل: «رعداً»، والمثبت من تفسير الطبري وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الحاكم من طريق سعيد بن زيد به، وسكت عنه هو والذهبي (المستدرك ٢/٥٦٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن ضمرة الباهلي عن ابن عباس.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري وابن جريج[١]، وهذا مما لا نزاع فيه.

قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض[٢].

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾؛ أي: نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾؛ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي، حدثنا عباد بن عباد المهلبي، عن موسى بن محمد، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن[٣] إذ قال لهم: «كيف ترون بواسقها؟»[٤] قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها. قال: «فكيف ترون قواعدها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها. قال: «فكيف ترون جونها؟»[٥] قالوا: ما أحسنه وأشد سواده. قال: «فكيف ترون رحاها استدارت» قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: «فكيف ترون برقها: أومَيض[٦] أم خَفق[٧] أم يشق شقاً؟» قالوا: بل يشق شقاً. قال: «الحياء الحياء إن شاء الله». قال: فقال رجل: يا رسول الله، بأبي وأُمي، ما أفصحك، ما رأيت الذي هو أعرب منك. قال: فقال: «حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾»[٨].

وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحي إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية، رواه ابن أبي حاتم[٩].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، ويتقوىٰ بالأقوال التالية التي ذكر أغلبها ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول عطية العوفي تقدم ضمن رواية ابن عباس، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أي: يوم مظلم (ينظر أساس البلاغة ص١٨٣). (٤) أي: طولها.

(٥) الجون: الأسود، أو الأسود تخالطه حمرة.

(٦) الميض: الخفة والسرعة (القاموس المحيط ٢/ ٣٥٧).

(٧) خفق: الخفق التحريك والاضطراب (القاموس المحيط ٣/ ٣٣٥).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن محمد بن إبراهيم بن الحارث تابعي أرسله.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يحيىٰ بن الضريس عن سفيان الثوري.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشَّروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، والزبر ههنا هي: الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر]؛ أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾؛ أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمَّن أدركه منهم ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد؛ أي: أدخلناه في قلوب المجرمين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالحق ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: عذاب الله بغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾؛ أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ

﴿٤٤﴾ [إبراهيم]، فكل ظالم وفاجر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر].

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: ٥٣] الآيات، ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾؛ أي: لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله أي: شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل]، ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يا رب»[1]؛ أي: ما كأن شيئاً كان.

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة ... إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم، وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ ثم ذكر أنه يمتنع

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (الصحيح، صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار ح٢٨٠٧).

عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما ينبغي لهم؛ أي: ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم، لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين؛ أي: الأدنين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[1] وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها:

(الحديث الأول) قال الإمام أحمد ؒ: حدثنا عبد الله بن نمير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؓ قال: لما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٠.

بني فِهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1] [المسد]. ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به[2].

(الحديث الثاني) قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم»[3] انفرد بإخراجه مسلم.

(الحديث الثالث) قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنا عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعمَّ وخصَّ[4] فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها[5] ببلالها»[6]. ورواه مسلم والترمذي من حديث عبد الملك بن عمير به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلاً، ولم يذكر فيه أبا هريرة، والموصول هو الصحيح[7]، وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة[8].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد يعني: ابن إسحاق، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما»[9] تفرد به من هذا الوجه، وتفرد به أيضاً عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ١٧ ح٢٨٠١) وصحح سنده محققوه.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، تفسير سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] (ح٤٨٠١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء] (ح٢٠٨، وسنن الترمذي، تفسير سورة تبت ح٣٣٦٣، والسنن الكبرى للنسائي ح١١٧١٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ١٨٧) وسنده صحيح.

(٤) صحيح مسلم، الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (ح٢٠٥).

(٥) أي: سأصلها.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣٦٠) وسنده صحيح.

(٧) صحيح مسلم، الباب السابق (ح٢٠٤)، وسنن الترمذي، التفسير، سورة الشعراء (ح٣١٨٥)، والسنن الكبرىٰ للنسائي، الوصايا، باب إذا أوصىٰ لعشيرته الأقربين ٦/ ٢٤٨.

(٨) صحيح البخاري، تفسير سورة الشعراء (ح٤٧٧١)، وصحيح مسلم، الباب السابق (ح٢٠٦).

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٥/ ٤٩٣ ح٩٧٩٣) وحسن سنده محققوه.

معاوية، عن زائدة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه[١]، ورواه أيضاً عن حسن حدثنا ابن لهيعة: عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً[٢].

وقال أبو يعلى: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا ضمام بن إسماعيل، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يا بني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد»[٣].

(الحديث الرابع) قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد التيمي، عن أبي عثمان، عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو، قالا: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ صعد رسول الله ﷺ رضمة[٤] من جبل على أعلاها حجر، فجعل ينادي: «يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، وإنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله يخشى أن يسبقوه، فجعل ينادي ويهتف: يا صباحاه»[٥] ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن طرخان التيمي، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن سهل النهدي، عن قبيصة وزهير بن عمرو الهلالي به[٦].

(الحديث الخامس) قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن الأعمش، عن المنهال، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن علي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا، قال: وقال لهم: «من يضمن عنِّي ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟» فقال رجل لم يسمه شريك: يا رسول الله أنتَ كنتَ بحراً[٧] من يقوم بهذا، قال: ثم قال الآخر - ثلاثاً - قال: فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا[٨].

(طريق أخرى بأبسط من هذا السياق) قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثناأبو عوانة، حدثنا عثمان بن المغيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، عن علي ﷺ قال: جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله - بني عبد المطلب وهم رهط، وكلُّهم يأكل الجذعة[٩] ويشرب الفَرق[١٠]، فصنع لهم مُداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمسّ، ثم دعا بغمر[١١] فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يُمسّ أو لم يشرب، وقال: «يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة، فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم

---

(١) المسند (١٥/ ٩٥ ح٩١٧٧) وصحح سنده محققوه. (٢) (المسند ١٤/ ٢٥٥ ح٨٦٠١).

(٣) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ١١/ ١٠ ح٦١٤٩)، وسنده ضعيف لأن سويد بن سعيد الهروي صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه. (التقريب ص٢٦٠).

(٤) الرضمة: صخور بعضها فوق بعض.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٤/ ٢٠٩ ح٢٠٦٠٥) وصحح سنده محققوه.

(٦) صحيح مسلم، الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (ح٢٠٧، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير ح١١٣٧٩).

(٧) أي: واسع الكرم والجود.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٢٢٥ ح٨٨٣) وضعف سنده محققوه.

(٩) الجذعة: هي من الإبل ما تم له أربع سنين، ومن البقر والمعز ما تمّ سنة.

(١٠) الفَرق: مكيال يسع اثنا عشر مداً. (١١) أي: القدح الصغير.

يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي» قال: فلم يقم إليه أحد، قال: فقمت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال: «اجلس» ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «اجلس» حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي[١].

(طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر) قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل، واستكتمني اسمه، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «عرفت أني إن بادأتُ بها قومي رأيت منهم ما أكره فَصَمَتُّ، فجاءني جبريل ﷺ فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك» قال علي ﷺ: فدعاني، فقال: يا علي: «إن الله تعالى قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فعرفت أني إن بادأتهم بذلك رأيت منهم ما أكره، فصَمتَ عن ذلك، ثم جاءني جبريل فقال: يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك، فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام، وأعد لنا عسَّ[٢] لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب» ففعلت فاجتمعوا إليه، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب الكافر الخبيث، فقدمت إليهم تلك الجفنة، فأخذ منها رسول الله ﷺ حِذية[٣] فشقها بأسنانه، ثم رمى بها في نواحيها، وقال: «كلوا بسم الله» فأكَلَ القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي» فجئت بذلك القعب[٤] فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً، وايمُ الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لَهِدَّما[٥] سحركم صاحبكم، فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ.

فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يا علي عد لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب، فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم» ففعلت، ثم جمعتهم له، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا عنه، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، ثم قال رسول الله ﷺ: «اسقهم يا علي» فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً، وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام، فقال: لَهدَّما سحركم صاحبكم، فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ.

فلما كان الغد، قال رسول الله ﷺ: «يا علي عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب، فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم» ففعلت ثم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٤٦٥ ح١٣٧١)، وضعفه محققوه لجهالة ربيعة بن ناجذ.
(٢) أي: القدح الكبير.
(٣) أي: ما قطع من اللّحم طولاً.
(٤) أي: القدح الضخم.
(٥) لهد: كلمة تستخدم للتعجب يقال: لهدّ الرجل أي: ما أجلده.

جمعتهم له، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نهلوا ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدينا والآخرة» قال أحمد بن عبد الجبار: بلغني أن ابن إسحاق إنما سمعه من عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم، عن المنهال، عن عمرو، عن عبد الله بن الحارث[١].

وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا؟» قال: فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت ـ وإني لأحدثهم سناً، وأمرصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً ـ: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: «إن هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا» قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأن طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[٢]. تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، وهو متروك كذاب شيعي، اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعفه الأئمة رحمهم الله[٣].

(طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي أخبرنا الحسين، عن عيسى بن ميسرة الحارثي، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال لي رسول الله ﷺ: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبناً» قال: ففعلت، ثم قال: «ادع بني هاشم» قال: فدعوتهم وإنهم يومئذٍ أربعون غير رجل، أو أربعون ورجل، قال: وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها، قال: فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها[٤] ثم قال: «كلوا» «فأكلوا حتى شبعوا، وهي على هيئتها لم يرزؤوا[٥] منها إلا اليسير»، قال: ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رووا، قال: وفضل فضل، فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم فبدروه[٦] الكلام، فقالوا ما رأينا كاليوم في السحر. فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: «اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام» فصنعت، قال: فدعاهم فلما أكلوا وشربوا، قال: فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال لي: «اصنع لي رجل شاة بصاع طعام» فصنعت، قال: فجمعتهم فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ الكلام، فقال: «أيكم يقضي عني دَيْني، ويكون خليفتي في أهلي؟» قال: فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله، قال:

---

(١) أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٢/١٧٨)، وسنده ضعيف جداً لأن عبد الغفار بن القاسم رافضي ليس بثقة كان يضع الحديث، (لسان الميزان ٤/٤٢).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده كسابقه.

(٣) ينظر (لسان الميزان ٤/٤٢).

(٤) أي: أعلاها.

(٥) أي: لم ينقصوا.

(٦) أي: سبقوه بالكلام.

وسكت أنا لسنّ العباس. ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس، فلما رأيت ذلك قلت: أنا يا رسول الله. قال: وإني يومئذٍ لأسوأهم هيئة، وإني لأعمش العينين، ضخم البطن، حمش الساقين[(١)(٢)]، فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي ﷺ، ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه في أهله؛ يعني: إن قتل في سبيل الله، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل، فلما أنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فعند ذلك أمن، وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي ﷺ، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرة على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموماً وخصوصاً، حتى سمَّى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى؛ أي إنما أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي - غير منسوب - من طريق عمرو بن سمرة، عن محمد بن سوقة، عن عبد الواحد الدمشقي قال: رأيت أبا الدرداء ﷺ يحدث الناس ويفتيهم، وولده إلى جنبه، وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون، فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم، وأهل بيتك جلوس لاهين؟ فقال: لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أزهد الناس في الدنيا الأنبياء، وأشدهم عليهم الأقربون» وذلك فيما أنزل الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ثم قال: إن أزهد الناس في العالم أهله حتىٰ يفارقهم ولهذ قال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي هو معتن بك كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] قال ابن عباس: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يعني: إلى الصلاة[(٤)].

وقال عكرمة يرى قيامه وركوعه وسجوده[(٥)].

وقال الحسن: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إذا صليت وحدك[(٦)].

---

(١) أي: دقيق الساقين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف عبد الله بن عبد القدوس (ينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٤٥٧).

(٣) في سنده عبد الواحد الدمشقي قال الحافظ ابن حجر عبد الواحد عن أبي الدرداء لا يُدرىٰ من ذا، ولا حدث عنه سوىٰ محمد بن سوقه (لسان الميزان ٤/ ٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه حفص بن عمر وهو العدني ضعيف ويشهد له سابقه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق كلثوم بن جبير عن الحسن.

وقال الضحاك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي من فراشك أو مجلسك[١].

وقال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتك[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ قال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ قال: في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجمع[٣]، وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري[٤].

وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه[٥]، ويشهد لهذا ما صحَّ في الحديث: «سوّوا صفوفكم فإنّي أراكم من وراء ظهري»[٦].

وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً[٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾؛ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئي من الجان، فنزه الله ﷻ جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿أَثِيمٍ﴾ وهو الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كَذَبة فَسقَة ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: يسترقون السمع

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق شيبان عن قتادة.
(٤) قول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سفيان الثوري عن أبيه عنه، وقول عطاء الخراساني أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق كلثوم بن جبر عن الحسن.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٦) أخرجه الشيخان من حديث أنس ﷺ (صحيح البخاري، الأذان، باب إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف ح٧٢٣)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب تسوية الصفوف (ح١٢٥).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث.

كما رواه البخاري من حديث الزهري: أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير أنه سمع عروة بن الزبير يقول: قالت عائشة ﵂: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها[1] في أذن وليه كقرقرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة»[2].

وروى البخاري أيضاً: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ (قالوا للذي قال): الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصف سفيان بيده، فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[3] تفرد به البخاري.

وروى مسلم من حديث الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار قريباً من هذا[4]، وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [٢٣] الآية.

وقال البخاري: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان: الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة»[5]. ورواه البخاري في موضع آخر في كتاب بدء الخلق عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث عن عبد الله بن أبي جعفر عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة عن عائشة بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضُلَّال الإنس والجن[6]، وكذا قال مجاهد ﵀ وعبد الرحمن بن زيد بن

---

(١) أي: يرددها.

(٢) صحيح البخاري، التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق (ح٧٥٦١).

(٣) صحيح البخاري، التفسير، تفسير سورة سبأ (ح٤٨٠٠).

(٤) صحيح مسلم، السلام، باب تحريم الكهانة (ح٢٢٢٩).

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، بدء الخلق، باب صفة النار ح٣٢٨٨) وهذا الحديث المعلق وصله أبو نعيم في المستخرج والحافظ ابن حجر بسنده إلى الطبراني عن مطلب بن شعيب عن عبد الله بن صالح عن الليث به (تغليق التعليق ٤/٥١٣).

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

أسلم وغيرهما[(١)].

وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس، ولهذا فئام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ليث، عن ابن الهاد، عن يُحَنَّس مولى مصعب بن الزبير، عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون[(٤)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: في كل فن من الكلام[(٥)]، وكذا قال مجاهد وغيره[(٦)].

وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها مرة في شتمه فلان، ومرة في مدحه فلان[(٧)]. وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل ويذم قوماً بباطل[(٨)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: ان رجلان على عهد رسول الله أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فقال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[(٩)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه[(١٠)]. وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر. فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله: فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً: هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، على قولين.

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «الشياطين»، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه بلفظ: «المشركون».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عبد الكريم الجزري عن عكرمة بلفظ قال الله عز وجل، بدلاً من قوله: فأنزل الله تعالى.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٧/ ١١١ - ١١٠٥٧)، وصحح سنده محققوه، وأخرجه مسلم عن قتيبة بن سعيد به، (الصحيح، كتاب الشعر ح٢٢٥٩).

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف عن الضحاك به وهو لم يلق ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق ليث بن كيسان عن الحسن.

(٨) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٩) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عطية العوفي به.

(١٠) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد في الطبقات، والزبير بن بكار في كتاب «الفكاهة» أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة، وكان يقول الشعر، فقال:

ألا هل أتى الحسناء أنَّ حليلها ... بميسان يسقي في زجاج وحنتم[1]
إذا شئت غنتني دهاقين قرية ... ورقَّاصة تحدو على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق[2] المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: إي والله إنه ليسوؤني ذلك، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته، وكتب إليه عمر بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر] ـ أما بعد ـ قد بلغني قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

وأيمُ الله إنه ليسوؤني وقد عزلتك. فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت[3].

فلم يذكر أنه حده على الشراب، وقد ضمنه شعره، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكنه ذمّه عمر ﷺ ولامه على ذلك وعزله به، ولهذا جاء في الحديث «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلئ شعراً»[4] والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ [الحاقة]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء] إلى أن قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء] إلى أن قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي الحسن سالم البراد مولى تميم الداري قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ

---

(١) جرار خُضر تضرب إلى حمرة.
(٢) أي: الحصن أو شبيه الحصن.
(٣) هذه القصة والأبيات في الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ١٤٠).
(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ (الصحيح، كتاب الشعر ح٢٢٥٧).

﴿٢٢٤﴾ جاء حسَّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: «أنتم» ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ قال: «أنتم» رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحاق[١].

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أُسامة، عن الوليد بن أبي كثير، عن يزيد، عن عبد الله، عن أبي الحسن مولى بني نوفل أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، أتيا رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ يبكيان، فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ حتى بلغ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: «أنتم»[٢].

وقال أيضاً حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أني منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية[٣]، وهكذا قال ابن عباس وعكرمة مجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد: أن هذا استثناء مما تقدم[٤]. ولا شك أنه استثناء، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء. فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه، كما قال عبد الله بن الزبعري حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشدِّ الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه، وهكذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال: يا رسول الله ثلاث أعطنيهن، قال: «نعم» قال: معاوية تجعله كاتباً بين يديك؟ قال: «نعم» قال وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري من طريق ابن إسحاق به، ولم يصرح بالسماع بل عنعن وقد توبع كما سيأتي في الرواية التالية فيكون سنده حسناً لغيره.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، وأخرجه الحاكم من طريق أبي أسامة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/٤٨٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده مرسل ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٤) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عنه، ويشهد له سابقه ولاحقه، فقول قتادة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

أقاتل المسلمين؟ قال: «نعم» وذكر الثالثة[(١)]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل في شعرهم. كلاهما صحيح مكفِّر لما سبق.

وقوله تعالى: ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال ابن عباس: يردُّون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين[(٢)]، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد[(٣)]، وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان اهجهم ـ أو قال ـ «اهجهم وجبريل معك»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله ﷻ قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[(٦)].

قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ يعني: من الشعراء وغيرهم[(٧)].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا إياس بن أبي تميمة قال: حضرت الحسن ومرَّ عليه بجنازة نصراني، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وقال عبد الله بن رباح، عن صفوان بن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى، حتى أقول قد اندق قضيب زوره، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(٨)].

وقال ابن وهب: أخبرنا شريح الإسكندراني عن بعض المشيخة أنهم كانوا بأرض الروم، فبينما هم ليلة على نار يشتوون عليها أو يصطلون، إذا بركاب قد أقبلوا فقاموا إليهم، فإذا فضالة بن عُبيد فيهم، فأنزلوه فجلس معهم، قال: وصاحب لنا قائم قال يصلي حتى مرَّ بهذه الآية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ قال فضالة بن عبيد: هؤلاء الذين يخربون البيت[(٩)].

---

(١) أخرجه مسلم (الصحيح، الفضائل، باب من فضائل أبي سفيان بن حرب ح٢٥٠١).
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٣) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق علي بن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة.
(٤) أخرجه الشيخان من حديث البراء بن عازب ﷺ، (صحيح البخاري، الأدب، باب هجاء المشركين ح٦١٥٣، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، فضائل حسان بن ثابت ﷺ ح٢٤٨٦).
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٤٨/٤٥ ح٢٧١٧٤)، وصحح سنده محققوه.
(٦) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ بنحوه (الصحيح، البر، باب تحريم الظلم ح٢٥٧٨).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عاصم الأحول عن عبد الله بن رباح.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً عن عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي عن ابن وهب به وسنده ضعيف للتعليق ولإبهام شيخ شريح الإسكندراني.

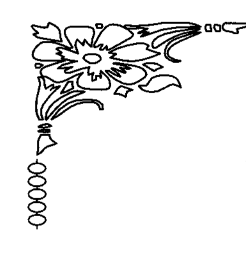
وقيل: المراد بهم أهل مكة، وقيل الذين ظلموا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. كما قال ابن أبي حاتم: ذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي، حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المجبر، حدثنا هشام بن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يفجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

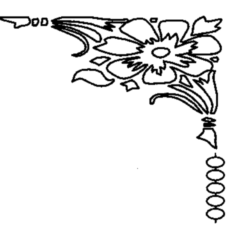
آخر تفسير سورة الشعراء.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه بدون لفظ: «الغيب». وسنده ضعف لأن روايته تعليقاً وفيه أيضاً محمد بن عبد الرحمن بن مجبر وهو ضعيف (المغني في الضعفاء ٢/ ٦٥).





سُورَةُ النَّمْلِ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾؛ أي: هذه آيات ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بيِّن واضح ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾؛ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال: خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: حسنّا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾؛ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾؛ أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد.

قال قتادة: ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ أي: لتأخذ[1].

﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: من عند حكيم عليم؛ أي: حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور: جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق شيبان، وهو ابن عبد الرحمن النحوي، عن قتادة.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكِّراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه أعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور ناراً؛ أي: رأى ناراً تتأجَّج وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: عن الطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: تستدفئون به وكان كما قال. فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه، فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج.

وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين[1]، فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

قال ابن عباس: تقدس[2] ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: من الملائكة، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود هو الطيالسي، حدثنا شعبة والمسعودي، عن عمرو بن مرة، سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل»، زاد المسعودي «وحجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه كل شيء أدركه بصره». ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[4]. وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة به[5].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٣) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عنه، وبقية إلا قول ذكرها ابن أبي حاتم بحذف السند.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٥) صحيح مسلم، الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام» (ح١٧٩).

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا تكتنفه الأرض والسمٰوات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عزَّ كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطراباً.

وفي الحديث نهي عن قتل جنان[(١)] البيوت[(٢)]، فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: لم يلتفت من شدة فرقه[(٣)] ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبياً وجيهاً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله تعالى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾؛ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾؛ أي: بينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم، فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ في ظاهر أمرهم ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾؛ أي: ظلماً من أنفسهم سجية ملعونة، وعلواً؛ أي: استكباراً من اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة، وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون بمحمد،

---

(١) جمع جان وهي: الحية الصغيرة.

(٢) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ذكر الجن وثوابهم، وصحيح مسلم، قتل الحيات.

(٣) أي: خوفه.

الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى، فإن محمداً صلوات الله وسلامه عليه أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدلّ وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه: داود وابنه سليمان عليهما السلام، من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والمُلك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام، أخبرني أبي، عن جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾؛ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام[1].

وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾؛ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»[2] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود، كما قد يتفوه به كثير من الناس، فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأنه معلق.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة مريم آية ٦.

هذا الشكل والمنوال. ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: مما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر البين لله علينا.

قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن [عمرو][١] بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لنفتضحنَّ بداود، فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ فقال: الذي لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجاب، فقال داود: أنت إذاً والله ملك الموت مرحباً بأمر الله، فتزمل[٢] داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان عليه السلام للطير: أظلي داود، فظللت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً» قال أبو هريرة: يا رسول الله كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله يده وغلبت عليه يومئذ المضرحيَّة[٣].

قال أبو الفرج بن الجوزي: المصرحية هنَّ: النسور الحُمُر.

وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وجمع لسلمان جنوده من الجن والإنس والطير؛ يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم[٤].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾؛ أي: حتى إذا مرّ سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأورد ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب[٥]؛ أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم،

---

(١) كذا في (ح) و(حم) ومسند أحمد، وفي الأصل صُحفت إلى: «عمره».

(٢) تزملَّ فلان: التفَّ بثوبه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ١٥/ ٢٥٤ ح٩٤٣٢)، وضعفه محققوه لأن المطلب لم يسمع من أبي هريرة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وهو لم يسمع من مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) سنده ضعيف جداً لأن إسحاق بن بشر متروك (ينظر لسان الميزان ١/ ٣٥٤).

ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان. وعلى والديَّ بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ أي: عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك، ومن قال من المفسرين أن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

وعن نوف البكالي أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذياب[(١)]، هكذا رأيته مضبوطاً بالياء المثناة من تحت، وإنما هو بالباء الموحدة وذلك تصحيف، والله أعلم. والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا مسعر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان بن داود عليه السلام يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك وإلا تسقنا تهلكنا. فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[(٢)].

وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قرصت نبياً من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلَّا نملة واحدة؟»[(٣)].

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل[(٤)] سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلَّهم عليه، أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الحكم بن الوليد عن نوف.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وهو مرسل ومن أخبار أهل الكتاب.
(٣) صحيح مسلم، قتل الحيات، باب النهي عن قتل النمل (ح٢٢٤١).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف معلق.

الصبي، فقال ابن عباس، لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً(١).

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزي من أهل برزة في غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم الإثنين والخميس، وكان أعور قد بلغ الثمانين فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره، فامتنع عليه، فألّح عليه شهوراً، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة في قرية برزة، وسألاه عن وادٍ بها فأريتهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً حتى عجعج الوادي بالدخان، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما، فلا يلتفتان إلى شيء منها، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار(٢)، فاستبشرا بها عظيماً، وقالا الحمد لله الذي لم يخيب سفرنا من سنة، وكسرا المجامر، وأخذ الحية، فأدخلا في عينها ميلاً فاكتحلا به، فسألتهما أن يكحلاني فأبيا، فألححت عليهما وقلت: لا بدّ من ذلك وتوعدتهما بالدولة، فكحلا عيني الواحدة اليمنى، فحين وقع في عيني نظرت إلى الأرض تحتي مثل المرآة أنظر ما تحتها كما ترى المرآة، ثم قالا لي: سر معنا قليلاً، فسرت معهما وهما يحدثاني حتى إذا بعدت عن القرية أخذاني فكتَّفاني(٣)، وأدخل أحدهما يده في عيني ففقأها ورمى بها ومضيا، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً حتى مرَّ بي نفر ففك وثاقي، فهذا ما كان من خبر عيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني، حدثنا عباد بن ميسرة المنقري، عن الحسن قال: اسم هدهد سليمان ﷺ عنبر(٤).

وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان ﷺ إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلِّها من حضره إلا الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر(٥).

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ قال الأعمش: عن المنهال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني نتف ريشه(٦).

وقال عبد الله بن شداد: نتف ريشه وتشميسه(٧)، وكذا قال غير واحد من السلف أنه نتف

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه سعيد بن بشير، ولكنه توبع فقد أخرجه الحاكم من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٠٥، ٤٠٦).

(٢) لأنه من الذهب وفيه بريق.

(٣) أي: ربطوا يداه ببعضهما.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لجهالة صدقة بن عمرو كما في التقريب.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، والرواية من الإسرائيليات.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الأعمش به.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن سفيان بن عيينة عن حصين بن عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن شداد.

ريشه وتركه ملقى بأكله الذر والنمل(١).

وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يعني قتله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بعذر بيّن واضح، وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد: قدم الهدهد قالت له الطير: ماخلفك؟ فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم. قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ قال: نجوت إذاً.

قال مجاهد: إنما دفع الله عنه ببرّه بأمه(٢).

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ أي: بخبر صدق حق يقين، وسبأهم حمير وهم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ.

وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة من بيت مملكة(٣).

وقال زهير بن محمد: هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، وأمها فارعة الجنية(٤).

وقال ابن جريج: بلقيس بنت ذي شرخ وأُمها: بلتعة(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان مع صاحبة سليمان ألف قيل(٦)، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل(٧).

وقال الأعمش: عن مجاهد كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف مقاتل(٨).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ كانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه ليث وهو ابن أبي سليم عن مجاهد، وليث فيه مقال.
(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، والخبر من الإسرائيليات.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الوليد بن مسلم عن زهير، والخبر كسابقه.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سفيان عن ابن جريج، والخبر كسابقه.
(٦) هو الملك النافذ أو الوزير (ينظر ترتيب القاموس المحيط ٣/٧١٨).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نمير عن الأعمش به، وسنده صحيح.

رجل، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء(١)، وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ.

قال زهير بن محمد: كان من ذهب وصفحاته مرمولة بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً(٢).

وقال محمد بن إسحاق: كان من ذهب مفصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء، ولها ستمائة امرأة تلي الخدمة.

قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءاً(٣)، ولهذا قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن طريق الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ معناه ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت]، وقرأ بعض القراء «ألا يا اسجدوا لله»(٤) جعلها ألا الإستفتاحية، ويا للنداء، وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض(٥)، وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد(٦).

وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء(٧)، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: [خبء](٨) السمٰوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرزاق به وسنده صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الوليد بن مسلم عن زهير.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وهذه الأخبار كلها إسرائيلية.
(٤) قراءة متواترة.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٦) قول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه حفص بن عمر العدني وهو ضعيف ويشهد له سابقه ولاحقه، وقول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد وقتادة ذكرهما ابن أبي حاتم بحذف السند.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي يزيد التيمي عن سعيد بن المسيب، وأبو يزيد لم أعرف من هو.
(٨) كذا في (ح) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحف إلى: «خبا».

الأرض[1]. وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: هو المدعو وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد[2]، وإسناده صحيح.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: صدقت في إخبارك هذا ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه ذلك الهدهد فحمله، قيل في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل بمنقاره، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ تعني: بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة (السنن، كتاب الصيد، باب ما ينهىٰ عن قتله ح٣٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٦٠٨)، وأخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس (المسند ٥/ ١٩٢ ح٣٠٦٦)، وصحح سنده محققوه، وكذا أخرجه أبو داود (السنن، الأدب، باب في قتل الذر ح٥٢٦٧).

قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام.

وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلى الخياط. حدثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، عن عبد الكريم أبي أُمية، عن، ابن بُريدة، عن أبيه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «إني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود» قلت: يا نبي الله أي آية؟ قال: «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد» قال: فانتهى إلى الباب فأخرج إحدى قدميه، فقلت نسي ثم التفت إلي وقال: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١] وهذا حديث غريب، وإسناده ضعيف.

وقال ميمون بن مهران: أن رسول الله ﷺ يكتب: باسمك اللَّهم حتى نزلت هذه الآية. فكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٢].

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ قال قتادة: يقول لا تجبروا علي ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي وأتوني مسلمين[٤]. قال ابن عباس: موحدين[٥].

وقال غيره: مخلصين[٦].

وقال سفيان بن عيينة: طائعين[٧].

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان، استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: حتى تحضرون وتشيرون ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ أي: نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه. وبعد هذا فالأمر إليكِ مُري فينا رأيك نمتثله ونطيعه.

قال الحسن البصري رحمه الله: فوّضوا أمرهم إلى علجَة[٨] تضطرب [ثدياها][٩][١٠]، فلما قالوا لها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف عبد الكريم بن أبي أُمية كما في التقريب، وضعفه ابن كثير سنداً ومتناً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ميمون بن مهران، وسنده ضعيف لإرسال ميمون.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: ألا تخالفوا عليَّ.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق مهران عن سفيان.

(٨) العلج: الرجل من كُفَّار العجم.

(٩) كذا في (ح) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحفت إلى: «ثديها».

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي أيوب السختياني عن الحسن.

ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير. وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إليَّ وإليكم الهلاك والدماء دون غيرنا. ولهذا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟﴾ قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه؛ أي: خربوه[١] ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾؛ أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر.

قال ابن عباس: قالت بلقيس ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ﴾ قال الربُّ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٢].

ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس[٣].

وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه[٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك[٥]. وقال بعضهم: أرسلت بلبنة من ذهب[٦]، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب.

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما: أرسلت جواري في زي الغلمان، وغلمان في زي الجواري فقالت: إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي، قالوا: فأمرهم سليمان فتوضؤوا، فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء وجعل الغلام يغترف فميزهم بذلك، وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها والغلام بالعكس[٧]، وقيل: بل جعلت الجواري يغسلن من أكفهن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق مسلم، وهو ابن صُبيح، عن ابن عباس.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق قيس بن خالد الأزدي عن قتادة.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن ثابت البناني.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة بنحوه.

إلى مرافقهن، والغلمان من مرافقهم إلى كفوفهم ولا منافاة بين ذلك كله، والله أعلم.

وذكر بعضهم أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملأه من ذلك، وبخرزة وسلك ليجعله فيها ففعل ذلك والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان ﷺ، لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه. وقال منكراً عليهم ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾؛ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك، قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا[1].

وفي هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: بهديتهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ أي: لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾؛ أي: ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ أي: مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظِّمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان ﷺ قدومهم عليه، ووفودهم إليه فرح بذلك وسرَّه.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد واللهِ عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئاً، وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه. وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى آتيك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن تحت يدي كل قيل منهم ألوف كثيرة فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الأعمش به، وسنده حسن. والخبر من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به، والخبر من الإسرائيليات.

وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه. وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر. وكان مستراً بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مغاليق، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم.

وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾[١] وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي وزهير بن محمد ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فتحرم علي أموالهم بإسلامهم[٢].

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال مجاهد: أي مارد من الجن[٣].

قال شعيب الجبائي: وكان اسمه: كوزن[٤]، وكذا قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان[٥]، وكذا قال أيضاً وهب بن منبه. قال أبو صالح وكان كأنه جبل[٦].

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك[٧].
وقال مجاهد: مقعدك[٨].

وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام، من أول النهار إلى أن تزول الشمس[٩].

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس: أي: قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر[١٠]، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك[١١]، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة. فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء. وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم[١٢].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، والخبر من الإسرائيليات.
(٢) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول زهير بن محمد فقد أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الوليد بن مسلم عن زهير.
(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد وهو لم يسمع مجاهداً.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق مجاهد عن ابن عباس.
(٨) أخرجه آدم بن أبي إياس وابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق إسباط عن السدي بنحوه.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق إسباط عن السدي.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به.

وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف[١]، وكذا قال أبو صالح[٢] والضحاك وقتادة أنه كان من الإنس، زاد قتادة من بني إسرائيل[٣].

وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم.

وقال قتادة في رواية عنه: كان اسمه بليخا[٤]، وقال زهير بن محمد: هو رجل من الإنس يقال له: ذو النور[٥].

وزعم عبد الله بن لهيعة أنه الخضر[٦]، وهو غريب جداً.

وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾؛ أي: ارفع بصرك وانظر، مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك.

وقال وهب بن منبه: امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به[٧]، فذكروا أنه أمره أنه ينظر نحو اليمين التي فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى.

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام[٨].

وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإلٰه كل شيء إلهاً واحداً لا إلٰه إلا أنت ائتني بعرشها. قال: فمثل بين يديه[٩].

قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وزهير بن محمد وغيرهم: لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس، وكان في اليمن وسليمان ﷺ ببيت المقدس غاب السرير، وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان[١٠].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه، قال وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾؛ أي: هذا من نعم الله عليّ ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾[١١]؛ أي: ليختبرني ﴿ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ كقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن مجاهد.
(٤) أخرجه الطبري بسند فيه ابن عثمة، وهو محمد بن خالد صدوق يخطئ كما في التقريب.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الوليد بن مسلم عن زهير.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ضعيف من طريق ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب.
(٨) أخرجه آدم وابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ضعيف من طريق عثمان بن مطر عن الزهري لضعف عثمان.
(١٠) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه، وقول محمد بن إسحاق أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عنه، وقول زهير بن محمد أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الوليد بن مسلم عنه.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾؛ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم كريم؛ أي: كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[1].

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

قال ابن عباس: نزع منه فصوصه ومرافقه[2].

وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحمر جُعل أصفر، وما كان أصفر جُعل أحمر، وما كان أخضر جُعل أحمر غير كل شيء عن حاله[3].

وقال عكرمة زادوا فيه ونقصوا[4].

وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا[5].

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؛ أي: عرض عليها عرشها وقد غُيِّر ونُكِّر وزِيدَ فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾؛ أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان[6].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ هذا من تمام كلام

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة إبراهيم آية ٨.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الحكم بن عتيبة عن مجاهد.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أبي سعد عن عكرمة.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.
(٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

سليمان ﷺ في قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله؛ أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[١] وهي كانت قد صدها؛ أي: منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد: حسنٌ وقاله ابن جرير أيضاً.

ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله ﷻ تقديره ومنعها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: صدها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[٢].

قلت: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وذلك أن سليمان ﷺ أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير؛ أي: من زجاج، وأجري تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه.

واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان ﷺ إلى اتخاذه فقيل: إنه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه، ذكر له جمالها وحسنها لكن في ساقيها هلب[٣] عظيم ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فساءه ذلك فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا؟ هكذا قول محمد بن كعب القرظي وغيره.

فلما دخلت وكشفت عن ساقيها رأى أحسن الناس ساقاً وأحسنهم قدماً ولكن رأى على رجليها شعراً لأنها ملكة وليس لها زوج فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: الموسى فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب بهذا الشعر فصنعوا له النورة. وكان أول من اتخذت له النورة[٤]، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والسدي وابن جريج وغيرهم[٥].

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان ثم قال لها: ادخلي الصرح. ليريها ملكاً هو أعزّ من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانا، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صرح ممرد من قوارير، فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وحده، وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله[٦].

وقال الحسن البصري: لما رأت العلجة الصرح عرفت والله أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال: أمر سليمان بالصرح وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً ثم أرسل الماء تحته ثم وضع له فيه سريره

---

(١) قول مجاهد تقدم في الرواية السابقة وقول سعيد بن جبير ذكره ابن أبي حاتم بحذف السند.
(٢) ذكره الطبري بنحوه.
(٣) الهُلْبُ: ما غَلُظَ وصَلُب من الشَّعر.
(٤) النورة: هو حجر يحرق يحلق به شعر العانة.
(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عنه، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق إسباط عنه، وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر عنه.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق به.

فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس ثم قال لها: ادخلي الصرح. ليريها ملكاً هو أعز من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[١].

فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله ﷻ وحده وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك ماذا قلت؟ قالت: أُنسيت ما قالت، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها[٢]. وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثراً غريباً عن ابن عباس فقال: حدثنا الحسين بن علي عن زائدة، حدثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد ونحن في الأزد قال: حدثنا ابن عباس قال: كان سليمان ﷺ يجلس على سريره ثم توضع كراسي حوله فيجلس عليها الإنس ثم يجلس الجن ثم الشياطين ثم تأتي الريح فترفعهم ثم تظلهم الطير ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهرٌ، قال فبينما هو ذات يوم في مسير له إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل] قال: وكان عذابه إياه أن ينتفه ثم يلقيه في الأرض فلا يمتنع من نملة ولا من شيء من هوام الأرض.

قال عطاء وذكر سعيد بن جبير، عن ابن عباس مثل حديث مجاهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨] وكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم، إلى بلقيس ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل] فلما ألقى الهدهد الكتاب إليها ألقي في روعها أنه كتاب كريم وأنه من سليمان وأن لا تعلوا علي وائتوني مسلمين، قالوا: نحن أولوا قوة قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون، فلما جاءت الهدية سليمان قال: أتمدونني بمال ارجع إليهم فلما نظر إلى الغبار أخبرنا ابن عباس قال وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة، قال عطاء ومجاهد حينئذٍ في الأزد.

قال سليمان: أيكم يأتيني بعرشها؟ قال: وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] قال: وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الأمراء ثم يقوم. فقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] قال سلميان: أريد أعجل من ذلك، فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك قال فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه ردَّ سليمان بصره، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله ثم يصعد إلى السرير، قال: فلما رأى سليمان عرشها قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠]، ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن إسحاق به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وهو تتمة لقبل الأثر السابق.

عَرْشَهَا﴾ فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو قال: فسألته حين جاءته عن أمرين قالت لسليمان: أريد ماء ليس من أرض ولا سماء. وكان سليمان إذا سئل عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين قال: فقالت الشياطين هذا هين أجر الخيل ثم خذ عرقها ثم املأ منه الآنية. قال فأمر بالخيل فأجريت ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية، قال: وسألت عن لون الله ﷻ، قال فوثب سليمان عن سريره فخر ساجداً فقال: يا ربِّ لقد سألتني عن أمر إنه ليتكايد[1] في قلبي أن أذكره لك، فقال: ارجع فقد كفيتكهم قال: فرجع إلى سريره قال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء فقال لجنوده: ما سألت عنه؟ فقالوا: ما سألتك إلا عن الماء، قال: ونسوه كلهم. قال: وقالت الشياطين: إن سليمان يريد أن يتخذها لنفسه فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد لم ننفك من عبوديته، قال: فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير فيه السمك قال: فقيل لها: ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فإذا هي شعراء. فقال سليمان: هذا قبيح فما يذهبه؟ قالوا: يذهبه الموسى فقال: أثر الموسى قبيح قال: فجعلت الشياطين النورة. قال: فهو أول من جعلت له النورة، ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث[2].

قلت: بل هو منكر غريب جداً ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم.

والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة.

أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله ﷻ إخباراً عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] الآية. والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والممرد المبني بناءً محكماً أملس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾؛ أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل، والغرض أن سليمان ﵇ اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾؛ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ﵇ حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى

---

(١) في حاشية الأصل يعني: «يتعاظم».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي شيبة به. وضعفه الحافظ ابن كثير.

عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه.

قال مجاهد: تشاءموا بهم(١).

وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]؛ الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]؛ أي: بقضائه وقدره، وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ الآية [يس: ١٨ ـ ١٩]، وقال هؤلاء: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الله يجازيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية(٢).

والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾؛ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾؛ أي: تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود، لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم.

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

قال العوفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة[١]؛ أي: الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم، وقد فعل ذلك.

وقال السدي، عن أبي مالك عن ابن عباس: كان أسماء هؤلاء التسعة: رعمي، ورعيم، وهرما، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، ومسطع، وقدار بن سالف عاقر الناقة[٢]؛ أي: الذي باشر ذلك بيده، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر]، وقال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢﴾ [الشمس].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعاني، سمعت عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾ قال: كانوا يقرضون الدراهم[٣]، يعني: أنهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً كما كان العرب يتعاملون.

وقال الإمام مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض[٤].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس[٥]. والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض، بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم.

قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين[٦].

وقال قتادة: تواثقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه، وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق[٧] إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم[٨].

قال العوفي، عن ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: لنبيتن صالحاً وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين[٩].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف معلق.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وفيه يحيى بن ربيعة ذكره ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح والتعديل ٩/ ١٤٤).

(٤) أخرجه الإمام مالك بسنده ومتنه (الموطأ، البيوع، باب بيع الذهب بالفضة ح٣٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق مالك به، وسنده صحيح.

(٥) سنن أبي داود، البيوع، باب في كسر الدراهم (ح٣٤٤٩)، وسنده ضعيف لأن فيه محمد بن فضاء وهو ضعيف (التقريب ص٥٠٢).

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أي: يمشون بتبختر (ينظر ترتيب القاموس المحيط ٣/ ٣٢٩).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.

وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة: هَلُمَّ فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم منشدخين[1] قد رضخوا[2] بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم همُّوا به فقامت عشيرته دونه، ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك[3].

وقال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف؛ أي: غار هناك ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا، فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم، فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ أي: فارغة ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾[4].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ﷺ أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ أي: لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ [الشعراء]، ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾؛ أي: يتحرجون من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على صنيعكم فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون

(١) الشدخ هو كسر الشيء الأجوف كالرأس ونحوه. (٢) الرضخ هو كسر الرأس.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ به.

لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم وعلى طريقتهم، في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله صلوات الله وسلامه عليه لا كرامة لها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ أي: حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ولهذا قال: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليه الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، وهكذا قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى، هم الأنبياء[١]، قال: وهو كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات].

وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين[٢]، وروي نحوه عن ابن عباس أيضاً[٣]، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى. والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحلَّ بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقد قال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح، حدثنا طلق بن غنام، حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي ـ إن شاء الله ـ، عن أبي مالك، عن ابن عباس ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه ﷺ[٤].

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

(٢) قول الثوري أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن المبارك عنه، وقول السدي ذكره ابن أبي حاتم بحذف السند.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً بسبب الحكم بن ظهير وهو متروك الحديث كما في التقريب.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٢٤٣)، وسنده كسابقه ينظر: (مجمع الزوائد ٧/ ٨٧).

أخرى. ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: خلق تلك السمٰوات في ارتفاعها وصفائها. وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة. وخلق الأرض في استفالها وكثافتها وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾؛ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: منظر حسن وشكل بهي ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾؛ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها. وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة، من هو المتفرد بالخلق والرزق ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: أإله مع الله يعبد، وقد تبيَّن لكم ولكل ذي لبّ مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به، فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله تعالى ههنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أمّن في هذه الآيات كلها تقديره، أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ﴾ [الزمر: ٩]؛ أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم يعلم الغيب جليله وحقيره كمن هو لا يعلم و يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمة كلها.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا

ترجف بهم فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾؛ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها وصرَّفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيَّرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسيَّر لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بهم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾؛ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً؛ أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقضاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: فعل هذا، أو يعبد على القول الأول والآخر؟. وكلاهما متلازم صحيح ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وهكذا قال ههنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾؛ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

قال الإمام أحمد: أنبأنا عفان: أنبأنا وهيب، أنبأنا خالد الحذاء، عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل من بلهجيم قال: قلت: يا رسول الله إلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده الذي إن مسك ضرٌّ فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك» قال: قلت: أوصني، قال: «لا تسبنَّ أحداً ولا تزهدنَّ في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تُفرِغَ من دلوك في إناء المستقي، واتّزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة»[1].

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا يونس هو: ابن عبيد، حدثنا عبيدة الهجيمي، عن أبي تميمة الهجيمي، عن جابر بن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٤/ ٢٣٩ ح٢٠٦٣٦)، وصحح سنده محققوه.

سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو مُحتَبٍ بشملة، وقد وقع هدبها على قدميه فقلت: أيكم محمد رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيّ جفاؤهم فأوصني، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك، فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبن أحداً» قال: فما سببت بعده أحداً ولا شاة ولا بعيرا[(١)]. وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً وعندهما طرف صالح منه[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم، حدثنا عبدة بن نوح، عن عمر بن الحجاج، عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل عليَّ طاوس يعودني فقلت له: ادعُ الله لي يا أبا عبد الرحمٰن، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه[(٣)].

وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول أن الله تعالى يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السمٰوات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه[(٤)].

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي قال هذا الرجل: كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ووادٍ عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدني، ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال هو لي: وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال: عجِّل، فقمت أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً.

وذكر في ترجمة فاطمة بنت الحسن أُم أحمد العجيلة قالت: هزم الكفار يوماً المسلمين في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٤/ ٢٨٢٣٧ ح٢٠٦٣٥)، وصححه محققوه بالمتابعة.

(٢) سنن أبي داود، اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار (ح٤٠٨٤)، والسنن الكبرى للنسائي، الزينة (ح٩٦٩١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده عبدة بن نوح ذكره ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح والتعديل ٦/ ٩٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه.

غزوة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء، فقال للجواد: ما لك؟ ويلك؛ إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم، فقال له الجواد: وما لي لا أقصر وأنت تكل العلوفة إلى السواس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل؟ فقال: لك علي عهد الله أن لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حجري، فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حجره، واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك وبلغ ملك الروم أمره، فقال: ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، واحتال ليحصله في بلده فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه حتى استوثق، ثم خرجا يوماً يمشيان على جنب الساحل، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رفع طرفه إلى السماء وقال: اللَّهم إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت. قال: فخرج سبعان فأخذاهما ورجع الرجل سالماً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره، وهكذا هذه الآية ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أمة بعد أُمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، لو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدَّر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدَّهم عداً، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يقدر على ذلك أو أإله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له؟ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، الآية ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؛ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله

به عباده المجدبين الأزلين القنطين ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾؛ أي: بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ﴾ [الحديد: ٤]، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماءً مباركاً فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: فعل هذا وعلى القول الآخر بعد هذا ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السمٰوات والأرض الغيب إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السمٰوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: ثقل علمها على أهل السمٰوات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة ﵂، قالت: من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء وجعلها يهتدى بها وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون[١]. رواه ابن أبي حاتم بحروفه وهو كلام جليل متين صحيح[٢].

وقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾؛ أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها، وقرأ آخرون «بل أدرك علمهم»[٣]؛ أي: تساوى علمهم في ذلك كما في الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[٤]؛ أي: تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؛ أي: غاب[٥].

وقال قتادة: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ يعني: بجهلهم بربهم، يقول: لم ينفذ لهم علم في الآخرة[٦].

هذا قول وقال ابن جريج: عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ حين لم ينفع العلم[٧].

وبه قال عطاء الخراساني والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك[٨]، كما قال تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم].

وقال سفيان، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن: أنه كان يقرأ «بل أدرك علمهم» قال: اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة[٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده أبو جعفر الرازي صدوق سيء الحفظ وما يرويه هنا ليس من نسخة أبي العالية، وقد توبع في رواية البخاري لكن بدون ذكر هذه الآية فقد أخرجه البخاري من طريق وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن عامر به وقد ورد فيه آيات غير الآية المذكورة أعلاه (الصحيح، التفسير، سورة النجم ح٤٨٥٥).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) وهي قراءة متواترة.

(٤) صحيح مسلم، الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (ح٨).

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد هذا ضعيف كما في التقريب.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق ابن جريج به، وعطاء لم يسمع من ابن عباس ﵄.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق إسباط عن السدي.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سفيان به وسنده ضعيف لضعف عمرو بن عبيد كما في التقريب.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف]؛ أي: الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾؛ أي: شاكون في وجودها ووقوعها ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: إنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً.

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أخذه قوم عمَّن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المكذبين بالرسل وبما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلَّت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدلَّ ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته.

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: في كيدك، ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾؟ قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [قال ابن عباس: أن يكون قرب أو أن يقرب لكم[(١)] بعض الذي تستعجلون][(٢)]، وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي[(٣)]، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ؟ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) زيادة من (ح) و(حم).

(٣) قول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وبقية الأقوال ذكرها ابن أبي حاتم بحذف السند.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت]، وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لأنه ضمن معنى عَجِلَ لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ عجل لكم[1]. ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥] ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس: يعني وما من شيء[2] ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج].

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقصُّ على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم في العمليات.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾؛ أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير،

---

(١) تقدم تخريجه كما في الرواية السابقة.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضعُ لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل ﷺ.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل: من مكة، وقيل: من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى فتكلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن وقتادة.

ويروى عن علي رضي الله عنه: تكلمهم كلاماً؛ أي: تخاطبهم مخاطبة(١).

وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون(٢). ويروى هذا عن علي واختاره ابن جرير وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم.

وقال ابن عباس في رواية؛ تجرحهم، وعنه رواية قال: كلّا تفعل هذا وهذا(٣)، وهو قول حسن ولا منافاة، والله أعلم.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن فرات، عن أبي الطُفيل، عن حذيفة بن أُسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابّة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»(٤). وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق عن فرات القزاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة موقوفاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عنه مرفوعاً، فالله أعلم(٥).

(طريق أخرى) قال أبو داود الطيالسي: عن طلحة بن عمرو وجرير بن حازم، فأما طلحة فقال: أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي: أن أبا الطفيل حدثه عن حذيفة بن أُسيد

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق يونس بن عبيد عنه، وقول علي أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه رجل مبهم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه وعثمان ضعيف، ويتقوىٰ بما سبق.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً من طريق نفيع الأعمىٰ عن ابن عباس، ونفيع متروك كما في التقريب.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/٦) وسنده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (ح٢٩٠١)، وسنن أبي داود، الملاحم، باب أمارات الساعة (ح٤٣١١)، وسنن الترمذي، الفتن، باب ما جاء في الخسف (ح٢١٨٣)، وسنن ابن ماجه، الفتن، باب أشراط الساعة (ح٤٠٤١).

الغفاري أبي سريحة، وأما جرير فقال: عن عبد الله بن عبيد، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود. وحديث طلحة أتم وأحسن قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابَّة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر: فتخرج خرجة من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمن زمناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية» يعني: مكة، قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي تدنو بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها التراب، فارفضَّ الناس عنها شتى ومعاً، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلَّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولَّت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي، فيقبل عليها فَتَسمْه في وجهه، ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر اقضني حقي، وحتى إن الكافر ليقول: يا مؤمن اقضني حقي»(١). ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أُسيد موقوفاً، والله أعلم. ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً(٢)، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم، وهو يطوف بالبيت ولكن إسناده لا يصح.

(حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج: حدثنا أبا بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً»(٣).

(حديث آخر) روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحُرقَة، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً، طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة»(٤) تفرد به، وله من حديث قتادة، عن الحسن، عن زياد بن رباح، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، [وخُوَيْصة](٥) أحدكم»(٦).

(حديث آخر) قال ابن ماجه: حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث وابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، عن

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ح١٠٦٩)، وسنده ضعيف من الطريقين فالأول فيه طلحة بن عمرو وهو متروك (التقريب ص٢٨٣) والطريق الثاني فيه إبهام شيخ عبد الله بن عبيد.
(٢) أخرجه الطبري من طريقين وفي كل واحد منهما رجل ضعيف.
(٣) صحيح مسلم، الفتن، باب في خروج الدجال (ح٢٩٤١).
(٤) صحيح مسلم، الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال (ح٢٩٤٧).
(٥) كذا في (ح) و(حم) وصحيح مسلم، وفي الأصل صحفت إلى: «خويصية».
(٦) المصدر السابق (ح١٢٩/٢٩٤٧).

رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»[(١)] تفرد به.

(حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ﷺ، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»[(٢)]. ورواه الإمام أحمد عن بهز وعفان ويزيد بن هارون ثلاثتهم، عن حماد بن سلمة به، وقال: «فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر» ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد المؤدب، عن حماد بن سلمة به[(٣)].

(حديث آخر) قال ابن ماجه: حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو، حدثنا أبو تميلة، حدثنا خالد بن عبيد، حدثنا عبد الله بن بُريدة، عن أبيه قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابة من هذا الموضع» فإذا فتر في شبر، قال ابن بريدة: فحججت بعد ذلك بسنين فأرانا عصاً له، فإذا هو بعصاي هذه كذا وكذا[(٤)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة أن ابن عباس قال: هي دابة ذات زغب[(٥)] لها أربع قوائم من بعض أودية تهامة[(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية قال: قال عبد الله: تخرج الدابة من صدع من الصفا، كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها[(٧)].

وقال محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سئل عبد الله بن عمرو، عن الدابة فقال: الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد، والله لو كنت معهم أو لو شئت بعصاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها. قيل: فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو، فقال: تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفُذُه، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فيصرخ صرخة تنفذه، ثم تروح من مكة فتصبح بُعسْفَانَ، قيل: ثم ماذا؟ قال لا أعلم[(٨)].

---

(١) سنن ابن ماجه، الفتن، باب الآيات (ح٤٠٥٦)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ح٣٢٧٩).

(٢) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ح٢٥٦٤)، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

(٣) المسند ٢/ ٢٩٥، وسنن ابن ماجه، الفتن، باب دابة الأرض (ح٤٠٦٦) وسنده ضعيف كسابقه.

(٤) المصدر السابق (ح٤٠٦٧) وضعفه البوصيري (مصباح الزجاجة ٣/ ٢٥٩).

(٥) هو صغار الريش والشعر.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من ابن عباس.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف عطية وهو العوفي.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يعلى بن عبيد عن محمد بن إسحاق به، وفي سنده محمد بن إسحاق لم يصرح بالسماع.

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: تخرج الدابة ليلة جَمْعٍ[١]. رواه ابن أبي حاتم، وفي إسناده ابن البيلمان.

وعن وهب بن منبه: أنه حكى من كلام عُزَير عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها، وتضع الحُبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجاً، ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة، ويرفع العلم، وتكلم الأرض التي تليها، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيما لا ينالون، ويعملون فيما لا يأكلون، رواه ابن أبي حاتم[٢] عنه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني معاوية بن صالح، عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنيها فرسخ للراكب[٣].

وقال ابن عباس: هي مثل الحربة الضخمة[٤].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إنها دابة لها ريش، وزغب، وحافر، وما لها ذنب، ولها لحية، وإنها لتخرج حُضْر[٥] الفرس الجواد ثلاثاً، وما خرج ثلثها، رواه ابن أبي حاتم[٦].

وقال ابن جريج، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة السوداء حتى يسود بها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن، بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم، ثم تقول لهم الدابة: يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار. فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾[٧].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن البيلماني عن ابن عمر، وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس، وقابوس فيه لين كما في التقريب.

(٥) الحُضْر: عَدْوٌ مع وثب.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر. وكل هذه الأوصاف للدابة من الإسرائيليات.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الحسن بن يحيىٰ الخشني عن ابن جريج به، والحسن صدوق سيئ الحفظ.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؛ أي: من كل قوم وقرن فوجاً؛ أي: جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون[١].

وقال قتادة: وزعة يردُّ أولهم على آخرهم[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم! فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة]، فحينئذٍ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ الآية [المرسلات]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾؛ أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه. وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموٰات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي، سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

فقال: سبحان الله، أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما، لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت أنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ويكون ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أُمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلايبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارّ رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط[1] حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو قال: الظل، نعمان الشاك، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: مِنْ كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق»[2].

وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً. الليت هو صفحة العنق؛ أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ قرئ بالمد وبغيره[3] على الفعل، وكل بمعنى واحد، وداخرين؛ أي: صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها. فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدبُّ السُّم في اللديغ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم[4]، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾؛ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب؛ أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ

---

(١) أي: يطينه ويصلحه.

(٢) صحيح مسلم، الفتن، باب خروج الدجال (ح٢٩٤٠).

(٣) القراءتان متواترتان.

(٤) تقدم تخريج حديث الصور الطويل في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣ من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝﴾ [الطور]، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي: أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذٍ، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

قال قتادة: بالإخلاص[1].

وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله[2]، وقد بيَّن تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: من لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة ﷺ، وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعي، وأبو وائل وأبو صالح ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم، والزهري والسدي والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد في قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: بالشرك[3].

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝﴾ [قريش].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾؛ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من قول ابن مسعود ﷺ.

(٣) ذكرهم كلهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عباس فقد أخرجه بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها» الحديث بتمامه[(١)]. وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ أي: هو ربُّ هذه البلدة وربُّ كلِّ شيء ومليكه لا إله إلا هو ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ﴾؛ أي: على الناس أبلغهم إياه كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران]، وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [القصص: ٣]؛ أي: أنا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾؛ أي: لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾؛ أي: لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بل هو شهيد على كل شيء.

قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن أبي عمر الحوضي حفص بن عمر، حدثنا أبو أُمية بن يعلى الثقفي، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة»[(٢)].

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا نصر بن علي، قال أبي: أخبرني خالد بن قيس، عن مطر، عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مغفِلاً شيئاً لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم[(٣)].

وقد ذُكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إمّا له وإمّا لغيره:

إذا ما خَلَوتَ الدّهْرَ يوما فلا تَقُل ... خَلَوتُ ولكن قل عليَّ رَقِيبُ
ولا تَحْسَبَّن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يَخْفَىٰ عليه يَغِيبُ

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأنه معلق.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده جيد.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

سورة الأنبياء

الموضوع	الصفحة

سورة الحج